التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير سورتي

الأنفال والتوبة

الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد السادس



دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه

وبعد فهذا تفسير لسورة الأنفال أسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ونافعًا لعباده إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى



تمهيد بين يدى تفسير السورة

١ - سورة الأنفال هى السورة الثامنة فى ترتيب المصحف ، فقد تقدمتها سورة الفاتحة وهى مكية ، ثم جاءت بعد سورة الفاتحة أربع سور مدنية ، هن أطول السور المدنية فى القرآن الكريم ، وهن سور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة . ثم جاءت بعد هذه السور الأربع سورتان مكيتان ، وهما أطول السور المكية فى القرآن ، سورتا : الأنعام والأعراف .

ثم جاءت سورة الأنفال بعد ذلك ، فكانت الثامنة فى ترتيب سور المصحف .

٢ - وعدد آياتها خمس وسبعون آية فى المصحف الكوفى، وست وسبعون فى الحجازى، وسبع وسبعون فى الشامى .

٣ - وقد سميت سورة الأنفال بهذا الاسم ، لحديثها عن الأنفال أى الغنائم فى أكثر من موضع .

وقد أطلق عليها بعض الصحابة سورة بدر ، فقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير أن ابن عباس سئل عنها فقال : تلك سورة بدر[1] .

٤ - وسورة الأنفال كلها مدنية ، وممن قال بذلك : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وعطاء بن أبى رياح والحسن ، وعكرمة .

قال صاحب المنار : وقيل إنها مدنية إلا آية « ٦٤ » وهى قوله - تعالى - : ﴿ ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ فقد روى البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب ، فعلى هذا وضعت فى سورة الأنفال وقرنت مع آياتها التى نزلت فى التحريض على القتال فى غزوة بدر لمناسبتها للمقام ، وروى عن مقاتل استثناء قوله - تعالى - ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ﴾... « الآية «٣٠»؛ لأن موضوعها ائتمار قريش بالنبى - ﷺ - قبيل الهجرة ، بل فى الليلة التى خرج فيها رسول الله - ﷺ - مع صاحبه أبى بكر بقصد الهجرة وباتا فى الغار ، وهذا استنباط من المعنى ، وهو استنباط يرده ما صح عن ابن عباس من أن الآية نفسها نزلت فى المدينة .

وزاد بعضهم استثناء خمس آيات أخرى بعد هذه الآية ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ﴾ .. إلى قوله : ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ « الآيات من

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٥٧ .

٣١ - ٣٥ » ؛ لأن موضوعها حال كفار قريش فى مكة ، وهذا لا يقتضى نزولها فى مكة ، بل ذكَّر الله بها رسوله بعد الهجرة ، وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدنى »[1] .

والذى ترتاح إليه النفس أن سورة الأنفال جميعها مدنية ، وأن ما فى بعض آياتها من أوصافٍ لأحوال المشركين فى مكة قبل الهجرة لا يعنى كون هذه الآيات مكية ؛ لأن هذه الآيات إنما هى من باب تذكير الرسول وأصحابه بما كان عليه أولئك القوم من عناد ومكابرة وانحراف عن الطريق القويم ، أدى بهم إلى الهزيمة فى بدر وفى غيرها من المعارك التى كان النصر فيها للمؤمنين .

٥ - وقد ذكر بعض المفسرين - ومنهم الزمخشرى - أن سورة الأنفال نزلت بعد سورة البقرة ، ولعل مرادهم بذلك أن نزولها كان بعد نزول بعض الآيات من سورة البقرة ، لأنه من المعروف أن سورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما ابتدأ نزولها بعد الهجرة ، ثم امتد هذا النزول لآياتها إلى قبيل وفاة الرسول - ﷺ - بمدة قصيرة .

٦ - قال الآلوسى : ووجه مناسبتها لسورة الأعراف أن سورة الأعراف فيها ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ... ﴾ وفى هذه - أى الأنفال - كثير من أفراد المأمور به ، وفى الأعراف ذكر قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع أقوامهم ، وفى هذه ذكره - ﷺ - وذكر ما جرى بينه وبين قومه .

وقد فصل - سبحانه - فى تلك - قصص آل فرعون وأضرابهم وما حل بهم وأجمل فى هذه ذلك فقال : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم .. ﴾ .

وأشار هناك إلى سوء زعم الكفرة فى القرآن بقوله - تعالى - : ﴿ وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ... ﴾ وصرح بذلك هنا إذ يقول .. ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا ... ﴾ إلى غير ذلك من المناسبات .

ثم قال الآلوسى : « والظاهر أن وضعها هنا توقيفى ، وكذا وضع براءة بعدها ، وإلى ذلك ذهب غير واحد ... »[2] .

والحق أنه بمطالعتنا لما يقوله الآلوسى وغيره من المفسرين فى بيان وجه مناسبة السورة للتى قبلها ، نرى أن هذه الأقوال لا تخلو من تكلف ، وأن كثيرًا مما ذكروه من مناسبات بين سورتين معينتين لا يختص بهما ، بل هو موجود فيهما وفى غيرهما .

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٣٧ - بتصرف يسير .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٥٨ بتصرف يسير .

فالآلوسى – مثلاً – يجعل من وجوه مناسبة الأنفال للأعراف أن الأعراف فيها ﴿ وأمر بالعرف ﴾. وأن الأنفال فيها كثير من أفراد المأمور به ..

وهذا المعنى نراه فى كثير من السور المتتالية ، فسورة آل عمران – مثلاً – من بين آياتها قوله – تعالى – : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. ﴾[١] .

وسورة النساء – التى بعدها – فيها – أيضًا – كثير من أفراد المأمور به ؛ لأن الأمر بالمعروف من الدعائم التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى .

والذى تميل إليه النفس أن ترتيب السور توقيفى ، وأن كل سورة لها موضوعاتها التى نراها بارزة بصورة تميزها عن غيرها .

٧ – وسورة الأنفال عندما نتأمل ما اشتملت عليه من آيات ، نراها تحدثنا – فى مجموعها – عن غزوة بدر ، فتعرض أحداثها الظاهرة ، كما تعرض بشارات النصر فيها ، وتكشف عن قدرة الله وتدبيره فى وقائع هذه الغزوة الحاسمة ، وتبين كثيرًا من الإرشادات والتشريعات الحربية التى يجب على المؤمنين اتباعها حتى ينالوا النجاح والفلاح .

أخرج البخارى عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت فى بدر[٢]:

(أ) لقد افتتحت السورة الكريمة ببيان أن قسمة الأنفال « أى الغنائم – مردها إلى الله ورسوله ، وأن على المؤمنين أن يذعنوا لما يفعله فيها رسولهم – ﷺ – ثم وصفت المؤمنين الصادقين أكمل وصف ، وبشرتهم بأسمى المنازل ، وأرفع الدرجات .

قال – تعالى – : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقًا ، هم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

(ب) وبعد هذا الحديث الطيب عن أوصاف المؤمنين الصادقين ، تبدأ السورة فى الحديث عن حال بعض الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، وكيف أنهم كرهوا القتال فى أول الأمر ، لأنهم لم يخرجوا من أجله وإنما خرجوا من أجل الحصول على التجارة التى قدم بها مشركوا قريش من بلاد الشام لكن الله – تعالى – أراد أن يعلمهم وغيرهم أن الخير فيما قدره ، لا فيما يقدرون ويريدون .

---

(١) الآية ١٠٤ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب التفسير جـ ٦ ص ٧٧ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥ هـ .

استمع إلى السورة الكريمة بتأمل وتدبر وهى تصور هذه المعانى بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول .

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .

(جـ) ثم تسوق السورة بعد ذلك ألوانًا من البشارات التى تُشعِر المؤمنين بأن الله - تعالى - قد أجاب لهم دعاءهم ، وأنه - سبحانه - سيجعل النصر فى هذه المعركة حليفًا لهم .

ومن مظاهر هذه البشارات أن الله - تعالى - أمدهم بألف من الملائكة مردفين ، وأمدهم بالنعاس ليكون مصدر طمأنينة لقلوبهم ، وأمدهم بمياه الأمطار ليتطهروا بها ، ولتثبت الأرض من تحتهم ، وأمدهم قبل ذلك وبعده بعونه الذى جعلهم يقبلون على قتال أعدائهم بقلوب ملؤها الإقدام والشجاعة .

قال - تعالى - : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ .

(د) ثم وجهت السورة الكريمة خمس نداءات إلى المؤمنين ، أرشدتهم فى كل واحد منها إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم .

فقد أمرتهم فى النداء الأول بالثبات فى وجوه أعدائهم ، ونهتهم عن الفرار منهم ، وهددت من يوليهم دبره بسوء المصير ، وأخبرتهم بأن الله معهم ما داموا معتمدين عليه ، ومستجيبين لما يدعوهم إليه .

وأمرتهم فى النداء الثانى بطاعة الله ورسوله ، وحذرتهم من المعصية ، ومن التشبه بالكافرين الذين « قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » .

وأمرتهم فى النداء الثالث بالمسارعة إلى أداء ما كلفوا به من تكاليف فيها سعادتهم وفلاحهم ، وخوفتهم من ارتكاب ذنوب لا يحيق شرها بالذين ارتكبوها وحدهم ، وإنما يعمهم وغيرهم ممن رأوا المنكر فلم يعملوا على تغييره .

ونهتهم فى النداء الرابع عن خيانة الله ورسوله ، أى : عن ترك فرائض الله ، وعن هجر

سنة رسوله .. وحذرتهم من أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن طاعة الله وعن أداء واجباته .

ثم بشرتهم فى النداء الخامس بأنهم إذا ما اتقوا الله حق تقاته ، فإنه - سبحانه - سيرزقهم الهداية والنصر والنجاة من كل مكروه .

تدبر معى - أخى القارىء - هذه النداءات ، وما اشتملت عليه من توجيهات سامية وإرشادات عالية ، حيث يقول - سبحانه - :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار ﴾ ..

﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ ..

﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ..

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ ..

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا ويكفر عنكم سيئاتكم ﴾ ..

(هـ) ثم أخذت السورة بعد ذلك فى تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم ليزدادوا له شكرًا ، وفى تصوير ما عليه الكافرون من جهل وعناد وخسران .

فحكت ما قالوه فى شأن القرآن من كذب ومكابرة .

وحكت استهزاءهم بالدين ، وإمعانهم فى الجحود ، وتعجلهم للعذاب ..

وحكت ما كانوا يقومون به من تصفيق ولغو عند قراءة القرآن ، حتى يشغلوا الناس عن سماعه ..

وحكت مسارعتهم إلى إنفاق أموالهم ، لا فى وجوه الخير ، ولكن فى وجوه الشر التى ستكون عاقبتها الخسران وسوء المصير .

وبعد أن حكت كل هذه الرذائل عن الكافرين ، أمرت الرسول - ﷺ - أن يبلغهم أنهم إذا ما انتهوا عن كفرهم وعنادهم ، فإن الله - تعالى - سيغفر لهم ما سلف من ذنوبهم . أما إذا استمروا فى طغيانهم وجحودهم ، فستدور الدائرة عليهم .

قال - تعالى - : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين . وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

(و) وبعد أن افتتحت السورة الكريمة بالحديث المجمل عن الغنائم وساقت فى أعقابه ما ساقت من توجيه وإرشاد وترغيب وترهيب .

بعد كل ذلك عادت السورة إلى الحديث عن الغنائم ، ففصلت ما أجملته فى مطلعها ، وذكّرت المؤمنين بنعم أخرى منحهم الله إياها فى بدر .

ومن ذلك : أنه - سبحانه - هيأ لهم المكان المناسب لقتال أعدائهم ، وجعل اللقاء الحاسم بين الفريقين بدون موعد سابق .. وقلل كل فريق فى عين الآخر ليقضى - سبحانه - قضاءه النافذ ..

قال - تعالى - : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير . إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴾ .

(ز) ثم يأتى بعد ذلك النداء السادس والأخير للمؤمنين ، فيأمرهم - سبحانه - فيه بالثبات عند لقائهم لأعدائهم ، وبالإكثار من ذكره ، وبالطاعة التامة له ولرسوله ، وبالابتعاد عن التنازع والاختلاف .

ثم ينهاهم عن التشبه بالمرائين ، والمتكبرين ، والمغرورين ، الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم - ولكنه عندما تراءى الجمعان نكص على عقبيه - والذين سيكون مصيرهم الهزيمة فى الدنيا ، والعذاب المهين فى الآخرة بسبب كفرهم بآيات الله ، وإيثارهم الضلالة على الهداية .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط. وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب ﴾ .

(ح) ثم تمضى السورة الكريمة فى تصوير رذائل الكافرين ، وفى تشجيع المؤمنين على قتالهم ، وإعداد العدة لدحرهم وتشريدهم ما داموا مستمرين على كفرهم وخيانتهم .. ، فإن جنحوا للسلم . ومالوا إلى المصالحة والمهادنة فاقبل منهم ذلك - أيها الرسول الكريم ،

واحترس من خداعهم وغدرهم ، وحرض أتباعك على قتالهم بصبر وجلد .

قال - تعالى - : ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم[٦١] » .

(ط) ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن أسرى غزوة بدر من المشركين فبينت ما كان يجب على الرسول - ﷺ - والمؤمنين فى شأنهم ، وعاتبتهم لإيثارهم أخذ الفداء على ما عند الله من ثواب عظيم ، وأباحت لهم أن يأكلوا مما غنموه ، فإنه حلال طيب ، وأمرت النبى - ﷺ - أن يدعو الأسرى إلى الدين الحق ، وأن يخبرهم بأنهم متى آمنوا ظفروا بخير الدنيا والآخرة ..

تأمل معى - أخى القارئ - هذه الآيات الكريمة التى ساقتها السورة فى هذا المعنى .

﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبًا واتقوا الله إن الله غفور رحيم . يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم . وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم » .

(ى) وإذا كانت السورة قد تحدثت فى أوائلها عن صفات المؤمنين .. الصادقين ، وعن حال الذين كرهوا الخروج إلى القتال فى بدر .. فإنها قد تحدثت فى ختامها - أيضًا - عن أصناف المؤمنين .. فمدحت المهاجرين السابقين ، ومدحت الأنصار الذين آووا ونصروا ، لأنهم قد اشتركوا جميعًا فى بذل أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله .. ثم بينت ما يجب عليهم نحو غيرهم من المؤمنين الذين لم يهاجروا ، بل ظلوا فى أرض الشرك . ثم مدحت المؤمنين الذين تأخرت هجرتهم عن صلح الحديبية - وإن كانوا أقل فى الدرجات من المهاجرين السابقين .

قال - تعالى - : ﴿ إن الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجر ما لكم من ولايتهم

من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعلمون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقًا لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم ﴾ .

٨ - هذا عرض مجمل لما اشتملت عليه سورة الأنفال من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وتشريعات حكيمة ...

ومن هذا العرض نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور من أبرزها ما يلى :

(ا) تربية المؤمنين على العقيدة السليمة ، وعلى الطاعة لله ولرسوله . وإصلاح ذات بينهم ، والثبات فى وجه أعدائهم ، والإكثار من التقرب إلى خالقهم ، والمداومة على مراقبته وخشيته وشكره ، فهو الذى هداهم للإيمان ، وهو الذى آواهم وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات .. بعد أن كانوا ضالين ومستضعفين فى الأرض .

ولقد أفاضت السورة فى غرس هذه المعانى فى نفوس المؤمنين لأنها نزلت كما سبق أن بينا - فى أعقاب اللقاء الأول بينهم وبين أعدائهم - فكان من المناسب أن تكرر غرس هذه المعانى فى القلوب حتى تستمر على طاعة الله ورسوله ، تلك الطاعة التى من ثمارها الظفر الدائم والخير الباقى ..

(ب) تذكير المؤمنين بما عليه أعداؤهم من جحود وعناد ، وبما كان منهم من مكر برسولهم - ﷺ - ومن استهزائهم بدينهم وقرآنهم ومن عداوة شديدة للحق وأهله ، ومن صفات ذميمة جعلتهم أهلاً لاستحواذ الشيطان عليهم ...

وهذا التذكير قد تكرر كثيرًا فى سورتنا هذه ، لكى يستمر المؤمنون على حسن استعدادهم ، ولكى لا تنسيهم نشوة النصر فى بدر ما يضمره لهم أعداؤهم من كراهية وبغضاء ، وما يبيتونه لهم من سوء وشر .

(جـ) إرشاد المؤمنين إلى المنهاج الذى يجب أن يسيروا عليه فى حالتى حربهم وسلمهم ، لأنه متى ساروا عليه حالفهم النصر ، وصاحبهم التوفيق .

ففى حالة الحرب : أمرتهم السورة الكريمة بأن يعدوا لأعدائهم كل ما يستطيعون من قوة . وأن يبذلوا أموالهم بسخاء من أجل نصرة الحق .. وأن يقاتلوا خصومهم بشجاعة وإقدام ، وأن يكثروا من التقرب إلى الله بصالح الأقوال والأعمال - خصوصًا فى مواطن القتال - .. وأن

يجعلوا غايتهم فى قتالهم إحقاق الحق وإبطال الباطل ﴿ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ... ﴾ .

وأن يؤثروا السلم على الحرب متى وجد السبيل إليه ، فإن السلم هو الأصل أما الحرب فهى أمر لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة التى تقتضيها .. أما فى حالة سلمهم : فقد أمرتهم السورة الكريمة بالتآخى والتناصر والتواد والتراحم والتصالح .. ونبذ التنازع والتخاصم والاختلاف والبطر .

كما أمرتهم بتقوى الله وبإيثار ما عنده من ثواب وأجر على الأموال والأولاد .

قال - تعالى - : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ .

وهناك موضوعات أخرى تعرضت لها السورة :

كحديثها عن الغنائم ، وعن الأسرى ، وعن المعاهدات ، وعن أحداث غزوة بدر ، وعن المشاعر التى تحركت فى نفوس بعض المشتركين فيها قبل أن تبدأ المعركة وخلالها وبعدها .

وقد ساقت السورة الكريمة كل ذلك بأسلوب يهدى القلوب ، ويشرح الصدور ، ويرشد الناس إلى مواطن عزهم وسعادتهم .

هذا ، ونرى من المناسب - أخى القارئ - أن نختم هذا العرض المجمل لسورة بدر - كما سماها ابن عباس - بتلخيص لقصة هذه الغزوة لنتنسم الجو الذى نزلت فيه هذه السورة ، ولندرك مرامى النصوص فيها .. لأننا نعتقد أن ما يعين على فهم الآيات القرآنية فهمًا قويمًا مستنيرًا ، أن يكون القارئ أو المفسر لها ملمًا بأسباب نزولها وبالجو التاريخى الذى نزلت فيه ، وبالأحداث التى لابست نزولها .. بجانب إلمامه بمدلولاتها اللغوية والبيانية ..

قال الإمام ابن هشام عند حديثه عن « غزوة بدر الكبرى »[1] .

قال ابن إسحاق : لما سمع رسول الله - ﷺ - بأبى سفيان مقبلاً من الشام فى عير لقريش عظيمة .. ندب المسلمين إليها وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله - ﷺ - يلقى حربًا .

وكان أبو سفيان - حين دنا من الحجاز - يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان : تخوفًا على أمر الناس - أى : على أموالهم التى معه فى القافلة حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك . فاستأجر ضمضم بن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ومعها شرحها للإمام السهيلى جـ ٥ ص ٩١ طبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشًا فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها فى أصحابه . فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلى مكة .

فلما وصلها أخذ يصرخ ببطن الوادى .. ويقول يامعشر قريش : اللطيمة اللطيمة - أى : العير التى تحمل الطيب والمسك والثياب .. - أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث .

فتجهز الناس سراعًا وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك فكانوا بين رجلين ، إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً ، وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد .

- خرجوا بالقيان والدفوف يغنين فى كل منهل ، وينحرون الجزر، وهم تسعمائة وخمسون مقاتلاً ، وقادوا مائة فرس ، عليها مائة درع سوى درع المشاة ، وكانت إبلهم سبعمائة بعير .

قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله - ﷺ - فى ليال مضت من شهر رمضان فى أصحابه : واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس ، واستعمل على المدينة أبا لبابة .. ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير .

وكان إبل المسلمين يومئذ سبعين بعيرًا ، فاعتقبوها - أى كانوا يركبونها بالتعاقب - وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ .

وسلك رسول الله - ﷺ - طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذى الحليفة .. ثم نزل قريبًا من بدر .. وأتى إلى رسول الله - ﷺ - الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ثم قال رسول الله - ﷺ - أشيروا على أيها الناس ، وإنما يريد الأنصار ، وذلك لأنهم عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله : إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلى ديارنا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا .

فلما قال رسول الله - ﷺ - ذلك ، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؛ لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، وإنا

لصُبرٌ فى الحرب صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

ففرح - رسول الله - ﷺ - بقول سعد ..

ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله - تعالى - قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم .

قال ابن إسحاق : ثم ركب رسول الله - ﷺ - ومعه أبو بكر فسارا حتى وقفا على شيخ من العرب . فسأله الرسول - ﷺ - عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ فقال رسول الله - ﷺ - إذا أخبرتنا أخبرناك . قال : أذاك بذاك ؟ قال : نعم ، قال الشيخ : فإنه بلغنى أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنى ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى به المسلمون .

وبلغنى أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى صدقنى ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى فيه قريش .

فلما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله - ﷺ - نحن من ماء ، ثم انصرف عنه .

ثم رجع رسول الله - ﷺ - إلى أصحابه فلما أمسى أرسل بعضهم إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له .. فأصابوا ساقيين لقريش فأتوا بهما .. فقال لهما النبى - ﷺ - أخبرانى عن قريش .

قالا : هم والله وراء الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى .

فقال لهما : كم القوم ؟ قالا كثير قال : ما عددهم ؟ قالا لا ندرى قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يومًا تسعًا ويومًا عشرًا . فقال : القوم فيما بين التسعمائة والألف ثم قال لهما . فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأمية بن خلف .. فأقبل رسول الله - ﷺ - على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ..

قال ابن إسحاق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، فنقيم عليه ثلاثة ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف عليناالقيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها .

وقال الأخنس بن شريق لبنى زهرة ، يابنى زهرة قد نجى الله لكم أموالكم فارجعوا فرجعوا فلم يشهد غزوة بدر زهرى واحد .

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى : وبعث الله السماء بالماء فأصاب المسلمون منه مالبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشًا منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه فخرج رسول الله - ﷺ - يبادرهم إلى الماء ، حتى إذا جاء ماء نزل به ..

فقال الحباب بن المنذر يارسول الله ؟ أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والمكيدة والحرب ؟.

فقال رسول الله - ﷺ : - بل هو الرأى والمكيدة والحرب .

فقال الحباب يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القُلبُ - أى : ثم نغطى ما خلفه من الآبار - ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله - ﷺ - « لقد أشرت بالرأى » ثم نهض ومعه الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضًا على القليب الذى نزل عليه فملىء ماء . ثم قال سعد بن معاذ يارسول الله ، ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا . كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا . فقد تخلف عنك أقوام - يانبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك .

فأثنى عليه رسول الله - ﷺ - ودعا له بخير ، ثم بنى لرسول الله عريش فكان فيه .

ثم ارتحلت قريش حين أصبحت ، فلما رآها رسول الله - ﷺ - قادمة من الكثيب إلى الوادى قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم احثهم الغداة » .

ثم أرسلت قريش عمير بن وهب الجمحى فقالوا له : احزر لنا أصحاب محمد ، فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال : هم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا ..

ولقد رأيت - يامعشر قريش - البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع . قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلًا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فرَوْا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد

إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى أن تفعل شيئًا تذكر به بخير إلى آخر الدهر ؟ فقال عتبة : وما ذاك ياحكيم ؟

قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى ...

قال عتبة : قد فعلت .. ثم قام عتبة خطيبًا فى الناس فقال :

يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه . قتل ابن عمه أو ابن خاله .. فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ؛ فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون ..

وبلغ كلام عتبة أبا جهل فسبه .. ثم بعث أبو جهل إلى ابن الحضرمى فقال له : هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك – أى : فقم فاطلب من الناس الوفاء بالعهد والأخذ بثأر أخيك ..

فقام ابن الحضرمى فاكتشف ثم صرخ : واعمراه ، واعمراه ، فحميت الحرب ، واشتد أمر الناس ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد أبو جهل الرأى الذى دعا عتبة الناس إليه ..

قال ابن إسحاق : ثم خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى – وكان شرسًا سيء الخلق – فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه فلما دنا منه خرج إليه حمزة بن عبد المطلب . فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه – أى . أطارها – وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دما نحو أصحابه . ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، فضربه حمزة حتى قتله فى الحوض ..

ثم خرج عتبة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة .. فنادى يا محمد : أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله – ﷺ – قم ياعبيدة وقم ياحمزة وقم ياعلى .. أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه – أى : جرحه جرحًا شديدًا لا يملك معه الحركة – وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه ، واحتملا عبيدة فحازاه إلى أصحابه .

قال ابن إسحاق : ثم تزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله الناس أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : « إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل » ...

ثم عدل رسول الله – ﷺ – الصفوف ، ورجع إلى العريش فدخله – ومعه أبو بكر الصديق .. وأخذ الرسول – ﷺ – يناشد ربه ويقول فيما يقول : « اللهم إن تهلك هذه

العصابة اليوم لا تعبد ، وأبو بكر يقول : يارسول الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك » .

ثم خفق رسول الله - ﷺ - خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس .. يقوده على ثناياه النقع » - أى الغبار .

وكان قد رمى مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل ، فكان أول قتيل .. من المسلمين .

ثم رمى حارثة بن سراقة وهو يشرب من الحوض بسهم فقتل .

ثم خرج رسول الله - ﷺ - إلى الناس فحرضهم وقال : « والذى نفس محمد بيده . لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبًا ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » ...

ثم إن رسول الله - ﷺ - أخذ حفنة من الحصياء فاستقبل قريشًا بها ، ثم نفخهم بها وأمر أصحابه فقال : « شدوا » فكانت الهزيمة فقتل الله - تعالى - من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم ..

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله - ﷺ - فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله - ﷺ - متوشحًا السيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله يخافون عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله - ﷺ - فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله - ﷺ - : « والله لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم ! » .

فقال سعد : أجل والله يارسول الله ؟ كانت هذه أول موقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال ..

ثم قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه يومئذ : « إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا ، ولا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله ومن لقى أبا البحترى فلا يقتله ..

قال ابن إسحاق : - وبعد انتهاء المعركة - أمر رسول الله - ﷺ - بالقتلى من المشركين أن يطرحوا فى القليب فلما طرحوا وقف عليهم فقال : « بئس العشيرة كنتم لنبيكم - يا أهل القليب - لقد كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس »..

ثم قال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًا » فقال المسلمون : يارسول الله ! أتنادى قومًا قد جَيَّفوا ؟

فقال – ﷺ – : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » .

ثم إن رسول الله – ﷺ – أمر بما فى العسكر مما جمع الناس فجمع ، فاختلف فيه المسلمون ، فقال من جمعه : هو لنا ، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو .. : والله لولا نحن ما أصبتموه ..

ثم بعث رسول الله – ﷺ – عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ليبشر أهل المدينة بنصر الله لهم على المشركين .

ثم فرق الرسول – ﷺ – الأسرى من المشركين بين أصحابه وقال لهم :

« استوصوا بالأسارى خيرًا » .

قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى فقالوا له : ما وراءك ؟ فقال ، قتل عتبة ، وشيبة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف .. فلما جعل يعدد أشراف قريش الذين قتلوا ، قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر : والله إن يعقل هذا فاسألوه عنى !! فقالو له : ما فعل صفوان بن أمية ؟ فقال : ها هو ذاك فى الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا ..

ولما قدم أبو سفيان بن الحارث قال له أبو لهب : هلم إلى ، فعندك لعمرى الخبر !! فجلس إليه الناس قيام عليه فقال له أبو لهب : يابن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟

فقال أبو سفيان : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا ..

أما بعد : فهذا ملخص لغزوة بدر سقناه قبل البدء فى التفسير التحليلى لسورة الأنفال ، وقصدنا من ذكر هذا الملخص لهذه الغزوة الحاسمة : أن نتنسم الجو الذى نزلت فيه السورة – كما سبق أن أشرنا ه وأن نستعين به على فهم الآيات فهما واضحًا مستنيرًا ..

لأن سورة الأنفال هى سورة بدر كما سماها ابن عباس – رضى الله عنه – وفى ختام هذا التعريف بسورة الأنفال ، نسأل الله – تعالى – أن يوفقنا لتفسير آياتها تفسيرا واضحًا مقبولاً ، بعيدًا عن الانحراف . محررًا من لغو القول وباطله ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال - تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

لعل من الخير قبل أن نتكلم فى تفسير هذه الآيات الكريمة أن نذكر بعض الروايات التى وردت فى سبب نزولها ، فإن معرفة سبب النزول يعين على الفهم السليم .

قال الإمام ابن كثير - ما ملخصه - روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله - ﷺ - فشهدت معه بدرا فالتقى الناس ، فهزم الله - تعالى - العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون . وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدقت طائفة برسول الله - ﷺ - لكى لا يصيب العدو منه غرة . حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله - ﷺ - : لستم بأحق بها منا . نحن أحدقنا برسول الله - ﷺ - مخافة أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به - فنزلت :

﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ .. فقسمها رسول الله - ﷺ - بين المسلمين .

وروى أبو داود والنسائى وابن جرير وابن مردويه - واللفظ له - عن ابن عباس قال : « لما كان يوم بدر قال رسول الله - ﷺ - من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ، فتسارع فى ذلك شبان القوم ، وبقى الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذى جعل لهم . فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءًا لكم ، لو انكشفتم لثبتم إلينا . فتنازعوا ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول .. ﴾ .

وقال الثورى ، عن الكلبى ، عن أبى صالح عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - ﷺ - : « من قتل قتيلًا فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا » ، فجاء أبو اليسر بأسيرين ، فقال : يارسول الله صلى الله عليك - أنت وعدتنا . فقام سعد بن عبادة فقال : يارسول الله ، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة فى الأجر ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك . فتشاجروا ، ونزل القرآن : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق ، عن عبد الرحمن عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبى أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول - ﷺ - فقسمه بين المسلمين عن بواء - أى : على السواء[1] .

هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ، ومنها يتبين لنا أن نزاعًا حدث بين بعض الصحابة الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، حول الغنائم التى ظفروا بها من هذه الغزوة ، فأنزل الله - تعالى - فى هذه الآيات بيان حكمه فيها .

والضمير فى قوله ﴿ يسألونك ﴾ يعود إلى بعض الصحابة الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، وصح عود الضمير إليهم مع أنهم لم يسبق لهم ذكر ، لأن السورة نزلت فى هذه الغزوة ، ولأن هؤلاء الذين اشتركوا فيها هم الذين يهمهم حكمها ، ويعنيهم العلم بكيفية قسمتها .

قال الإمام الرازى - ما ملخصه - : فإن قيل من هم الذين سألوا ؟ فالجواب : إن قوله ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ إخبار عمن لم يسبق ذكرهم ، وحسن ذلك ههنا ، لأنه فى حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلومًا معينًا فانصرف اللفظ إليهم . ولا شك أنهم كانوا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٨٣ .

أقوامًا لهم تعلق بالغنائم والأنفال ، وهم أقوام من الصحابة اشتركوا فى غزوة بدر[١].

والأنفال جمع نفل - بفتح النون والفاء - كسبب وأسباب - وهو فى أصل اللغة من النفل - بفتح فسكون - أى : الزيادة ، ولذا قيل للتطوع نافلة ، لأنه زيادة عن الأصل وهو الفرض وقيل لولد الولد نافلة ، لأنه زيادة على الولد . قال - تعالى - : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة[٢] ﴾ .

قال الآلوسى : ثم صار النفل حقيقة فى العطية ، لأنها لكونها تبرعًا غير لازم كان زيادة ، ويسمى به الغنيمة أيضًا وما يشترطه الإمام للغازى زيادة على سهمه لرأى يراه سواء أكان لشخص معين أو لغير معين ، وجعلوا من ذلك ما يزيده الإمام لمن صدر منه أثر محمود فى الحرب كبراز وحسن إقدام ، وغيرهما .

وإطلاقه على الغنيمة ، باعتبار أنها زيادة على ما شرع الجهاد له وهو إعلاء كلمة الله ، أو باعتبار أنها زيادة خص الله بها هذه الأمة ، أو باعتبار أنها منحة من الله - تعالى - من غير وجوب .

ثم قال : ومن الناس من فرق بين الغنيمة والنفل بالعموم والخصوص . فقيل : الغنيمة ما حصل مستغنمًا سواء أكان بتعب أو بغير تعب ، قبل الظفر أو بعده ، والنفل ما كان قبل الظفر ، أو ما كان بغير قتال وهو « الفىء » .

والمراد بالأنفال هنا الغنائم كما روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وطائفة من الصحابة وغيرهم[٣] .

هذا ، وجمهور العلماء على أن المقصود من سؤال بعض الصحابة لرسول الله - ﷺ - عن الأنفال - أى الغنائم - إنما هو حكمها وعن المستحق لها ، فيكون المعنى :

يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ؟ ومن المستحق لها ؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه - سبحانه - وللرسول - ﷺ - فهو الذى يقسمها على حسب حكم الله وأمره فيها .

وفى هذه الإجابة على سؤالهم تربية حكيمة لهم - وهم فى أول لقاء لهم مع أعدائهم حتى يجعلوا جهادهم من أجل إعلاء كلمة الله . أما الغنائم والأسلاب وأعراض الدنيا التى تأتيهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١١٣ ، طبعة عبد الرحمن محمد ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٧٢ .
(٣) تفسير الآلوسى بتصرف وتلخيص جـ ٩ ص ١٦ طبعة منير الدمشقى .

من وراء جهادهم فعليهم ألا يجعلوها ضمن غايتهم السامية من جهادهم ، وأن يفوضوا الأمر فيها لله ورسوله عن إذعان وتسليم .

وبعض العلماء يرى أن السؤال للاستعطاء ، وأن المراد بالأنفال ماشرط للغازى زيادة على سهمه ، وأن حرف « عن » زائد ، أو هو بمعنى من ، فيكون المعنى : يسألك بعض أصحابك يامحمد إعطاءهم الأنفال التى وعدتهم بها زيادة على سهامهم فيها . قل لهم : الأنفال لله ولرسوله .

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح وذلك لأمور منها :

١ - بعض الروايات التى وردت فى أسباب نزول هذه الآية تؤيده تأييدًا صريحًا ، ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن عبادة بن الصامت أنه قال : « فينا معشر أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا . فجعله إلى الرسول - ﷺ - فقسمه بين المسلمين عن بواء » .

٢ - ولأن غزوة بدر كانت أول غزوة لها شأنها وأثرها بين المسلمين والكافرين ، وكانت غنائمها الضخمة التى ظفر بها المؤمنون من المشركين ، حافزًا لسؤال بعض المؤمنين رسولهم - ﷺ - عن حكمها وعن المستحق لها .

٣ - ولأن الجواب عن السؤال بقوله - تعالى - : ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ يؤيد أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال وعن مصرفها ، إذ أن هذا الجواب يفيد أن اختصاص أمرها وحكمها مرجعه إلى الله ورسوله دون تدخل أحد سواهما .

ولو كان السؤال للاستعطاء لما كان هذا جوابًا له ، فإن اختصاص حكم ما شرط لهم بالله والرسول لا ينافى إعطاءه إياهم بل يحققه ، لأنهم إنما يسألونه بموجب شرطه لهم الصادر عنه بإذن الله - تعالى - لا بحكم سبق أيديهم إليه أو نحو ذلك مما يخل بالاختصاص المذكور »[1] .

٤ - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم .. إلخ » يؤيد أن السؤال عن حكم الأنفال ومصرفها بعد أن تنازعوا فى شأنها ، فهو - سبحانه - ينهاهم عن هذا التنازع ، ويأمرهم بأن يصونوا أنفسهم عن كل ما يغضب الله ... ولو كان السؤال للاستعطاء - بناء على ما شرطه الرسول - ﷺ - لبعضهم زيادة على سهامهم - لما كان هناك محذور يجب اتقاؤه ، لأنهم لم يطلبوا من الرسول إلا ما وعدهم به وهذا لا محظور فيه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٦١ .

٥ - ولأن الآية الكريمة بمنطوقها الواضح ، وبتركيبها البليغ ، وبتوجيهها السامى ، تفيد أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال وعن المستحق لها .. أما القول بأن السؤال سؤال استعطاء وأن عن زائدة أو بمعنى من فهو تكلف لا ضرورة إليه .

والمعنى الواضح الجلى للآية الكريمة - كما سبق أن بينا - : يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ، ومن المستحق لها ؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه ، ولرسوله يقسمها بحسب حكم الله فيها ، فهو - سبحانه - العليم بمصالح عباده ، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه الجمع بين ذكر الله والرسول فى قوله : ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ ؟

قلت : معناه أن حكمها مختص بالله ورسوله ، يأمر الله بقسمتها على ماتقتضيه حكمته ، ويمتثل الرسول أمر الله فيها ، وليس الأمر فى قسمتها مفوضاً إلى رأى أحد ، والمراد : « أن الذى اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواسى المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات ، فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافى »[1] .

وقوله : ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ حض لهم على تقوى الله وامتثال أمره ، وإصلاح ذات بينهم ، وتحذير لهم من الوقوع فى المعاصى والنزاع والخلاف .

وكلمة ﴿ ذات ﴾ بمعنى حقيقة الشىء ونفسه ، ولا تستعمل إلا مضافة إلى الظاهر ، كذات الصدور ، وذات الشوكة .

وكلمة ﴿ بينكم ﴾ ، من البين ، وهو مصدر بان يبين بيناً ، متى بعد ، ويطلق على الاتصال والفراق ، أى : على الضدين ، ومنه قول الشاعر :

فوالله لولا البين لم يكن الهوى ولولا الهوى ما حس للبين آلف

والمراد به فى الآية الاتصال .

أى : فاتقوا الله - أيها المؤمنون - ، وأصلحوا نفس ما بينكم وهى الحال والصفة التى بينكم والتى تربط بعضكم ببعض وهى رابطة الإسلام . وإصلاحها يكون بما يقتضيه كمال الإيمان من الموادة والمصافاة ، وترك الاختلاف والتنازع ، والتمسك بفضيلة الإيثار .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٥ ، طبعة دار الكتاب العربى بيروت .

وكلمة ﴿ ذات ﴾ على هذا المعنى مفعول به .

ومنهم من يرى أن كلمة « ذات » بمعنى صاحبة ، وأنها صفة لمفعول محذوف ، فيكون المعنى : فاتقوا الله وأصلحوا أحوالا ذات بينكم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « فإن قلت : ما حقيقة قوله : ﴿ ذات بينكم ﴾ .

قلت : أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومودة واتفاق . كقوله : ﴿ بذات الصدور ﴾ وهى مضمراتها .

ولما كانت أحوال ملابسة للبين قيل لها : ذات البين ، كقولهم : اسقنى ذا إنائك ، يريدون ما فى الإناء من الشراب ... »[1] .

وقوله ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ معطوف على ما قبله، وهو قوله: ﴿ فاتقوا الله ﴾ .

أى : فاتقوا الله - أيها المؤمنون - فى كل أقوالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة ومودة ، وأطيعوا الله ورسوله فى حكمه الذى قضاه فى الأنفال وفى غيرها ، من كل أمر ونهى ، وقضاء وحكم ...

وقد كرر - سبحانه - الاسم الجليل فى هذه الآية ثلاث مرات ، لتربية المهابة فى القلوب ، وتعليل الحكم حتى تقبله النفوس بإذعان وتسليم .

وذكر - سبحانه - رسوله معه مرتين فى هذه الآية ، لتعظيم شأنه ، وإظهار شرفه ، والإيذان بأن طاعته - ﷺ - طاعة لله - تعالى - ، ومخالفته مخالفة لأمر الله - تعالى - . قال - سبحانه - : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾[2] .

ووسَّط - سبحانه - الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة ، لإظهار كمال العناية بالإصلاح ، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة .

وقوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة السابقة ، وهى : التقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله .

وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله ، أى : إن كنتم مؤمنين إيمانا حقا فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة السابقة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٥ .
(٢) سورة النساء الآية ٨٠ .

قال الآلوسى: قوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ جوابه محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه، أو المذكور هو الجواب على الخلاف المشهور . وأيا ما كان فالمراد بيان ترتب ما ذكر عليه لا التشكيك فى إيمانهم ، وهو يكفى فى التعليق بالشرط .

والمراد بالإيمان : التصديق . ولا خفاء فى اقتضائه ما ذكر ، على معنى أنه من شأنه ذلك لا أنه لازم له حقيقة .

وقد يراد بالإيمان الإيمان الكامل والأعمال شرط فيه أو شطر ، فالمعنى : إن كنتم كاملى الإيمان ، فإن كمال الإيمان يدور على تلك الخصال الثلاثة : الاتقاء ، والإصلاح ، وإطاعة الله - تعالى - .

ويؤيد إرادة الكمال قوله -سبحانه- بعد ذلك ﴿إنما المؤمنون...﴾ إذ المراد به قطعا الكاملون فى الإيمان وإلا لم يصح الحصر .. »[1] .

وعلى أية حال ففى هذا التذييل تنشيط للمخاطبين ، وحث لهم على الامتثال والطاعة ، ودعوة لهم إلى أن يكون إيمانهم إيمانا عميقا راسخا ، متفقا مع كل ما جاءهم به رسولهم - ﷺ - من هدايات وإرشادات ، ومتساميا عن كل ما يخدش صفاءه ونقاءه من متع وشهوات .

ثم وصف - سبحانه - المؤمنين الصادقين بخمس صفات ، وبشرهم بأعلى الدرجات ، فقال فى بيان صفتهم الأولى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم .. ﴾ فالجملة الكريمة مستأنفة وهى مسوقة لبيان أحوال المؤمنين الذين هم أهل لرضا الله وحسن ثوابه ، حتى يتأسى بهم غيرهم .

وقوله ﴿ وَجِلَتْ ﴾ من الوَجَل وهو استشعار الخوف . يقال : وجل يوجل وجلا فهو وجل ، إذا خاف وفزع .

والمراد بذكر الله : ذكر صفاته الجليلة ، وقدرته النافذة ، ورحمته الواسعة ، وعقابه الشديد ، وعلمه المحيط بكل شىء ، وما يستتبع ذلك من حساب وثواب وعقاب .

والمعنى : إنما المؤمنون الصادقون الذين إذا ذكر اسم الله وذكرت صفاته أمامهم ، خافت قلوبهم وفزعت ، استعظاماً لجلاله وتهيبا من سلطانه ، وحذراً من عقابه ، ورغبة فى ثوابه ، وذلك لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وشدة مراقبتهم لله - عز وجل - ووقوفهم عند أمره ونهيه ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٦٤ .

وقد جاء التعبير عن صفاتهم بصيغة من صيغ القصر وهى « إنما » ، للإشعار بأن من هذه صفاتهم هم المؤمنون الصادقون فى إيمانهم وإخلاصهم ، أما غيرهم ممن لم تتوفر به هذه الصفات ، فأمره غير أمرهم ، وجزاؤه غير جزائهم .

قال الفخر الرازى : فإن قيل : إنه - تعالى - قال ههنا : ﴿ وجلت قلوبهم ﴾ وقال فى آية أخرى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله[1]...﴾ فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : الاطمئنان : إنما يكون عن ثلج اليقين ، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد ، والوجل : إنما يكون من خوف العقوبة . ولا منافاة بين هاتين الحالتين . بل نقول : هذان الوصفان اجتمعا فى آية واحدة وهى قوله - تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله[2] .. » .

والمعنى تقشعر الجلود من خوف عذاب الله ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله[3] .

والصفة الثانية من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ .

أى أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم إذا قرئت عليهم آيات الله أى : حججه وهى القرآن ؛ زادتهم إيمانا ، أى : زادتهم قوة فى التصديق ، وشدة فى الإذعان ، ورسوخا فى اليقين ، ونشاطا فى الأعمال الصالحة ، وسعة فى العلم والمعرفة .

وجاء التعبير بصيغة الفعل المبنى للمفعول فى قوله:﴿ ذكر الله ﴾ و ﴿ تليت عليهم آياته ﴾ ، للإيذان بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين إذا كانوا يخافون عندما يسمعون من غيرهم آيات الله .. فإنهم يكونون أشد خوفا وفزعا عند ذكرهم لله وعند تلاوتهم لآياته بألسنتهم وقلوبهم .

فالمقصود من هذه الصيغة : مدحهم ، والثناء عليهم ، وبيان الأثر الطيب الذى يترتب على ذكر الله وعلى تلاوة آياته .

والصفة الثالثة من صفاتهم قوله - تعالى - : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين - أيضاً - أنهم يعتمدون على ربهم الذى خلقهم

---

(١) سورة الرعد . الآية ٢٨ .

(٢) سورة الزمر . الآية ٣٢ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١١٨ .

بقدرته ، ورباهم بنعمته ، فيفوضون أمورهم كلها إليه وحده - سبحانه - لا إلى أحد سواه ، كما يدل عليه تقديم المتعلق على عامله .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : أى : أنهم لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك لا شريك له ، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبير : « التوكل على الله جماع الإيمان »[1] .

ومن الواضح عند ذوى العقول السليمة أن التوكل على الله لا ينافى الأخذ بالأسباب التى شرعها - سبحانه - بل إن الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها لبلوغ الغايات ، لدليل على قوة الإيمان ، وعلى حسن طاعته - سبحانه - فيما شرعه وفيما أمر به .

وليس من الإيمان ولا من العقل ولا من التوكل على الله أن ينتظر الإنسان ثماراً بدون غرس ، أو شبعا بدون أكل ، أو نجاحا بدون جهد ، أو ثواباً بدون عمل صالح .

إنما المؤمن العاقل المتوكل على الله ، هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله لبلوغ الأهداف مباشرة سليمة .. ثم بعد ذلك يترك النتائج له - سبحانه - يُسيِّرها كيف يشاء ، وحسبما يريد ..

أما الصفتان الرابعة والخامسة من صفات هؤلاء المؤمنين فهما قوله - تعالى - ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

والمراد بإقامة الصلاة : أداؤها فى مواقيتها مستوفية لأركانها وشروطها وآدابها وخشوعها - من أقام الشيء إقامة إذا قومه وأزال عوجه لأن الشأن فى صلاة المؤمنين أن تكون : إحساسا عميقا بالوقوف بين يدى الله ، وانقطاعا تاما لمناجاته ، وتمثلا حياً لجلاله وكبريائه ، واستغراقا كاملا فى دعائه .

والمراد بقوله : ﴿ ينفقون ﴾ يخرجون ويبذلون ، من الإنفاق وهو إخراج المال وبذله وصرفه .

والجملة الكريمة فى محل رفع صفة للموصول فى الآية السابقة أو بدل منه أو بيان له .

والمعنى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يؤدون الصلاة فى مواقيتها مستوفية لأركانها وشروطها وسننها وآدابها وخشوعها .. وأنهم يبذلون أموالهم للفقراء والمحتاجين بسماحة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٨٦ .

نفس ، وسخاء يد ، استجابة لتعاليم دينهم .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصف هؤلاء المؤمنين بخمس صفات : الأولى والثانية والثالثة منها ترجع إلى العبادات القلبية التى تدل على شدة خشيتهم من ربهم ، وقوة تأثرهم بآيات خالقهم ، واعتمادهم عليه - سبحانه - وحده لا على أحد سواه .

والصفة الرابعة ترجع إلى العبادات البدنية ، وهى إقامة الصلاة بإخلاص وخشوع .

أما الصفة الخامسة فترجع إلى العبادات المالية ، وهى إنفاق المال فى سبيل الله ولاشك أن هذه الصفات متى تمكنت فى النفس ، كان صاحبها أهلا لمحبة الله ؛ ورضوانه ، ولذا مدح - سبحانه - أصحاب هذه الصفات ، وبين ما أعده لهم من ثواب جزيل فقال : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

أى: أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم المؤمنون إيمانا حقا ﴿لهم درجات﴾ عالية ، ومكانة سامية ﴿ عند ربهم ﴾ ولهم ﴿ مغفرة ﴾ شاملة لما فرط منهم من ذنوب ، ولهم ﴿ رزق كريم ﴾ فى الجنة ، يجعلهم يحيون فيها حياة طيبة ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ .

وقوله ﴿ حقاً ﴾ منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى : أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً .

والتنوين فى قوله ﴿ درجات ﴾ للتعظيم والتهويل أى : لهم درجات رفيعة ، ومنازل عظيمة ، وفى وصف هذه الدرجات بأنها ﴿ عند ربهم ﴾ مزيد تشريف لهم ، ولطف بهم ، وإيذان بأن ما وعدهم به متيقن الوقوع ، لأنه وعد من كريم لا يخلف وعده - سبحانه -

وفى وصف الرزق الذى أعده لهم بالكرم ، زيادة فى إدخال السرور على قلوبهم ؛ لأن لفظ الكريم يصف به العرب كل شىء حسن فى بابه ، بحيث يكون لا قبح فيه ولا شكوى معه .

وبذلك نرى أن أصحاب تلك الصفات الحميدة قد مدحهم الله - تعالى - مدحاً عظيما ، وكافأهم على إيمانهم الحق بالدرجات العالية ، والمغفرة الشاملة ، والرزق الكريم : ﴿ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

هذا ، وقد استنبط العلماء من تلك الآيات جملة من الأحكام والآداب منها :

١ - حرص الصحابة على سؤال النبى - ﷺ - عما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم .

فإن قيل : كيف تأتى لأصحابه الذين شهدوا بدراً - وهم من هم فى عفتهم وزهدهم - أن يختلفوا فى شأن الغنائم .

فالجواب ،، أن بعض الصحابة المشتركين فى هذه الغزوة هم الذين حدث بينهم الخلاف فى

شأنها ؛ لأنهم لم يكن لهم عهد سابق بكيفية تقسيمها ، أما أكثر الصحابة فإنهم لم يلتفتوا إلى هذه الغنائم ، بل تركوا أمرها إلى رسول الله ﷺ - يضعها كيف يشاء .

وأيضاً فإن هؤلاء الذين حدث بينهم الخلاف فى شأن الغنائم ، كان من الدوافع التى دفعتهم إلى هذا الخلاف ، ما فهموه من أن حيازة الغنائم تدل على حسن البلاء ، وشدة القتال فى سبيل الله ، فكان كل واحد منهم يحرص على أن يظهر بهذا المظهر المشرف وهم فى أول لقاء لهم مع أعدائهم .

وعندما جاوز هذا الحرص حده ، بأن غطى على ما يجب أن يسود بينهم من سماحة وصفاء ، نزل القرآن ليربيهم بتربيته الحكيمة ، وليؤدبهم بأدبه السامى ، وليخبرهم بحكم الله فى شأن هذه الأنفال .. وبعد أن عرفوا حكم الله فى شأنها ، قابلوه بالرضا والإذعان والتسليم .

٢ - أن القرآن فى ترتيبه للحوادث ، لا يلزم سردها على حسب زمن وقوعها ، وإنما يرتبها بأسلوبه الخاص الذى يراعى فيه مقتضى حال المخاطب .

فلقد افتتحت السورة التى معنا بالحديث عن الغنائم التى غنمها المسلمون فى بدر - مع أن ذلك كان بعد انتهاء الغزوة - ليشعر المخاطبين من أول الأمر أن النصر فى هذه الغزوة كان للمسلمين ، وأن الإسلام قد صرع الكفر منذ أول معركة نازله فيها .

وهذا اللون من الافتتاح هو ما يعبر عنه البلغاء ببراعة الاستهلال .

ولقد أفاض بعض العلماء فى شرح هذا المعنى فقال ما ملخصه .

وقد بدأت السورة بموضوع الأنفال واختلافهم فى قسمتها وسؤالهم عنها ، فساقت فى ذلك أربع آيات ، هن : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله .. ﴾ إلى قوله - ﴿ ورزق كريم ﴾ .

وقد عالجت هذه الآيات نفوس المؤمنين ، وعملت على تطهيرها من الاختلاف الذى ينشأ عن حب المال والتطلع إلى المادة ، ولا ريب أن حب المال والتطلع إلى المادة من أكبر أسباب الفشل .

ولأهمية هذا الموضوع فى حياة المؤمنين بدأت به السورة ، وإن كان اختلافهم فى قسمة الأنفال متأخراً فى الوجود عن اختلافهم فى الخروج إلى بدر ، وقتال الأعداء .

وقد عرفنا من سنة القرآن فى ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها ، وذلك لأنه لا يذكرها على أنها تاريخ يعين لها الوقت والمكان ، وإنما يذكرها لما فيها من العبر والمواعظ ، ولما تتطلبه من الأحكام والحكم .

وقد بدأت السورة بالحديث عن الأنفال للمسارعة من أول الأمر بنتائج النصر الذى كفله الله للمؤمنين .

وليس من تربية النفوس أن نبدأ الكلام معها بما يدل على الاضطراب والفزع والتردد أمام وسائل العزة والشرف ، متى وجد لهم بجانب هذا التردد ما يدل على مواقف الشرف والكرامة ..

ولا كذلك يكون الأمر إذا بدئت ببيان تثاقلهم فى الخروج إلى الغزوة ، وانظر كيف يكون وقع المطلع إذا جاء على هذا الوجه « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ... الخ » .

لا ريب أنه مطلع شديد الوقع على النفوس ، يصور علاقة المؤمنين بنبيهم فى صورة يأباها إيمانهم به وامتثالهم لأمره . يصورهم فى شقاق واختلاف مع قائدهم ورسولهم ويصورهم فى ثوب الكراهية الشديدة لمعالى الأمور وعز الحياة .

لهذا كله جاء الأسلوب فى سرد الوقائع غير مكترث بمخالفة ترتيبها فى الوجود الخارجى[1] .

٣ - استدل جمهور العلماء بقوله - تعالى - ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ على أن الإيمان يزيد وينقص ..

ومن المفسرين الذين بسطوا القول فى هذه المسألة الإمام الآلوسى ، فقد قال ما ملخصه :

قوله - تعالى - ﴿ وإذا تليت عليهم آياته ﴾ أى : القرآن ﴿ زادتهم إيمانا ﴾ أى : تصديقا كما هو المتبادر ، فإن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج مما لاريب فى كونه موجبا لذلك .

وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص ، وهو مذهب الجم الغفير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وبه أقول لكثرة الظواهر الدالة على ذلك من الكتاب والسنة من غير معارض لها عقلا .

بل قد احتج عليه بعضهم بالعقل - أيضا - وذلك أنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة بل المنهمكين فى الفسق والمعاصى ، مساويا لإيمان الأنبياء والملائكة ، واللازم باطل فكذا الملزوم .

وقال النووى : إن كل أحد يعلم أن ما فى قلبه يتفاضل حتى يكون فى بعض الأحيان أعظم يقينا وإخلاصا منه فى بعضها ، فكذا التصديق والمعرفة يتفاضلان بحسب ظهور البراهين وكثرتها .

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٥٤٤ لفضيلة الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله -

وذهب الإمام أبو حنيفة وكثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واختاره إمام الحرمين ، محتجين بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان ، وذلك لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان فالمصدق إذا أتى بالطاعات أو ارتكب المعاصى فتصديقه بحاله لم يتغير أصلا ، وإنما يتفاوت إذا كان اسما للطاعات المتفاوتة قلة وكثرة .

وذهب جماعة منهم الإمام الرازى إلى أن الخلاف فى زيادة الإيمان ونقصانه وعدمهما لفظى ، وهو فرع تفسير الإيمان ، فمن فسره بالتصديق قال : إنه لا يزيد ولا ينقص ، ومن فسره بالأعمال مع التصديق قال : إنه يزيد وينقص ، وعلى هذا قول البخارى « لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحدا منهم يختلف فى أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وهو المعنى بما روى عن ابن عمر أنه قال . قلنا يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص ، قال ، نعم ، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار[1] .

ويبدو لنا أن رأى جمهور العلماء فى هذه المسألة ، أولى بالقبول ؛ لأنه من الواضح أن إيمان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أرسخ وأقوى من إيمان آحاد الناس ، ولأنه كلما تكاثرت الأدلة كان الإيمان أشد رسوخا فى النفس وأعمق أثراً فى القلب ، فلا تزلزله الشبهات ولا تزعزعه العوارض والفتن .

ومن أوضح الأدلة على أن الإيمان يقوى بقوة البرهان إلى درجة الاطمئنان ، ما حكاه الله - تعالى - عن إبراهيم فى قوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى[2] ﴾ .

فهذه الآية تدل دلالة واضحة على أن مقام الطمأنينة فى الإيمان ، يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكمالا . إن إبراهيم - عليه السلام - لاشك أنه كان مؤمنا عندما سأل ربه هذا السؤال ، سأله ذلك لينتقل من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة أعلى : وهى مرتبة عين اليقين ...

هذا ، وشبيه بهذه الآية فى الدلالة على قبول الإيمان للزيادة والنقصان قوله - تعالى - : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ..[3] ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٠ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٢٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ..[١] ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون[٢] ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾[٣] ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى وردت فى هذا المعنى .

٤ - فى هذه الآيات الكريمة تربية ربانية للمؤمنين ، وتوجيه لهم إلى ما يسعدهم ، وإرشاد لهم إلى أن المؤمن الصادق فى إيمانه ، هو الذى يجمع بين سلامة العقيدة ، وسلامة الخلق ، وصلاح العمل ، وأن المؤمن متى جمع بين هذه الصفات ارتفع إلى أعلى الدرجات ، وأحس بحلاوة الإيمان فى قلبه ..

روى الحافظ الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر برسول الله - ﷺ - فقال له : « كيف أصبحت يا حارث » ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ، فقال له الرسول - ﷺ - : « انظر ما تقول فإن لكل شىء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟ فقال الحارث : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى . وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال - ﷺ - : « يا حارث عرفت فالزم » ثلاثا[٤] .

ثم أخذت السورة - بعد هذا الافتتاح المشتمل على أروع استهلال وأبلغه وأحكمه .. ، فى الحديث عن الغزوة التى كان من ثمارها تلك الأنفال ، فاستعرضت مجمل أحداثها ، وصورت نفوس فريق من المؤمنين الذين اشتركوا فيها أكمل تصوير ، استمع معى - أخى القارئ - بتدبر وتعقل إلى قوله - تعالى - :

---

(١) سورة الفتح ، الآية ٤ .
(٢) سورة التوبة : الآيتان : ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٣) سورة الأحزاب : الآية ٢٢ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٨٦ طبعة عيسى الحلبى .

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ
وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

الكاف فى قوله – تعالى – : ﴿ كما أخرجك ربك .. ﴾ بمعنى مثل ، أى : للتشبيه وهى خبر لمبتدأ محذوف هو المشبه ، وما بعدها هو المشبه به ، ووجه الشبه مطلق الكراهة ، وما ترتب على ذلك من خير للمؤمنين .

والمعنى : حال بعض أهل بدر فى كراهتهم تقسيمك الغنائم بالسوية ، مثل حال بعضهم فى كراهة الخروج للقتال ، مع ما فى هذه القسمة والقتال من خير وبركة .

ونحن عندما نستعرض أحداث غزوة بدر ، نرى أنه قد حدث فيها أمران يدلان على عدم الرضا من فريق من الصحابة ، ثم أعقبهما الرضا والإذعان والتسليم لحكم الله ورسوله .

أما الأمر الأول فهو أن فريقا من الصحابة – وأكثرهم من الشبان – كانوا يرون أن قسمة الغنائم بالسوية فيها إجحاف بحقهم ، لأنهم هم الذين قاموا بالنصيب الأوفر فى القتال ، وأن غيرهم لم يكن له بلاؤهم – كما سبق أن بينا فى أسباب نزول قوله – تعالى – « يسألونك عن الأنفال .. الخ » .

ولكن الرسول – ﷺ – قسم غنائم بدر بين الجميع بالسوية ، كما أمره الله – تعالى – .

وكان هذا التقسيم خيراً للمؤمنين ، إذ أصلح الله به بينهم ، وردهم إلى حالة الرضا والصفاء ..

وأما الأمر الثانى : فهو أن جماعة منهم كرهوا قتال قريش بعد نجاة العير التى خرجوا من أجل الحصول عليها ، وسبب كراهيتهم لذلك أنهم خرجوا بدون استعداد للقتال ، لا من حيث العدد ولا من حيث العدد .

ولكنهم استجابوا بعد قليل لما نصحهم به رسولهم - ﷺ - من وجوب قتال قريش .

وكان فى هذه الاستجابة نصر الإسلام ، ودحر الطغيان .

قال ابن كثير : روى الحافظ بن مردويه - بسنده - عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال رسول الله - ﷺ - ونحن بالمدينة : « إنى أخبرت عن عير أبى سفيان بأنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمنا إياها ؟ فقلنا نعم . فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا :

« ماترون فى قتال القوم ؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم » ؟ فقلنا : مالنا طاقة بقتال العدو ولكننا أردنا العير ، ثم قال : « ما ترون فى قتال القوم » ؟ فقال المقداد بن عمرو : إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون .. ﴾ ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

وفى رواية أن أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ تكلموا بكلام سر له رسول الله - ﷺ -[1] .

هذا ، وما قررناه قبل ذلك من أن الكاف فى قوله - تعالى - ﴿ كما أخرجك ربك .. ﴾ بمعنى مثل ، هو ما نرجحه من بين أقوال المفسرين التى أوصلها بعضهم إلى عشرين قولا .

قال الجمل ، قوله ﴿ كما أخرجك ربك .. ﴾ فيه عشرون وجهاً ، أحدهما : أن الكاف نعت لمصدر محذوف تقديره ؛ الأنفال ثابتة لله ثبوتاً كما أخرجك ربك ، أى : ثبوتاً بالحق كإخراجك من بيتك ، يعنى أنه لا مرية فى ذلك .

الثانى : أن تقديره وأصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك ، وقد التفت من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد .

الثالث : تقديره : وأطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما أخرجك أى : كما أن إخراج الله إياك لا مرية فيه ولا شبهة . الخ[2] .

والحق أن معظم الوجوه النحوية التى ذكرها الجمل وغيره من المفسرين - كأبى حيان والآلوسى - أقول : إن معظم هذه الوجوه يبدو عليها التكلف ومجانبة الصواب .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد أهمل أكثر ما ذكره المفسرون فى ذلك ، واكتفى بوجهين فقال :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٨٧ - بتصرف وتلخيص .

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٢٦ ، طبعة عيسى الحلبى .

قوله : ﴿ كما أخرجك ربك ﴾ . فيه وجهان أحدهما : أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك . يعنى أن حالهم فى كراهية ما رأيت من تنفيل الغزوة مثل حالهم فى كراهة خروجك للحرب .

والثانى : أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر فى قوله : ﴿ الأنفال لله والرسول ﴾ أى : الأنفال استقرت لله والرسول ، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون[1] .

والوجه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما صاحب الكشاف هو الذى نميل إليه ، وهو الذى ذكرناه قبل ذلك بصورة أكثر تفصيلا .

وأضاف - سبحانه - الإخراج إلى ذاته فقال : ﴿ كما أخرجك ربك ﴾ للإشعار بأن هذا الإخراج كان بوحى منه - سبحانه - وبأنه هو الراعى له فى هذا الخروج .

والمراد بالبيت فى قوله : ﴿ من بيتك ﴾ مسكنه - ﷺ - بالمدينة أو المراد المدينة نفسها ، لأنها مثواه ومستقره ، فهى فى اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أخرجك ﴾ والباء للسببية ، أى : أخرجك بسبب نصرة الحق ، وإعلاء كلمة الدين ، وإزهاق باطل المبطلين .

ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف على أنه حال من مفعول أخرجك ، وتكون الباء للملابسة ، أى : أخرجك إخراجاً متلبساً بالحق الذى لايحوم حوله باطل .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ ، أى : للخروج ، إما لعدم الاستعداد للقتال ، أو للميل للغنيمة ، أو للنفرة الطبيعية عنه ، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار ، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة .

والجملة فى موضع الحال ، وهى حال مقدرة ؛ لأن الكراهة وقعت بعد الخروج[2] .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة : حال بعض المسلمين فى بدر فى كراهة قسمة الغنيمة بالسوية بينهم ، مثل حال فريق منهم فى كراهة الخروج للقتال ، مع أنه قد ثبت أن هذه القسمة وذلك القتال ، كان فيهما الخير لهم ، إذ الخير فيما قدره الله وأراده ، لا فيما يظنون .

وقوله - تعالى - : ﴿ يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ حكاية لما حدث من هذا الفريق الكاره للقتال ، وتصوير معجز لما استبد به من خوف وفزع .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٦ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧٠ .

والمراد بقوله ﴿يجادلونك﴾ مجادلتهم للنبى ﷺ فى شأن القتال وقولهم له : ما كان خروجنا إلا للعير ، ولو أخبرتنا بالقتال لأعددنا العدة له .

والضمير يعود للفريق الذى كان كارهاً للقتال .

والمراد بالحق الذى جادلوا فيه : أمر القتال الذى حضهم الرسول - ﷺ - على أن يعدوا أنفسهم له .

وقوله : ﴿ بعد ما تبين ﴾ متعلق : ﴿ يجادلونك ﴾ و ﴿ ما ﴾ مصدرية والضمير فى الفعل ﴿ تبين ﴾ يعود على الحق .

والمراد بتبينه : إعلام الرسول - ﷺ - لهم بأنهم سينصرون على أعدائهم فقد روى أن الرسول - ﷺ - أخبرهم قبل نجاة العير بأن الله وعده الظفر بإحدى الطائفتين : العير أو النفير ، فلما نجت العير علم أن الظفر الموعود به إنما هو النفير ، أى : على المشركين الذين استنفرهم أبو سفيان للقتال لا على العير ، أى : الإبل الحاملة لأموال المشركين .

والمعنى : يجادلك بعض أصحابك - يا محمد - ﴿ فى الحق ﴾ أى فى أمر القتال ﴿ بعدما تبين ﴾ أى ، بعدما تبين لهم الحق بإخبارك إياهم بأن النصر سيكون حليفهم ، وأنه لا مفر لهم من لقاء قريش تحقيقاً لوعد الله الذى وعد بإحدى الطائفتين .

وقوله : ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ أى : يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت ، وهو ناظر إلى أسبابه ، ومشاهد لموجباته .

والجملة فى محل نصب على الحالية من الضمير فى قوله : ﴿ لكارهون ﴾ .

وفى هذه الجملة الكريمة تصوير معجز لما استولى على هذا الفريق من خوف وفزع من القتال بسبب قلة عددهم وعددهم .

وقوله : ﴿ بعد ما تبين ﴾ زيادة فى لومهم ، لأن الجدال فى الحق بعد تبينه أقبح من الجدال فيه قبل ظهوره .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على المؤمنين ، مع جزع بعضهم من قتال عدوه وعدوهم ، وإيثارهم العير على النفير فقال : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ .

والمراد بإحدى الطائفتين : العير أو النفير ، والخطاب للمؤمنين .

والمراد بغير ذات الشوكة : العير ، والمراد بذات الشوكة : النفير .

والشوكة فى الأصل واحدة الشوك وهو النبات الذى له حد ، ثم استعيرت للشدة والحدة ، ومنه قولهم : رجل شائك السلاح أى : شديد قوى .

والمعنى : واذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن وعدكم الله - تعالى - على لسان رسوله - - بأن إحدى الطائفتين : العير أو النفير هى لكم تظفرون بها ، وتتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه ، وأنتم مع ذلك تودون وتتمنون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح وهى العير .

وعبر - سبحانه - عن وعده لهم بصيغة المضارع ﴿ يعدكم ﴾ مع أن هذا الوعد كان قبل نزول الآية ، لاستحضار صورة الموعود به فى الذهن ، ولمداومة شكره - سبحانه - على ما وهبهم من نصر وفوز .

وإنما وعدهم - سبحانه - إحدى الطائفتين على الإبهام مع أنه كان يريد إحداها وهى النفير ، ليستدرجهم إلى الخروج إلى لقاء العدو حتى ينتصروا عليه ، وبذلك تزول هيبة المشركين من قلوب المؤمنين .

وقوله ﴿ إحدى ﴾ مفعول ثان ليعد ، وقوله: ﴿ أنها لكم ﴾ بدل اشتمال من ﴿ إحدى ﴾ مبين لكيفية الوعد .

أى : يعدكم أن إحدى الطائفتين كائنة لكم ، ومختصة لكم ، تتسلطون عليها تسلط الملاك ، وتتصرفون فيها كيفما شئتم .

وقوله : ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ يعدكم ﴾ أى : وعدكم - سبحانه - إحدى الطائفتين بدون تحديد لإحداهما ، وأنتم تحبون أن تكون لكم طائفة العير التى لا قتال فيها يذكر ، على طائفة النفير التى تحتاج منكم إلى قتال شديد ، وإلى بذل للمهج والأرواح .

وفى هذه الجملة تعريض بهم ، حيث كرهوا القتال ، وأحبوا المال ، وما هكذا يكون شأن المؤمنين الصادقين .

ثم بين لهم - سبحانه - أنهم وإن كانوا يريدون العير ، إلا أنه - سبحانه - يريد لهم النفير ، ليعلو الحق ، ويزهق الباطل ، فقال : ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين ﴾ .

أى : ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، ﴿ أن يحق الحق بكلماته ﴾ أى أن يظهر الحق ويعلمه بآياته المنزلة على رسوله ، وبقضائه الذى لا يتخلف ، وأن يستأصل الكافرين ويذلهم ،

ويقطع دابرهم ؛ أى آخرهم الذى يدبرهم .

والدابر : التابع من الخلف ، يقال : دبر فلان القوم يدبرهم دبورا ، إذا كان آخرهم فى المجىء ، والمراد أنه سبحانه يريد أن يستأصلهم استئصالا .

وقد هلك فى غزوة بدر عدد كبير من صناديد قريش الذين كانوا يحاربون الإسلام ، ويستهزئون بتعاليمه .

قال صاحب الكشاف فى معنى الآية الكريمة ، قوله : ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته... ﴾ يعنى أنكم تريدون العاجلة وسفساف الأمور، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم فى أبدانكم وأموالكم ، والله - عز وجل - يريد معالى الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة والفوز فى الدارين ، وشتان ما بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزكم وأذلهم ، وحصل لكم مالا تعارض أدناه العير وما فيها »[1] .

ثم بين - سبحانه - الحكمة فى اختيار ذات الشوكة لهم ، ونصرتهم عليهم فقال : ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .

أى : فعل ما فعل من النصرة والظفر بالأعداء ﴿ ليحق الحق ﴾ أى : ليثبت الدين الحق دين الإسلام ﴿ ويبطل الباطل ﴾ أى : ويمحق الدين الباطل وهو ما عليه المشركون من كفر وطغيان .

وقوله : ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ بيان لنفاذ إرادته - سبحانه - ، أى : اقتضت إرادته أن يعز الدين الحق وهو دين الإسلام ، وأن يمحق ما سواه ، ولو كره المشركون ذلك ؛ لأن كراهيتهم لاوزن لها ، ولا تعويل عليها ..

وبهذا يتبين أنه لا تكرار بين الآيتين السابقتين ، لأن المراد بإحقاق الحق فى قوله - تعالى - ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ : إعلاؤه وإظهاره ونصرته عن طريق قتال المؤمنين للمشركين .

والمراد بإحقاق الحق فى قوله بعد ذلك فى الآية الثانية ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ : تثبيت دين الإسلام وتقويته وإظهار شريعته ، ويمحق دين الكفر .

فكان ما اشتملت عليه الآية الأولى هو الوسيلة والسبب وما اشتملت عليه الآية الثانية هو المقصد والغاية .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٩ .

وقد بسط هذا المعنى الإمام الرازى فقال ما ملخصه : فإن قيل : أليس قوله : ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ ثم قوله بعد ذلك : ﴿ ليحق الحق ﴾ تكرارا محضا ، فالجواب : ليس ههنا تكرير ؛ لأن المراد بالأول سبب ما وعد به فى هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء ، والمراد بالثانى ؛ تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة ، لأن الذى وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين ، كان سببا لعزة الدين وقوته ، ولهذا السبب قرنه بقوله ﴿ ويبطل الباطل ﴾ الذى هو الشرك ، وذلك فى مقابلة ﴿ الحق ﴾ الذى هو الدين والإيمان [١] .

وإلى هنا نرى السورة الكريمة قد حدثتنا فى الأربع الآيات الأولى منها عن حكم الله - تعالى - فى غنائم بدر بعد أن اختلف بعض المؤمنين فى شأنها ، وعن صفات المؤمنين الصادقين الذين يستحقون من الله - تعالى - أرفع الدرجات .

ثم حدثتنا فى الأربع الآيات الثانية منها عن حال بعض المؤمنين عندما دعاهم النبى - ﷺ - إلى قتال أعدائهم ، وعن مجادلتهم له فى ذلك ، وعن إيثارهم المال على القتال ، وعن إرادة ما هو خير لهم فى دنياهم وآخرتهم ، وفى ذلك ما فيه من العبر والعظات لقوم يعقلون .

ثم ساق - سبحانه - بعض مظاهر تدبيره المحكم فى هذه الغزوة ، وبعض النعم التى أنعم بها على المؤمنين ، وبعض البشارات التى تقدمت تلك الغزوة أو صاحبتها ، والتى كانت تدل دلالة واضحة على أن النصر سيكون للمسلمين فقال - تعالى - :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٢٨ .

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

قال القرطبى : قوله – تعالى – : ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ الاستغاثة : طلب الغوث والنصر ، يقال : غوّث الرجل ، أى : قال واغوثاه ، والاسم الغوث والغواث ، واستغاثنى فلان فأغثته ، والاسم الغياث[1] .

وقوله ﴿ ممدكم ﴾ من الإمداد بمعنى الزيادة والإغاثة ، وقد جرت عادة القرآن أن يستعمل الإمداد فى الخير ، وأن يستعمل المد فى الشر والذم .

قال – تعالى – : ﴿ واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون[2] ﴾ .

وقال – تعالى – : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً[3] ﴾ .

قال – تعالى – : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً[4] ﴾ .

وقال – تعالى – : ﴿ الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون[5] ﴾ .

وقوله : ﴿ مردفين ﴾ من الإرداف بمعنى التتابع .

قال الفخر الرازى : قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ﴿ مردفين ﴾ – بفتح الدال – وقرأ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٧٠ ، مطبعة دار الكتب سنة ١٣٨٠ هـ سنة ١٩٦٠ م .
(٢) سورة الشعراء ، الآيات ١٣٢ – ١٣٤ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٦ .
(٤) سورة مريم ، الآية ٧٥ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ١٥ .

الباقون بكسرها ، والمعنى على الكسر ، أى : متتابعين يأتى بعضهم فى إثر البعض كالقوم الذين أردفوا على الدواب .

والمعنى على قراءة الفتح ، أى : فعل بهم ذلك ، ومعناه أن الله – تعالى – أردف المسلمين وأمدهم بهم[١] أى جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم .

والمعنى : اذكروا – أيها المؤمنون – وقت أن كنتم – وأنتم على أبواب بدر – ﴿ تستغيثون ربكم ﴾ أى : تطلبون منه الغوث والنصر على عدوكم ﴿ فاستجاب لكم ﴾ دعاءكم ، وكان من مظاهر ذلك أن أخبركم على لسان نبيكم – ﷺ – بأنى ﴿ ممدكم ﴾ أى : معينكم وناصركم بألف من الملائكة مردفين ، أى : متتابعين ، بعضهم على إثر بعض ، أو أن الله – تعالى – جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم وتثبيتهم .

ويروى الإمام مسلم عن ابن عباس قال: حدثنى عمر بن الخطاب قال: كان يوم بدر، نظر رسول الله – ﷺ – إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، فاستقبل نبى الله – – القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه ويقول : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض ، فمازال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه .

فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبى الله !! كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله – عز وجل – : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾ الآية فأمده الله بالملائكة[٢] .

وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال النبى – ﷺ – يوم بدر ، اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد ، فأخذ أبو بكر بيده ، فقال حسبك ، فخرج – ﷺ – وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر »[٣] .

وروى سعيد بن منصور عن طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله – ﷺ – إلى المشركين وتكاثرهم ، وإلى المسلمين فاستقلهم ، فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه ، فقال رسول الله – ﷺ – وهو فى صلاته : « اللهم لا تودع منى ، اللهم لا تخذلنى ، اللهم لا تترنى – أى لا تقطعنى عن أهلى وأنصارى – أو لا تنقصنى شيئاً من عطائك – اللهم أنشدك ما وعدتنى – أى : أستنجزك وعدك » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٣٠ .
(٢) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٥٦ . طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٨٠ هـ سنة ١٩٦٤ م .
(٣) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٩٣ . طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥ هـ .

وروى ابن إسحاق فى سيرته أنه - ﷺ - قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى[١] .

فإن قيل : إن هذه النصوص يؤخذ منها أن هذه الاستغاثة كانت من رسول الله - ﷺ - فلماذا أسندها القرآن إلى المؤمنين ؟

فالجواب : أن المؤمنين كانوا يؤمنون على دعائه - ﷺ - ويتأسون به فى الدعاء ، إلا أن الروايات ذكرت دعاء الرسول - ﷺ - ، لأنه هو قائد المؤمنين ، وهو الذى يحرص الرواة على نقل دعائه ، أكثر من حرصهم على نقل دعاء غيره من أصحابه .

وقيل : إن الضمير فى قوله ﴿ تستغيثون ﴾ للرسول - ﷺ - ، وجئ به مجموعا على سبيل التعظيم ، ويعكر على هذا القيل أن السياق بعد ذلك لا يلتئم معه ، لأنه خطاب للمؤمنين بالنعم التى أنعم بها - سبحانه - عليهم .

وعبر - سبحانه - بالمضارع ﴿ تستغيثون ﴾ مع أن استغاثتهم كانت قبل نزول الآية - استحضارا للحال الماضية ، حتى يستمروا على شكرهم لله ، ولذلك عطف عليه . فاستجاب لكم ، بصيغة الماضى مسايرة للواقع .

وكان العطف بالفاء للإشعار بأن إجابة دعائهم كانت فى أعقاب تضرعهم واستغاثتهم وهذا من فضل الله عليهم ، ورحمته بهم ، حيث أجارهم من عدوهم ، ونصرهم عليه - مع قلتهم عنه - نصرا مؤزرا .

والسين والتاء فى قوله : « تستغيثون » للطلب ، أى : تطلبون منه الغوث بالنصر .

فإن قيل : إن الله - تعالى - ذكر هنا أنه أمدهم بألف من الملائكة ، وذكر فى سورة آل عمران أنه أمدهم بأكثر من ذلك فكيف الجمع بينهما ؟ .

فالجواب أن الله - تعالى - أمد المؤمنين بألف من الملائكة فى يوم بدر ، كما بين هنا فى سورة الأنفال ، ثم زاد عددهم إلى ثلاثة آلاف كما قال - تعالى - فى سورة آل عمران : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ... ﴾ ، ثم زاد عددهم مرة أخرى إلى خمسة آلاف ، قال - تعالى - ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين[٢] ﴾ .

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٥٦ مطبعة دار المنار ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧ هـ .
(٢) سورة آل عمران الآيات من ١٢٣ - ١٢٥ .

وقد صبروا واتقوا وأتاهم المشركون من مكة فورا حين استنفرهم أبو سفيان لإنقاذ العير .. فكان المدد خمسة آلاف ..

واختار ابن جرير أنهم وعدوا بالمدد بعد الألف ، ولا دلالة فى الآيات على أنهم أمدوا بما زاد على ذلك ، ولا على أنهم لم يمدوا ، ولا يثبت شىء من ذلك إلا بنص .

وهذا بناء على أن المدد الذى وعد الله به المؤمنين فى آيات سورة آل عمران كان خاصاً بغزوة بدر .

أما على الرأى القائل بأن هذا المدد الذى بتلك الآيات كان خاصا بغزوة أحدفلا يكون هناك إشكال بين ما جاء فى السورتين .

وقد بسط القول فى هذه المسألة الإمام ابن كثير فقال ما ملخصه :

« اختلف المفسرون فى هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين :

أحدهما : أن قوله – تعالى – : ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ﴾ متعلق بقوله : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ .

وهذا قول الحسن والشعبى والربيع بن أنس وغيرهم ..

، فإن قيل فكيف الجمع بين هذه الآيات – التى فى سورة آل عمران وبين قوله فى سورة الأنفال – : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ .

فالجواب : أن التنصيص على الألف هنا ، لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله – تعالى – ﴿ مردفين ﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم .

قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف » .

والقول الثانى يرى أصحابه أن هذا الوعد – وهو قوله – تعالى – : ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ﴾ . متعلق بقوله – قبل ذلك – ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ . وذلك يوم أحد .

وهو قول مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وغيرهم .

لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف ، لأن المسلمين يومئذ فروا .

وزاد عكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف لقوله – تعالى – ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾ فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير بتصرف وتلخيص جـ ١ ص ٤٠١ .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله عليهم ورحمته بهم فى هذا الإمداد فقال : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ فالآية الكريمة كلام مستأنف ساقه - سبحانه - لبيان بعض مظاهر فضله على المؤمنين ، ولبيان أن المؤثر الحقيقى هو الله وحده حتى يزدادوا ثقة به ، وحتى لا يقنطوا من النصر عند قلة أسبابه .

أى : وما جعل الله - تعالى - هذا الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم - أيها المؤمنون - بالنصر على أعدائكم فى هذه الغزوة الحاسمة وقوله ﴿ بشرى ﴾ مفعول لأجله مستثنى من أعم العلل .

وقوله : ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ معطوف عليه : أى : ولتسكن بهذا الإمداد قلوبكم ، ويزول عنكم الخوف ، وتهاجموا أعداءكم بنفوس لا يداخلها الإحجام أو التردد ..

- وقوله : ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ ، أى : ليس النصر بالملائكة أو غيرهم إلا كائن من عند الله وحده ، لأنه - سبحانه - هو الخالق لكل شىء ، والقادر على كل شىء ..

وإن الوسائل مهما عظمت ، والأسباب مهما كثرت ، لا تؤدى إلى النتيجة المطلوبة والغاية المرجوة ، إلا إذا أيدتها إرادة الله وقدرته ورعايته .

وقوله : ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أى : غالب لا يقهره شىء ، ولا ينازعه منازع حكيم فى تدبيره وأفعاله .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التعليل لما قبله ، وفيه إشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات حكمته البالغة - سبحانه -.

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض المنن الأخرى التى منحها للمؤمنين قبل أن يلتحموا مع أعدائهم فى بدر فقال : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام ﴾ .

وقوله : ﴿ يغشيكم ﴾ بتشديد الشين من التغشية بمعنى التغطية من غشاه تغشية أى : غطاه .

والنعاس : أول النوم قبل أن يثقل ،وفعله - على الراجح - على وزن منع .

والأمنة : مصدر بمعنى الأمن . وهو طمأنينة القلب وزوال الخوف ، يقال : أمنت من كذا أمنة وأمنا وأمانا بمعنى .

قال الجمل : فى قوله : ﴿ إذ يغشاكم النعاس ﴾ ثلاث قراءات سبعية .

الأولى : يغشاكم كيلقاكم ، من غشيه إذا أتاه وأصابه وفى المصباح : غشيته أغشاه من باب تعب بمعنى أتيته – وهى قراءة أبى عمرو وابن كثير .

الثانية : يُغْشِيكم – بإسكان الغين وكسر الشين – من أغشاه . أى أنزله بكم وأوقعه عليكم – وهو قراءة نافع –

الثالثة : يغشيكم – بتشديد الشين وفتح الغين وهى قراءة الباقين – من غشاه تغشية بمعنى غطاه .

أى : يغشيكم الله النعاس أى يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتماله عليكم .

والنعاس على القراءة الأولى مرفوع على الفاعلية ، وعلى الأخيرتين منصوب على المفعولية . وقوله : « أمنة » حال أو مفعول لأجله[1] .

وقال القرطبى : وكان هذا النعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها ، فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم ، ولكن الله ربط جأشهم .

وعن على – رضى الله عنه – قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم سوى رسول الله – ﷺ – تحت شجرة يصلى حتى أصبح .

وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : – أحدهما : أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد .

الثانى : أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم : كما يقال : الأمن منيم ، والخوف مسهر »[2] .

وقال ابن كثير : وجاء فى الصحيح أن رسول الله – ﷺ – لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله – ﷺ – سنة من النوم . ثم استيقظ متبسما ، فقال : « أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثناياه النقع » . ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قول الله – تعالى – ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾[3] .

والمعنى : واذكروا – أيها المؤمنون – أيضًا ، وقت أن كنتم متعبين وقلقين على مصيركم فى هذه المعركة ، فألقى الله عليكم النعاس ، وغشاكم به قبل التحامكم بأعدائكم ، ليكون أمانا لقلوبكم ، وراحة لأبدانكم ، وبشارة خير لكم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٣٠ – بتصرف يسير .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٧٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩١ .

هذا ، ومن العلماء الذين تكلموا عن نعمة النعاس التى ساقها الله للمؤمنين قبل المعركة ، الإمامان الرازى ومحمد عبده .

أما الامام الرازى فقد قال ما ملخصه : واعلم أن كل نوم ونعاس لا يحصل إلا من قبل الله - تعالى - فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله لابد فيه من مزيد فائدة ، وذكروا فى ذلك وجوها : منها : أن الخائف إذا خاف من عدوه فإنه لا يأخذه النوم ، وإذا نام الخائفون أمنوا . فصار حصول النوم لهم فى وقت الخوف الشديد ، يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن .

ومنها : أنهم ما ناموا نوما غرقا يتمكن معه العدو من معافصتهم ، بل كان ذلك نعاسا يزول معه الإعياء والكلال ، ولو قصدهم العدو فى هذه الحالة لعرفوا وصوله ، ولقدروا على دفعه .

ومنها : أنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم ، وحصول النعاس للجمع العظيم فى الخوف الشديد أمر خارق للعادة . فلهذا السبب قيل : إن ذلك النعاس كان فى حكم المعجز[1] .

وقال الامام محمد عبده : لقد مضت سنة الله فى الخلق ، بأن من يتوقع فى صبيحة ليلته هولا كبيرا ، ومصابا عظيما ، فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه فيصبح خاملا ضعيفا . وقد كان المسلمون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك ، إذ بلغهم أن جيشا يزيد على عددهم ثلاثة أضعاف سيحاربهم غدا فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرض والسهاد .. ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس : غشيهم فناموا ، واثقين بالله ، مطمئنين لوعده ، وأصبحوا على همة ونشاط فى لقاء عدوهم وعدوه .. فالنعاس لم يكن يوم بدر فى وقت الحرب بل قبلها »[2] .

وبذلك نرى أن النعاس الذى أنزله الله تعالى - على المؤمنين قبل لقائهم بأعدائهم فى بدر كان نعمة عظيمة ومنة جليلة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ معطوف على قوله ﴿ يغشيكم ﴾ وهو - أى : إنزال الماء من السماء نعمة عظمى تحمل فى طياتها نعما وسننا .

أولها : يتجلى فى هذه الجملة الكريمة ، أنه - سبحانه - أنزل على المؤمنين المطر من السماء ليطهرهم به من الحدثين : الأصغر والأكبر ، فإن المؤمن - كما يقول الإمام الرازى - « يكاد

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٣٢ .

(٢) تفسير المنار جـ ٤ ص ١٨٥ .

يستقذر نفسه إذا كان جنبا ، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال ، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب[١] .

وثانيها : قوله - تعالى - : ويذهب عنكم رجز الشيطان » .

وأصل الرجز : الاضطراب ويطلق على كل ما تشتد مشقته على النفوس .

قال الراغب : أصل الرجز الاضطراب ، ومنه قيل رجز البعير رجزا فهو أرجز ، وناقة رجزاء إذا تقارب خطوها واضطرب لضعفها .. »[٢] .

والمراد برجز الشيطان : وسوسته للمؤمنين ، وتخويفه إياهم من العطش وغيره عند فقدهم الماء وإلقاؤه الظنون السيئة فى قلوبهم .

أى : أنه - سبحانه - أنزل عليكم الماء - أيها المؤمنون - ليطهركم به تطهيرا حسيا وليزيل عنكم وسوسة الشيطان ، بتخويفه إياكم من العطش وبإلقائه فى نفوسكم الظنون والأوهام .. وهذا هو التطهير الباطنى .

وثالثها قوله - تعالى - : ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ أى : وليقويها بالثقة فى نصر الله ، وليوطنها على الصبر والطمأنينة .. ولا شك أن وجود الماء فى حوزة المحاربين يزيدهم قوة على قوتهم ، وثباتاً على ثباتهم ، أما فقده فإنه يؤدى إلى فقد الثقة والاطمئنان ، بل وإلى الهزيمة المحققة .

وأصل الربط : الشد . ويقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه عليه ، أى : حبس قلبه عن أن يضطرب أو يتزعزع ، ومنه قولهم : رجل رابط الجأش . أى : ثابت متمكن .

ورابع هذه النعم التى تولدت عن نزول الماء من السماء على المؤمنين ، قبل خوضهم معركة بدر ، يتجلى فى قوله - تعالى - ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ .

أى : أنه - سبحانه - أنزل عليهم المطر قبل المعركة لتطهيرهم حسياً ومعنوياً ، ولتقويتهم وطمأنينتهم ، وليثبت أقدامهم به حتى لا تسوخ فى الرمال ، وحتى يسهل المشى عليها ، إذ من المعروف أنه من العسير المشى على الرمال ، فإذا ما نزلت عليها الأمطار جمدت وسهل السير فوقها ، وانطفأ غبارها .. فالضمير فى قوله ﴿ به ﴾ يعود على الماء المنزل من السماء .

قال الزمخشرى : ويجوز أن يعود للربط - فى قوله ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ ، لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت القدم فى مواطن القتال .

هذا ، وقد وردت آثار متعددة توضح ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة من نعم جليلة ،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٣٣ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ١٧٨ . الأصفهانى . طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦١ .

ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزل النبى - ﷺ - يعنى حين سار إلى بدر - والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة - أى كثيرة مجتمعة - فأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم ، تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطرا شديدا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم .. »[١] .

وعن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء وكان الوادى دهساً فأصاب رسول الله - ﷺ - وأصحابه مالبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشاً مالم يقدروا على أن يرحلوا معه »[٢] .

ومن هذا القول المنقول عن عروة - رضى الله عنه - نرى أن المطر كان خيراً للمسلمين ، وكان شراً على الكافرين ، لأن المسلمين كانوا فى مكان يصلحه المطر ، بينما كان المشركون فى مكان يؤذيهم فيه المطر .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى كان لها أثرها العظيم فى نصرهم على المشركين فقال - سبحانه - : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم . فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ .

والبنان : - كما يقول القرطبى - واحده بنانه . وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء .. وهو - أى البنان - مشتق من قولهم أَبَنّ الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبنان يُعتَملُ به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، وهو عبارة عن الثبات فى الحرب وموضع الضرب ، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء ......

وذكر بعضهم أنها سميت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التى بها يستقر الإنسان .. »[٣] .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أوحى ربك إلى الملائكة الذين أمد بهم المسلمين فى بدر ﴿ أنى معكم ﴾ أى بعونى وتأييدى ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ أى فقووا قلوبهم ، واملأوا نفوسهم ثقة بالنصر ، وصححوا نياتهم فى القتال حتى تكون غايتهم إعلاء كلمة الله .

قال الآلوسى : والمراد بالتثبيت : الحمل على الثبات فى موطن الحرب والجد فى مقاساة شدائد القتال . وكان ذلك هنا - فى قول - بظهورهم لهم فى صورة بشرية يعرفونها ، ووعدهم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ١٩٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩٣ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٧٩ .

إياهم النصر على أعدائهم ، فقد أخرج البيهقى فى الدلائل أن الملك كان يأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه فيقول له : أبشروا فإنهم ليسوا بشىء ، والله معكم . كروا عليهم .

وقال الزجاج : كان بأشياء يلقونها فى قلوبهم تصح بها عزائمهم ويتأكد جدهم . وللملك قوة إلقاء الخير فى القلب ويقال له إلهام ، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال له وسوسة ، [1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ بشارة عظيمة للمؤمنين .

أى : سأملأ قلوب الكافرين بالخوف والفزع منكم - أيها المؤمنون - ، وسأقذف فيها الهلع والجزع حتى تتمكنوا منهم .

والرعب : انزعاج النفس وخوفها من توقع مكروه ، وأصله التقطيع من قولهم : رعبت السنام ترعيباً إذا قطعته مستطيلا ، كأن الخوف يقطع الفؤاد .

وقوله : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ الخطاب فيه للمؤمنين ، وقيل ، للملائكة .

والمراد بما فوق الأعناق الرءوس كما روى عن عطاء وعكرمة . أو المراد بها الأعناق ذاتها فتكون فوق بمعنى : على وهو قول أبى عبيدة .

ويرى صاحب الكشاف أن المراد بما فوق الأعناق : أعالى الأعناق التى هى المذابح ، لأنها مفاصل ، فكان إيقاع الضرب فيها جزا وتطييرا للرءوس .

والمراد بالبنان - كما سبق أن بينا - الأصابع أو مطلق الأطراف .

والمعنى : لقد أعطيتكم - أيها المؤمنون - من وسائل النصر ما أعطيتكم ، فهاجموا أعدائى وأعداءكم بقوة وغلظة ، واضربوهم على أعناقهم ورءوسهم ومواضع الذبح فيهم . واضربوهم على كل أطرافهم حتى تشلوا حركتهم ، فيصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم .

ثم بين سبحانه - السبب فى تكليفه المؤمنين بمجاهدة الكافرين والإغلاظ عليهم وقتلهم . فقال - تعالى - ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

فاسم الإشارة ﴿ ذلك ﴾ يعود إلى ما سبق بيانه من تأييد المؤمنين ، وأمرهم بضرب الكافرين .. وهو فى محل رفع على الابتداء . وقوله ﴿ بأنهم ... ﴾ خبره . والباء للسببية .

وقوله : ﴿ شاقوا ﴾ من المشاقة بمعنى المخالفة والمعاداة مشتقة من الشق - أى الجانب - ، فكل واحد من المتعادين أو المتخالفين صار فى شق غير شق صاحبه .

والمعنى : ذلك الذى ذكره الله - تعالى - فيما سبق ، من تأييده للمؤمنين وأمره إياهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١١٧ - بتلخيص يسير -

بضرب الكافرين ، سببه أن هؤلاء الكافرين ﴿ شاقوا الله ورسوله ﴾ أى : عادوهما وخالفوا شرعهما : ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله ﴾ بأن يسير فى غير الطريق الذى أمرا به ، ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ لهذا المعادى والمخالف .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ إما نفس الجزاء ، وقد حذف منه العائد عند من يكتفى ولا يلتزم بالعائد فى الربط. أى: شديد العقاب له. أو قائم مقام الجزاء المحذوف أى : يعاقبه الله - تعالى - فإن الله شديد العقاب . وأياما كان فالشرطية بيان للسببية السابقة بطريق برهانى . كأنه قيل : ذلك العقاب الشديد بسبب المشاقة لله - تعالى - ولرسوله - ﷺ - وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان ، فله بسبب ذلك عقاب شديد ، فإن لهم بسبب مشاقة الله ورسوله عقابا شديدا [1] .

ثم يوجه - سبحانه - خطابه على سبيل الالتفات لأولئك الذين شاقوا الله ورسوله ، متوعدا إياهم بسوء المصير فيقول : ﴿ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ فاسم الإشارة ﴿ ذلكم ﴾ يعود إلى ما سبق بيانه من تأييد المؤمنين ، وخذلان الكافرين وإنزال العقوبة بهم .

أى ذلكم الذى نزل بكم - أيها الكافرون - من القتل والأسر فى بدر ، هو العقاب المناسب لطغيانكم وشرككم وعنادكم ، فذوقوا آلامه ، وتجرعوا غصصه ، وعيشوا فى مذلته .

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلكم عذاب النار الذى هو أشد وأبقى من عذاب الدنيا . فاتركوا الكفر ، وادخلوا فى الإيمان لتنجوا من العذاب وتنالوا الثواب .

قال الجمل ما ملخصه وقوله : ﴿ ذلكم فذوقوه .. ﴾ يجوز فيه وجوه من الأعراب أحدها أن يرفع بالابتداء والخبر محذوف أى ذلكم العقاب . الثانى : أن يرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى: العقاب ذلكم أو الأمر ذلكم وعلى هذين الوجهين يكون قوله ﴿ فذوقوه ﴾ لا تعلق له بما قبله من جهة الاعراب فهو مستأنف، والوقف يتم على قوله: ﴿ ذلكم ﴾ الثالث : أن يرتفع بالابتداء. والخبر قوله ﴿ فذوقوه ﴾ وهذا على رأى الأخفش .

وقوله ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ معطوف على قوله ﴿ ذلكم ﴾ أو منصوب على أنه مفعول معه ، والمعنى : ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم فى الآخرة،ووضع الظاهر فيه موضع المضمر - بأن قال ﴿ فذوقوه وأن للكافرين ﴾ ولم يقل فذوقوه وأن لكم - للدلالة على أن الكفر سبب للعذاب الآجل أو للجمع بينهما [2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧٩ .

(٢) حاشية الجمل الجلالين جـ ٩ ص ١٧٩ .

ومن هذا نرى أن تلك الآيات الكريمة قد ذكّرت المؤمنين الذين اشتركوا فى غزوة بدر بألوان من نعم الله عليهم ، وبأنواع من البشارات التى كانت تدل على أن النصر سيكون لهم .

١ - ذكّرتهم بوعد الله لهم بأن إحدى الطائفتين : العير أو النفير ستكون لهم ، وقد وفّى لهم - سبحانه - بوعده ، حيث جعل النصر لهم ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ .

٢ - وذكرتهم بإجابة الله لدعائهم ، حيث أمدهم بألف من الملائكة مردفين .

٣ - وذكرتهم بالنعاس الذى ألقاه - سبحانه - عليهم قبل المعركة ، ليكون أماناً لهم ، وراحة لأبدانهم .

٤ - وذكرتهم بنزول المطر عليهم من السماء ليكون طهارة ظاهرية وباطنية لهم ، وليكون طمأنينة لقلوبهم ، وتثبيتاً لأقدامهم .

٥ - وذكرتهم بأمر الله لملائكته أن يثبتوهم ، بأن يغرسوا فى قلوبهم الثقة فى نصر الله لهم ، والاستهانة بقوة أعدائهم .

٦ - وذكرتهم بما ألقاه - سبحانه - فى قلوب الكافرين من رعب وفزع وجزع ، جعلهم ينهزمون أمامهم .

٧ - وذكرتهم بأن ما أصاب أعداء الله وأعداءهم من قتل وأسر وخسران كان سببه كفرهم وعنادهم وإيثارهم سبيل الغى على سبيل الرشد ، وأنهم - إذا استمروا فى كفرهم - فسيلقون فى الآخرة عذاباً أشد وأبقى مما نزل بهم فى الدنيا .

ولاشك أن هذا التذكير من مقاصده الأساسية حض المؤمنين على الاستجابة لله ولرسوله : وعلى مداومة الشكر لخالقهم ، فهو - سبحانه - الذى منحهم هذه النعم الجزيلة التى تمكنوا معها من رقاب أعدائهم ، وهو الذى جعلهم يغنمون كل هذه الغنائم بعد أن خرجوا من ديارهم بلا مال ولا ظهر ولا عتاد .

هذا ، ومن الخير قبل أن ننتقل من هذه الآيات إلى غيرها ، أن نتكلم بشىء من التفصيل عن مسألة كثر الحديث عنها .

وهذه المسألة هى : ماذا كانت وظيفة الملائكة فى بدر ؟ أكانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فحسب أم أنهم بجانب هذا التثبيت قاتلوا فعلا معهم ؟ إننا بمطالعتنا لما كتبه الكاتبون عن هذه المسألة نراهم فى كتاباتهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

(أ) أما القسم الأول منهم ، فيرى أن الملائكة فى غزوة بدر لم تكن وظيفتهم التثبيت فحسب ، وإنما هم قاتلوا مع المؤمنين فعلا ، ويستدلون على ذلك بأدلة من أهمها :

١ - ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : بينما رجل من المسلمين يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وقائلا يقول : أقدم حيزوم ،

فخر المشرك مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه . فجاء فحدث رسول الله - ﷺ - فقال : صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة [١] .

٢ - وجاء عنه أنه قال - أيضاً - : كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء ، ويوم أحد عمائم خضراء ، ولم تقاتل الملائكة فى يوم سوى بدر وكانوا فيما سواه عددا ومددا [٢] .

٣ - وعن أبى داود المزنى قال : تبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر . فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل إليه سيفى .

٤ - وروى عن عبد الله بن مسعود أن أبا جهل سأله يوم بدر : من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمعه ولا نرى شخصاً ؟ فقال : من الملائكة ، فقال له أبو جهل : هم إذن غلبونا لا أنتم [٣] .

٥ - وقال القرطبى : وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت . ومن ذلك قول أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان شهد بدرا : لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب- أى الطريق فى الجبل- الذى خرجت منه الملائكة. لا أشك ولا أمارى.

وعن سهل بن حنيف قال : لقد رأيتنا يوم بدر إن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه [٤] .

هذه أهم الروايات التى استند إليها العلماء الذين يرون أن الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين يوم بدر ، وعلى رأس هؤلاء العلماء القرطبى ، فهو يرى أن هذا هو الصحيح وأنه رأى الجمهور .

(ب) أما القسم الثانى من العلماء فيرى أن الملائكة لم تقاتل يوم بدر ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فى المعركة ، وتقوية أرواحهم وقلوبهم ، واستدلوا على ذلك بأدلة من أهمها :

١ - أنه ليس فى الآيات القرآنية التى تحدثت عن غزوة بدر آية واحدة صريحة فى أن الملائكة قد قاتلت بالفعل ، وإنما هى صريحة فى أن الله - تعالى - قد أمد المؤمنين بالملائكة ، وجعل هذا الإمداد بشارة لهم .

قال الآلوسى عند تفسيره لقوله - تعالى : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى .. ﴾ وفى الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا قتالا ، وهو مذهب لبعضهم . ويشعر ظاهرها بأن النبى - ﷺ - أخبرهم بذلك الإمداد ، وفى الأخبار ما يؤيد ذلك . بل جاء فى غير ما خبر أن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧٨ .
(٢) معالم التنزيل للبغوى جـ ١ ص ١٠ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٠١ .
(٤) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٩٢ .

الصحابة رأوا الملائكة - عليهم السلام - [١] .

٢ - أن بعض الآيات القرآنية التى تحدثت عن غزوة بدر قد وضحت وظيفة الملائكة توضيحاً تاماً ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ﴾ .

قال ابن جرير فى معنى ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ قووا عزمهم ، وصححوا نياتهم فى قتال أعدائهم من المشركين ..

وقال فى معنى قوله - تعالى - ﴿ فاضربوا فوق الأعناق .. ﴾ : والصواب من القول فى ذلك أن يقال إن الله أمر المؤمنين معلما إياهم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف ، أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدى والأرجل ... » [٢] .

وقال الفخر الرازى : قوله ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ فيه وجهان : الأول : أنه أمر للملائكة متصل بقوله - تعالى - ﴿ فثبتوا ﴾ . وقيل : بل أمر للمؤمنين ، وهذا هو الأصح لما بينا أنه - تعالى - ما أنزل الملائكة لأجل المقاتلة والمحاربة .. [٣] .

٣ - أن الروايات التى استند إليها من قال بأن الملائكة قاتلت مع المؤمنين فى بدر لم ترد فى كتب السنة المعتمدة ، بل لم يذكر معظمها الإمام ابن جرير مع علمنا باهتمامه بالمرويات فى تفسيره . وفضلا عن ذلك فإن أكثر هذه الروايات لم تصرح بأن الملائكة قد قاتلت .

فمثلا رواية أبى داود المازنى لم تصرح بأن المشرك الذى أراد هو أن يقتله قد قتله ملك .

وكذلك الحال بالنسبة لروايتى أبى أسيد وسهيل بن حنيف وأما قول أبى جهل لابن مسعود : « هم إذن غلبونا - يعني الملائكة - لا أنتم ، فنرجح أنه من باب التبرير والمغالطة . فهو يريد أن ينفى - حقداً منه وعناداً - قوة المؤمنين الذين صرعوا أمثاله من الطغاة ..

والخلاصة أن معظم هذه الروايات - مع ضعفها - لم تصرح بأن الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين يوم بدر .

٤ - استبعد كثير من العلماء اشتراك الملائكة فى القتال ، ومن هؤلاء العلماء الإمام أبو بكر الأصم فقد قال :

« إن الملك الواحد يكفى فى إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط . فإذا

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧٤ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ١٩٧ ، ص ١٩٨ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٣٥ .

حضر هو يوم بدر - وجميع الروايات تذكر أنه كان على رأس الملائكة - فأى حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟ بل أى حاجة حينئذ إلى إرسال سائر الملائكة ؟ وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين ، وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .

وأيضاً لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أوْ لا .. وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ، ولم يقل أحد بذلك .. وعلى الثانى كان يلزم جز الرءوس ، وتمزيق البطون ، وإسقاط الكفار من غير مشاهدة فاعل ، ومثل هذا من أعظم المعجزات ، فكان يجب أن يتواتر ويشتهر بين المسلم والكافر والموافق والمخالف ... »[1] .

وقال صاحب المنار: مقتضى السياق أن وحى الله للملائكة ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ إلخ .

وقوله - تعالى - ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .. ﴾ إلخ بدء كلام خوطب به النبى ﷺ - والمؤمنون تتمة للبشرى . فيكون الأمر بالضرب موجهاً إلى المؤمنين قطعاً ، وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر تبعاً لما قبله من الآيات .

ثم قال : وفى كتب السير وصف للمعركة علم منه القاتلون والآسرون لأشد المشركين بأسا ، فهل تعارض هذه البينات النقلية بروايات لم يرها شيخ المفسرين ابن جرير حرية بأن تنقل .

كفانا الله شر هذه الروايات الباطلة التى شوهت التفسير وقلبت الحقائق ، حتى إنها خالفت نص القرآن نفسه فالله - تعالى - يقول فى إمداد الملائكة ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم .. ﴾ وهذه الروايات تقول بل جعله مقاتلة ، وإن هؤلاء السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم إلا باجتماع ألف أو ألوف من الملائكة عليهم مع المسلمين الذين خصهم الله بما ذكر من أسباب النصر المتعددة .

ألا إن فى هذا من تعظيم شأن المشركين ، وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم مالا يصدر عن عاقل ، إلا وقد سلب عقله لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ، ولم يرفع منها إلا حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الآلوسى وغيره بغير سند . وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيرا ، فرواياته عنها حتى فى الصحيح مرسله . »[2] .

---

(١) تفسير المنار جـ ٤ ص ١١٣ .

(٢) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٦٥ .

هذه أهم الأدلة التى استند إليها القائلون بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين ، وتقوية عزائمهم . وتصحيح نياتهم .

(جـ) أما القسم الثالث من العلماء الذين كتبوا فى هذه المسألة ، فمنهم الذى اكتفى بسرد الآراء دون أن يرجح بينها ، ومن هؤلاء صاحب الكشاف ، فقد قال :

فإن قلت : هل قاتلت الملائكة يوم بدر ؟ قلت : اختلف فيه . فقيل : نزل جبريل فى يوم بدر فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر ، وميكائيل فى خمسمائة على الميسرة وفيها على بن أبى طالب فى صورة الرجال . فقاتلت . وقيل : قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب .. وقيل : لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ، ويثبتون المؤمنين ، وإلا فملك واحد كاف فى إهلاك أهل الدنيا كلهم .. [1] .

ومنهم الذى يرى أن البحث فى تفاصيل أمثال هذه المسائل ليس من الجد الذى هو طابع هذه العقيدة ، ومن هؤلاء صاحب « فى ظلال القرآن » فقد قال ما ملخصه :

« تروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة فى يوم بدر : عددهم وطريقة مشاركتهم فى المعركة . وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين ، وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين . ونحن - على طريقتنا فى الظلال - نكتفى فى مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد فى النصوص المتيقنة من قرآن أو سنة ، والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة .. ﴾ فهذا عددهم ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا .. ﴾ فهذا عملهم . ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية . وبحسبنا أن تعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها فى ذلك اليوم ، وهى قلة والاعداء كثرة ، وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذى يصفه الله سبحانه فى كلماته .. إننا نؤمن بوجود خلق أسماهم الملائكة ، ولكنا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم . فلا نملك من إدراك الكيفية التى اشتركوا بها فى نصرة المسلمين يوم بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآنى . وقد أوحىٰ إليهم ربهم : أنى معكم . وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ففعلوا .

- لأنهم يفعلون ما يؤمرون - ولكننا لا ندرى كيف فعلوا .

إن البحث التفصيلى فى كيفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجد الذى هو طابع هذه العقيدة . وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة ولكن هذه المباحث صارت من مباحث الفرق

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٠١ .

الإسلامية ومباحث علم الكلام فى العصور المتأخرة ، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية فى هذا الدين ، وتسلط الترف العقلى على النفوس والعقول . وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله - سبحانه - للملائكة فى المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة لهى أنفع واجدى .. "(١) .

وبعد فهذه أهم الأقول التى قالها العلماء فى مسألة وظيفة الملائكة فى بدر ، بسطناها بشىء من التفصيل لتتضح آراؤهم فيها .

والذى نراه بعد كل ذلك : أن أقرب الأقوال إلى الصواب ، هو القول الذى ذهب أصحابه إلى أن الملائكة فى بدر لم تقاتل ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت وتقوية عزائم المؤمنين .. وذلك لما سبق أن بيناه من أدلة وحجج - والله أعلم بالصواب .

وبعد أن بين - سبحانه - بعض البشارات والنعم التى ساقها للمؤمنين الذين اشتركوا فى بدر . وجه - سبحانه - نداء إليهم أمرهم فيه بالثبات فى وجوه أعدائهم ، وذكرهم بجانب من مننه عليهم .

فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن جـ ٩ ص ٨١٥ للمرحوم الأستاذ سيد قطب .

وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله - سبحانه - ﴿ زحفا ﴾ : مصدر زحف وأصله للصبى ، وهو أن يزحف على إسته قبل أن يمشى . ثم أطلق على الجيش الكثيف المتوجه لعدوه لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه جسم واحد يزحف ببطء وإن كان سريع السير .

قال الجمل : وفى المصباح : زحف القوم زحفا وزحوفا . ويطلق على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر والجمع زحوف مثل فلس وفلوس . ونصب قوله : ﴿ زحفا ﴾ على أنه حال من المفعول وهو ﴿ الذين كفروا ﴾ أى إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين نحوكم .

والأدبار : جمع دبر - بضمتين - وهو الخلف ، ومقابله القبل وهو الأمام ، ويطلق لفظ الدبر على الظهر وهو المراد هنا .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله إيمانا حقا ﴿ إذا لقيتم الذين كفروا ﴾ زاحفين نحوكم لقتالكم ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ أى . فلا تفروا منهم ، ولا تولوهم ظهوركم منهزمين ، بل قابلوهم بقوة وغلظة وشجاعة ، فإن من شأن المؤمن أن يكون شجاعا لا جبانا ، ومقبلا غير مدبر .

فالمراد من تولية الأدبار : الانهزام ، لأن المنهزم يولى ظهره وقفاه لمن انهزم منه . وعدل من لفظ الظهور إلى الأدبار ، تقبيحا للانهزام ، وتنفيرا منه ، لأن القبل والدبر يكنى بهما عن السوءتين .

ثم بين - سبحانه - أن تولية الأدبار محرمة إلا فى حالتين فقال - تعالى - : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ .

وقوله : ﴿ متحرفا ﴾ من التحرف بمعنى الميل والانحراف من جهة إلى جهة بقصد المخادعة فى القتال وهو منصوب على الحالية .

وقوله ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ من التحيز بمعنى الانضمام . تقول : حزت الشىء أحوزه إذا ضممته إليك . وتحوزت الحية أى انطوت على نفسها .

والفئة : الجماعة من الناس . سميت بذلك لرجوع بعضهم إلى بعض فى التعاضد

والتناصر . من الفيء بمعنى الرجوع إلى حالة محمودة .

والمعنى : أن تولية الأدبار محرمة إلا فى حالتين :

الحالة الأولى : أن يكون المؤمن عند توليته الأدبار مائلا عن مكانه إلى مكان آخر أصلح للقتال فيه ، أو أن يكون منعطفا إلى قتال طائفة من الأدبار أهم من الطائفة التى أمامه ، أو أن يوهم عدوه بأنه منهزم أمامه استدراجا له ، ثم يكر عليه فيقتله .

الحالة الثانية : أن يكون فى توليه منحازا إلى جماعة أخرى من الجيش ومنضما إليها للتعاون معها على القتال ، حيث إنها فى حاجة إليه .

وهذا كله من أبواب خدع الحرب ومكايدها .

وقد توعد - سبحانه - الذى ينهزم أمام الأعداء فى غير هاتين الحالتين بقوله : ﴿ فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ .

أى : ومن يول الكافرين يوم لقائهم دبره غير متحرف ولا متحيز فقد رجع متلبسا بغضب شديد كائن من الله - تعالى - ومأواه الذى يأوى إليه فى الآخرة جهنم وبئس المصير هى .

وقوله : ﴿ فقد باء بغضب من الله .. ﴾ جواب الشرط لقوله ، ومن يولهم .

هذا ، ومن الاحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - وجوب مصابرة العدو ، والثبات فى وجهه عند القتال ، وتحريم الفرار منه .

قال الآلوسى : فى الآية دلالة على تحريم الفرار من الزحف على غير المتحرف أو المتحيز . أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

ثم قال : وجاء عد - التولى يوم الزحف - من الكبائر فى غير ما حديث [١] .

٢ - أن الخطاب فى الآيتين لجميع المؤمنين وليس خاصاً بأهل بدر . قال الفخر الرازى ما ملخصه : اختلف المفسرون فى أن هذا الحكم - وهو تحريم التولى أمام الزحف - هل هو مختص بيوم بدر أو هو حاصل على الإطلاق ؟

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٢٨ .

فنقل عن أبي سعيد الخدرى والحسن وقتادة والضحاك أن هذا الحكم مختص بمن كان انهزم يوم بدر . قالوا : والسبب فى اختصاص بدر بهذا الحكم أن رسول الله - ﷺ - كان حاضراً يوم بدر .. وأنه - سبحانه - شدد الأمر على أهل بدر ، لأنه كان أول الجهاد ، ولو اتفق للمسلمين انهزام فيه لزم منه الخلل العظيم .

والقول الثانى : أن الحكم المذكور فى هذه الآية كان عاماً فى جميع الحروب بدليل أن قوله - تعالى - ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا ... ﴾ عام فيتناول جميع الصور . أقصى ما فى الباب أنه نزل فى واقعة بدر ، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » [1] .

وهذا القول الثانى هو الذى نرجحه ، لأن ظاهر الآية يفيد العموم لكل المؤمنين فى كل زمان ومكان ، ولأن سورة الأنفال كلها قد نزلت بعد الفراغ من غزوة بدر لا قبل الدخول فيها .

٣ - أن ا لآيتين محكمتان وليستا منسوختين . أى أن تحريم التولى يوم الزحف على غير المتحرف أو المتحيز ثابت لم ينسخ .

وقد رجح ذلك الإمام ابن جرير فقال ما ملخصه : « سئل عطاء بن أبى رباح عن قوله ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ فقال : هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال بعد ذلك وهى قوله - تعالى - : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ... ﴾ وليس لقوم أن يفروا من مثليهم .

وقال آخرون : بل هذه الآية حكمها عام فى كل من ولى الدبر عن العدو منهزما .

وأولى التأويلين بالصواب فى هذه الآية عندى : قول من قال : حكمها محكم ، وأنها نزلت فى أهل بدر . وحكمها ثابت فى جميع المؤمنين . وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف القتال ، أو التحيز إلى فئة من المؤمنين ، حيث كانت من أرض الإسلام، وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف لقتال منهزما- بغير نية إحدى الخلتيين اللتين أباح الله التولية بها - فقد استوجب من الله وعيده ، إلا أن يتفضل عليه بعفوه .

وإنما قلنا : هى محكمة غير منسوخة ، لما قد بينا فى غير موضع ، أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ وله فى غير النسخ وجه ، إلا بحجة يجب التسليم لها : من خبر يقطع العذر ، أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قوله - تعالى - ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ﴾ [2] .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٠٣ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٠٣ .

ثم بين لهم - سبحانه - بعض مظاهر فضله عليهم ليزدادوا شكراً له ، وطاعة لأمره فقال - تعالى - : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم ﴾ .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ ، أى يوم بدر . روى أن أصحاب رسول الله - ﷺ - لما صدروا عن بدر .

ذكر كل واحد منهم ما فعل فقال : قتلت كذا ، وأسرت كذا ، فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاما بأن الله هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بكسبه وقصده ... »[1] .

وقال ابن كثير : قال على بن طلحة عن ابن عباس : رفع رسول الله - ﷺ - ، يديه - يعنى يوم بدر - فقال : « يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا ، فقال جبريل : « خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم » فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .

وقال السدى : قال رسول الله - ﷺ - لعلى يوم بدر « أعطنى حصا من الأرض » فناوله حصا عليه تراب ، فرمى به فى وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك التراب شىء ، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، وأنزل الله : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .. ﴾ .

وقال أبو معشر المدنى عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظى قالا : لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله - ﷺ - قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه القوم وقال : « شاهت الوجوه » ، فدخلت فى أعينهم كلهم . وأقبل أصحاب رسول الله - ﷺ - وأنزل الله . ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[2] .

وهناك روايات أخرى ذكرت أن قوله - تعالى - ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ المقصود به رميه - ﷺ - لأبى بن خلف يوم أحد ، أو رميه لكنانة بن أبى الحقيق فى غزوة خيبر ، أو رميه المشركين فى غزوة حنين .

قال ابن كثير : وقد روى فى هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت فى رمية النبى - ﷺ - يوم بدر ... وسياق الآية فى سورة الأنفال فى قصة بدر لا محالة ، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٨٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩٥ .

والمعنى : إنكم - أيها المؤمنون - لم تقتلوا المشركين فى بدر بقوتكم وشجاعتكم ، ولكن الله - تعالى - هو الذى أظفركم بحوله وقوته ، بأن خذلهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، وقوى قلوبكم ، وأمدكم بالملائكة ، ومنحكم من معونته ورعايته ما بلغكم هذا النصر .

والفاء فى قوله : ﴿ فلم تقتلوهم .. ﴾ يرى صاحب الكشاف أنها جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ لأنه هو الذى أنزل الملائكة ، وألقى الرعب فى قلوبهم ، وشاء النصر والظفر وأذهب عن قلوبكم الفزع والجزع .

وقوله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ خطاب للنبى - ﷺ - بطريق التلوين .

أى : ﴿ وما رميت ﴾ بالرعب فى قلوب الأعداء ﴿ إذ رميت ﴾ فى وجوههم بالحصباء يوم بدر ﴿ ولكن الله ﴾ - تعالى - هو الذى ﴿ رمى ﴾ بالرعب فى قلوبهم فهزمهم ونصركم عليهم .

أو المعنى : ما أوصلت الحصبا إلى أعينهم إذ رميتهم بها ، ولكن الله هو الذى أوصلها إليها .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة : يعنى أن الرمية التى رميتها - يا محمد - لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر، ولكنها كانت رمية الله، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم.. فأثبت الرمية لرسول الله - ﷺ - لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه ، لأن أثرها الذى لا تطيقه البشر فعل الله - عز وجل - ، فكان الله - تعالى - هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من الرسول - ﷺ - أصلا [1] .

وقال الآلوسى : واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه - تعالى - وإنما لهم كسبها ومباشرتها وقال الإمام : أثبت - سبحانه - كونه - ﷺ - راميا ، ونفى كونه راميا ، فوجب حمله على أنه - ﷺ - رمى كسبا ، والله - تعالى - رمى خلقا [2] .

فإن قيل : لماذا ذكر مفعول القتل منفياً ومثبتاً ولم يذكر للرمى مفعول قط ؟

فالجواب - كما يقول أبو السعود - : « أن المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفيا وإثباتا ، إذ هو الذى ظهر منه ما ظهر ، وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكثره إلى حيث أصاب عينى كل واحد من أولئك الأمة الجمة شىء من ذلك » [3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ بيان لبعض وجوه حكمته - سبحانه - فى خذلان الكافرين ، ونصر المؤمنين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٨٥ .

(٣) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٢٣ .

وقوله ﴿ ليبلى ﴾ من البلاء بمعنى الاختبار. وهو يكون بالنعمة لإظهار الشكر، كما يكون بالمحنة لإظهار الصبر . والمراد به هنا : الإحسان والنعمة والعطاء ، ليزداد المؤمنون شكراً لربهم الذى وهبهم ما وهب من نعم .

واللام للتعليل متعلقة بمحذوف مؤخر .

والمعنى، ولكى يحسن - سبحانه - إلى عباده المؤمنين، وينعم عليهم بالنصر والغنائم، ليزدادوا شكراً له ، فعل ما فعل من خذلان الكافرين وإذلالهم .

وقوله ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ تذييل قصد به الحض على طاعة الله ، والتحذير من معصيته ، أى : إن الله سميع لأقوالكم ودعائكم ، عليم بضمائركم وقلوبكم ، فاستبقوا الخيرات لتنالوا المزيد من رعايته ونصره .

ثم يقرر - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى تقوية الحق وتوهين الباطل ، وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم فيقول : ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ .

قال الإمام الرازى : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ موهن ﴾ - بفتح الواو وتشديد الهاء والتنوين . من التوهين . تقول وهنت الشىء أى ضعفته - ، ﴿ كيد ﴾ بالنصب على المفعولية . وقرأ حفص عن عاصم ﴿ موهن كيد ﴾ بالإضافة . وقرأ الباقون ﴿ موهن ﴾ بالتخفيف ، - من أوهننه فأنا موهنه بمعنى أضعفته - ﴿ وكيد ﴾ بالنصب وتوهين الله كيدهم ومكرهم يكون بأشياء منها : إطلاع المؤمنين على عوراتهم ، وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، وتفريق كلمتهم ، [١] .

واسم الإشارة ﴿ ذلكم ﴾ يعود إلى ما سبق من نعمة الإبلاء والقتل والرمى وغير ذلك من النعم . وهو مبتدأ وخبره محذوف ، وقوله : ﴿ وأن الله موهن .... ﴾ معطوف عليه .

المعنى : ذلكم الذى منحته إياكم من العطاء الحسن ، والقتل للمشركين ، والإمداد بالملائكة ، وإنزال الماء عليكم . ذلكم كله نعم منى إليكم ، ويضاف إلى ذلك كله أنه - سبحانه - مضعف لكيد الكافرين ومفسد لمكرهم بكم .

قال ابن كثير : وهذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر ، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنهم فى تبار ودمار » [٢] وبعد أن ذكر - سبحانه - عباده المؤمنين بما حباهم به من منن فى غزوة بدر ، ليستمروا على طاعتهم له ولرسوله .. أتبع ذلك بتوجيه الخطاب إلى الكافرين الذين حملهم الرسوخ فى الكفر على أن يدعو الله أن يجعل

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٤١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩٦ .

الدائرة فى بدر على أضل الفريقين فقال - تعالى - : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين ﴾ .

روى الإمام أحمد والنسائى والحاكم وصححه ، عن ثعلبة ، أن أبا جهل قال حين التقى القوم - فى بدر - : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرفه ، فأحنه - أى فأهلكه - الغداة . فكان المستفتح [١] .

وعن السدى أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أهدى الجندين ، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين . فقال - تعالى - ﴿ إن تستفتحوا .. الآية ﴾[٢] .

قال الراغب : وقوله : ﴿ إن تستفتحوا ... ﴾ أى : إن طلبتم الظفر ، أو طلبتم الفتاح أى الحكم .. والفتح إزالة الإغلاق والإشكال ... ويقال : فتح القضية فتاحا . أى فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها . قال - تعالى - : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ . والاستفتاح : الاستنصار - أى طلب النصر - قال - تعالى - ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ... ﴾[٣] .

والمعنى : إن تطلبوا الفتح أى : القضاء والفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ أى : فقد جاءكم الفصل والقضاء فيما طلبتم حيث حكم الله وقضى بينكم وبين المؤمنين ، بأن أعزهم ونصرهم لأنهم على الحق ، وخذلكم وأذلكم لأنكم على الباطل .

فالخطاب مسوق للكافرين على سبيل التهكم بهم ، والتوبيخ لهم ، حيث طلبوا من الله - تعالى - القضاء بينهم وبين المؤمنين ، والنصر عليهم ، فكان الأمر على عكس ما أرادوا حيث حكم الله فيهم بحكمه العادل وهو خذلانهم لكفرهم وجحودهم ، وإعلاء كلمة المؤمنين ، لأنهم على الطريق القويم .

وقوله : ﴿ وإن تنتهوا فهو خير لكم ﴾ أى : وإن تنتهوا عن الكفر وعداوة الحق ، يكن هذا الانتهاء خيراً لكم من الكفر ومحاربة الحق .

وقوله : ﴿ وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ... ﴾ تحذير لهم من التمادى فى الباطل بعد ترغيبهم فى الانقياد للحق .

أى : ﴿ وإن تعودوا ﴾ إلى محاربة الرسول - ﷺ - والمؤمنين وعداوتهم ﴿ نعد ﴾

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٠٨ .

(٣) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٧٠ - بتصرف وتلخيص .

عليكم بالهزيمة والذلة . وعلى المؤمنين بالنصر والعزة ، ولن تستطيع فئتكم وجماعتكم - ولو كثرت - أن تدفع عنكم شيئاً من تلك الهزيمة وهذه الذلة ، فإن الكثرة والقوة لا وزن لها ولا قيمة إذا لم يكن الله مع أصحابها بعونه وتأييده .

وقوله : ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ تذييل قصد به تثبيت المؤمنين ، وإلقاء الطمأنينة فى نفوسهم .

أى : وأن الله مع المؤمنين بعونه وتأييده ، ومن كان الله معه فلن يغلبه غالب مهما بلغت قوته .

قال الجمل : « قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم بفتح « أن » والباقون بكسرها . فالفتح من أوجه :

أحدها : أنه على لام العلة والمعلل تقديره ، ولأن الله مع المؤمنين كان كيت وكيت .

والثانى : أن التقدير : ولأن الله مع المؤمنين امتنع عنادهم . والثالث أنه خبر مبتدأ محذوف . أى : والأمر أن الله مع المؤمنين .

والوجه الأخير يقرب فى المعنى من قراءة الكسر لأنه استئناف [1] .

هذا وما جرينا عليه من أن الخطاب فى قوله - تعالى - ﴿ إن تستفحوا .. ﴾ للمشركين هو رأى جمهور المفسرين .

ومنهم من يرى أن الخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين ، وعليه يكون المعنى : ﴿ إن تستفتحوا ... ﴾ أى تطلبوا - أيها المؤمنون - النصر على أعدائكم ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ أى : فقد جاءكم النصر من عند الله كما طلبتم .

﴿ وإن تنتهوا ﴾ أى عن المنازعة فى أمر الانفال ، وعن التكاسل فى طاعة الله ورسوله ، ﴿ فهو ﴾ أى هذا الانتهاء ﴿ خير لكم ﴾ .

﴿ وإن تعودوا ﴾ إلى المنازعات والتكاسل ﴿ نعد ﴾ عليكم بالإنكار وتهييج الأعداء .

﴿ ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ﴾ أى : ولن تفيدكم كثرتكم شيئاً مهما كثرت إن لم يكن الله معكم بنصره .

وأن الله - تعالى - مع المؤمنين الصادقين فى إيمانهم وطاعتهم له .

والذى يبدو لنا أن كون الخطاب للكافرين أرجح ، لأن أسباب النزول تؤيده ، فقد سبق أن بينا أن الكافرين عند خروجهم إلى بدر تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر اهدى الجندين .. وأن أبا جهل قال حين التقى القوم :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٣٦ .

اللهم أينا أقطع للرحم .. فأحنه الغداة . قال ابن جرير : فكان ذلك استفتاحه ، فأنزل الله فى ذلك ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح .. ﴾[١] .

ولعل مما يرجح أن الخطاب فى قوله- تعالى- ﴿ إن تستفتحوا ... ﴾ للكافرين، أن بعض المفسرين - كابن جرير وابن كثير - ساروا فى تفسيرهم للآية على ذلك ، وأهملوا الرأى القائل بأن الخطاب للمؤمنين فلم يذكروه أصلا .

أما صاحب الكشاف فقد ذكره بصيغة « وقيل » وصدر كلامه بكون الخطاب للكافرين فقال : قوله - تعالى - : ﴿ إن تستفتحوا .. ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم ، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أقرانا للضيف ، وأوصلنا للرحم ، وأفكنا للعانى ... »[٢] .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة التى افتتحت بنداء المؤمنين ، قد أمرتهم بالثبات عند لقاء الأعداء .. وبينت لهم جوانب من مظاهر فضل الله عليهم ، ورعايته لهم .. ورغبت المشركين فى الانتهاء عن شركهم وعن محاربتهم للحق ، وحذرتهم من التمادى فى باطلهم وطغيانهم .. وأخبرتهم فى ختامها بأن الله - تعالى - مع المؤمنين بتأييده ونصره .

ثم وجهت السورة الكريمة نداء ثانياً إلى المؤمنين ، أمرتهم بطاعة الله ورسوله ، ونهتهم عن التشبه بالكافرين وأمثالهم من المنافقين .

فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٠٨ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٠٨ .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا حق الإيمان ، أطيعوا الله ورسوله فى كل أحوالكم ، ﴿ ولا تولوا عنه ﴾ أى ولا تعرضوا عنه ، فإن فى إعراضكم عنه خسارة عظيمة لكم فى دنياكم وآخرتكم .

قال الآلوسى : « وأعيد الضمير إليه - ﷺ - ، لأن المقصود طاعته ، وذكر طاعة الله - تعالى - توطئة لطاعته ، وهى مستلزمة لطاعة الله - تعالى - ، لأنه مبلغ عنه ، فكان الراجع إليه - ﷺ - كالراجع إلى الله - تعالى - »[1] .

وقوله : ﴿ وأنتم تسمعون ﴾ جملة حالية مسوقة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولى مطلقا ، لا لتقييد النهى عنه بحال السماع .

أى أطيعوا الله ورسوله - أيها المؤمنون - ولا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته ، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته وقوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ تأكيد لما قبله ، ونهى لهم عن التشبه بالضالين .

أى أطيعوا الله ورسوله فى كل أحوالكم عن إخلاص وإذعان ، ولا تقصروا فى ذلك فى وقت من الأوقات ، وإياكم أن تتشبهوا بأولئك الكافرين والمنافقين الذين ادعوا السماع فقالوا سمعنا ، والحال أنهم لم يسمعوا سماع تدبر واتعاظ ، لأنهم لم يصدقوا ما سمعوه ، ولم يتأثروا به . بل نبذوه وراء ظهورهم .

فالمنفى فى قوله - تعالى - ﴿ وهم لا يسمعون ﴾ سماع خاص ، وهو سماع التدبر والاتعاظ ، لكنه جىء به على سبيل الإطلاق ، للإشعار بأنهم قد نزلوا منزلة من لم يسمع أصلا ، بجعل سماعهم بمنزلة العدم ، حيث إنه سماع لا وزن له ، ولا فائدة لهم من ورائه ، مع أنهم لو فتحوا آذانهم وقلوبهم للحق لاستفادوا ، ولكنهم آثروا الغى على الرشد .

ثم وصف - سبحانه - الكفار والمنافقين وأشباههم وصفاً يحمل العقلاء على النفور منهم ، فقال - تعالى - : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون .. ﴾ .

والدواب : جمع دابة وهى كل ما يدب على الأرض . قال - تعالى - : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع .. ﴾[2] .

قال الجمل : « وإطلاق الدابة على الإنسان لما ذكروه فى كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدميا ، وفى المصباح : الدابة كل حيوان فى الأرض مميزا أو غير مميز »[3] .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى نفر من بنى عبد الدار ، كانوا يقولون : نحن صم بكم عما

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧٨ .
(٢) سورة النور الآية ٤٥ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٣٦ .

جاء به محمد ، فقتلوا جميعا يوم بدر .

وهذا لا يمنع أن الآية الكريمة يشمل حكمها جميع المشركين والمنافقين ، إذ العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

والمعنى : إن شر ما يدب على الأرض ﴿ عند الله ﴾ أى : فى حكمه وقضائه ، هم أولئك ﴿ الصم ﴾ عن سماع الحق ﴿ البكم ﴾ عن النطق به ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ أى لا يعقلون التمييز بينه وبين الباطل .

ووصفهم - سبحانه - بذلك مع أنهم يسمعون وينطقون ، لأنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس ، بل استعملوها فيما يضر ويؤذى ، فكان وجودها فيهم كعدمها .

وقدم الصمم على البكم ، لأن صممهم عن سماع الحق متقدم على بكمهم فإن السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له ، كما أن النطق به من فروع سماعه .

وقوله ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ تحقيق لكمال سوء حالهم ، لأن الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما فهم بعض الأمور .. أما إذا كان بجانب صممه وبكمه فاقد العقل ، فإنه فى هذه الحالة يكون قد بلغ الغاية فى سوء الحال ..

قال صاحب المنار : وقوله : ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ أى : فقدوا فضيلة العقل الذى يميز بين الحق والباطل والخير والشر ، إذ لو عقلوا لطلبوا ، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا ،ولو سمعوا لنطقوا وبينوا ، وتذكروا وذكروا .. فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق صاروا كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى .. بل هم شر من ذلك لأنهم اعطيت لهم المشاعر والقوى فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله لأجله ، فهم كما قال الشاعر :

خِلقوا ، وما خُلِقوا لمكرمة ... فكأنهم خلقوا وما خلقوا

رُزقوا وما رزقوا سماح يد ... فكأنهم رزقوا وما رزقوا

ولم يصفهم هنا بالعمى كما وصفهم فى آية الأعراف وآيتى البقرة ، لأن المقام هنا مقام تعريض بالذين ردوا دعوة الإسلام ، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن »[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ... ﴾ بيان لما جبلوا عليه من إيثار الغي على الرشد ، والضلالة على الهداية .

أى : ولو علم الله - تعالى - فى هؤلاء الصم البكم ﴿ خيرا ﴾ أى : استعدادا للإيمان ورغبة فيما يصلح نفوسهم وقلوبهم ﴿ لأسمعهم ﴾ سماع تفهم وتدبر ، أى : لجعلهم سامعين للحق ، ومستجيبين له ، ولكنه - سبحانه - لم يعلم فيهم شيئا من ذلك ، فحجب خيره عنهم بسبب سوء استعدادهم .

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٧٨ .

ولذا قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ أى : ولو أسمعهم سماع تفهم وتدبر ، وهم على هذه الحالة العارية من كل خير لتولوا عما سمعوه من الحق ﴿ وهم معرضون ﴾ عن قبوله جحودا وعنادا .

قال الفخر الرازى : قوله - تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ أى : أن كل ما كان حاصلا ، فإنه يجب أن يعلمه الله ، فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه ، فلا جرم حسن التعبير عن عدمه فى نفسه بعدم علم الله بوجوده ، وتقرير الكلام : لو حصل فيهم خير لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم ، ولو أسمعهم بعد أن علم أنه لا خير فيهم لم ينتفعوا به ، ولتولوا وهم معرضون »[1] .

ثم وجه - سبحانه - إلى المؤمنين نداء ثالثا أمرهم فيه بالاستجابة لتعاليمه ، وحذرهم من الأقوال والأعمال التى تكون سبباً فى عذابهم ، وذكرهم بجانب من مننه عليهم ، فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول .. ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف ، والاستجابة :

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١١٤ .

الإجابة .. قال الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب [١]

أى : فلم يجبه عند ذاك مجيب .

وكان الإمام القرطبى يرى أن السين والتاء فى قوله : « استجيبوا » زائدتان .

ولعل الأحسن من ذلك أن تكون السين والتاء للطلب ، لأن الاستجابة هى الإجابة بنشاط وحسن استعداد .

وقوله ﴿ لما يحييكم ﴾ أى لما يصلحكم من أعمال البر والخير والطاعة ، التى توصلكم متى تمسكتم بها إلى الحياة الكريمة الطيبة فى الدنيا ، وإلى السعادة التى ليس بعدها سعادة فى الآخرة .

وهذا المعنى الذى ذكرناه لقوله ﴿ لما يحييكم ﴾ أدق مما ذكره بعضهم من أن المراد بما يحييهم القرآن ، أو الجهاد ، أو العلم ... إلخ .

وذلك ، لأن أعمال البر والخير والطاعة تشمل كل هذا .

والمعنى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ بالله حق الإيمان ، ﴿ استجيبوا لله وللرسول ﴾ عن طواعية واختيار ، ونشاط وحسن استعداد ﴿ إذا دعاكم ﴾ الرسول - صلى الله عليه وسلم - ﴿ لما يحييكم ﴾ أى : إلى ما يصلح أحوالكم ، ويرفع درجاتكم ، من الأقوال النافعة ، والأعمال الحسنة ، التى بالتمسك بها تحيون حياة طيبة : وتظفرون بالسعادتين : الدنيوية والأخروية .

والضمير فى قوله ﴿ دعاكم ﴾ يعود إلى رسول الله - ﷺ - لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله ، ولأن فى الاستجابة له استجابة لله - تعالى -

قال - سبحانه - : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ تحذير لهم من الغفلة عن ذكر الله ، وبعث لهم على مواصلة الطاعة له - سبحانه - .

وقوله : ﴿ يحول ﴾ من الحول بين الشىء والشىء ، بمعنى الحجز والفصل بينهما .

قال الراغب : أصل الحول تغير الشىء وانفصاله عن غيره ، وباعتبار التغير قيل حال الشىء يحول حولا واستحال تهيأ لأن يحول : وباعتبار الانفصال قيل حال بينى وبينك كذا ... أى فصل .. » [٣] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٨٩ .

(٢) سورة النساء . الآية ٨٠ .

(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ١٣٧ .

هذا ، وللمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال متعددة أهمها قولان :

أما القول الأول فهو أن المراد بالحيلولة بين المرء وقلبه - كما يقول ابن جرير - : أنه - سبحانه - أملك لقلوب عباده منهم وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء ، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك شيئا من إيمان أو كفر ، أو أن يعى به شيئا ، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته ، وذلك أن الحول بين الشىء والشىء إنما هو الحجز بينهما ، وإذا حجز - جل ثناؤه - بين عبد وقلبه فى شىء أن يدركه أو يفهمه ، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه إدراكه سبيل ، وإذا كان ذلك معناه دخل فى ذلك قول من قال : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان .

وقول من قال : يحول بينه وبين عقله . وقول من قال : يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه .. فالخبر على العموم حتى يخصصه ما يجب التسليم له ،[1] .

وقد رجح ابن جرير هذا القول بعد أن ذكر قبله بعض الأقوال الأخرى .

وقال ابن كثير - بعد أن لخص القول الذى رجحه ابن جرير - : وقد وردت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - يقول : إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفها كيف شاء ، ثم قال رسول الله - ﷺ - : (اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك) .

وروى : الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه عن النواس بن سمعان الكلابى قال : سمعت النبى - ﷺ - يقول : ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه »[2] .

أما القول الثانى فهو أن المراد بالحيلولة بين المرء وقلبه - كما يقول الزمخشرى - « أنه - سبحانه - يميت المرء فتفوته الفرصة التى هو واجدها ، وهى التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله ، ورده سليما كما يريده الله ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله ،[3] .

أو - كما يقول الفخر الرازى - بعبارة أوضح : « أن المراد أنه - تعالى - يحول بين المرء وبين ما يتمناه ويريده بقلبه ، فإن الأجل يحول دون الأمل . فكأنه قال : بادروا إلى الأعمال الصالحة ولا تعتمدوا على ما يقع فى قلوبكم من توقع طول البقاء ، فإن ذلك غير موثوق به ،

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩٨ - باختصار يسير -

(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٠ .

وإنما حسن إطلاق لفظ القلب على الأمانى الحاصلة فى القلب ، لأن تسمية الشيء باسم ظرفه جائزة كقولهم : سال الوادى ، [1] .

والذى نراه أن القول الثانى أولى بالقبول ، لأن الآية الكريمة ساقته لحض المؤمنين على سرعة الاستجابة للحق الذى دعاهم إليه رسوله ﷺ والذى باتباعه يحيون حياة طيبة ، وتذكيرهم بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب ، كما قال - تعالى - فى ختامها ﴿ وأنه إليه تحشرون ﴾ .

وليست مسوقة لإثبات قدرة الله ، وأنه أملك لقلوب عباده منهم : وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء .

فالمعنى الذى ذكره ابن جرير - وتابعه عليه ابن كثير وغيره ، معنى وجيه فى ذاته ، إذ لا ينكر أحد أن الله مقلب القلوب ومالكها .. ولكن ليس مناسبا هنا مناسبة المعنى الذى ذكره الزمخشرى والرازى ، لأن الآية التى معنا والتى بعدها صريحتان فى دعوة المؤمنين إلى الاستجابة للحق قبل أن يفاجئهم الموت ، وقبل أن تحل بهم مصيبة لا تصيب الظالمين منهم خاصة .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ﴾ بعزيمة صادقة ، وسرعة فائقة ، ﴿ إذا دعاكم ﴾ الرسول - صلى الله عليه وسلم - ﴿ لما يحييكم ﴾ أى لما به تحيون حياة طيبة من الأقوال والأعمال الصالحة ﴿ واعلموا ﴾ علما يقينا ﴿ أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ أى يحول بين المرء وبين ما يتمناه قلبه من شهوات الدنيا ومتعها : فكم من إنسان يؤمل أنه سيفعل كذا غدا ، وسيجمع كذا فى المستقبل ، وسيحصل على كذا قريبا .. ثم يحول الموت ويفصل بينه وبين آماله وأمانيه .. فبادروا إلى اغتنام الأعمال الصالحة من قبل أن يفاجئكم الموت .

وقوله : ﴿ وأنه إليه تحشرون ﴾ تذييل قصد به تذكيرهم بأهوال يوم القيامة . والضمير فى قوله ﴿ وأنه ﴾ يعود إلى الله تعالى - أو هو ضمير الشأن . أى : وأنه - سبحانه - إليه وحده ترجعون لا إلى غيره ، فيحاسبكم على ما قدمتم وما أخرتم ، ويجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد جمعت بين الترغيب . فى العمل الصالح بسرعة ونشاط ، وبين الترهيب من التكاسل والغفلة عن طاعة الله .

ثم يؤكد - سبحانه - بعد ذلك ترهيبه لهم من التراخى فى تغيير المنكر فيقول: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٤٨ - وقد ذكر بضعة أقوال غير هذا القول فراجعه إن شئت .

والفتنة : من الفتن . وأصله - كما يقول الراغب - : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل فى إدخال الإنسان النار .

كما فى قوله - تعالى - ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ أى : عذابكم . وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فتنة فيستعمل فيه نحو قوله - تعالى - : ﴿ ألا فى الفتنة سقطوا ﴾ . وتارة فى الاختيار نحو قوله - تعالى - ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ [١] .

والمراد بالفتنة هنا العذاب الدنيوى ، كالأمراض ، والقحط ، واضطراب الأحوال ، وتسلط الظلمة ، وعدم الأمان .. وغير ذلك من المحن والمصائب والآلام التى تنزل بالناس بسبب غشيانهم الذنوب ، وإقرارهم للمنكرات ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والخطاب لجميع المؤمنين فى كل زمان ومكان .

فالمعنى : داوموا أيها المؤمنون على طاعة الله بقوة ونشاط ، واحذروا من أن ينزل بكم عذاب سيعم عند نزوله الأخيار والفجار والمحسنين والمسيئين .

وقوله ، ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ المراد منه الحث على لزوم الاستقامة خوفا من عقاب الله - تعالى - .

أى : واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ، وانتهك حرماته .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ لا تصيبن ﴾ لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر ، أو نهيا بعد أمر ، أو صفة لفتنة .

فإذا كان جواباً فالمعنى : إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم ... وإذا كانت نهيا بعد أمر فكأنه قيل : واحذروا ذنباً أو عقاباً ، ثم قيل : لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله الجميع وليس من ظلم منكم خاصة .

فإن قلت : كيف جاز دخول النون المؤكدة فى جواب الأمر ؟

قلت : لأن فيه معنى النهى - ومتى كان كذلك جاز إدخال النون المؤكدة - كما إذا قلت : انزل عن الدابة لا تطرحك أو لا تطرحنك . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ [٢] .

وقوله ﴿ خاصة ﴾ منصوب على الحال من الفاعل المستكن فى قوله ﴿ لا تصيبن ﴾ . ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف . والتقدير : إصابة خاصة .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٧١ للراغب الأصفهانى .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢١١ - بتصريف يسير -

هذا ، وقد دلت الآية الكريمة على وجوب الإقلاع عن المعاصى ، ووجوب محاربة مرتكبيها ، فإن الأمة التى تشيع فيها المعاصى والمظالم والمنكرات .. ثم لا تجد من يحاربها ويعمل على إزالتها ، تستحق العقوبة جزاء سكوتها واستخذائها وجبنها .

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى حق بعض الصحابة الذين اشتركوا فى واقعة الجمل فيما بعد .

ولكن هذا القول غير صحيح ؛ لأن الآية الكريمة تخاطب المؤمنين جميعاً فى كل زمان ومكان ، وأمرهم بالبعد عن المعاصى والمنكرات التى تفضى بهم إلى العذاب الدنيوى قبل الأخروى . وليست خاصة بفريق دون فريق .

لذا قال ابن كثير : والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم هو الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة فى التحذير من الفتن .

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عدى بن عميرة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله - تعالى - لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلاينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة».

وروى الإمام أحمد أيضاً عن جرير بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى وهم أعز وأكثر ممن يعملون ، ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله بعقاب »(١) .

وقال الإمام القرطبى : قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب .

ففى صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله - ﷺ - فقالت له : يارسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » .

وفى صحيح الترمذى : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه ، أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

وفى صحيح البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى - ﷺ - قال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا - أى اقترعوا - على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩٩ - وهناك أحاديث أخرى ذكرها فى هذا فراجعها إن شئت .

ففى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة .

قال علماؤنا : فالفتنة إذا عمت هلك الكل وذلك عند ظهور المعاصى ، وانتشار المنكر وعدم التغيير . وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها .

روى ابن وهب عن مالك قال : تهجر الأرض التى يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها .

واحتج بصنيع أبى الدرداء فى خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا ، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها .

فإن قيل : فقد قال الله - تعالى - ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وقال : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ . وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب ؟

فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره ، فإذا سكت عليه فكلهم عاص ؛ هذا بفعله وهذا برضاه ، وقد جعل الله فى حكمه الراضى بمنزلة العامل ؛ فانتظم فى العقوبة[1] .

وقال بعض العلماء : وذكر القسطلانى « أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذى يقع فى الدين بفعل المعاصى ، فلا يتحقق كون الإنسان كارها له ، إلا إذا تألم للخلل الذى يقع فى الدين ، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده . فكل من لم يكن بهذه الحالة ، فهو راض بالمنكر ، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار[2] .

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بالاستجابة له ونهاهم عن الوقوع فى المعاصى .. أخذ فى تذكيرهم بجانب من فضله عليهم فقال : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ... ﴾ .

أى : ﴿اذكروا﴾ يا معشر المؤمنين ﴿إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ﴾ أى : وقت أن كنتم قلة مستضعفة فى أرض مكة تحت أيدى كفار قريش . أو فى أرض الجزيرة العربية حيث كانت الدولة لغيركم من الفرس والروم .

وقوله : ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ أى : تخافون أن يأخذكم أعداؤكم أخذا سريعا . لقوتهم وضعفكم . يقال خطفه - من باب تعب - أى : استلبه بسرعة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٩١ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٢٩٧٧ .

والمراد بالتذكر فى قوله : ﴿ اذكروا ﴾ أن يتنبهوا بعقولهم وقلوبهم إلى نعم الله، وأن يداوموا على شكرها حتى يزيدهم - سبحانه - من فضله .

و ﴿ إذ ﴾ ظرف بمعنى وقت . و ﴿ أنتم ﴾ مبتدأ ، أخبر عنه بثلاثة أخبار بعده وهى ﴿ قليل ﴾ و﴿ مستضعفون ﴾ و﴿ تخافون ﴾ .

والمراد بالناس : كفار قريش ، أوهم وغيرهم من كفار العرب والفرس والروم .

وقوله : ﴿ فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات ﴾ بيان لما من به عليهم من نعم بعد أن كانوا محرومين منها .

أى : اذكروا وقت أن كنتم قلة ضعيفة مستضعفة تخشى - أن يأخذها أعداؤها أخذا سريعا ، فرفع الله عنكم بفضله هذه الحال ، وأبدلكم خيرا منها ، بأن ﴿ آواكم ﴾ إلى المدينة ، وألف بين قلوبكم يا معشر المهاجرين والأنصار ﴿ وأيدكم بنصره ﴾ فى غزوة بدر ، وقذف فى قلوب أعدائكم الرعب منكم ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أى : ورزقكم من الغنائم التى أحلها لكم بعد أن كانت محرمة على الذين من قبلكم ، كما رزقكم - أيضا بكثير من المطاعم والمشارب الطيبة التى لم تكن متوفرة لكم قبل ذلك .

وقوله ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ تذييل قصد به حضهم على مداومة الشكر والطاعة لله - عز وجل - أى : نقلكم الله - تعالى - من الشدة إلى الرخاء ، ومن القلة إلى الكثرة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الخوف إلى الأمن ، ومن الفقر إلى الغنى .. حتى تستمروا على طاعة الله وشكره ، ولا يشغلكم عن ذلك أى شاغل .

قال ابن جرير : قال قتادة فى قوله - تعالى - ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض .. ﴾ :

« كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشا وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالا ، من عاش منهم عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منهم منزلا ، حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس . فبالاسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر فى مزيد من الله - تعالى - »[1] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الثلاثة قد جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير ... الترغيب

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٢٠ .

كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ... ﴾ .

والترهيب كما فى قوله - تعالى - : ﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ... ﴾ .

والتذكير كما فى قوله - تعالى - ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ... ﴾ .

وبالترغيب فى الطاعات ، وبالترهيب من المعاصى ، وبالتذكير بالنعم ، ينجح الدعاة فى دعوتهم إلى الله .

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداء رابعا وخامسا إلى المؤمنين فقال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا ﴾ روايات منها :

ما جاء عن ابن عباس من أنها نزلت فى أبى لبابة حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بنى قريظة فقالوا له : يا أبالباية ما ترى؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ فينا؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه . أى أن حكم سعد فيكم سيكون الذبح فلا تنزلوا .

قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماى - عن مكانهما - حتى علمت أنى قد خنت الله ورسوله .

ومنها ما جاء عن جابر بن عبد الله من أنها نزلت فى منافق كتب إلى أبى سفيان يطلعه على سر من أسرار المسلمين .

ومنها ما جاء عن السدى من أنها نزلت فى قوم كانوا يسمعون الشىء عن النبى - صلى الله

عليه وسلم - ثم يحدثون به المشركين ..» [١] .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ؛ فإن الأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هو المعتمد عند الجماهير من العلماء .

وقوله ﴿ لا تخونوا ﴾ من الخون بمعنى النقص . يقال خونه تخويناً أى : نسبه إلى الخيانة ونقصه .

قال صاحب الكشاف : معنى الخون : النقص ، كما أن معنى الوفاء التمام . ومنه تخونه إذا تنقصه ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء ؛ لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان فيه . وقد استعير فقيل : خان الدلو الكرب - والكرب حبل يشد فى رأس الدلو - وخان المشتار السبب . والمشتار مجتنى العسل والسبب الحبل - لأنه إذا انقطع به فكأنه لم يف له » [٢] .

والمقصود بخيانة الله : ترك فرائضه وأوامره التى كلف العباد بها ، وانتهاك حرماته التى نهى عن الاقتراب منها .

والمقصود بخيانة الرسول - ﷺ - : إهمال سننه التى جاء بها وأمرنا بالتقيد بتعاليمها .

والمقصود بالأمانات : الأسرار والعهود والودائع وغير ذلك من الشئون التى تكون بينهم وبين غيرهم مما يجب أن يصان ويحفظ .

والمعنى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ﴾ بأن تهملوا فرائضه ، وتتعدوا حدوده ، ولا تخونوا ﴿ الرسول ﴾ - ﷺ - ، بأن تتركوا سنته وتنصرفوا إلى غيرها ، وتخالفوا ما أمركم به وتجترحوا ما نهاكم عنه ، ولا تخونوا ﴿ أماناتكم ﴾ بأن تفشوا الأسرار التى بينكم ، وتنقضوا العهود التى تعاهدتم على الوفاء بها ، وتنكروا الودائع التى أودعها لديكم غيركم ، وتستبيحوا ما يجب حفظه من سائر الحقوق المادية والمعنوية ، فقوله : ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ معطوف على قوله ﴿ لا تخونوا ﴾ .

وأعاد النهى للإشعار بأن كل واحد من المنهى عنه مقصود بذاته اهتماما به .

وقوله : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ الواو للحال ، والمفعول محذوف . أى . والحال أنكم تعلمون سوء عاقبة الخائن لله ولرسوله وللأمانات التى اؤتمن عليها ، فعليكم أن تتجنبوا الخيانة فى جميع صورها ؛ لتنالوا رضى الله ومثوبته .

---

(١) راجع تفسير بن جرير جـ ٩ ص ٢٢١ . وتفسير الفخر الرازى جـ٥ ص١٥١ وابن كثير جـ٢ ص٣٠٠.
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٣ .

ولما كان حب الأموال والأولاد والاشتغال بهم من أهم دواعى الاقدام على الخيانة، نبه - سبحانه - إلى ذلك فقال : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ .

أى : واعلموا - أيها المؤمنون - أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، أى امتحان واختبار لكم من الله - تعالى - ليتبين قوى الإيمان من ضعيفه .

أما قوى الإيمان فلا يشغله ماله وولده عن طاعة الله ، وأما ضعيف الإيمان فيشغله ذلك عن طاعة الله ، ويجعله يعيش حياته عبداً لأمواله ، ومطيعا لمطالب أولاده حتى ولو كانت هذه الطاعة متنافية مع تعاليم دينه وآدابه .

وقال صاحب المنار : الفتنة هى الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه ، أو قبوله أو إنكاره .

وأموال الإنسان عليها مدار حياته ، وتحصيل رغائبه وشهواته ، ودفع كثير من المكاره عنه ، فهو يتكلف فى طلبها المشاق ، ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه فى القصد والاعتدال فى إنفاقها .

وأما الأولاد فحبهم - كما يقول الأستاذ الامام - ضرب من الجنون يلقيه الفاطر الحكيم فى قلوب الأمهات والآباء ، فيحملهم على بذل كل ما يستطاع بذله فى سبيلهم .

روى أبو ليلى من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا « الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة مبخلة محزنة » . فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الآثام ، وعلى الجبن ، وعلى البخل ، وعلى الحزن .

فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الأولى يكسب المال من وجوهه الحلال ، وإنفاقه فى وجوهه المشروعة .. واتقاء خطر الفتنة الثانية باتباع ما أوجبه الله على الآباء من حسن تربية الأولاد على الدين والفضائل ، وتجنبهم أسباب المعاصى والرذائل »[1] .

وقوله ﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ تذييل قصد به ترغيب المؤمنين فى طاعة الله ، بعد أن حذرهم من فتنة المال والولد .

أى : واعلموا أن الله عنده أجر عظيم لمن آثر طاعته ورضاه على جمع المال وحب الأولاد ، فكونوا - أيها المؤمنون - من حزب المؤثرين لحب الله على حب الأموال والأولاد لتنالوا السعادة فى الدنيا والآخرة .

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٩٤ - بتصرف وتلخيص .

ثم ختم سبحانه - نداءاته للمؤمنين بهذا النداء الذى يهديهم إلى سبل الخير والفلاح فقال - سبحانه - ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

والفرقان فى كلام العرب - كما يقول ابن جرير - مصدر من قولهم فرقت بين الشىء والشىء أفرق بينهما فرقاً وفرقاناً - أى أفرق وأفصل بينهما .

وقد اختلف أهل التأويل فى العبارة عند تأويل قوله ﴿ يجعل لكم فرقانا ﴾ فقال بعضهم: يجعل لكم مخرجا . وقال بعضهم نجاة ، وقال بعضهم فصلا وفرقا بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم .. وكل ذلك متقارب المعنى ، وإن اختلفت العبارة .. » [1] .

وقال الآلوسى : ﴿ فرقانا ﴾ أى : هداية ونورا فى قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل - كما روى عن ابن جريج وابن زيد - أو نصرا يفرق به بين الحق والباطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين - كما قال الفراء - أو نجاة فى الدارين - كما هو كلام السدى - أو مخرجا من الشبهات - كما جاء عن مقاتل - أوظهورا يشهر أمركم وينشر صيتكم - كما يشعر به كلام محمد بن إسحاق - من بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أى الصبح . وكل المعانى ترجع إلى الفرق بين أمرين . وجوز البعض من المحققين الجمع بينها » [2] .

ونحن مع هذا البعض من المحققين فى جواز الجمع بين هذه المعانى فيكون المعنى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله ﴾ بأن تصونوا أنفسكم عن كل مايغضبه، وتطيعوه فى السر والعلن ﴿ يجعل لكم فرقانا ﴾ أى هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل ونصرا تعلو به كلمتكم على كلمة أعدائكم ، ومخرجا من الشبهات التى تقلق النفوس ، ونجاة مما تخافون ، .. وفضلا عن كل ذلك فإنه - سبحانه - يكفر عنكم سيئاتكم ، أى يسترها عليكم فى الدنيا ، ﴿ ويغفر لكم ﴾ أى : ويغفر لكم يوم القيامة ما فرط منكم من ذنوب بلطفه وإحسانه وقوله : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ تذييل قصد به التعليل لما قبله ، والتنبيه على أن ماوعد به - سبحانه - المؤمنين على تقواهم إنما هو تفضل منه لهم ، فهو - سبحانه - صاحب العطاء الجزيل ، والخير العميم . لمن أطاعه واتقاه ، وصان نفسه عما يسخطه ويغضبه .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد رتب على تقواه وعلى الخوف منه نعما عظمى ، ومننا كبرى ، وأى نعم يتطلع إليها المؤمنون أفضل من هداية القلوب وتكفير الخطايا والذنوب ؟ .

اللهم لا تحرمنا من هذه النعم والمنن بفضلك وإحسانك ، فأنت وحدك صاحب العطاء العميم ، وأنت وحدك ذو الفضل العظيم ، وأنت وحدك على كل شىء قدير .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٢٤ - بتصرف وتلخيص . (٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٩٦ .

وبعد : فنحن - أخى القارىء - لو استعرضنا سورة الأنفال من مطلعها إلى هنا ، لرأيناها تحدثنا - على سبيل الإجمال - عن :

(أ) أحكام الأنفال ، وأن مرد الحكم فيها إلى الله ورسوله ..

(ب) وعن الصفات الكريمة التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون لينالوا مغفرة الله ورضوانه .

(جـ) وعن أحوال بعض المؤمنين الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، وكانوا يفضلون العير على النفير . ولكن - الله تعالى - بين لهم أن الخير فيما قدره لا فيما يفضلون .

(د) وعن النعم والبشارات وأسباب النصر التى أمد الله بها المؤمنين فى بدر والتى كان من آثارها ارتفاع شأنهم ، واندحار شأن أعدائهم .

(هـ) وعن التوجيهات الحكيمة التى أعقبت تلك النداءات الخمسة التى نادى الله بها المؤمنين ، فقد أمرهم - سبحانه - بالثبات فى وجه أعدائهم ، وبالطاعة التامة له ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - وبالاستجابة السريعة للحق الذى جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم -.. ونهتهم عن التولى يوم الزحف؛ وعن التشبه بمن قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، وعن إقرار المنكرات والبدع والرضا بها ، وعن خيانة الله والرسول ، وعن خيانة الأمانات التى تجب صيانتها والمحافظة عليها .

ووعدهم - سبحانه - بهداية القلوب ، وتكفير الخطايا والذنوب ، متى اتقوه ووقفوا عند حدوده .

(و) والآن ، وبعد هذاالتوجيه الحكيم ، والتأديب القويم ، والتعليم النافع والتذكير بالنعم ، والتحذير من النقم .. ماذا نرى ؟

نرى السورة الكريمة تأخذ فى تذكير المؤمنين بجوانب من جرائم أعدائهم فتقص عليهم ما كان من هؤلاء الأعداء من تآمر على حياة رسولهم - ﷺ - ومن تهكم بالقرآن الكريم وادعاء أنهم فى استطاعتهم أن يأتوا بمثله لو شاءوا ، ومن استهزاء بتعاليم الإسلام ، وسخرية بشعائره وعباداته ، ومن إنفاق لأموالهم ليصدوا الناس عن الطريق للحق ، ومن إصرار على العناد والجحود جعلهم يستعجلون العذاب .

ومع كل هذا فالسورة الكريمة تفتح الباب فى وجوه هؤلاء الجاحدين المعاندين ، وتأمر المؤمنين أن ينصحوهم بالدخول فى دين الله .. فإذا لم يستجيبوا لنصحهم فعليهم أن يقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

استمع - أخى القارىء - بتدبر إلى الآيات التى تحكى كل ذلك بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ
فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قال ابن كثير : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ أنه قال : تشاورت قريش ليلة بمكة - فى شأن النبى - صلى الله عليه وسلم ، وذلك بعد أن رأوا أمره قد اشتهر ، وأن غيرهم قد آمن به - فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق . وقال بعضهم بل اقتلوه . وقال بعضهم بل أخرجوه . ثم اتفقوا أخيرا على قتله - ، فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك ، وأمره أن لا يبيت فى مضجعه ، فأمر النبى - ﷺ - عليا أن يبيت مكانه ففعل وخرج النبى - ﷺ - حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى - ﷺ - فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا عليا قالوا له أين صاحبك ؟ قال : لا أدرى . فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار ، فرأو على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال .

وقد ذكر ابن كثير وغيره روايات أخرى تتعلق بهذه الآية ، إلا أننا نكتفى بهذه الرواية ، لإفادتها بالمطلوب فى موضوعنا ، ولأن غيرها قد اشتمل على أخبار أنكرها بعض المحققين ، كما أنكرها ابن كثير نفسه [١] .

وقوله : ﴿ وإذ يمكر .. ﴾ تذكير من الله - تعالى - لنبيه وللمؤمنين ببعض نعمه عليهم ، حيث نجى نبيه - ﷺ - من مكر المشركين حين تآمروا على قتله وهو بينهم بمكة .

قال ابن جرير : أنزل الله على النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد قدومه المدينة سورة الأنفال ، يذكره نعمه عليه - ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا .. الآية ﴾ [٢] .

وقوله ﴿ يمكر ﴾ من المكر ، وهو - كما يقول الراغب - صرف الغير عما يقصده بحيلة

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٣ وتفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٢٦ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٢٨ .

وذلك ضربان : مكر محمود وذلك أن يتحرى بمكره فعلا جميلا ومنه قوله - تعالى - ﴿ والله خير الماكرين ﴾ . ومكر مذموم ، وهو أن يتحرى بمكره فعلا قبيحا ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا .. ﴾ وقال - سبحانه وتعالى - فى الأمرين : ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾ [١] .

وقوله : « ليثبتوك » أى ليحبسوك . يقال أثبته إذا حبسته .

والمعنى : واذكر - يامحمد - وقت أن نجيتك من مكر أعدائك ، حين تآمروا عليك وأنت بين اظهرهم فى مكة ، لكى ﴿ يثبتوك ﴾ أى : يحبسوك فى دارك ، فلا تتمكن من لقاء الناس ومن دعوتهم إلى الدين الحق ﴿ أو يقتلوك ﴾ بواسطة مجموعة من الرجال الذين اختلفت قبائلهم فى النسب ، حتى يتفرق دمك فيهم فلا تقدر عشيرتك على الأخذ بثأرك من هذه القبائل المتعددة .. ﴿ أو يخرجوك ﴾ أى : من مكة منفيا مطاردا حتى يحولوا بينك وبين لقاء قومك .

وقوله : ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ بيان لموضع النعمة والمنة ، أى : والحال أن هؤلاء المشركين يمكرون بك وبأتباعك المكر السيء ، والله - تعالى - يرد مكرهم فى نحورهم ، ويحبط كيدهم ، ويخيب سعيهم ، ويعاقب عليه عقابا شديداً ، ويدبر أمرك وأمر أتباعك ، ويحفظكم من شرورهم ، فهو - سبحانه - أقوى الماكرين . وأعظمهم تأثيرا ، وأعلمهم بما يضر منه وما ينفع .

قال الآلوسى : قوله ﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾ أى : برد مكرهم ويجعل وخامته عليهم ، أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين ، وذلك بأن أخرجهم إلى بدر ، وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم ما يشيب منه الوليد .

﴿ والله خير الماكرين ﴾ إذ لا يعتد بمكرهم عند مكره - سبحانه - . وإطلاق هذا المركب الإضافى عليه - تعالى - إن كان باعتبار أن مكره - سبحانه - أنفذ وأبلغ تأثيرا فالإضافة للتفضيل ، لأن لمكر الغير - أيضا - نفوذا أو تأثيراً فى الجملة .. وإن كان باعتبار أنه - سبحانه - لا ينزل إلا الحق ولا يصيب إلا ما يستوجب الممكور به ، فلا شركة لمكر الغير فيه ، وتكون الإضافة حينئذ للاختصاص ، لانتفاء المشاركة .. » [٢] .

هذا والصورة التى يرسمها قوله - تعالى - : ﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾ صورة عميقة التأثير ، ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون ، والله من روائهم محيط ، ويمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٧١ للراغب الأصفهانى - بتصريف يسير .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٩٨ .

إنها صورة ساخرة ، وهى فى الوقت ذاته صورة مفزعة .. فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل ، من تلك القدرة القادرة .. قدرة الله الجبار ، القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره ، وهو بكل شىء محيط ؟

والتعبير القرآنى يرسم الصورة على طريقة القرآن الفريدة فى التصوير ، فيهز بها القلوب ، ويحرك بها أعماق الشعور »[١] .

ثم حكى القرآن بعد ذلك جانبا من الدعاوى الكاذبة التى تفوه بها المشركون فقال - تعالى - ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن القائل لهذا القول : النضر بن الحارث ؛ فإنه كان قد ذهب إلى بلاد فارس فأحضر منها قصصاً عن ملوكهم .. ولما قدم مكة ووجد رسول الله - ﷺ - يتلو القرآن قال للمشركين : لو شئت لقلت مثل هذا ، وكان - ﷺ - إذا قام من مجلس ، جاء بعده النضر فجلس فيه وحدث المشركين بأخبار ملوك الفرس والروم ، وغيرهم ثم قال : أينا أحس قصصا ؟ أنا أو محمد ؟ وقد أمكن الله منه يوم بدر ، فقد أسره المقداد بن عمرو ، فأمر النبى - ﷺ - بضرب عنقه وقال فيه : « إنه كان يقول فى كتاب الله - عز وجل - ما يقول »[٢] .

وأسند - سبحانه - قول النضر إلى جميع المشركين ، لأنهم كانوا راضين بقوله ، ولأنه كان من زعمائهم الذين يقودونهم إلى طريق الغواية .

والأساطير - كما يقول ابن جرير - : جمع أسطر ، وهو جمع الجمع ، لأن واحد الأسطر سطر . ثم يجمع السطر : أسطر وسطور ، ثم يجمع الأسطر أساطير وأساطر . وقد كان بعض أهل العربية يقول : واحد الأساطير : أسطورة - كأحاديث وأحدوثة[٣] .

والمراد بها : تلك القصص والحكايات التى كتبها الكاتبون عن القدامى ، والتى يغلب عليها طابع الخرافة والتخيلات التى لا حقيقة لها .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم الكذب والتمادى فى الطغيان ، أنهم كانوا إذا تتلى عليهم آيات الله ﴿ قالوا ﴾ بصفاقة ووقاحة : ﴿ قد سمعنا ﴾ أى : قد سمعنا ماقرأته علينا - يا محمد - ووعيناه ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ أى لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن الذى تتلوه علينا يا محمد وما هو إلا من قصص الأولين وحكاياتهم التى سطرها بعضهم عنهم وليس من عند الله - تعالى -

---

(١) من « فى ظلال القرآن » جـ ٩ ص ٨٤٤ للأستاذ سيد قطب .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٤ بتصرف وتلخيص .

(٣) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٣١ .

ولا شك أن قولهم هذا يدل على تعمدهم الكذب على أنفسهم وعلى الناس فإن هذا القرآن – الذى زعموا أنهم لو شاءوا لقالوا مثله – قد تحداهم فى نهاية المطاف أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا وانقلبوا خاسرين .

والذى نعتقده أن قولهم هذا ، ماهو إلا من قبيل الحرب النفسية التى كانوا يشنونها على الدعوة الإسلامية ، بقصد تضليل البسطاء ، والوقوف فى وجه تأثير القرآن فى القلوب ، ومحاولة طمس معالم الحق ولو إلى حين .

ولكنهم لم يفلحوا . فإن نور الحق لاتحجبه الشبهات الزائفة ، ولا يعدم الحق أن يجد له أنصاراً حتى من أعدائه ، يكفى هنا أن نستشهد بما قاله الوليد بن المغيرة فى وصف القرآن الكريم : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن اسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر .. ومايقول هذا بشر » .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لقوله – تعالى – ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا .. ﴾ : نفاجة منهم وصلف تحت الراعدة ، فإنهم لم يتوانوا فى مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة ، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاؤوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز حتى يفوزوا بالقدح المعلى دونه، مع فرط أنفتهم، واستنكافهم أن يغلبوا فى باب البيان خاصة ... » [1] .

ثم تمضى السورة فى حديثها عن رذائل مشركى قريش ، فتحكى لونا عجيبا من ألوان عنادهم ، وجحودهم للحق . فتقول : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ..

وقائل هذا القول : النضر بن الحارث صاحب القول السالف ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا .. ﴾ ذكر ذلك عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير .

وأخرج البخارى عن أنس بن مالك أن قائل ذلك : أبو جهل بن هشام . وأخرجه ابن جرير عن ابن رومان ومحمد بن قيس أن قريشا قال بعضها لبعض : أأكرم الله محمدا – ﷺ – من بيننا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء [2] .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم العناد والجحود أنهم لم يكتفوا بإنكار أن القرآن من عند الله ، وأن محمدا قد جاءهم بالحق .. بل أضافوا إلى ذلك قولهم : اللهم إن كان هذا الذى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٦ وقوله : « نفاجة » أى : تكبر ، والصلف:الغرور ومجاوزة الحد . والراعدة:السحابة وهذا مثل يضرب للرجل يتوعد ثم لا يعمل شيئًا .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ٩٩ .

جاءنا به محمد من قرآن وغيره هو الحق المنزل من عندك ، فعاقبنا على إنكاره والكفر به ، بأن تنزل علينا حجارة من السماء تهلكنا . أو تنزل علينا عذابا أليما يقضى علينا .

قال الجمل: قوله: ﴿هو الحق﴾ قرأ العامة «الحق» بالنصب على أنه خبر الكون ولفظ ﴿ هو ﴾ للفصل . وقرأ الأعمش وزيد بن على « الحق » بالرفع ووجهها ظاهر برفع لفظ «هو» على الابتداء، والحق خبره، والجملة خبر الكون[1].

وفى إطلاقهم ﴿ الحق ﴾ على ما جاء به الرسول ﷺ ، وجعله من عند الله ؛ تهكم بمن يقول ذلك سواء أكان هذا القائل - رسول الله - ﷺ - أو المؤمنين .

وأل فيه للعهد : أى الحق الذى ادعى محمد أنه جاء به من عند الله .

وقوله : ﴿ من السماء ﴾ متعلق بمحذوف صفة لقوله ﴿ حجارة ﴾ . وفائدة هذا الوصف الدلالة على أن المراد بها حجارة معينة مخصوصة لتعذيب الظالمين .

قال صاحب الكشاف : وهذا أسلوب من الجحود بليغ . يعنى إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخر. ومرادهم نفى كونه حقا ، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا ، فكان تعليق العذاب بكونه حقا ، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال فى قولك : إن كان الباطل حقا فأمطر علينا حجارة من السماء .

فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿ من السماء ﴾ والأمطار لا تكون إلا منها ؟

قلت : كأنهم يريدون أن يقولوا : فأمطر علينا السجيل وهى الحجارة المسومة للعذاب ، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل .

وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ، فقال الرجل : أجهل من قومى قومك ، فقد قالوا لرسول الله - ﷺ - حين دعاهم إلى الحق : ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ... ﴾ ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له[2] .

ولقد كان هذا الرجل حكيما فى رده على معاوية ، لأنه كان الأولى بأولئك المشركين أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه .. ولكن العناد الجامح الذى استولى عليهم جعلهم يؤثرون الهلاك على الإذعان للحق ويفضلون عبادة الأصنام على اتباع محمد - ﷺ - الذى دعاهم إلى عبادة الله وحده .. وهكذا النفوس عندما تنغمس فى الأحقاد وتتمادى فى الجحود . وتنقاد للأهواء والشهوات ، وتأخذها العزة بالإثم . ترى الباطل

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٤٢ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٦ .

حقا ، والحق باطلا ، وتؤثر العذاب وهى سادرة فى باطلها ، على الخضوع للحق والمنطق والصواب .

ثم تعقب السورة على هذا الدعاء الغريب الذى حكته عن مشركى مكة ، فتبين الموجب لإمهالهم وعدم إجابة دعائهم فتقول : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

أى : وما كان الله مريداً لتعذيب هؤلاء الذين دعوا بهذا الدعاء الغريب تعذيب استئصال وإهلاك ، وأنت مقيم فيهم - يا محمد - بمكة ، فقد جرت سنته - سبحانه - ألا يهلك قرية مكذبة وفيها نبيها والمؤمنون به حتى يخرجهم منها ثم يعذب الكافرين .

واللام فى قوله ﴿ ليعذبهم ﴾ لتأكيد النفى ، وللدلالة على أن تعذيبهم والرسول - ﷺ - بين أظهرهم غير مستقيم فى الحكمة .

والمراد بالاستغفار فى قوله : ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ استغفار من بقى بينهم من المؤمنين المستضعفين الذين لم يستطيعوا مغادرة مكة بعد أن هاجر منها النبى - ﷺ - والمؤمنون .

أى : ما كان الله مريداً لتعذيبهم وأنت فيهم - يا محمد - وما كان - أيضا - مريداً تعذيبهم وبين أظهرهم بمكة من المؤمنين المستضعفين من يستغفر الله ، وهم الذين لم يستطيعوا مغادرتها واللحاق بك فى المدينة .

قالوا : ويؤيد أن هذا هو المراد بالاستغفار قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما [1] ﴾ أى : لو تميز المؤمنون عن الكافرين لعذبنا الذين كفروا عذابا أليما .

وأسند - سبحانه - الاستغفار إلى ضمير الجميع ، لوقوعه فيما بينهم ، ولتنزيل ما صدر عن البعض منزلة ما صدر عن الكل . كما يقال : قتل أهل بلدة كذا فلانا والمراد بعضهم .

ويرى بعضهم أن المراد بالاستغفار المذكور : استغفار الكفرة أنفسهم كقولهم : غفرانك . فى طوافهم بالبيت ، أو ما يشبه ذلك من معانى الاستغفار وكأن هذا البعض يرى أن مجرد طلب المغفرة منه - سبحانه - يكون ما نعا من عذابه ولو كان هذا الطلب صادرا من الكفرة .

ويرجح ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ وهم يستغفرون ﴾ نفى الاستغفار عنهم فقد قال بعد أن ذكر بضعة آراء :وأولى هذه الأقوال عندى بالصواب قول من قال : تأويله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يامحمد ، وبين أظهرهم مقيم ، حتى أخرجك من بين أظهرهم ، لأنى لا أهلك قرية وفيها نبيها ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون من ذنوبهم وكفرهم ، ولكنهم

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٥ .

لا يستغفرون من ذلك بل هم مصرون عليه ، فهم للعذاب مستحقون ... » [١] .

قال بعض المحققين : والقول الأول أبلغ لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة .

ثم قال : روى الترمذى عن أبي موسى الأشعرى قال : قال رسول الله - ﷺ - أنزل الله على أمَانَين لأمتى « وما كان الله ليعذبهم ... » الآية . فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامَة » .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا مارواه الإمام أحمد والحاكم وصححه عن أبي سعيد أن رسول الله - ﷺ - قال : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال الله - تعالى - فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى » [٢] .

ثم بين - سبحانه - بعض الجرائم التى ارتكبها المشركون ، والتى تجعلهم مستحقين لعذاب الله ، فقال - تعالى - : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

والمعنى : وأى شىء يمنع من عذاب مشركى قريش بعد خروجك - يا محمد - وخروج المؤمنين المستضعفين من بين أظهرهم ؟ إنه لا مانع أبدا من وقوع العذاب عليهم وقد وجد مقتضيه منهم ، حيث اجترحوا من المنكرات والسيئات ما يجعلهم مستحقين للعقاب الشديد .

فالاستفهام فى قوله ﴿ وما لهم .. ﴾ إنكارى بمعنى النفى . أى : لا مانع من تعذيب الله لهم وقوله ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ جملة حالية مبينة لجريمة من جرائمهم الشنيعة ، أى : لا مانع يمنع من تعذيبهم : وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالمسجد الحرام ، ومن زيارته . ومن مباشرة عباداتهم عنده ..؟ إنهم لابد أن يعذبوا على هذه الجرائم .

ولقد أوقع الله بهم عذابه فى الدنيا : ومن ذلك ما حدث لهم يوم بدر من قتل صناديدهم ومن أسر وجهائهم .

وأما عذابهم فى الآخرة فهو أشد وأبقى من عذابهم فى الدنيا .

وقوله : ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ رد على ما كانوا يقولونه بالباطل : نحن ولاة البيت الحرام ، فلنا أن نصد من نشاء عن دخوله ، ولنا أن نبيح لمن نشاء دخوله .

أى : إن هؤلاء المشركين ما كانوا فى يوم من الأيام أهلاً لولاية البيت الحرام بسبب شركهم وعداوتهم - لله تعالى - رب هذا البيت .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٣٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٦ .

وقوله ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ بيان للمستحقين لولاية البيت الحرام ، بعد نفيها عن المشركين .

أى : إن هؤلاء المشركين ليسوا أهلا لولاية البيت الحرام ، وليسوا أهلا لأن يكونوا أولياء لله - تعالى - بسبب كفرهم وجحودهم ، وإنما المستحقون لذلك هم المتقون الذين صانوا أنفسهم عن الكفر وعن الشرك وعن كل ما يغضب الله ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك بسبب جهلهم وتماديهم فى الجحود والضلال .

وقد جاءت جملة ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ مؤكدة بأقوى ألوان التأكيد ، لنفى كل ولاية على البيت الحرام سوى ولا يتهم هم .

ونفى - سبحانه - العلم عن أكثر المشركين ، لأن قلة منهم كانت تعلم أنه لا ولاية لها على المسجد الحرام ولكنها كانت تجحد ذلك عناداً وغروراً . أو أن المراد بالأكثر الكل ، لأن للأكثر حكم الكل فى كثير من الأحكام ، كما أن الأقل قد لا يعتبر فينزل منزلة العدم .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان ضلال هؤلاء المشركين وجحودهم فقال : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة ، يصفقون ويصفرون ، فكان ذلك عبادة فى ظنهم .

والمكاء : الصفير . يقال مكا يمكو مكوا ومكاء إذا صفر .

والتصدية : التصفيق . يقال : صدى يصدى تصدية إذا صفق .

قال قتادة : المكاء : ضرب بالأيدى ، والتصدية : الصياح .[1]

والمعنى : أن هؤلاء المشركين لم تكن صلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيقا وتصفيراً ، وهرجا ومرجا لاوقار فيه ، ولا استشعار لحرمة البيت ، ولا خشوع لجلالة الله - تعالى - ، وذلك لجهلهم بما يجب عليهم نحو خالقهم ، ولحرصهم على أن يسيئوا إلى النبى - ﷺ - وهو يقرأ القرآن ، أو وهو يطوف بالبيت ، أو وهو يؤدى شيئا من شعائر الإسلام وعباداته . فقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن رفعوا أصواتهم بالصياح والغناء ليمنعوا الناس من سماعه . قال - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوافيه لعلكم تغلبون ﴾[2] .

وروى ابن جرير أن ابن عمر حكى فعلهم ، فصفر ، وأمال خده وصفق بيديه .

وقال مجاهد إنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبى - ﷺ - صلاته .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٤٠ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

وعن سعيد بن جبير : كانت قريش يعارضون النبى - ﷺ - فى الطواف يستهزئون به ، يصفرون ويصفقون [١] .

وقال الفخر الرازى : فإن قيل المكاء والتصدية ما كانا من جنس الصلاة فكيف جاز استثناؤهما من الصلاة ؟

قلنا : فيه وجوه : الأول : أنهم كانوا يعتقدون أن المكاء والتصدية من جنس الصلاة فخرج هذا الاستثناء على حسب ، معتقدهم .

الثانى : أن هذا كقولك : وددت الأمير فجعل جفائى صلتى . أى : أقام الجفاء مقام الصلة فكذا هنا .

الثالث : الغرض منه أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له . كما تقول العرب : ما لفلان عيب إلا السخاء . يريد من كان السخاء عيبه فلا عيب له [٢] .

وقوله : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وعيد لهم على كفرهم وجحودهم ، واستهزائهم بشعائر الله .

أى : فذوقوا - أيها الضالون - العذاب الشديد بسبب كفركم وعنادكم واستهزائكم بالحق الذى جاءكم به محمد - ﷺ - من عند الله ، ثم حكى - سبحانه - ما كانوا يفعلونه من إنفاق أموالهم لا فى الخير ولكن فى الشرور والآثام وتوعدهم على ذلك بسوء المصير فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون .. ﴾ .

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما ذكره محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلُّهم - أى جيشهم المهزوم - إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أميةفى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم فى بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا . ففعلوا . قال : ففيهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله .. ﴾ الآية [٣] .

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، استأجر يوم غزوة أحد ألفين من الأحابيش من بنى كنانة ، فقاتل بهم النبى - ﷺ - :

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٤٠ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٦٠ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٠٧ .

وروى عن الكلبى والضحاك ومقاتل انها نزلت فى المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش .. كان كل واحد منهم يطعم الناس كل يوم عشر جزر[١] .

قال ابن كثير : وعلى كل تقدير فهى عامة وإن كان سبب نزولها خاصا .

أى : أن الآية الكريمة تتناول بوعيدها كل من يبذل أمواله فى الصد عن سبيل الله ، وفى تأييد الباطل ومعارضة الحق .

المعنى : إن الذين كفروا بالحق لما جاءهم ﴿ ينفقون أموالهم ﴾ لافى جوه الخير ، وإنما ينفقونها ﴿ ليصدوا عن سبيل الله ﴾ أى : ينفقونها ليمنعوا الناس عن الدخول فى الدين الذى يوصلهم إلى رضا الله وإلى طريقه القويم .

واللام فى قوله : ﴿ ليصدوا ﴾ لام الصيرورة ، ويصح أن تكون للتعليل ؛ لأن غرضهم منع الناس عن الدخول فى دين الله الذى جاء به النبى - ﷺ - ، والذى يرونه ديناً مخالفاً لما كان عليه الآباء والأجداد فيجب محاربته فى زعمهم .

وقوله : ﴿ فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ... ﴾ بيان لما سيؤول إليه أمرهم فى الدنيا من الخيبة والهزيمة والندامة .

أى : فسينفقون هذه الأموال فى الشرور والعدوان ، ثم تكون عاقبة ذلك حسرة وندامة عليهم ، لأنهم لم يصلوا - ولن يصلوا - من وراء إنفاقها إلى ما يبغون ويؤملون . وفضلا عن كل هذا فستكون نهايتهم الهزيمة والإذلال فى الدنيا ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يجعل النصر فى النهاية لأتباع الحق لالأتباع الباطل .

وقوله : ﴿ فسينفقونها ﴾ خبر إن فى قوله ﴿ إن الذين كفروا .. ﴾ واقترن الخبر بالفاء لتضمن المبتدأ الموصول مع صلته معنى الشرط ، فصار الخبر بمنزلة الجزاء بحسب المعنى .

وفى تكرير الإنفاق فى شبه الشرط والجزاء ، إشعار بكمال سوء إنفاقهم ، حيث إنهم لم ينفقوا أموالهم فى خير أو ما يشبه الخير ، وإنما أنفقوها فى الشرور المحضة .

وجاء العطف بحرف ﴿ ثم ﴾ للدلالة على البون الشاسع بين ما قصدوه من نفقتهم وبين ما آل ويئول إليه أمرهم . فهم قد قصدوا بنفقتهم الوقوف فى وجه الحق والانتصار على المؤمنين .. ولكن هذا القصد ذهب أدراج الرياح ، فقد ذهبت أموالهم سدى ، وغلبوا المرة بعد المرة ، وعاد المؤمنون إلى مكة فاتحين ظافرين بعد أن خرجوا منها مهاجرين .

وقوله : ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة ، بعد بيان حسرتهم وهزيمتهم فى الدينا .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٢٤٥ .

أى : أن هؤلاء الكافرين ستكون عاقبة إنفاقهم لأموالهم الحسرة والهزيمة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فسيكون مصيرهم الحشر والسوق إلى نار جهنم لا إلى غيرها .

وقوله : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعضه فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم... ﴾ بيان لحكمته - سبحانه - فى هزيمة الكافرين وحشرهم إلى جهنم .

وقوله : ﴿ فيركمه ﴾ أى : فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض يقال : ركم الشيء يركمه ، إذا جمعه وألقى بعضه على بعضه . وارتكم الشيء وتراكم أى : اجتمع .

والمعنى : أنه - سبحانه - فعل ما فعل من خذلان الكافرين وحشرهم إلى جهنم ، ومن تأييد المؤمنين وفوزهم برضوانه ، ليتميز الفريق الخبيث وهو فريق الكافرين ، من الفريق الطيب وهو فريق المؤمنين ، فإذا ما تمايزوا جعل - سبحانه - الفريق الخبيث منضما بعضه على بعض ، فيلقى به فى جهنم جزاء خبثه وكفره . واللام فى قوله ﴿ ليميز ﴾ متعلقة بقوله ﴿ يغلبون ﴾ أو بقوله ﴿ يحشرون ﴾ ويجوز أن يكون المراد بالخبيث ما أنفقه الكافرون من أموال للصد عن سبيل الله ، وبالطيب ما أنفقه المؤمنون من أموال لإعلاء كلمة الله .

وعليه تكون اللام فى قوله ﴿ ليميز ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ ثم تكون عليهم حسرة ﴾ أى : أنه - سبحانه - يميز هذه الأموال بعضها من بعض ، ثم يضم الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض ، فيلقى بها وبأصحابها فى جهنم .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ فيركمه جميعاً ﴾ تعبير مؤثر بليغ ، لأنه يصور الفريق الخبيث كأنه لشدة تزاحمه وانضمام بعضه إلى بعض شيء متراكم مهمل ، يقذف به فى النار بدون اهتمام أو اعتبار .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ يعود إلى هذا الفريق الخبيث ، أى : أولئك الكافرون الذين أنفقوا أموالهم فى الصد عن سبيل الله هم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم .

وبعد كل هذا التهديد والوعيد للكافرين .. يوجه - سبحانه - خطابه إلى نبيه - ﷺ - يأمره فيه أن يبلغهم حكم الله إذا ما انتهوا عن كفرهم ، كما يأمر المؤمنين أن يقاتلوهم حتى تكون كلمة الله هى العليا ، فيقول - سبحانه - : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ .

أى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، من أهل مكة وغيرهم ، قل لهم : ﴿ إن ينتهوا ﴾ عن كفرهم وعداوتهم للمؤمنين ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ من كفرهم ومعاصيهم ﴿ وإن يعودوا ﴾ إلى قتالك ويستمروا فى ضلالهم وكفرهم وطغيانهم ، انتقمنا منهم ،

ونصرنا المؤمنين عليهم ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ على ذلك .

أى : فقد مضت سنة الله - تعالى - فى الأولين ، وسنته لا تتخلف فى أنه - سبحانه - يعذب المكذبين بعد إنذارهم وتبليغهم دعوته ، وينصر عباده المؤمنين وينجيهم ويمكن لهم فى الأرض . وقد رأى هؤلاء المشركون كيف كانت عاقبة أمرهم فى بدر ، وكيف أهلك - سبحانه - الكافرين من الأمم قبلهم .

وجواب الشرط لقوله ﴿وإن يعودوا﴾ محذوف والتقدير: وإن يعودوا ننتقم منهم. وقوله ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ تعليل للجواب المحذوف .

قال الآلوسى : قوله ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ أى عادة الله الجارية فى الذين تحزبوا على الأنبياء ، من نصر المؤمنين عليهم وخذلانهم وتدميرهم . وأضيفت السنة إليهم لما بينهما من الملابسة الظاهرة . ونظير ذلك قوله - سبحانه - ﴿ سنة من قد أرسلنا ﴾ فأضاف السنة إلى المرسلين مع أنها سنته لقوله - سبحانه - ﴿ ولا تجد لسنتنا تبديلا ﴾ باعتبار جريانها على أيديهم . ويدخل فى الأولين الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر .

والآية حث على الإيمان وترغيب فيه .. واستدل بها على أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن الكافر إذا أسلم لا يخاطب بقضاء ما فاته من صلاة أو زكاة أو صوم أو إتلاف مال أو نفس . وأجرى المالكية ذلك كله فى المرتد إذا تاب لعموم الآية ... »[1] .

وقوله : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .. ﴾ أمر من الله - تعالى - للمؤمنين بقتال الكافرين إذا ما استمروا فى كفرهم وطغيانهم .

والمعنى : عليكم - أيها المؤمنون - إذا ما استمر أولئك الكافرون فى كفرهم وعدوانهم ، أن تقاتلوهم بشدة وغلظة ، وأن تستمروا فى قتالهم حتى تزول صولة الشرك ، وحتى تعيشوا أحرارا فى مباشرة تعاليم دينكم ، دون أن يجرؤ أحد على محاولة فتنتكم فى عقيدتكم أو عبادتكم .. وحتى تصير كلمة الذين كفروا هى السفلى .

قال الجمل : وقوله : ﴿ وقاتلوهم .. ﴾ معطوف على قوله ﴿ قل للذين كفروا ﴾ . ولكن لما كان الغرض من الأول التلطف بهم وهو وظيفة النبى وحده جاء بالإفراد . ولما كان الغرض من الثانى تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع فخوطبوا جميعا »[2] .

وقوله ﴿ فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾ أى : فإن انتهوا عن كفرهم وعن معاداتكم ، فكفوا أيديكم عنهم، فإن الله- تعالى- لا يخفى عليه شىء من أعمالهم، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٤٤ .

وقوله ﴿ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ بشارة منه - سبحانه - للمؤمنين بالنصر والتأييد .

أى : وإن أعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا عن الكفر والطغيان ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ أى : ناصركم ومعينكم عليهم ، فثقوا بولايته ونصرته ، فهو - سبحانه - ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ لأنه لا يضيع من تولاه ، ولا يهزم من نصره .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد فتحت الباب للكافرين حتى يفيئوا إلى رشدهم ، وينتهوا عن كفرهم ، وبشرتهم بأنهم إذا فعلوا ذلك غفر الله لهم ما سلف من ذنوبهم .. أما إذا استمروا فى كفرهم ومعاداتهم للحق ، فقد أمر الله عباده المؤمنين بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ..

أى أن القتال فى الإسلام شرعه الله - تعالى - من أجل إعلاء كلمته ومن أجل رفع الأذى والفتنة والعدوان عمن يعتنقون دينه وشريعته .

هذا ، وقد ساق ابن كثير عند تفسيره الآيات جملة من الأحاديث التى تشهد بأن القتال فى الإسلام إنما شرعه الله - تعالى - لإعلاء كلمته ، وليس لأجل الغنيمة أو السيطرة على الغير .. وأنه لا يجوز لمسلم أن يقتل إنسانا بعد نطقه بالشهادتين . فقال - رحمه الله - : وقوله - تعالى - ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة .. ﴾ .

روى البخارى عن ابن عمر أن رجلا جاءه - فى فتنة ابن الزبير - فقال له يا أبا عبدالرحمن ، ألا تصنع ما ذكره الله فى كتابه ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا...﴾ الآية [1] . فما يمنعك من القتال ؟ فقال يا ابن أخى لأن أعير بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إلى من أن أعير بالآية التى تقول : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها .. ﴾ الآية [2] .

فقال الرجل: فإن الله يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ فقال ابن عمر: « قد فعلنا على عهد رسول الله - ﷺ - إذ كان الإسلام قليلا ، فكان الرجل يفتن فى دينه : إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ..

وعن سعيد بن جبير قال : خرج إلينا ابن عمر فقال له قائل : كيف ترى فى قتال الفتنة ؟ فقال له ابن عمر وهل تدرى ما الفتنة ؟ كان محمد - ﷺ - يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك .

وفى رواية أنه قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله .

---

(١) سورة الحجرات : الآية ٩ .

(٢) سورة النساء : الآية ٩٣ .

ثم قال ابن كثير : وقوله ﴿ فإن انتهوا ﴾ أى: بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾ ..

وفى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال الرجل لاإله إلا الله ، فضربه فقتله فذكر ذلك للرسول - ﷺ - فقال لأسامة : أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ فكيف تصنع « بلا إله إلا الله » يوم القيامة ؟ فقال : يارسول الله إنما قالها تعوذا فقال . هلا شققت عن قلبه ؟ وجعل يقول ويكرر عليه من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ، قال أسامة : حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ[1] .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مكر الكافرين وعن دعاويهم الكاذبة ، وعن وجوب مقاتلتهم إذا ما استمروا فى طغيانهم وعدوانهم .. بعد كل ذلك بين - سبحانه - للمؤمنين كيفية قسمة الغنائم التى كثيرا ما تترتب على قتال أعدائهم ، فقال - تعالى - :

۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

وقوله : ﴿ غنمتم ﴾ من الغنم بمعنى الفوز والربح يقال : غنم غنما وغنيمة إذا ظفر بالشىء قال القرطبى ما ملخصه : الغنيمة فى اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعى ، ومن ذلك قول الشاعر :

وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

واعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله - تعالى - : ﴿ غنمتم من شىء ﴾ مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر .

وسمى الشرع الواصل من الكفار إلينا من الأموال باسمين : غنيمة وفيئا .

فالشىء الذى يناله المسلمون من عدوهم بالسعى وإيجاف الخيل والركاب يسمى غنيمة . ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفا .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٨ - بتصرف وتلخيص .

والفىء مأخوذ من فاء يفىء إذا رجع ، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف . كخراج الأرضين ، وجزية الجماجم[1] .

والمعنى الاجمالى للآية الكريمة : ﴿ واعلموا ﴾ - أيها المسلمون - ﴿ أن ما غنمتم من شىء ﴾ أى : ما أخذتموه من الكفار قهراً ﴿ فأن لله ﴾ الذى منه - سبحانه - النصر المتفرع عليه الغنيمة ﴿ خمسه ﴾ أى خمس ما غنمتموه شكرا له على هذه النعمة ﴿ وللرسول ﴾ الذى هو سبب فى هدايتكم ﴿ ولذى القربى ﴾ أى : ولأصحاب القرابة من رسول الله - ﷺ - والمراد بهم على الراجح بنو هاشم وبنو المطلب .

﴿ واليتامى ﴾ وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا .

﴿ والمساكين ﴾ وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين .

﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر الذى نفد ماله وهو فى الطريق قبل أن يصل إلى بلده .

وقوله ﴿ واعلموا ﴾ معطوف على قوله قبل ذلك ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة .. ﴾ الخ و﴿ ما ﴾ فى قوله : ﴿ أن ما غنمتم ﴾ موصولة والعائد محذوف .

وقوله : ﴿ من شىء ﴾ بيان الموصول محله النصب على أنه حال من العائد المقدر .

أى : أن ما غنمتموه من شىء سواء أكان هذا الشىء قليلا أم كثيرا ﴿ فأن لله خمسه ﴾ .

وقوله : ﴿ فأن لله خمسه ﴾ خبر مبتدأ محذوف والتقدير : فحكمه أن لله خمسه والجار والمجرور خبر ﴿ أن ﴾ مقدم ، وخمسه اسمها مؤخر . والتقدير : فأن خمسه كائن لله وللرسول ولذى القربى ... إلخ .

وأعيدت اللام فى قوله ﴿ ولذى القربى ﴾ دون غيرهم من الأصناف التالية لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى - ﷺ - لمزيد اتصالهم به .

وقوله : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله .. ﴾ شرط جزاؤه محذوف .

أى : إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان ، وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا محمد - ﷺ - ﴿ يوم الفرقان ﴾ أى يوم بدر ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ أى : جمع المؤمنين وجمع الكافرين .. إن كنتم آمنتم بكل ذلك ، فاعملوا بما علمتم ، وارضوا بهذه القسمة عن إذعان وتسليم وحسن قبول .

وما أنزله الله على نبيه - ﷺ - يوم بدر . يتناول ما نزل من آيات قرآنية ، كما يتناول نزول الملائكة لتثبيت المؤمنين ، وتبشيرهم بالنصر كما يتناول غير ذلك مما أيدهم الله به فى بدر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١ . طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١ م .

وسمى يوم بدر بيوم الفرقان ، لأنه اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل وقوله ﴿ والله على شىء قدير ﴾ تذييل قصد به بيان أن ما أصابه المؤمنون يوم بدر من غنيمة ونصر إنما هو بقدرة الله التى لا يعجزها شىء فعليهم أن يداوموا على طاعته وشكره ليزيدهم من عطائه وفضله .

هذا ، وقد ذكر العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية جملة من المسائل والأحكام من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الآية وضحت أن غنائم الحرب تخمس فيجعل الخمس الأول منها لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والأربعة الأخماس الباقية بينت السنة أنها تقسم على الجيش : للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم أو سهمان .

قال ابن كثير : ويؤيد هذا ما رواه البيهقى بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبى - ﷺ - ، وهو بوادى القرى ، وهو معترض فرسا فقلت : يارسول الله ، ما تقول فى الغنيمة ، فقال : لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش ، قلت : فما أحد أولى به من أحد ، قال : لا ، ولا السهم تستخرجه من جيبك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم[1] .

وقال بعض العلماء : أفادت الآية أن الواجب فى المغنم تخميسه ، وصرف الخمس إلى من ذكره الله - تعالى - وقسمة الباقى بين الغانمين بالعدل ، للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم ، سهم له وسهمان لفرسه . هكذا قسم النبى - ﷺ - الغنائم عام خيبر .

ومن الفقهاء من يقول : للفارس سهمان . والأول هو الذى دلت عليه السنة الصحيحة ، ولأن الفرس يحتاج إلى مؤنة نفسه وسائسه . ومنفعة الفارس به أكثر من منفعة رجلين .

ويجب قسمتها بينهم بالعدل ، فلا يحابى أحدا ، لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله وفى صحيح البخارى أن سعد بن أبى وقاص رأى أن له فضلا على من دونه ، فقال النبى - ﷺ - « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم » ؟[2] .

ذهب جمهور العلماء إلى أن المقصود بإيتاء لفظ الجلالة فى قوله ﴿ فأن لله خمسه ﴾ : التبرك والتعظيم والحض على إخلاص النية عند القسمة وعلى الامتثال والطاعة له - سبحانه - .

وليس المقصود أن يقسم الخمس على ستة منها الله - تعالى - ، فإنه - سبحانه - له الدنيا والآخرة ، وله ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١١ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٢٩٩٧ .

وعليه يكون خمس الغنيمة مقسما على خمسة أقسام : للرسول ، ولذى القربى،واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

ويرى أبو العالية والربيع والقاسم أن هذا الخمس يقسم إلى ستة أقسام ، عملا بظاهر الآية ، وأن سهم الله - تعالى - يصرف فى وجوه الخير ، أو يؤخذ للكعبة .

وقد رجح ابن جرير رأى الجمهور فقال : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب من قال : قوله ﴿ فأن لله خمسه ﴾ افتتاح كلام ، وذلك لاجتماع الحجة على أن الخمس غير جائز قسمه على ستة أسهم . ولو كان لله فيه سهم - كما قال أبو العالية - لوجب أن يكون خمس الغنيمة مقسوما على ستة أسهم . وإنما اختلف أهل العلم فى قسمه على خمسة فما دونها .

فأما على أكثر من ذلك فلا نعلم قائلا قاله غير الذى ذكرنا من الخبر عن أبى العاليه . وفى إجماع من ذكرت - الدلالة الواضحة على ما اخترناه[1] .

وسهم النبى - ﷺ - الذى جعله الله - تعالى - له فى قوله ﴿ وللرسول ﴾ كان مفوضا إليه فى حياته ، يتصرف فيه كما شاء ، ويضعه حيث يشاء .

روى الإمام أحمد أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت : يا عبادة ، ما كلمات رسول - ﷺ - فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس ؟ فقال عبادة : إن رسول الله - ﷺ - صلى بهم فى غزوهم إلى بعير من المقسم . فلما سلم قام رسول الله - ﷺ - فتناول وبرة فقال : إن هذه من غنائمكم ، وأنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه فى الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس فى الله تبارك وتعالى القريب والبعيد ، ولا تبالوا فى الله لومة لائم ، وأقيموا الحدود فى الحضر والسفر ، وجاهدوا فى سبيل الله ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة . ينجى الله به من الغم والهم ، قال ابن كثير : هذا حديث حسن عظيم .

وروى أبو داود والنسائى عن عمرو بن عبسة ، أن رسول الله - ﷺ - صلى بهم إلى بعير من المغنم ، فلما سلم أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال : ولا يحل لى من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم[2] .

هذا بالنسبة لسهمه - ﷺ - فى حياته ، أما بعد وفاته ، فمنهم من يرى : أن سهمه - ﷺ - يكون لمن يلى الأمر من بعده . روى هذا عن أبى بكر وعلى وقتادة وجماعة . .

ومنهم من يرى أن سهمه - ﷺ - يصرف فى مصالح المسلمين . روى ابن جرير عن

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١١ ص ٤ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١١ ص ٨ .

الأعمش عن إبراهيم قال : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبى - ﷺ - فى الكراع والسلاح .

ومنهم من يرى صرفه لبقية الأصناف : ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وقد رجح ابن جرير هذا الرأى فقال : والصواب من القول فى ذلك عندنا : ان سهم رسول الله - ﷺ - مردود فى الخمس ، والخمس مقسوم على أربعة اسهم على ما روى عن ابن عباس : للقرابة سهم ، ولليتامى سهم ، وللمساكين سهم ، ولابن السبيل سهم ، لأن الله - تعالى - أوجب الخمس لأقوام موصوفين بصفات ، كما أوجب الأربعة الأخماس الآخرين . وقد اجمعوا أن حق أهل الأربعة الأخماس لن يستحقه غيرهم، فكذلك حق أهل الخمس لن يستحقه غيرهم ، فغير جائز أن يخرج عنهم إلى غيرهم ..» .

٤ - المراد بذى القربى - كما سبق أن أشرنا - بنو هاشم وبنو المطلب على الراجح . وعليه فإن السهم المخصص لذى القربى لا يصرف إلا لهم .

قال القرطبى ما ملخصه : اختلف العلماء فى ذوى القربى على ثلاثة أقوال :

أولها : أن المراد بهم قريش كلها : قاله بعض السلف ، لأن النبى - ﷺ - لما صعد الصفا جعل يهتف يابنى فلان يابنى عبد مناف .. أنقذوا أنفسكم من النار .

ثانيها : أن المراد بهم بنو هاشم وبنو المطلب . قاله الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد .. لأن النبى - ﷺ - لما قسم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى المطلب قال : « إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام وإنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » وشبك بين أصابعه . أخرجه البخارى والنسائى .

ثالثها : أن المراد بهم بنو هاشم خاصة . قاله مجاهد وعلى بن الحسين . وهو قول مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم[١] .

وقال الآلوسى : وكيفية القسمة عند الأصحاب أنها كانت على عهد رسول الله - ﷺ - على خمسة أسهم سهم له - ﷺ - وسهم للمذكورين من ذوى القربى ، وثلاثة أسهم للاصناف الثلاثة الباقية .

وأما بعد وفاته - ﷺ - فسقط سهمه .. وكذا سقط سهم ذوى القربى ، وإنما يعطون بالفقر ، ويقدم فقراؤهم على فقراء غيرهم ، ولا حق لأغنيائهم ، لأن الخلفاء الأربعة قسموا الخمس كذلك وكفى بهم قدوة .. .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٢ .

ثم قال : ومذهب المالكية أن الخمس لا يلزم تخميسه ، وأنه مفوض إلى رأى الإمام .

– أى انهم يرون أن خمس الغنيمة يجعل فى بيت المال فينفق منه على من ذكر وعلى غيرهم بحسب ما يراه الامام من مصلحة المسلمين ، وكأنهم يرون أن هذه الأصناف إنما ذكرت على سبيل المثال ، وأنها من باب الخاص الذى قصد به العام ، بينما يرى غيرهم أن هذه الاصناف من باب الخاص الذى قصد به الخاص .

ثم قال : ومذهب الإمامية أنه ينقسم إلى ستة أسهم كما ذهب أبو بالعالية ، إلا أنهم قالوا : إن سهم الله – تعالى – ، وسهم رسوله – ﷺ – وسهم ذوى القربى الكل للإمام القائم مقام الرسول – ﷺ – أما الاسهم الثلاثة الباقية فهم لليتامى من آل محمد – ﷺ – ، وسهم لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم ، لايشركهم فى ذلك غيرهم . رووا ذلك عن زين العابدين ، ومحمد بن على الباقر ..

ثم قال : والظاهر أن الاسهم الثلاثة الأولى التى ذكروها اليوم تخبأ فى السرداب ، إذ القائم مقام الرسول – ﷺ – قد غاب عندهم فتخبأ له حتى يرجع من غيبته ..»[1] .

هذا ، ومن كل ما سبق نرى أن أكثر العلماء يرون أن خمس الغنيمة يقسم إلى خمسة أقسام ، ومنهم من يرى أنه يقسم الى ستة أقسام ، ومنهم من يرى أنه لا يلزم تقسيمه إلى خمسة أقسام أو الى ستة ، وإنما هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده .. ومنهم من يرى غير ذلك ، ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفروع .

٥ – ذكرنا عند تفسيرنا لقوله – تعالى – فى مطلع السورة ﴿ يسألونك عن الأنفال ... ﴾ أن المراد بالأنفال : الغنائم وعليه تكون الآية التى معنا وهى قوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم .. ﴾ مفصلة لما أجملته الآية التى فى مطلع السورة .

أى أن الآية التى فى مطلع السورة بينت أن الأمر فى قسمة الانفال مفوض إلى الله ورسوله ، ثم جاءت الآية التى معنا ففصلت كيفية قسمة الغنائم حتى لا يتطلع أحد إلى ما ليس من حقه .

وهذا أولى من قول بعضهم : إن الآية التى معنا نسخت الآية التى فى مطلع السورة : لأن النسخ لا يصار إليه إلا عند التعارض وهنا لا تعارض بين الآيتين .

٦ – الآية الكريم أرشدت المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم أن يخلصوا فى طاعتهم لله – تعالى – ولرسوله – ﷺ – وأن يجعلوا غايتهم من جهادهم إعلاء كلمة الله ، لكى يكونوا مؤمنين حقا .

---

(١) تفسير الآلوسى – بتصرف وتلخيص جـ ١٩ ص ٣ .

ويشعر بهذا الإرشاد تصديره - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه .. ﴾ كما يشعر به قوله - تعالى - ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ..﴾ ، فإن كل ذلك فيه معنى الحض على إخلاص النية لله - تعالى - والامتثال لحكمه ، والمداومة على شكره ، حيث منحهم - سبحانه - هذه النعم بفضله وإحسانه .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت : بم تعلق قوله ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ : قلت بمحذوف يدل عليه قوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم .. ﴾ والمعنى : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة . وليس المراد بالعلم المجرد ، ولكنه العلم المضمن بالعمل ، والطاعة لأمر الله - تعالى - ، لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر[1] .

هذه بعض المسائل والأحكام التى استنبطناها من الآية الكريمة ، وهناك مسائل وأحكام اخرى تتعلق بها ذكرها بعض المفسرين فارجع إليها إن شئت[2] .

ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر فضله وحكمه فى غزوة بدر ، فبين الأماكن التى نزل فيها كل فريق ، كما بين الحكمة فى لقاء المؤمنين والكافرين على غير ميعاد ، والحكمة فى تقليل كل فريق منهما فى عين الآخر ... فقال تعالى :

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ من ص ١ إلى ص ٢٠ .

يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قوله : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا .. ﴾ بدل من قوله ﴿ يوم الفرقان .. ﴾ أو معمول لفعل محذوف . والتقدير : اذكروا .

والعدوة - مثلثة العين - جانب الوادى وحافته . وهى من العدو بمعنى التجاوز سميت بذلك لأنها عدت .. - أى منعت - ما فى الوادى من ماء ونحوه أن يتجاوزها .

والدنيا : تأنيث الأدنى بمعنى الأقرب . والقصوى : تأنيث الأقصى بمعنى الأبعد.والركب : اسم جمع لراكب ، وهم العشرة فصاعدا من راكبى الإبل .

قال القرطبى : ولا تقول العرب : ركب إلا للجماعة الراكبى الإبل . .

والمراد بهذا الركب : أبو سفيان ومن معه من رجال قريش الذين كانوا قادمين بتجارتهم من بلاد الشام ومتجهين بها إلى مكة ، فلما بلغ النبى - ﷺ - أمرها ، أشار على أصحابه بالخروج لملاقاته ، كما سبق أن بينا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق .. ﴾ .

والمعنى: اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن خرجتم إلى بدر ، فسرتم إلى أن كنتم ﴿ بالعدوة الدنيا ﴾ أى : بجانب الوادى وحافته الأقرب الى المدينة ، وكان اعداؤكم الذين قدموا لنجدة العير ﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أى : بالجانب الآخر الأبعد من المدينة ، وكان أبو سفيان ومن معه من حراس العير ﴿ أسفل منكم ﴾ أى : فى مكان أسفل من المكان الذى أنتم فيه ، بالقرب من ساحل البحر الأحمر ، على بعد ثلاثة أميال منكم .

قال الجمل : قوله ﴿ والركب أسفل منكم ﴾ الأحسن فى هذه الواو ، والواو التى قبلها الداخلة على ﴿ هم ﴾ أن تكون عاطفة ما بعدها على ﴿ أنتم ﴾ لأنها مبدأ تقسيم أحوالهم وأحوال عدوهم ويجوز أن يكونا واو حال ، واسفل منصوب على الظرف النائب عن الخبر ، وهو فى الحقيقة صفة لظرف مكان محذوف . أى : والركب فى مكان أسفل من مكانكم وكان الركب على ثلاثة أميال من بدر .. »[1] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٦ .

وقال الإمام الزمخشرى - رحمه الله - فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت ، وذكر مراكز الفريقين ، وأن العير كانت أسفل منهم؟ .

قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة الشأن للعدو ، وتكامل عدته ، وتمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين ، والتياث أمرهم ، وأن غلبتهم فى هذه الحال ليس إلا صنعا من الله - سبحانه - ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته .

وذلك أن العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون ، كان فيها الماء ، وكانت أرضا لا بأس بها . ولا ماء بالعدوة الدنيا ، وهى خبار - أى أرض لينة رخوة - تسوخ فيها الأرجل ، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة .

وكانت العير وراء ظهور العدو ، مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم ، وتشحذ فى المقاتلة عنها نياتهم ، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ، ليبعثهم الذب عن الحريم على بذل جهودهم فى القتال .

وفيه تصوير ما دبر - سبحانه - من أمر غزوة بدر ﴿ ليقضى أمرا كان مفعولا ﴾ ومن إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين فى الخروج ، وأقلق قريشا ما بلغهم من تعرض المسلمين لأموالهم ، فنفروا ليمنعوا عيرهم ، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ، ووراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب فى ساق ، وكان ما كان »[1] .

وقوله : ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمرًا كان مفعولا ﴾ بيان لتدبير الله الحكيم ، وإرادته النافذة .

أى : ولو تواعدتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال ، لتخلفتم عن الميعاد المضروب بينكم ، لأن كل فريق منكم كان سيتهيب الإقدام على صاحبه ، ولكن الله - تعالى - بتدبيره الخفى شاء أن يجمعكم للقتال على غير ميعاد ، ليقضى - سبحانه - أمرًا كان مفعولا ، أى : ثابتا فى علمه وحكمته ، وهو : إعزاز الإسلام وأهله ، وخذلان الشرك وحزبه .

روى ابن جرير من حديث كعب بن مالك - رضى الله عنه - قال : إنما خرج رسول الله - ﷺ - والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . وروى - أيضا - عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان فى الكرب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله - ﷺ - وأصحابه فالتقوا ببدر ، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقى السقاة قال : ونظر الناس بعضهم إلى بعض »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١ .

وقوله ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ﴾ بدل من قوله ﴿ ليقضى ﴾ بإعادة الحروف ، أو هو متعلق بقوله ﴿ مفعولا ﴾ .

والمراد بالهلاك والحياة هنا ما يشمل الحسى والمعنوى منهما .

والمراد بالبينة الحجة الظاهرة الدالة على حقية الإسلام وبطلان الكفر .

قال الآلوسى : أى : ليموت من يموت عن حجة عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها ، فلا يبقى محل للتعلل بالأعذار ، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة والحجج الغر المحجَّلة .

ويجوز أن يراد بالحياة : الإيمان ، وبالموت : الكفر على سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل بأن يراد بالبينة : إظهار كمال القدرة الدالة على الحجة الدامغة .

أى : ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح وبينة وإلى هذا ذهب قتادة وابن اسحاق . والظاهر أن ﴿عن﴾ هنا بمعنى بعد كقوله -تعالى- ﴿عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر ويعقوب ﴿ حيى ﴾ - على وزن تعب - بفك الإدغام . وقرأ الباقون بإدغام الياء الأولى فى الثانية على وزن شد ومد[1] .

وقوله ﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾ تذييل قصد به الترغيب فى الإيمان - والترهيب من الكفر ، أى : وإن الله لسميع لأقوال أهل الايمان والكفر عليم بما تنطوى عليه قلوبهم وضمائرهم ، وسيجازى - سبحانه - كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب على حساب ما يعلم وما يسمع منه .

ثم يبين - سبحانه - بعض وجوه نعمه على المؤمنين ، وتدبيره الخفى لنصرهم وفوزهم فيقول : ﴿ إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور ﴾ .

أى : اذكر يامحمد فضل الله عليك وعلى أصحابك ، حيث أراك فى منامك الكافرين قليلا عددهم ، ضئيلا وزنهم فأخبرت بذلك اتباعك فازدادوا ثباتا واطمئنانا وجرأة على عدوهم ﴿ ولو أراكهم كثيرا ﴾ أى : ولو أراك الأعداء عددا كثيرا ﴿ لفشلتم ﴾ أى : لتهيبتم الإقدام عليهم ، لكثرة عددهم،من الفشل وهو ضعف مع جبن ﴿ ولتنازعتم فى الأمر ﴾ أى : فى أمر الإقدام عليهم و الاحجام عنهم . فمنكم من يرى هذا ومنكم من يرى ذلك .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٧ - بتصرف وتلخيص .

وقوله ﴿ ولكن الله سلَّم ﴾ بيان لمحل النعمة . أى: ولكن الله - تعالى - بفضله وإحسانه أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع وتفرق الآراء فى شأن القتال : حيث ربط على قلوبكم ، ورزقكم الجرأة على أعدائكم وعدم المبالاة بهم بسبب رؤيا نبيكم .

وقوله : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تذييل يدل على شمول علمه - سبحانه - .

أى : إنه -سبحانه - عليم بكل ما يحصل فى القلوب وما يخطر بها من شجاعة وجبن . ومن صبر وجزع ولذلك دبر ما دبر .

قال الفخر الرازى ، قال مجاهد : أرى الله النبى - ﷺ - كفار قريش فى منامه قليلا ، فأخبر بذلك أصحابه فقالوا : رؤيا النبى حق . القوم قليل ، فصار ذلك سببا لجرأتهم وقوة قلوبهم .

فإن قيل : رؤية الكثير قليلا غلط ، فكيف يجوز من الله - تعالى - أن يفعل ذلك ؟

قلنا : ذهبنا أنه - تعالى - يفعل ما يشاء ويحكم ما يريده وأيضا لعله - سبحانه - أراه البعض دون البعض فحكم الرسول على أولئك الذين رآهم بأنهم قليلون[١] .

ونستطيع أن نضيف إلى ما أجاب به الفخر الرازى أنه يجوز أن يكون المراد بالقلة : الضعف وهوان الشأن ..

أى : أن المشركين وإن كانوا فى حقيقتهم يقاربون الألف - أى أكثر من ثلاثة أمثال المؤمنين - إلا أنهم لا قوة لهم ولا وزن ، فهم كثير عددهم ولكن قليل غناؤهم ، قليل وزنهم فى المعركة . لأنهم ينقصهم الإيمان الصحيح الذى يقوى القلوب ، ويدفع النفوس إلى الإقدام لنصرة الحق لكى تفوز برضا الله وحسن مثوبته .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : وقد تقدم أن النبى - ﷺ - قدر عدد المشركين بألف وأخبر أصحابه بذلك ، ولكنه أخبرهم مع هذا أنه رآهم فى منامه قليلا ، لا أنهم قليل فى الواقع ، فالظاهر أنهم أولوا الرؤيا بأن بلاءهم يكون قليلا ، وأن كيدهم يكون ضعيفا ، فتجرءوا وقويت قلوبهم[٢] .

هذا ، ونسب الى الحسن أنه ذكر أن هذه الآراء كانت فى اليقظة ، وأن المراد من المنام العين التى هى موضع النوم . قال الزمخشرى . وهذا تفسير فيه تعسف . وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن .

وقال الآلوسى : وعن الحسن أنه فسر المنام بالعين ، لأنها مكان النوم كما يقال للقطيفة

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٦٩ .
(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢٢ .

المنامة لأنها ينام فيها ، فلم يكن عنده هناك رؤيا أصلا بل كانت رؤية ، وإليه ذهب البلخى . ولا يخفى ما فيه ، لأن المنام شائع بمعنى النوم مصدر ميمى . ففى الحمل على خلاف ذلك تعقيد ولا نكتة فيه .. على أن الروايات الجمة برؤيته - ﷺ - إياهم مناما ، وقص ذلك على أصحابه مشهورة لا يعارضها كون العين مكان النوم نظرا إلى الظاهر .. ولعل الرواية عن الحسن غير صحيحة ، فانه الفصيح العالم بكلام العرب[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ... ﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله ﴿ إذ يريكهم الله فى منامك قليلا .... ﴾ وذلك لتأكيد الرؤيا المنامية بالرؤية فى اليقظة .

والمعنى : واذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن التقيتم مع أعدائكم وجها لوجه فى بدر ، فكان من فضل الله عليكم قبل أن تلتحموا معهم أن جعل عددهم قليلا فى أعينكم وجعل عددكم قليلا فى أعينهم ، وذلك لإغرائهم على خوض المعركة .

أما أنتم فتخوضونها بدون مبالاة بهم لقلتهم فى أعينكم ، ولثقتكم بنصر الله إياكم ..

وأما هم فيخوضونها معتمدين على غرورهم وبطرهم وقلتكم فى أعينهم ، فيترتب على ذلك أن يتركوا الاستعداد اللازم لقتالكم ، فتكون الدائرة عليهم ..

قال ابن مسعود - وهو ممن حضر بدرا - : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفا[2] .

وقال أبو جهل - فى ذلك اليوم وقبل الالتحام - : إن محمداً وأصحابه أكلة جزور - أى هم قليل يشبعهم لحم ناقة واحدة - خذوهم أخذا أو اربطوهم بالحبال ..

وقد أجاد صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآية حيث يقول : قوله ﴿ وإذ يريكموهم ﴾ الضميران مفعولان يعنى : وإذ يبصركم إياهم . و﴿ قليلا ﴾ حال ، وإنما قللهم فى أعينهم تصديقا لرؤيا رسول الله - ﷺ - ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا ..

فإن قلت : الغرض من تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض من تقليل المؤمنين فى أعينهم ؟

قلت : قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثرهم فيها بعده ، ليجترئوا عليهم ، قلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ، وتقل شوكتهم ، حين يرون ما لم يكن فى حسابهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٨ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٩ ص ١٣ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٣ .

وتقديرهم ، وذلك قوله ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ﴾[1] ولئلا يستعدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم فاستيضاح الآية البينة من قلتهم أولا ، وكثرتهم آخرا .

ثم قال : فإن قلت : بأى طريق يبصرون الكثير قليلا ؟

قلت : بأن يستر الله عنهم بعضه بساتر ، أو يحدث فى عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث فى أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين .

قيل لبعضهم : إن الأحول يرى الواحد اثنين - وكان بين يديه ديك واحد - فقال : ما لى لا أرى هذين الديكين أربعة[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾ بيان لحكمة تدبيره ، ونفاذ قدرته ، وشمول إرادته .

أى فعل - سبحانه - ما فعل من تقليل كل فريق فى عين الآخر ، ليقضى أمرا كان مفعولا ، أى : ثابتا فى علمه وحكمته ، وهو نشوب القتال المفضى إلى انتصار المؤمنين ، واندحار الكافرين وإلى الله وحده ترجع الأمور لا إلى إحد سواه ، فإن كل شىء عنده بمقدار ، ولأن كل شىء فى هذا الكون بقضائه وقدره ، وما من شىء إلا مصيره ومرده إليه .

قال بعض العلماء : ولا يقال إن قوله - تعالى -: ﴿ ليقضى الله امراً كان مفعولا ﴾ مكرر مع ما سبق ، لأننا نقول : ان المقصود من ذكره أولا - فى قوله : إذ أنتم بالعدوة الدنيا .. هو اجتماعهم بلا ميعاد ليحصل استيلاء المؤمنين على الكافرين ، على وجه يكون معجزة دالة على صدق النبى - ﷺ - والمقصود منه هنا بيان خارق آخر ، وهو تقليلهم فى أعين المشركين ثم تكثيرهم للحكم المتقدمة[3] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة حكت لنا جانبا من أحداث غزوة بدر بأسلوب تصويرى بديع فى استحضار لمشاهدها ومواقفها ، وكشفت لنا عن جوانب من مظاهر قدرة الله ، ومن تدبيره المحكم الذى كان فوق تدبير البشر ، ومن تهيئة الأسباب الظاهرة والخفية التى أدت إلى نصر المؤمنين وخذلان الكافرين .

وبعد هذا التذكير النافع ، والتصوير المؤثر لأحداث غزوة بدر ، وجه - سبحانه - فى هذه السورة إلى المؤمنين النداء السادس والأخير ، حيث أمرهم بالثبات فى وجه أعدائهم ، وبالمداومة على ذكره وطاعته .. ، ونهاهم عن التنازع والاختلاف فقال - تعالى - :

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠١٠ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

وقوله : ﴿ لقيتم ﴾ من اللقاء بمعنى المقابلة والمواجهة ، ويغلب استعماله فى لقاء القتال وهو المراد هنا .

وقوله : ﴿ فئة ﴾ أى : جماعة . مشتقة من الفيء بمعنى الرجوع ، لأن بعضهم يرجع إلى بعض .

والمراد بها هنا : جماعة المقاتلين من الكافرين وأشباههم .

والمتتبع لاستعمال القرآن لهذه الكلمة ، يراه يستعملها - فى الأعم الأغلب - فى الجماعة المقاتلة أو الناصرة أو ما يشبه ذلك .

قال - تعالى - : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ... ﴾[1] .

وقال - تعالى - : ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ... ﴾[2] .

وقال - تعالى - : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ﴾[3] .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان ، ﴿ إذا لقيم فئة ﴾ أى : حاربتم جماعة من أعدائكم ، فاثبتوا لقتالهم وأغلظوا عليهم فى النزال ، ولا تولوهم الأدبار ، ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ لاسيما فى مواطن الحرب ، فإن ذكر الله عن طريق القلب واللسان من أعظم وسائل النصر : لأن المؤمن متى استحضر عظمة الله فى قلبه لا تهوله قوة عدوه ، ولا تخيفه كثرته ..

وقوله ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أى : لعلكم تظفرون بمرادكم من النصر وحسن الثواب ، متى فعلتم ذلك عن إخلاص .

وقوله ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ معطوف على ما قبله ، أى : اثبتوا عند لقاء الأعداء ، وأكثروا من ذكر الله ، وأطيعوا الله ورسوله فى كل أقوالكم وأعمالكم ، وفى سركم وجهركم ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣ .

(٣) سورة الكهف الآية ٤٣ .

وفى كل ما تأتون وما تذرون .

وقوله ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ نهى لهم عن الاختلاف المؤدى إلى الفشل وضياع القوة بعد أمرهم بالثبات والمداومة على ذكر الله وطاعته .

وقوله ﴿ تنازعوا ﴾ من النزع بمعنى الجذب وأخذ الشيء .. والتنازع والمنازعة المجاذبة كأن كل واحد من المتنازعين يريد أن ينزع ما عند الآخر ويلقى به .

والمراد بالتنازع هنا : الخصام والجدال والاختلاف المفضى إلى الفشل أى : الضعف .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ ، قال الأخفش : الريح مستعارة للدولة . لشبهها بها فى نفوذ أمرها وتمشيه ، ومن كلامهم هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة وجرى أمره على ما يريد . وركدت رياحه إذا ولت عنه وأدبر أمره . قال الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدرى السكون متى يكون[1]

والمعنى : كونوا - أيها المؤمنون - ثابتين ومستمرين على ذكر الله وطاعته عند لقاء الأعداء ، ولا تنازعوا وتختصموا وتختلفوا ، فإن ذلك يؤدى بكم إلى الفشل أى الضعف ، وإلى ذهاب دولتكم ، وهوان كلمتكم ، وظهور عدوكم عليكم .

﴿ واصبروا ﴾ على شدائد الحرب ، وعلى مخالفة أهوائكم التى تحملكم على التنازع ، ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ بتأييده ومعونته ونصره .

هذا والمتأمل فى هاتين الآيتين يراهما قد رسمتا للمؤمنين فى كل زمان ومكان الطريق التى توصلهم إلى الفلاح والظفر .

إنهما يأمران بالثبات ، والثبات من أعظم وسائل النجاح ، لأنه يعنى ترك اليأس والتراجع وأقرب الفريقين إلى النصر أكثرهما ثباتا .

ويأمران بمداومة ذكر الله ، لأن ذكر الله هو الصلة التى تربط الإنسان بخالقه الذى بيده كل شيء ، ومتى حسنت صلة الإنسان بخالقه ، صغرت فى عينه قوة أعدائه مهما كبرت .

ويأمران بطاعة الله ورسوله ، حتى يدخل المؤمنون المعركة بقلوب نقية ، وبنفوس صافية ... لا مكان فيها للتنازع والاختلاف المؤدى إلى الفشل ، وذهاب القوة .. ويأمران بالصبر ، أى بتوطين النفس على ما يرضى الله ، واحتمال المكاره والمشاق فى جلد . وهذه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٤ .

الصفة لابد منها لمن يريد أن يصل إلى آماله وغاياته .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين الكريمتين : « هذا تعليم من الله -تعالى - لعباده المؤمنين آداب اللقاء ، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء » .

وقد ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله - ﷺ - انتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قام وقال : اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم» .

وفى الحديث الآخر المرفوع يقول الله - تعالى - « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه » أى : لا يشغله ذلك الحال عن ذكرى ودعائى واستعانتى .

وعن قتادة فى هذه الآية : « افترض الله ذكره عند اشغل ما يكون . الضرب بالسيوف » .

ثم قال : « وقد كان للصحابة - رضى الله عنهم - فى باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله ، وامتثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد من بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول - ﷺ - وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا ، فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس ... قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها فى أقل من ثلاثين سنة فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا فى زمرتهم إنه كريم وهاب »[1] .

وبعد هذه التوجيهات السامية التى رسمت للمؤمنين طريق النصر ، نهاهم - سبحانه - عن التشبه بالكافرين الذين صدهم الشيطان عن السبيل الحق ، فقال تعالى :

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦ .

ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

قال الفخر الرازى عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا .... ﴾ المراد قريش حين خرجوا من مكة لحفظ العير . خرجوا يالقيان والمغنيات والمعازف ، فلما وردوا الجحفة ، بعث خفاف الكنانى - وكان صديقا لأبى جهل - بهدايا إليه مع ابن له ، فلما أتاه قال : إن أبى ينعمك صباحا ويقول لك : إن شئت أن أمدك بالرجال أمددتك ، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معى من قرايتى فعلت .

فقال أبو جهل : قل لأبيك جزاك الله والرحم خيرا . إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة . وإن كنا إنما نقاتل الناس ، فوالله إن بنا على الناس لقوة .

والله ما نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور، وتعزف فيها القيان، فإن بدرا موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم . وحتى تسمع العرب - بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد - .

قال المفسرون : فوردوا بدرا ، وشربوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان[١] .

وقوله ﴿ بطرأ ﴾ مصدر بطر - كفرح - ومعناه كما يقول الراغب : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة ، وقلة القيام بحقها ، وصرفها إلى غير وجهها[٢] .

أى أن البطر ضرب من التكبر والغرور واتخاذ نعم الله - تعالى - وسيلة إلى مالا يرضيه وهو مفعول لأجله ، أو حال ، أى : حال كونهم بطرين .

وقوله ﴿ ورئاء ﴾ مصدر رأى ومعناه : القول أو الفعل الذى لا يقصد معه الإخلاص ، وإنما يقصد به التظاهر وحب الثناء .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٧٢ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٥٠ .

والمعنى : كونوا أيها المؤمنون - ثابتين عند لقاء الأعداء ، ومكثرين من ذكر الله وطاعته ، وصابرين فى كل المواطن .. واحذروا أن تتشبهوا بأولئك المشركين الذين خرجوا من مكة ﴿ بطرا ورئاء الناس ﴾ أى خرجوا غرورا وفخرا وتظاهرا بالشجاعة والحمية ... حتى ينالوا الثناء منهم ..

وقوله : ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ معطوف على ﴿ بطرا ﴾ والسبيل : الطريق الذى فيه سهولة . والمراد بسبيل الله : دينه . لأنه يوصل الناس إلى الخير والفلاح .

أى : خرجوا بطرين بما أوتوا من نعم ومرائين بها الناس ، وصادين إياهم عن دين الإسلام الذى باتباعه يصلون إلى السعادة والنجاح .

وعبر عن بطرهم وريائهم بصيغة الاسم الدال على التمكن والثبوت ، وعن صدهم بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث ، للإشعار بأنهم كانوا مجبولين على البطر والمفاخرة والرياء ، وأن هذه الصفات دأبهم وديدنهم ، أما الصد عن سبيل الله فلم يحصل منهم إلا بعد أن دعا الرسول - ﷺ - الناس إلى الإسلام .

وقوله : ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ تذييل قصد به التحذير من الاتصاف بهذه الصفات الذميمة، لأنه -سبحانه- محيط بكل صغيرة وكبيرة وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى . فعلى المؤمنين أن يخلصوا لله - تعالى - أعمالهم .

وقوله : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم .. ﴾ تذكير للمؤمنين بما خدع به الشيطان الكافرين من وعود كاذبة ، وأمانى باطلة .

والمراد بهذا التذكير : حضهم على المداومة على طاعة الله وشكره ، حيث إنه - سبحانه - لم يجعلهم كأولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان .

والمعنى : احذروا - أيها المؤمنون - أن تتشبهوا بأولئك الذين خرجوا من ديارهم بطرا ومفاخرة .. واذكروا وقت أن ﴿ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ فى معاداتكم ، بأن وسوس لهم بأنهم على الحق وانتم على الباطل ، وحسن لهم ما جبلوا عليه من غرور ومراءاة ، وأوهمهم بأن النصر سيكون لهم عند لقائكم ، بأن قال لهم ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ﴾ أى : لن يغلبكم أحد من الناس ، لا محمد - ﷺ - وأصحابه ، ولا غيرهم من قبائل العرب ، وإنى مجير ومعين وناصر لكم ، إذ المراد بالجار هنا : الذى يجير غيره . أى : يؤمنه مما يخاف ويخشى .

قال الآلوسى : أى : ألقى فى روعهم وخيل لهم أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم ، وعددهم ، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات - تجعله مجيرا لهم ، وحافظا إياهم عن السوء

حتى قالوا : اللهم انصر اهدى الفئتين ، وأفضل الدينين .

فالقول مجاز عن الوسوسة . والإسناد فى قوله ﴿ وإنى جار لكم ﴾ من قبيل الاسناد إلى السبب الداعى . و﴿ لكم ﴾ خبر ﴿ لا ﴾ أو صفة ﴿ غالب ﴾ والخبر محذوف . أى : لا غالب كائنا لكم موجود . و﴿ اليوم ﴾ معمول الخبر . و ﴿ من الناس ﴾ حال من ضمير الخبر ... »[1] .

وقوله : ﴿ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب ﴾ بيان لما فعله الشيطان وقاله بعد أن رأى ما رأى من قوة لا طاقة له بها ..

وقوله ﴿ تراءت الفئتان ﴾ أى : تقاربتا بحيث صارت كل فئة ترى الأخرى رؤية واضحة .

ومنهم من جعل ﴿ تراءت ﴾ بمعنى التقت وقوله ﴿ نكص على عقبيه ﴾ أى: ولى هاربا ورجع القهقرى . وأبطل كيده وذهب ما مناهم به من النصرة والعون يقال : نكص عن الأمر نكوصا ونكصا أى : تراجع عنه وأحجم . والعقب : مؤخر القدم .

والمعنى : لقد حرض الشيطان جنوده من الكافرين على حربكم - أيها المؤمنون - ، ومناهم بالنصر عليكم ... ولكنه حينما تراءت الفئتان : فئتكم وفئته ، ورأى ما أمدكم الله به من الملائكة، ولى مدبرا وقال للكافرين: ﴿ إنى برىء منكم ﴾ أى: من عهدكم وجواركم ونصرتكم ، ﴿ إنى أرى ﴾ من الملائكة النازلة لتأييد المؤمنين مالا ترونه أنتم ﴿ إنى أخاف الله ﴾ أن يعذبنى قبل يوم القيامة ، أو إنى أخاف الله أن يصيبنى بمكروه من قبل ملائكته .

وقوله ﴿ والله شديد العقاب ﴾ يحتمل أنه من كلام إبليس الذى حكاه الله - تعالى - عنه ، ويحتمل أنه جملة مستأنفة من كلامه عز وجل .

أى : والله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره .

هذا ، وهناك قولان فى كيفية تزيين الشيطان للمشركين :

أحدهما : أن هذا التزيين لم يكن حسيا ، وإنما كان معنويا عن طريق الوسوسة دون أن يتحول الشيطان إلى صورة إنسان .

وعليه يكون قوله ﴿ لا غالب لكم اليوم ... ﴾ مجازا عن الوسوسة . وقوله ﴿ نكص على عقبيه ﴾ استعارة لبطلان كيده ، شبه بطلان كيده بعد وسوسته بمن رجع القهقرى عما يخافه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٥ .

وثانيهما : أن هذا التزيين كان حسيا بمعنى أن الشيطان تمثل لهم فى صورة إنسان ، وقال لهم ما قال مما حكاه الله - تعالى - عنه .

وقد ذكر صاحب الكشاف هذين الوجهين فى تفسير الآية فقال : واذكر ﴿ إذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ التى عملوها فى معاداة رسول الله - ﷺ - ، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم ، فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم ، أى : بطل كيده حين نزلت جنود الله .

وكذا عن الحسن - رحمه الله - قال : كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم .

وقيل : لما اجتمعت قريش على السير - لحرب المسلمين فى بدر - ذكرت الذى بينها وبين كنانة من الحرب ، فكاد ذلك يثنيهم عن حرب المسلمين ، فتمثل لهم إبليس فى صورة سراقة ابن مالك بن جعشم الشاعر الكنانى - وكان من أشرفهم - فى جند من الشياطين معه راية وقال : لا غالب لكم اليوم وإنى مجيركم من بنى كنانة . فلما رأى الملائكة تنزل ، نكص .

وقيل : كانت يده فى يد الحارث بن هشام ، فلما نكص قال له الحارث : إلى أين ؟ أتخذلنا فى هذه الحال ؟ فقال : إنى أرى ما لا ترون ، ودفع صدر الحارث وانطلق وانهزموا .

فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقة ، فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم . فلما أسلموا علموا أنه الشيطان .

وفى الحديث - الذى أخرجه مالك فى الموطأ - : « وما رئى إبليس يوما أصغر ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة . إلا مارئى يوم بدر »[1] .

وقد ذكر ابن جرير وابن كثير روايات أخرى تتفق فى جملتها مع ما ذكره صاحب الكشاف ، وإن كانت تختلف عنها فى التفصيل ، ومن ذلك قول ابن جرير :

« وكان تزيينه ذلك لهم كما حدثنى المثنى قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين معه رايته فى صورة رجل من بنى مدلج ، فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما اصطف الناس ، أخذ رسول الله - ﷺ - قبضة من التراب ، فرمى بها فى وجوه المشركين ، فولوا الأدبار .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٧ وقوله : « ولا ادحر » الدحور : الطرد والإبعاد قال ابن حجر : والحديث أخرجه مالك فى الموطأ من رواية طلحة ابن عبيد الله ابن كريز مرسلا ، ومن طريق مالك أخرجه عبد الرازق والطبرى والبيهقى فى الشعب ، وانفراد أبو النضر بن إسماعيل بن إبراهيم العجلى عن مالك فقال : عن طلحة عن أبيه : قال ابن عبد البر : الصواب مرسل ، حاشية الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٨ .

وأقبل جبريل إلى إبليس ، فلما رآه - وكانت يده فى يد رجل من المشركين - انتزع إبليس يده فولى مدبرا هو وشيعته .

فقال الرجل : ياسراقة تزعم أنك لنا جار ؟ قال : ﴿ إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب ﴾ وذلك حين رأى الملائكة .

ثم قال: وحدثنا أحمد بن الفرج، قال: حدثنا عبدالملك بن عبدالعزيز الماجشون، قال: حدثنا مالك ، عن ابراهيم بن أبى عبلة ، عن طلحة بن عبد ابن عبيد الله بن كريز : أن رسول الله - ﷺ - قال : « مارئى إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أغيظ ولا أدحر من يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب ، إلا ما رأى يوم بدر » قالوا : يا رسول الله ، وما رأى يوم بدر ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة أى : يرتبهم ويسويهم ويصفهم للحرب »[1] .

وقد سار - ابن جرير وابن كثير - فى تفسيرهما للآية على أن التزيين من الشيطان كان حسيا .

فابن جرير يقول . بعد أن ذكر بضع روايات فى تفسير الآية : فتأويل : وإن الله لسميع عليم فى هذه الأحوال ، وحين زين لهم الشيطان خروجهم إليكم . ايها المؤمنون لحربكم وقتالكم ، وحسن ذلك لهم ، وحثهم عليكم وقال لا غالب لكم اليوم ، من بنى آدم ، فاطمئنوا وابشروا وإنى جار لكم من كنانة أن تأتيكم من ورائكم ... واجعلوا جدكم وبأسكم على محمد وأصحابه ﴿ فلما تراءت الفئتان ﴾ يقول : فلما تزاحفت جنود الله من المؤمنين ، وجنود الشيطان من الكافرين ، ونظر بعضهم إلى بعض ﴿ نكص على عقبيه ﴾ أى : رجع القهقرى على قفاه هاربا .. وقال للمشركين ﴿ إنى أرى مالا ترون ﴾ يعنى أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مددا للمؤمنين ، والمشركون لا يرونهم[2] .

وابن كثير يقول : وقوله - تعالى - ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ... ﴾ الآية .

أى : حسن لهم -لعنه الله- ما جاءوا له ، وما هموا به . وذلك أنه تبدى لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بنى مدلج .. ثم قال : فلما رأى إبليس الملائكة ﴿ نكص على عقبيه ﴾ وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون ، وهو فى صورة سراقة ، وأقبل أبو جهل يحض أصحابه ويقول لهم : لايهولنكم خذلان سراقة إياكم ، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه .. »[3] .

ومن هذا يتضح أن هذين الإمامين الجليلين يسيران فى تفسيرهما للآية الكريمة ، على أن

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١٨ ، وتفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٧ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٢٠ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٧ ، ص ٣١٨ .

التزيين كان حسياً ، ويهملان القول بغير ذلك وممن تابعهما فى هذا الإمام القرطبى ، فقد ذكر بعض الروايات التى وردت فى معنى الآية ، والتى صرحت بأن الشيطان قد تمثل للمشركين فى صورة إنسان ، وبنى تفسيره للآية على ذلك ..[١] .

وقد خالف صاحب المنار هؤلاء الأئمة ، فرجح القول الأول وهو أن التزيين لم يكن حسياً ، أى أن ما قاله الشيطان لهم من قبيل الوسوسة ، وأنه لم يتمثل لهم فى صورة إنسان .

فقد قال - رحمه الله - قوله : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ... ﴾ أى : واذكر ايها الرسول للمؤمنين إذ زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه فى هواجسهم لا غالب لكم اليوم من الناس .

﴿ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ﴾ أى : فلما قرب كل من الفريقين من الآخر . نكص ، أى : رجع القهقرى .. والمراد أنه كف عن تزيينه لهم ، وتغريره إياهم ، فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيه وسوسته بما ذكر بحال المقبل على الشيء ، وتركها بحال من ينكص عنه ويوليه دبره ، ثم زاد على هذا ما يدل على براءته منهم ، وتركه إياهم وشأنهم ، وهو ﴿ وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله ﴾ أى : تبرأ منهم وخاف عليهم ، وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة .

ثم قال - بعد أن ضعف الروايات التى أوردها ابن جرير وابن كثير - والمختار عندنا فى تفسير الآية أن الشيطان القى فى قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبهم ..[٢] .

والخلاصة : أننا بمراجعتنا لأقوال المفسرين فى كيفية تزيين الشيطان للمشركين ، تراهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

(أ) قسم منهم ذكر القولين السابقين فى كيفية التزيين دون أن يرجح أحدهما على الآخر ، وممن فعل ذلك الزمخشرى ، والفخر الرازى والآلوسى .

(ب) وقسم منهم سار فى تفسيره على أن التزيين كان حسياً ، بمعنى أن الشيطان تمثل للمشركين فى صورة إنسان وقال لهم ما قال ، وأهمل القول بأن التزيين لم يكن حسياً ، وممن فعل ذلك ابن جرير ، وابن كثير ، والقرطبى .

(جـ) وقسم منهم رجح ان التزيين لم يكن حسياً ، بل كان عن طريق الوسوسة ، وأن الشيطان ما تمثل للمشركين فى صورة إنسان ، وقد سار فى هذا الاتجاه صاحب المنار مشككا فى صحة ما سواه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٦ .

(٢) راجع تفسير المنار جـ ١٠ ص ٣١ للشيخ رشيد رضا .

والذى نراه بعد هذا العرض لأقوال المفسرين : أن الآية الكريمة صريحة فى أن الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد قال لهم - ما حكاه القرآن عنه : ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ﴾ وأنه حين تراءى الجمعان كذب فعلُهُ قوله ، فقد ﴿ نكص على عقبيه ﴾ وقال للمشركين الذين وعدهم ومناهم بالنصر ﴿ إنى برئ منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ .

ومن العسير علينا بعد ذلك أن نحدد تحديداً قاطعاً كيفية هذا التزيين والقول والنكوص : أهو حسى أم غير حسى ؛ لأن التحديد القاطع لابد أن يستند إلى نص صريح فى دلالته على المعنى المراد ، وصحيح فى نسبته إلى رسول الله - ﷺ - .

وهذا النص غير موجود ، لأن الحديث الذى أخرجه الإمام مالك فى موطئه - والذى سبق أن ذكرناه - قال عنه ابن كثير وابن حجر إنه حديث مرسل ، وزيادة على ذلك ففى بعض رجاله من هو ضعيف الحديث كابن الماجشون ، ولأن الروايات التى رويت فى تمثيل الشيطان بصورة سراقة قد جاء معظمها عن ابن عباس ، وابن عباس - كما يقول صاحب المنار - كان سنه يوم بدر خمس سنين . فروايته لأخبارها منقطعة .

إذا فنحن نؤمن بما أثبته القرآن من أن الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد قال لهم ما قاله - مما حكاه القرآن عنه - ، وأنه قد نكص على عقبيه .. إلا أننا لا نستطيع أن نحدد كيفية ذلك .

ويعجبنى فى هذا المقام قول بعض الكاتبين عند تفسيره لهذه الآية : « وفى هذا الحادث نص قرآنى يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم ، وشجعهم على الخروج ... وأنه بعد ذلك « نكص على عقبيه .. » فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم .

ولكننا لا نعلم الكيفية التى زين لهم بها أعمالهم والتى قال لهم بها : لا غالب لكم اليوم من الناس ... والتى نكص بها كذلك .

الكيفية فقط هى التى لا نجزم بها . ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشىء من أمره إلا بنص قرآنى أو حديث نبوى صحيح ، والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث .

فإلى هنا ينتهى اجتهادنا ، ولا نميل إلى المنهج الذى تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده فى محاولة تأويل كل أمر غيبى من هذا القبيل تأويلا معينا ينفى الحركة الحسية عن هذه العوالم ، وذلك كقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير الآية .

﴿ وإذا زين لهم الشيطان أعمالهم ... ﴾ واذكر أيها الرسول للمؤمنين إذ زين الشيطان

لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه فى هواجسهم : لا غالب لكم اليوم من الناس ... الخ ما ذكره الشيخ رشيد فى تفسير الآية[1] .

هذا ، وقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم .. ﴾ بيان لصنفين آخرين من أعداء المسلمين بعد بيان العدو الرئيسى وهم المشركون الذين خرجوا بطرا ورئاء الناس لمحاربة الإسلام وقد شجعهم الشيطان على ذلك .

، قال الفخر الرازى : أما المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج - كانوا يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ولم يخرج منهم أحد إلى بدر سوى عبد الله بن أبى - وأما الذين فى قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا ولم يهاجروا .

ثم إن قريشا لما خرجوا لحرب رسول الله - ﷺ - قال أولئك : نخرج مع قومنا فإن كان محمد فى كثرة خرجنا إليه ، وإن كان فى قلة أقمنا فى قومنا ..

وعامل الاعراب فى « إذ » فيه وجهان : الأول : التقدير ، والله شديد العقاب إذ يقول المنافقون » ..

والثانى : اذكروا إذ يقول المنافقون.. »[2] .

وقوله : ﴿ غر ﴾ أى : خدع ، من الغرور وهو كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهرة وشيطان .

أى : اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن قال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم : أى خدعهم ، لأنكم أقدمتم على قتال قوم يفوقونكم عدة وعددا ، وهذا القتال - فى زعمهم - لون من إلقاء النفس إلى التهلكة ، لأنهم قوم لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ، فهم لخراب بواطنهم من العقيدة السليمة ، لا يعرفون أثرها فى الإقدام من أجل نصرة الحق ولا يقدرون ما عليه أصحابها من صلة طيبة بالله - عز وجل - الذى بيده النصر والهزيمة ..

وماداموا قد فقدوا تلك المعرفة ، وهذا التقدير ، فلا تستبعدوا منهم - أيها المؤمنون - أن يقولوا هذا القول عنكم ، فذلك مبلغهم من العلم ، وتلك موازينهم فى قياس الأمور ...

والحق ، أن الإنسان عندما يتدبر ما قاله المنافقون والذين فى قلوبهم مرض فى حق المؤمنين عندما أقدموا على حرب أعدائهم فى بدر ...

---

(١) راجع تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٠ ص ٣٠ - للأستاذ سيد قطب - وقد نقلنا قبل ذلك جانبا من كلام صاحب المنار .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٧٦ .

أقول : عندما يتدبر ذلك ليرى أن هذا القول دأب كل المنافقين والذين فى قلوبهم مرض فى كل زمان ومكان .

إننا فى عصرنا الحاضر رأينا كثيرين من أصحاب العقيدة السليمة ، والنفوس النقية ، والقلوب المضحية بكل شىء فى سبيل نصرة الحق .. رأينا هؤلاء يبلغون رسالات الله دون أن يخشوا أحدا سواه ويهاجمون الطغاة والمبطلين والفجار ، ليمكنوا لدين الله فى الأرض ، حتى ولو أدت بهم هذه المهاجمة إلى بذل أرواحهم .

ورأينا فى مقابل هؤلاء الصادقين أقواما - ممن آثروا شهوات الدنيا على كل شىء - لا يكتفون بالصمت وهم يشاهدون أصحاب العقيدة السليمة يصارعون الطغاة .

بل هم - بسبب خلو نفوسهم من المثل العليا - يلقون باللوم على هؤلاء المؤمنين ، ويقولون ما حكاه القرآن من أقوال فى أشباههم السابقين من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم .

إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن ، ولا يزنونها بميزان الإيمان .

إن المؤمن يرى التضحية فى سبيل الحق مؤدية إلى إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

أما هؤلاء المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، فلا يرون الحياة إلا متعة وشهوة وغنيمة ﴿ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ حض للمؤمنين على التمسك بما يدعوهم إليه إيمانهم من استقامة وقوة ..

أى : ومن يكل أمره إلى الله ، ويثق به - ينصره - سبحانه - على أعدائه ، فإنه - عز وجل - عزيز لا يغلبه شىء ، حكيم فيما يدبر من أمر خلقه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد صورت تصويرا بديعا ما عليه الكافرون وأشباههم من بطر ومفاخرة وصد عن سبيل الله .. ومن طاعة للشيطان أوردتهم المهالك .

وحكت ما قالوه من أقوال تدل على جبنهم وجهلهم وانطماس بصيرتهم .

ونهت المؤمنين عن التشبه بهم ، لأن البطر والمفاخرة والبغى ، واتباع الشيطان : كل ذلك يؤدى إلى خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

ولقد كان أبو جهل قمة فى البغى والبطر والمراءاة عندما قال - بعد أن نصحه الناصحون

---

(١) سورة التوبة الآية ٥٨ .

بالرجوع عن الحرب فقد نجت العير : « لا لن نرجع حتى نرد بدراً ، فتقيم ثلاثا ، ننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا ، فلن تزال العرب تهابنا أبدا » .

وعندما بلغت مقالة أبي جهل أبا سفيان قال : « واقوماه !! هذا عمل عمرو ابن هشام « يعنى أبا جهل » كره أن يرجع ؛ لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم . إن أصاب محمد النفير ذللنا » .

وصدقت فراسة أبي سفيان ، فقد أصاب محمد - ﷺ - النفير وتسربل المشركون بالذل والهوان فى بدر بسبب بطرهم وريائهم وصدهم عن سبيل الله ، واتباعهم لخطوات الشيطان .

فاللهم نسألك أن توفقنا إلى ما يرضيك ، وأن تجنبنا البطر والرياء وسوء الأخلاق .

وبعد هذا البيان لأحوال الكافرين فى حياتهم ؛ انتقل القرآن لبيان أحوالهم عند مماتهم .

فقال - تعالى - :

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ ولو ترى .. ﴾ للنبى - ﷺ - أو لكل من يصلح للخطاب و ﴿ لو ﴾ شرطية ، وجوابها محذوف لتفظيع الأمر وتهويله .

والمراد بالذين كفروا : كل كافر، وقيل المراد بهم قتلى غزوة بدر من المشركين .

قال ابن كثير : وهذا السياق وإن كان سببه غزوة بدر ، ولكنه علم فى حق كل كافر . ولهذا لم يخصصه الله بأهل بدر بل قال - سبحانه - ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ... ﴾[1] .

والفعل المضارع هنا وهو ﴿ ترى ﴾ بمعنى الماضى ، لأن لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا .

والفعل ﴿ يتوفى ﴾ فاعله محذوف للعلم به وهو الله - عز وجل - وقوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ هو المفعول وعليه يكون : ﴿ الملائكة ﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿ يضربون وجوههم ... ﴾ خبر .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٩ .

والمعنى ولو عاينت وشاهدت أيها العاقل حال الذين كفروا حين يتوفى الله أرواحهم ، لعاينت وشاهدت منظراً مخيفا ، وأمراً فظيعاً تقشعر من هوله الأبدان .

ثم فصل الله - سبحانه - هذا المنظر المخيف بجملة مستأنفة فقال : ﴿ الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ والمراد بوجوههم : ما أقبل منهم وبأدبارهم : ما أدبر وهو كل الظهر .

أى : الملائكة عندما يتوفى الله - تعالى - هؤلاء الكفرة يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ، لإعراضهم عن الحق ، وإيثارهم الغى على الرشد .

ومنهم من يرى أن الفعل ﴿ يتوفى ﴾ فاعله ﴿ الملائكة ﴾ وأن قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ هو المفعول وقدم على الفاعل للاهتمام به .

وعليه تكون جملة ﴿ يضربون وجوههم .. ﴾ حال من الفاعل وهو الملائكة .

فيكون المعنى : ولو رأيت - أيها العاقل - حال الكافرين عندما تتوفى الملائكة أرواحهم فتضرب منهم الوجوه والأدبار ، لرأيت عندئذ ما يؤلم النفس ، ويخيف الفؤاد .

ويبدو لنا أن التفسير الأول أبلغ ، لأن توضيح وتفصيل الرؤية بالجملة الاسمية المستأنفة خير منه بجملة الحال ، ولأن إسناد التوفى إلى الله أكثر مناسبة هنا ، إذ أن الله - تعالى - قد بين وظيفة الملائكة هنا فقال : ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ .

وخص - سبحانه - الضرب للوجوه والأدبار بالذكر ، لأن الوجوه أكرم الأعضاء ، ولأن الأدبار هى الأماكن التى يكره الناس التحدث عنها فضلا عن الضرب عليها . أو لأن الخزى والنكال فى ضربها أشد وأعظم .

وقوله : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ معطوف على قوله ﴿ يضربون ﴾ بتقدير القول . أى يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم : ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا .

والذوق حقيقة إدراك المطعومات . والأصل فيه أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه .

والتعبير به هنا عن ذوق العذاب هو لون من التهكم عليهم ، والاستهزاء بهم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وهو أيضا يشعر بأن ما وقع عليهم من عذاب إنما هو بمنزلة المقدمة لما هو أشد منه ، كما أن الذوق عادة يكون كالمقدمة للمطعوم أو الشىء المذاق .

وقوله : ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ بيان للأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السىء . وأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بشؤم صنيعهم ، وانقيادهم للهوى والشيطان .

أى : ذلك الذى نزل بكم - أيها الكافرون - من الضرب وعذاب النار ، سببه ما قدمته أيديكم من عمل سىء ، وفعل قبيح ، وقول منكر ، وجحود للحق . وأن الله - تعالى - ليس بذى ظلم لكم ولا لغيركم ، لأن حكمته - سبحانه - قد اقتضت ألا يعذب أحدا إلا بسبب ذنب ارتكبه ، وجرم اقترفه .

فاسم الإشارة « ذلك » يعود إلى الضرب وعذاب الحريق ، وهو مبتدأ ، وخبره قوله ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ .

والمراد بالأيدى : الأنفس والذوات . والتعبير بالأيدى عن ذلك من قبيل التعبير بالجزء عن الكل .

وخصت الأيدى بالذكر ، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته ، وأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدى . ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به ، والاتصال بذاته .

وقوله : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله .

أى : ذلك الذى نزل بكم سببه ما قدمته أيديكم ، والأمر أن الله - تعالى - ليس بمعذب لعبيده من غير ذنب جنوه .

ويجوز أن يكون معطوفا على (ما) المجرورة بالباء . أى : ذلك بسبب ما قدمته أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد .

قال بعض العلماء : فإن قيل ما سر التعبير بقوله ﴿ ظلام ﴾ بالمبالغة ، مع أن نفى نفس الظلم أبلغ من نفى كثرته ، ونفى الكثرة لا ينفى أصله ، بل ربما يشعر بوجوده ، وبرجوع النفى للقيد ؟ .

وأجيب بأجوبة :

منها : أنه نفى لأصل الظلم وكثرته ، باعتبار آحاد من ظلم ، كأنه قيل ظالم لفلان ولفلان وهلم جرا ، فلما جمع هؤلاء عدل إلى ﴿ ظلام ﴾ لذلك ، أى : لكثرة الكمية فيه .

ومنها : أنه إذا انتفى الظلم الكثير ، انتفى الظلم القليل ، لأن من يظلم يظلم للانتفاع بالظلم ، فإذا ترك كثيره ، مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضر ، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركا .

ومنها : أن « ظلاما » للنسب كعطار ، أى : لا ينسب إليه الظلم أصلا .

ومنها : أن كل صفة له - تعالى - فى أكمل المراتب ، فلو كان - سبحانه - ظالما ، كان ظلاما ، فنفى اللازم نفى للملزوم .

ومنها : أن نفى ﴿ الظلام ﴾ لنفى الظالم ضرورة أنه إذا انتفى الظلم انتفى كماله ، فجعل نفى المبالغة كناية عن نفى أصله ، انتقالا من اللازم إلى الملزوم .

ومنها : أن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاما بليغ الظلم متفاقمه ، فالمراد تنزيهه - تعالى - وهو جدير بالمبالغة .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن رسول الله - ﷺ - أن الله - تعالى - يقول : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا »[1] .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد بينتا حالة المشركين عند قبض أرواحهم بيانا يحمل النفوس على الإيمان والطاعة لله - تعالى - فقد رسم القرآن صورة مفزعة لهم ، صورة الملائكة وهى تضرب وجوههم وأدبارهم بأمر من الله - تعالى - الذى ما ظلمهم ، ولكنهم هم الذين أحلوا بأنفسهم هذا المصير المؤلم المهين ، حيث كفروا بالحق ، وحاربوا أتباعه ، واستحبوا العمى على الهدى ثم بين سبحانه - أن هؤلاء الكافرين عادتهم فى كفرهم وطغيانهم كعادة من سبقهم من الأمم الظالمة وإن من سنة الله تعالى - فى خلقه ألا يعاقب إلا بذنب ، وألا يغير النعمة إلا لسبب . فقال - تعالى :

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠١٦ .

والكاف فى قوله : ﴿كدأب﴾ ، للتشبيه ، والجار والمجرور فى موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف .

والدأب : أصله الدوام والاستمرار ، يقال : دأب فلان على كذا يدأب دأباً - بفتح الهمزة - ودأباً - بسكونها - ودؤوباً ، إذا دوام عليه وجد فيه ، ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة ، لأن الذى يستمر فى عمل أمداطويلا يصير هذا العمل عادة من عاداته ، وحالا من أحواله ، فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم .

والآل - كما يقول الراغب - مقلوب عن الأهل ، ويصغر على أهيل ، إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة يقال : آل فلان ، ولا يقال : آل رجل ، ولا يقال : آل الحجام .. بل يضاف إلى الأشرف والأفضل يقال : آل الله ، وآل السلطان ، والأهل يضاف إلى الكل ، فيقال : أهل الله ، وأهل الحجام ، وأهل زمان كذا ..[1] .

والمقصود بآل فرعون : هو وأعوانه وبطانته ، لأن الآل يطلق على أشد الناس التصاقا واختصاصا بالمضاف إليه .

والمعنى : شأن هؤلاء الكافرين الذين حاربوك يا محمد ، والذين هلك منهم من هلك فى بدر ، شأنهم وحالهم وعادتهم فيما اقترفوه من الكفر والعصيان وفيما فعل بهم من عذاب وخذلان ، كشأن آل فرعون الذين استحبوا العمى على الهدى ، والذين زينوا له الكفر والطغيان حتى صار عادة له ولهم ، وقد أخذهم - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، بسبب كفرهم وفجورهم .

وقد خص - سبحانه - فرعون وآله بالذكر من بين الأمم الكافرة ، لأن فرعون كان أشد الطغاة طغيانا ، وأكثرهم غرورا وبطرا ، وأكثرهم فى الاستهانة بقومه وفى الاحتقار لعقولهم وكيانهم .

ألم يقل لهم - كما حكى القرآن عنه - ﴿أنا ربكم الأعلى﴾[2] .

وألم يبلغ به غروره أن يقول لهم : ﴿أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون﴾[3] ؟ .

أما آله وبطانته وأعوانه ، فهم الذين زينوا له السوء ، وحرضوه على البطش بموسى لأنه

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٠ .
(٢) سورة النازعات الآية ١٤ .
(٣) سورة الزخرف الآية ٥١ .

جاءهم بالحق ، ولقد حكى الله عنهم نفاقهم وضلالهم وانغماسهم فى الآثام فى آ يات كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾[١] .

ولقد وصف الله - تعالى - قوم فرعون بهوان الشخصية ، وتفاهة العقل ، والخروج عن كل مكرمة فقال : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[٢] وذلك لأن الأمة التى تترك الظالم وبطانته يعيثون فى الأرض فسادًا ، لا تستحق الحياة ، ولا يكون مصيرها إلا إلى التعاسة والخسران .

وقوله ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ تفسير لصنيعهم الباطل ، ودأبهم على الفساد والضلال .

والمراد بآيات الله : ما يعم المتلوة فى كتب الله - تعالى - ، والبراهين والمعجزات الدالة على صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن ربهم .

وفى إضافتها إلى الله : تعظيم لها وتشريف ، وتنبيه إلى قوة دلالتها على الحق والخير .

وقوله : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ معطوف على قوله ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ لبيان ما ترتب على كفرهم من عقوبات أليمة .

وفى التعبير بالأخذ إشارة إلى شدة العذاب ، فهو - سبحانه - قد أخذهم كما يؤخذ الأسير الذى لا يستطيع الفكاك من آسره .

والباء فى قوله : ﴿ بذنوبهم ﴾ للسببية أى كفروا بآيات الله فعاقبهم - سبحانه - بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمره .

ويجوز أن تكون للملابسة ، أى : أخذهم وهم ملتبسون بذنوبهم دون أن يتوبوا منها ، أو يقلعوا عنها .

وعلى الوجهين فالجملة الكريمة تدل على كمال عدل الله - تعالى - لأنه ما عاقبهم إلا لأنهم استحقوا العقاب .

والمراد بذنوبهم : كفرهم وما ترتب عليه من فسوق وعصيان ، وأصل الذنب : الأخذ بذنب الشىء أى بمؤخرته ، ثم أطلق على الجريمة ، لأن مرتكبها يعاقب بعدها .

وقوله : ﴿ إن الله قوى شديد العقاب ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ الشديد ، بسبب الكفر والمعاصى .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٧ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٥٣ .

أى : إن الله - تعالى - قوى لا يغلبه غالب ، ولا يدفع قضاءه دافع ، شديد عقابه لمن كفر بآياته ، وفسق عن أمره .

وقوله : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... ﴾ بيان لسنة من سننه - تعالى - فى خلقه ، وتعليل لتعذيب أولئك الكفار ، ولسلب نعمه عنهم وعن أشباههم من العصاة والجاحدين واسم الإشارة : ﴿ ذلك ﴾ يعود إلى تعذيب الكفرة المعبر عنه بقوله - تعالى - ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ .

وهو ، أى : اسم الإشارة مبتدأ ، وخبره قوله - سبحانه - ﴿ بأن الله لم يك مغيراً .. ﴾ إلخ .

والمعنى : ذلك الذى نزل بهؤلاء الكفرة من التعذيب والخذلان عدل إلهى ، فقد جرت سنته - سبحانه - فى خلقه ، واقتضت حكمته فى حكمه ألا يبدل نعمه بنقم إلا بسبب ارتكاب الذنوب ، واجتراح السيئات ، فإذا لم يتلق الناس نعمه - عز وجل - بالشكر والطاعة ، وقابلوها بالكفر والعصيان ، بدل نعمتهم بنقم جزاء وفاقا .

وشبيه بهذا قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[١] .

قال الفخر الرازى : قال القاضى : معنى الآية أنه - تعالى - أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل ، والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ، ويعدلوا عن الكفر ، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر ، فقد غيروا نعمة الله - تعالى - على أنفسهم ، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم ، والمنح بالمحن .

قال : وهذا من أوكد مايدل على أنه - تعالى - لا يبتدئ أحدا بالعذاب والمضرة[٢] .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : فما كان من تغيير آل فرعون ومشركى مكة حتى غير الله نعمته عليهم ، ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة ؟ .

قلت : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة ، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول - ﷺ - إليهم كفرة عبدة أصنام ، فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين فى إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت ، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب[٣] .

---

(١) سورة الرعد الآية ١١ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٨١ المطبعة البهية .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٠ .

وقوله : ﴿ وأن الله سميع عليم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ بأن الله لم يك مغيرا نعمة .. ﴾ إلخ .

أى : ذلك التعذيب بسبب جحودهم للنعم ، وبسبب أنه - سبحانه - سميع لما نطقوا به من سوء ، وعليم بما ارتكبوه من قبائح ومنكرات ، وقد عاقبهم على ذلك بما يستحقون من عذاب : ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

ثم ذكر - سبحانه - ما عليه المشركون من جحود وغرور وعناد على سبيل التأكيد والتوبيخ فقال : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون ، وكل كانوا ظالمين ﴾ .

أى : أن شأن هؤلاء المشركين الذين حاربوك يا محمد ، كشأن آل فرعون ومن تقدمهم من الأقوام السابقة ، كقوم نوح وقوم هود .. ، كذب أولئك جميعا بآيات ربهم التى أوجدها - سبحانه - لهدايتهم وسعادتهم .. فكانت نتيجة ذلك أن أهلكهم - سبحانه - بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ، وبسبب استعمالهم النعم فى غير ما خلقت له .

﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ الذين زينوا له الكفر والبطر والطغيان .

﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾ أى : وكل من الأقوام المذكورين ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، كانوا ظالمين لأنفسهم بكفرهم ، ولأنبيائهم بسبب محاربتهم لهم ، وإعراضهم عنهم مع أن الأنبياء ما جاءوا إلا لهدايتهم .

وجمع الضمير فى ﴿ كانوا ﴾ و﴿ ظالمين ﴾ مراعاة لمعنى ﴿ كل ﴾ لأنها متى قطعت عن الإضافة جاز مراعاة لفظها تارة ، ومراعاة معناها أخرى ، واختير هنا مراعاة المعنى لأجل الفواصل .

قال الجمل : فإن قلت : ما الفائدة من تكرير هذه الآية مرة ثانية ؟ .

قلت : فيها فوائد منها : أن الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الأول ، لأن الآية الأولى فيها ذكر أخذهم ، والثانية ذكر إغراقهم فذلك تفسير للأول .

ومنها : أنه ذكر فى الآية الأولى أنهم كفروا بآيات الله وفى الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ، ففى الآية إشارة إلى أنهم كفروا بآيات الله وجحدوها ، وفى الثانية إشارة إلى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها ، وكفرهم بها .

ومنها : أن تكرير هذه القصة للتأكيد[1] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٥١ .

وبعد ، فإن المتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها تصور تصويرا واضحا سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أنه - سبحانه - لا يسلب نعمه عن قوم إلا بسبب ذنوب اقترفوها ، وأنه - تعالى - لا ينزل عقوباته بهم إلا بعد لجاجهم فى طغيانهم ، وإدبارهم عن نصح الناصحين .

ورحم الله الأستاذ الإمام محمد عبده فقد كتب مقالا جيداً صدره بقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. ﴾ .

ومما جاء فى هذا المقال قوله : تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

أرشدنا - سبحانه - إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها - سبحانه - على أساس الحكمة البالغة ، إن الله لا يغير ما بقوم من عز وسلطان ، ورفاعة وخفض عيش ، وأمن وراحة حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل ، وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة ، والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا ، أو حل بهم الدمار . ثم لعدولهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة فى الرأى ، والصدق فى القول ، والسلامة فى الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصرته والتعاون على حمايته .. خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية .. فأخذهم بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين .

هكذا جعل الله بقاءالأمم ونماءها فى التحلى بالفضائل وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها .

سنة ثابتة لاتختلف باختلاف الأمم ، ولا تتبدل بتبدل الأجيال ، كسنته - سبحانه - فى الخلق والإيجاد ، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال .. »[1] .

وبعد أن شرح - سبحانه - أحوال المهلكين من شرار الكفرة ، شرع فى بيان أحوال الباقين منهم ، وتفصيل أحكامها ، فقال - تعالى :

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ

(١) راجع تفسير المنار جـ ٢ ص ٤٦ ففيه المقال بتمامه .

وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما وصف كل الكفار بقوله : ﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾ أفرد بعضهم بمزية فى الشر والعناد فقال : ﴿ إن شر الدواب عند الله ﴾ أى : فى حكمه وعلمه من حصلت له صفتان :

الأولى : الكافر الذى يكون مستمراً على كفره مصرا عليه ...

الثانية : أن يكون ناقضا للعهد على الدوام ...

قال ابن عباس : هم بنو قريظة ، فإنهم نقضوا عهد رسول الله - ﷺ - وأعانوا عليه المشركين بالسلاح فى يوم بدر ، ثم قالوا : أخطأنا ، فعاهدهم مرة أخرى فنقضوه أيضا يوم الخندق ...[١] .

والدواب : جمع دابة . وهى كل ما يدب على الأرض قال - تعالى - ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع .. ﴾[٢] .

قال الجمل : وإطلاق الدابة على الإنسان إطلاق حقيقى ، لما ذكروه فى كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدميا . وفى المصباح : « الداية كل حيوان فى الأرض مميزاً وغير مميز »[٣] .

والمعنى : إن شر ، ما يدب على الأرض ﴿ عند الله ﴾ أى : فى حكمه وقضائه ﴿ الذين كفروا ﴾ أى : الذين أصروا على الكفر ولجوا فيه .

وقد وصفهم - سبحانه - بأنهم شر الدواب لا شر الناس ، للإشعار بأنهم بمعزل عما يتحلى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ١٨٢ المطبعة البهية .
(٢) سورة النور ، الآية ٤٥ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٣٦ .

به الناس من تعقل وتدبر للأمور ، لأن لفظ الدواب وإن كان يطلق على الناس ، إلا أنه عند إطلاقه عليهم يلقى ظلا خاصا يجعل العقول تتجه إلى أن هؤلاء الذين أطلق عليهم اللفظ هم إلى الدواب التى لا تعقل أقرب منهم إلى الآدميين العقلاء ، وفى وصفه - سبحانه - لهم بأنهم شر الدواب زيادة توبيخ لهم ، لأنهم ليسوا دوابا فحسب بل هم شرها وأخسها .

وقوله : ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ تذييل جيء به على وجه الاعتراض بالبيان أى : أنهم - بسبب إصرارهم على الكفر - صار الإيمان بعيدا عنهم ، وأنهم سواء أنذروا أو لم ينذروا مستمرون فى الضلال والعناد .

وقوله : ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة .. ﴾ بدل من الموصول الأول وهو قوله : ﴿ الذين كفروا .. ﴾ أو عطف بيان له .

أى : إن شر الدواب عند الله الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه ، الذين ﴿ عاهدت منهم ﴾ أى : أخذت منهم عهدهم ، ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة دون أن يفوا بعهودهم ولو مرة واحدة من المرات المتعددة .

فقوله : ﴿ عاهدت ﴾ مضمن معنى الأخذ ، ولذا عدى بمن .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ الذين عاهدت منهم .. ﴾ بدل من الموصول الأول ، أو عطف بيان ، أو نعت ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو نصب على الذم ، وعائد الموصول قيل : ضمير الجمع المجرور ، والمراد : عاهدتهم ، و﴿ من ﴾ للإيذان بأن المعاهدة - التى هى عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين - معتبرة هنا من حيث أخذه - ﷺ - ، إذ هو المناط لما نعى عليهم من النقض ، لا إعطاؤه - عليه الصلاة والسلام إياهم عهده كأنه قيل : الذين أخذت منهم عهدهم ، وقال أبو حيان : تبعيضية ، لأن المباشر بعضهم لا كلهم .. »[1] .

وقوله : ﴿ ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ﴾ معطوف على الصلة .

وكان العطف « بثم » المفيدة للتراخى ، للإيذان بالتفاوت الشديد بين ما أخذ عليهم من عهود ، وبين ما ترددوا فيه من نقض لها ، واستهانة بها .

وجيء بصيغة المضارع ﴿ ينقضون ﴾ المفيدة للحال والاستقبال ، للدلالة على تعدد النقض وتجدده ، وأنهم على نيته فى كل مرة يعاهدون فيها غيرهم .

وقوله : ﴿ وهم لا يتقون ﴾ فى موضع الحال من فاعل ﴿ ينقضون ﴾ .

أى : أن هؤلاء القوم دأبهم نقض العهود والمواثيق فى كل وقت ، ومع ذلك فحالهم وشأنهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٢٢ .

أنهم لا يشعرون خلال نقضهم للعهود بأى تحرج أو خجل ، بل يرتكبون ما يرتكبون من المنكرات دون أن يتقوا عارها ، أو يخشوا سوء عاقبتها .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء الناقضين لعهودهم فى كل مرة بدون حياء أو تدبر للعواقب فقال : ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ﴾ فالفاء فى قوله ﴿ فإما ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

وقوله : ﴿ تثقفنهم ﴾ من الثقف بمعنى الحذق فى إدراك الشىء وفعله .

قال الراغب : يقال ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق فى النظر ، ثم يتجوز فيه فيستعمل فى الإدراك وإن لم تكن معه ثقافته .

قال - تعالى - ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب ﴾[1] .

وقوله : ﴿ فشرد بهم ﴾ التشريد وهو عبارة عن التفريق مع الاضطراب ، يقال شردت بنى فلان ، أى : قلعتهم عن مواطنهم وطردتهم عنها حتى فارقوها قال الشاعر :

أطوف فى الأباطح كل يوم مخافة أن يشرد بى حكيم

أى : مخافة أن يسمع بى ويطردنى حكيم ، وحكيم رجل من بنى سليم كانت قريش قد ولته الأخذ على أيدى السفهاء .

والمعنى : إنك يا محمد إذا ما أدركت فى الحرب هؤلاء الكافرين الناقضين لعهودهم وظفرت بهم - وهم بنو قريظة ومن لف لفهم - .. فافعل بهم فعلا من القتل والتنكيل يتفرق معه جمع كل ناقض للعهد ، ويفزع منه كل من كان على شاكلتهم فى الكفر ونقض العهود ، ويعتبر به كل من سمعه من أهل مكة وغيرهم .

فالباء فى قوله ﴿ فشرد بهم ﴾ للسببية ، وقوله ﴿ من خلفهم ﴾ مفعول شرد .

والمراد بمن خلفهم : كفار مكة وغيرهم من الضالين ، أى : افعل ببنى قريظة ما يشرد غيرهم خوفا وفزعا .

وقوله ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ أى : لعل أولئك المشردين يتعظون بهذا القتل والتنكيل الذى نزل بهؤلاء الناقضين لعهودهم فى كل مرة ، فيمنعهم ذلك عن نقض العهد .

هذا ، وإن تلك الآية الكريمة لمن أحكم الآيات التى ترشد المؤمنين إلى وجوب أخذ المستمرين على كفرهم وعنادهم ونقضهم العهود أخذاً شديداً رادعا .. حتى يبقى للمجتمع الإسلامى أمانه واستقراره وهيبته أمام أعدائه .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٧٩ .

إن الآية الكريمة ترسم صورة بديعة للأخذ المفزع ، والهول المرعب ، الذى يكفى السماع به للهرب والشرود ، فما بال من يحل به هذا الأخذ الشديد ؟

إنها الضربة المروعة ، بأمر الله - تعالى - رسوله أن ينزلها على رأس كل مستحق لها بسبب كفره وتلاعبه بالعهود .. وبذلك تبقى لدين الله هيبته وسطوته .

هذا هو حكم المصرين على كفرهم الناقضين لعهودهم .. أما الذين تخشى منهم الخيانة فقد بين - سبحانه - حكمهم بقوله : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين ﴾ .

وقوله : ﴿ تخافن ﴾ من الخوف والمراد به هنا العلم .

وقوله ﴿ فانبذ ﴾ من النبذ بمعنى الطرح ، وهو مجاز عن إعلامهم بأنهم لا عهد لهم بعد اليوم ، فشبه - سبحانه - العهد بالشىء الذى يرمى لعدم الرغبة فيه ، وثبت النبذ له على سبيل التخييل ، ومفعول « فانبذ » محذوف أى : فانبذ إليهم عهودهم .

قال الجمل : وقوله : ﴿ على سواء ﴾ حال من الفاعل والمفعول معا ، أى : فاعل الفعل وهو ضمير النبى - ﷺ - ومفعوله وهو المجرور بإلى .

أى : حال كونكم مستوين فى العلم بطرح العهد . فعلمك أنت به لأنه فعل نفسك ، وعلمهم به بإعلامك إياهم ، فكأنه قيل فى الآية : فانبذ عهدهم وأعلمهم بنبذه ، ولا تقاتلهم بغتة لئلا يتهموك بالغدر وليس هذا من شأنك ولا من صفاتك »[1] .

والمعنى : وإما تعلمن - يا محمد - من قوم بينك وبينهم عهد أنهم على وشك نقضه منهم ، بأمارات تلوح لك تدل على غدرهم ، فاطرح إليهم عهدهم على طريق مستو ظاهر : بأن تعلمهم بنبذك عهدهم قبل أن تحاربهم ، حتى تكون أنت وهم فى العلم بنبذ العهد سواء ، لأن الله - تعالى - لا يحب الخائنين وإن من مظاهر الخيانة التى يبغضها الله - تعالى - أن يحارب أحد المتعاهد معه دون أن يعلمه بإنهاء عهده .

قال ابن كثير : قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة عن أبى الفيض عن سليم بن عامر قال : كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب منها ، حتى إذا انقضى العهد غزاهم فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر الله أكبر ، وفاء لا غدرا : إن رسول الله - ﷺ - قال : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ، ولا يشدها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء » .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٥٢ .

قال : فبلغ ذلك معاوية فرجع ، فإذا بالشيخ عمرو بن عيسة .

ثم قال ابن كثير ، وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة ، وأخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه من طرق عن شعبة به ، وقال الترمذى حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن سلمان الفارسى أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه : دعونى أدعوهم كما رأيت رسول الله - ﷺ - يدعوهم ، فقال : إنما كنت رجلا منكم فهدانى الله إلى الإسلام ؛ فإن أسلمتم فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن أنتم أبيتم ، فأدوا الجزية وأنتم صاغرون فإن أبيتم نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين ، يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله »[1] .

وقال الفخر الرازى : قال أهل العلم : آثار نقض العهد إذا ظهرت ، فإما أن تظهر ظهوراً محتملا ، أو ظهورا مقطوعا به .

فإن كان الأول : وجب الإعلام على ما هو مذكور فى هذه الآية ، وذلك لأن بنى قريظة عاهدوا النبى - ﷺ - ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ، فحصل لرسول الله - ﷺ خوف الغدر منهم به وأصحابه ، فهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم عهودهم على سواء ويؤذنهم بالحرب .

أما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعا به ، فهنا لا حاجة إلى نبذ العهد ، وذلك كما فعل رسول الله - ﷺ - بأهل مكة ، فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة النبى - ﷺ - وصل إليهم جيش رسول الله بمر الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة[2] .

أى : أنهم لم يعلموا بجيش رسول الله - ﷺ - الذى جاء لمحاربتهم إلا بعد وصوله إلى هذا المكان .

وبذلك ترى أن تعاليم الإسلام ترتفع بالبشرية إلى أسمى آفاق الوفاء والشرف والأمان .. وتحقر من شأن الخيانة والخائنين ، وتتوعدهم بالطرد من رحمة الله ، وبالبعد عن رضوانه ومحبته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الكافرين لن ينجوا من عقابه ، وبشر المؤمنين بالنصر فقال : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٣٢٠ .

وقوله ﴿ يحسبن ﴾ من الحسبان بمعنى الظن ، وقد قرأ ابن عامر وحفص وحمزة « يحسبن » بالياء ، وقرأ الباقون بالتاء .

وقوله : ﴿ يعجزون ﴾ من العجز ، وأصله - كما يقول الراغب - : التأخر عن الشيء .. ثم صار فى التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة ... والعجوز سميت بذلك لعجزها فى كثير من الأمور .. »[1] .

والمعنى - على القراءة بالياء - : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم أنهم قد سبقوا الله فنجوا من عقابه ، وخلصوا من عذابه .. كلا إن حسبانهم هذا باطل - لأنهم لا يعجزون الله ، بل هو - سبحانه - قادر على إهلاكهم وتعذيبهم فى كل وقت ...

وأن نجاتهم من القتل أو الأسر فى الدنيا لن تنفعهم شيئاً من العذاب المهين فى الآخرة .

وعلى هذه القراءة يكون فاعل ﴿ يحسبن ﴾ قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ ويكون المفعول الأول ليحسبن محذوف أى : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم ، والمفعول الثانى جملة ﴿ سبقوا ﴾ .

وأما على القراءة الثانية ﴿ ولا تحسبن ﴾ فيكون قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ هو المفعول الأول . وجملة ﴿ سبقوا ﴾ هى المفعول الثانى .

أى : ولا تحسبن - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء الكافرين قد سبقونا بخيانتهم لك ، أو أفلتوا من عقابنا وصاروا فى مأمن منا ... كلا ، إنهم لايعجزوننا عن إداركهم وإنزال العقوبة بهم فى أى وقت نريده فنحن لا يعجزنا شيء ..

وعلى كلتا القراءتين فالمقصود من الآية الكريمة قطع أطماع الكافرين فى النجاة ، وإقناطهم من الخلاص ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن من لم يصبه عذاب الدنيا ، فسوف يصيبه عذاب الآخرة ، ولا مفر له من ذلك مادام قد استحب الكفر على الإيمان ، أما المؤمنون فلهم من الله - تعالى - التأييد والنصر وحسن العاقبة .

ثم أمر - سبحانه - المؤمنين باعداد وسائل القوة التى بها يصلون إلى النصر ، وإلى بعث الرعب فى قلوب أعدائهم .. فقال - عز وجل - :

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ

---

(١) المفردات فى غريب القرآن جـ ٣٢٢ .

لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وقوله : ﴿ وأعدوا .. ﴾ معطوف على ما قبله ، وهو من الإعداد بمعنى تهيئة الشيء للمستقبل ، والخطاب لكافة المؤمنين .

والرباط فى الأصل مصدر ربط ، أى شد ، ويطلق ، بمعنى المربوط مطلقا ، وكثر استعماله فى الخيل التى تربط فى سبيل الله . فالإضافة إما باعتبار عموم المفهوم الأصلى ، أو بملاحظة كون الرباط مشتركا بين معان أخر كملازمة الثغور ، والمواظبة على الأمر ، فإضافته لأحد معانيه للبيان .

قال صاحب الكشاف : والرباط : اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله ، ويجوز أن يسمى بالرباط الذى هو بمعنى المرابطة ، ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال - يقال نعم الربيط هذا ، لما يرتبط من الخيل[1] .

والمعنى : عليكم - أيها المؤمنون - أن تعدوا لقتال أعدائكم ما تستطيعون إعداده من وسائل القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها .

وجاء - سبحانه - بلفظ ﴿ قوة ﴾ منكراً ، ليشمل كل ما يتقوى به فى الحرب كائنا ما كان .

قال الجمل : وقوله ﴿ من قوة ﴾ فى محل نصب على الحال ، وفى صاحبها وجهان : أحدهما أنه الموصول . والثانى : أنه العائد عليه ، إذ التقدير ما استطعتموه حال كونه بعض القوة ، ويجوز أن تكون ﴿ من ﴾ لبيان الجنس[2] .

وقوله : ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ معطوف على ما قبله من عطف الخاص على العام .

أى : أعدوا لقتال أعدائكم ، ما أمكنكم من كل ما يتقوى به عليهم فى الحرب ، من نحو : حصون وقلاع وسلاح . ومن رباط الخيل للغزو والجهاد فى سبيل الله .

وخص رباط الخيل بالذكر من بين ما يتقوى به ، لمزيد فضلها وغنائها فى الحرب ، ولأن الخيل كانت الأداة الرئيسية فى القتال فى العهد النبوى ، وقوله : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ بيان للمقصود من الأمر بإعداد ما يمكنهم إعداده من قوة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٥٣ .

وقوله : ﴿ ترهبون ﴾ من الرهبة وهى مخافة مع تحرز واضطراب .

والضمير المجرور - وهو قوله ﴿ به ﴾ - يعود إلى الإعداد المأخوذ من قوله ﴿ وأعدوا ﴾ .

أى : أعدوا ما استطعتم من قوة ، حالة كونكم مرهبين بهذا الإعداد عدو الله وعدوكم ، من كل كافر ومشرك ومنحرف عن طريق الحق ، وعلى رأس هؤلاء جميعا . كفار مكة الذين أخرجوكم من دياركم بغير حق، ويهود المدينة الذين لم يتركوا وسيلة للإضرار بكم إلا فعلوها.

وقوله ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : ترهبون بهذا الإعداد أعداء معروفين لكم - كمشركى مكة ويهود المدينة ، وترهبون به أيضاً أعداء آخرين غيرهم أنتم لا تعرفونهم لأنهم يخفون عداوتهم لكم ، ولكن الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شىء يعلمهم ، وسيحبط أعمالهم .

وقد اختلف المفسرون فى المراد بهؤلاء الأعداء الذين عبر الله عنهم بقوله لا تعلمونهم الله يعلمهم ، فمنهم من قال : المراد بهم بنو قريظة ومنهم من قال : المراد بهم أهل فارس والروم .

ورجح ابن جرير أن المراد بهم : كفار الجن .. لأن المؤمنين كانوا عالمين بمداراة بنى قريظة وفارس والروم لهم ... والمعنى ترهبون بذلك الإعداد عدو الله وعدوكم من بنى آدم الذين علمتم عداوتهم ، وترهبون به جنسا آخر من غير بنى آدم لا تعلمون أماكنهم وأحوالهم ؛ الله يعلمهم دونكم ، لأن بنى آدم لا يرونهم »[١] .

ورجح الفخر الرازى أن المراد بهم المنافقون ، قال : لأن المنافق من عادته أن يتربص ظهور الآفات ، ويحتال فى إلقاء الإفساد والتفريق بين المسلمين - بطرق قد لا تعرف ، فإذا شاهد كون المسلمين فى غاية القوة خافهم وترك الأفعال المذمومة »[٢] .

ولعل ما رجحه الفخر الرازى هو الأقرب إلى الصواب ، لأن عداوة المنافقين للمؤمنين كثيراً ما تكون خافية ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾[٣] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالدعوة إلى الإنفاق فى سبيله ، وبشر المنفقين بحسن الجزاء فقال: ﴿وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٣٢ طبعة مصطفى الحلبى - الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣ هـ ، سنة ١٩٥٤ م .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ١٨٦ المطبعة البهية .

(٣) سورة التوبة الآية ١٠١ .

أى : ﴿ وما تنفقوا ﴾ - أيها المؤمنون - ﴿ من شىء ﴾ قل أو كثر هذا المنفق ﴿ فى سبيل الله ﴾ أى فى وجوه الخيرات التى من أجَلِّها الجهاد لإعلاء كلمة الدين ﴿ يوف إليكم ﴾ أى : يصل إليكم عوضه فى الدنيا وأجره فى الآخرة ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ أى : لا تنقصون شيئاً من العوض أو الأجر .

قالوا : والتعبير بالظلم - مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما - لبيان كمال نزاهته - سبحانه - عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه - تعالى - من القبائح ، وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه - تعالى - »[1] .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - وجوب إعداد القوة الحربية للدفاع عن الدين وعن الوطن وعن كل ما يجب الدفاع عنه ، لأن أعداء الإسلام إذا ما علموا أن أتباعه أقوياء هابوهم ، وخافوا بأسهم ، ولم يجرؤوا على مهاجمتهم .

قال القرطبى : وقوله - تعالى - ﴿ وأعدوا لهم ﴾ . أمر الله المؤمنين بإعداد القوة للأعداء ، بعد أن أكد تقدمة التقوى . فإن الله - تعالى - لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل فى وجوههم ، وبحفنة من تراب ، كما فعل رسول الله - ﷺ - ، ولكن أراد أن يبتلى بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ ... »[2] .

وقال بعض العلماء : دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية ، إتقاء بأس العدو وهجومه ، ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة الإسلام ، كان الإسلام عزيزًا ، عظيمًا ، أبى الضيم ، قوى القنا ، جليل الجاه ، وفير السنا ، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار .

أما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف ، فأهملوا فرضًا من فروض الكفاية ، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض ، ولذا تعانى اليوم من غصته ما تعانى .

وكيف لا يطمع العدو فى بلاد الإسلام ، وهو لا يرى فيها معامل للأسلحة ، وذخائر الحرب ، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو ؟

أما آن لها أن تتنبه من غفلتها ، فتعد العدة التى أمر الله بها لأعدائها ، وتتلافى ما فرطت قبل أن يداهم العدو ما بقى منها بخيله ورجله ..؟

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٥٤ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٥ .

إن القوة التى طلب الله من المؤمنين إعدادها لإرهاب الأعداء ، تتناول كل ما من شأنه أن يجعل المؤمنين أقوياء . كإعداد الجيوش المدربة ، والأسلحة المتنوعة التى تختلف بحسب الأزمنة والأمكنة .

وما روى من تفسير القوة - التى وردت فى الآية - بالرمى ، فإنما هو على سبيل المثال ، ولأن الرمى كان فى ذلك الوقت أقوى ما يتقوى به[١] .

قال الفخر الرازى عند تفسيره للآية ، والمراد بالقوة هنا ما يكون سببًا لحصول القوة ، وذكروا فيه وجوها :

الأول : المراد من القوة أنواع الأسلحة .

الثانى : روى أنه - ﷺ - قرأ هذه الآية على المنبر وقال : « ألا إن القوة الرمى » قالها ثلاثًا .

الثالث : قال بعضهم : القوة هى الحصون .

الرابع : قال أصحاب المعانى : الأولى أن يقال : هذا عام فى كل ما يتقوى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة ، وقوله - ﷺ - : « القوة هى الرمى » لا ينفى كون غير الرمى معتبرًا . كما أن قوله - ﷺ - « الحج عرفه » « والندم توبة » لا ينفى اعتبار غيره . بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذا هنا .

وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل ، والسلاح ، وتعليم الفروسية ، والرمى فريضة إلا أنه من فروض الكفايات[٢] .

إن رباط الخيل للجهاد فى سبيل الله فضله عظيم ، وثوابه كبير ، فقد كانت الخيل هى خير ما عرف العرب من وسائل الانتقال فى الحرب وأسرعها ، وما زالت الخيل لها قيمتها فى بعض أنواع الحروب .

قال القرطبى ، فإن قيل : إن قوله ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ كان يكفى ، فلماذا خص الخيل بالذكر ؟.

قيل له : إن الخيل لما كانت أصل الحرب وأوزارها[٣] التى عقد الخير فى نواصيها ، وهى

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠٢٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ١٨٥ المطبعة البهية .

(٣) أوزار الحرب : أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره .

أقوى القوة ، وأشد العدة ، وحصون الفرسان ، وبها يجال فى الميدان ، لما كانت كذلك خصها بالذكر تشريفًا ، وأقسم بغبارها تكريمًا ، فقال : « والعاديات ضبحا »[1] .

وقال الإمام ابن العربى : وأما رباط الخيل فهو فضل عظيم ومنزلة شريفة .

روى الأئمة عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « الخيل ثلاثة ، لرجل ستر ، ولرجل أجر ، وعلى رجل وزر . فأما الذى هى عليه وزر فرجل ربطها رياء وفخرًا ونواء لأهل الإسلام - أى : مناوأة ومعاداة - فهى عليه وزر .

وأما الذى هى عليه ستر فرجل ربطها تغنيا وتعففا ، ولم ينس حق الله فى ظهورها فهى عليه ستر .

وأما الذى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله ، فأطال لها فى مرج أو روضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شىء إلا كتب الله له عدد ما أكلت حسنات .. » .

وروى البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله قال : رأيت رسول الله - ﷺ - يلوى ناصية فرس بأصبعيه وهو يقول : « الخير معقود فى نواصى الخيل إلى يوم القيامة »[2] .

٤ - أن المقصود من إعداد العدة فى الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا فى الاعتداء على المسلمين ، وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين فى ديارهم ، وحتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالة الله إلى خلقه من الناس دون أن يخشوا أحدًا سواه - عز وجل ..

وليس المقصود بإعداد العدة إرهاب المسالمين ، أو العدوان على الآمنين ، أو القهر والإذلال للناس واستغلالهم فيما يغضب الله - تعالى - ..

ولذلك وجدنا الآية صريحة فى بيان المقصود من هذا الإعداد ، وهو - كما عبرت عنه ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ... ﴾ .

وهناك آيات أخرى صريحة فى بيان سبب مشروعية القتال فى الإسلام ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾[4] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٧ .
(٢) أحكام القرآن - القسم الثانى ص ٨٦٢ لابن العربى . طبعة عيسى الحلبى . الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٩٠ .
(٤) سورة البقرة : الآية ١٩٣ .

والخلاصة : أن من تتبع آيات القرآن الواردة فى القتال يجدها جميعها تقرر أن سبب القتال فى الإسلام ينحصر فى رد العدوان ، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها وتثبيت حرية العقيدة ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان .

٥ - وجوب الإنفاق فى سبيل الله ، ومن أشرف وجوه الإنفاق فى سبيل الله أن يبذل المسلم ما يستطيع بذله فى الجهاد الذى هو ذروة سنام الإسلام ، والذى ما تركه قوم إلا ذلوا ... وألقوا بأنفسهم فى التهلكة .

ولقد بشرت الآية الكريمة المنفقين فى سبيل الله ، بأنه - سبحانه - سيجازيهم على إنفاقهم جزاء وافيا لا نقص معه ولا ظلم .

قال - تعالى - ﴿ وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ وفى الحديث الشريف الذى رواه الترمذى عن أبى يحيى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف »[1] .

ثم أمر - تعالى - رسوله - ﷺ - بقبول السلم والمصالحة ، إذا ما رغب أعداؤه فى ذلك ، وكانت ظواهرهم وأفعالهم تدل على صدق نواياهم فقال - تعالى - :

۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

وقوله ﴿ جنحوا ﴾ من الجنوح بمعنى الميل ، يقال : جنح فلان للشىء وإليه - يجنح - مثلث النون - جنوحًا . أى : مال إليه .

---

(١) رياض الصالحين للإمام النووى ص ٤٨٩ طبعة عيسى الحلبى .

قال القرطبى : والجنوح : الميل . وجنح الرجل إلى الآخر : مال إليه . ومنه قيل للأضلاع جوانح ، لأنها مالت على الحشوة - بضم الحاء وكسرها - أى : الأمعاء .

وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها فى السير قال ذو الرمة :

إذا مات فوق الرحل أحييت روحه بذكراك والعيس المراسيل جنح[1]

وقرأ الأعمش وأبو بكر وابن محيص « للسلم » - بكسر السين - وقرأ الباقون بالفتح . وإنما قال ﴿ لها ﴾ لأن السلم مؤنثة - تأنيث نقيضها وهى الحرب .. ويجوز أن يكون التأنيث للفعلة[2] .

والمعنى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تنكل فى الحرب بأولئك الكافرين الناقضين لعهودهم فى كل مرة ، وأن تهيئ ما استطعت من قوة لإرهابهم فإن مالوا بعد ذلك إلى ﴿ السلم ﴾ أى : المسالمة والمصالحة فوافقهم ومل إليها ما دامت المصلحة فى هذه المسالمة .

وقوله ﴿ وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ معطوف على ﴿ فاجنح لها ﴾ لقصد التثبيت وبعث الطمأنينة فى قلبه .

أى : اقبل المسالمة ما دام فيها مصلحتك ، وفوض أمرك إلى الله - تعالى - ولا تخش مكرهم وكيدهم وغدرهم ، إنه - سبحانه - ﴿ هو السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم ، فيجازيهم بما يستحقون ، ويرد كيدهم فى نحورهم .

وعبر - سبحانه - عن جنوحهم إلى السلم بحرف ﴿ إن ﴾ الذى يعبر به عن الشىء المشكوك فى وقوعه ، للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلا لاختيار المسالمة أو المصالحة لذاتها ، وإنما هم جنحوا إليها لحاجة فى نفوسهم ، فعلى المؤمنين أن يكونوا دائما على حذر منهم ، وألا يأمنوا مكرهم .

هذا وقد اختلف العلماء فيمن عنى بهذه الآية . فمنهم من يرى أن المعنى بها أهل الكتاب ، ومنهم من يرى أن الآية عامة ، أى تشمل أهل الكتاب والمشركين . ثم اختلفوا بعد ذلك فى كونها منسوخة أولا ؟

وقد حكى ابن جرير معظم هذه الخلافات ورجح أن المقصود بهذه الآية جماعة من أهل الكتاب ، وأن الآية ليست منسوخة فقال ما ملخصه :

عن قتادة أن قوله ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها .. ﴾ منسوخة بقوله فى سورة براءة

---

(١) العيس : الإبل البيض . والمراسيل : سهلة السير وجنح : مائلة صدورها إلى الأرض .

(٢) تفسير القرطبى بتصرف يسير جـ ٨ ص ٣٩ .

﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾[1] . وبقوله ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾[2] .

فقد كانت هذه - أى الآية التى معنا وهى قوله - تعالى - ﴿ وإن جنحوا للسلم ... ﴾ - قبل براءة . كان النبى - ﷺ - يوادع القوم إلى أجل ، فإما أن يسلموا ، وإما أن يقاتلهم ، ثم نسخ ذلك بعد فى براءة فقال : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ .

وعن عكرمة والحسن البصرى قالا : ﴿ وإن جنحوا للسلم ... ﴾ نسختها الآية التى فى براءة وهى قوله - تعالى - ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ... ﴾[3] الآية .

ثم قال ابن جرير : فأما ما قاله قتادة ومن قال مثل قوله من أن هذه الآية منسوخة ، فقول لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل .

لأن قوله ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها .. ﴾ إنما عنى به بنو قريظة - كما قال مجاهد - وكانوا يهودا أهل كتاب وقد أذن الله - جل ثناؤه - للمؤمنين بصلح أهل الكتاب ، ومتاركتهم الحرب ، على أخذ الجزية منهم ، وأما قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم .. ﴾ فإنما عنى به مشركو العرب من عبدة الأوثان ، الذين لا يجوز قبول الجزية منهم ، فليس فى إحدى الآيتين نفى حكم الأخرى ، بل كل واحدة منهما محكمة فيما أنزلت فيه ..[4] .

هذا ما يراه ابن جرير . أما ابن كثير فقد وافقه على أن الآية ليست منسوخة ، وخالفه فى أن المقصود بها بنو قريظة ، فهو يرى أن الآية عامة فقد قال - رحمه الله - :

قوله : ﴿ وإن جنحوا ﴾ أى : مالوا ﴿ للسلم ﴾ أى المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فاجنح لها ﴾ أى : فمل إليها واقبل منهم ذلك . ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله - ﷺ - تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر ...

وقال مجاهد : نزلت فى بنى قريظة ، وهذا فيه نظر ، لأن السياق كله فى موقعة بدر ، وذكرها مكتنف لها كله .

وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراسانى وعكرمة والحسن وقتادة : إن الآية منسوخة بآية السيف فى براءة ، وهى قوله - تعالى - ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من االذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ .

---

(١) سورة براءة « التوبة » الآية ٥ .
(٢) سورة براءة « التوبة » الآية ٣٦ .
(٣) سورة براءة « التوبة » الآية ٢٩ .
(٤) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٣٤ .

وفيه نظر أيضًا ، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، فأما إذا كان العدو كثيفًا فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية الكريمة ﴿ وإن جنحوا ... ﴾ وكما فعل النبى - ﷺ - يوم الحديبية . فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص ..»[1] .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن كثير أرجح ، لأن الآية الكريمة تقرر مبدأ عامًا فى معاملة الأعداء ، وهو أنه من الجائز مهادنتهم ومسالمتهم ما دام ذلك فى مصلحة المسلمين .

ولعل هذا هو ما قصده صاحب الكشاف بقوله عند تفسير الآية - : « والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم . وليس يحتم أن يقاتلوا أبدًا . أو يجابوا إلى الهدنة أبدًا »[2] .

ثم أمن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - من خداع أعدائه ، إن هم أرادوا خيانته ، وبيتوا له الغدر من وراء الجنوح إلى السلم فقال - تعالى - : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك ، فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ .

أى : وإن يرد هؤلاء الأعداء الذين جنحوا إلى السلم فى الظاهر أن يخدعوك - يامحمد - لتكف عنهم حتى يستعدوا لمقاتلتك فلا تبال بخداعهم ، بل صالحهم مع ذلك إذا كان فى الصلح مصلحة للإسلام وأهله ، ولا تخف منهم ، فإن الله كافيك بنصره ومعونته ، فهو - سبحانه - الذى أمدك بما أمدك به من وسائل النصر الظاهرة والخافية ، وهو - سبحانه - الذى أيدك بالمؤمنين الذين هانت عليهم أنفسهم وأموالهم فى سبيل إعزاز هذا الدين ، وإعلاء كلمته ..

فالآية الكريمة تشجيع للنبى - ﷺ - على السير فى طريق الصلح ما دام فيه مصلحة للإسلام وأهله ، وتبشير له بأن النصر سيكون له حتى ولو أراد الأعداء بإظهار الميل إلى السلم المخادعة والمراوغة . وقوله : ﴿ حسبك ﴾ صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل . أى . بحسبك وكافيك .

قال الفخر الرازى : فإن قيل : أليس قد قال - تعالى - ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم ... ﴾ أى : أظهر نقض ذلك العهد ، وهذا يناقض ما ذكره فى هذه الآية ؟

قلنا : قوله : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة ﴾ محمول على ما إذا تأكد ذلك الخوف بأمارات قوية دالة عليها،وتحمل هذه المخادعة على ما إذا حصل فى قلوبهم نوع نفاق وتزوير ، إلا أنه لم تظهر أمارات على كونهم قاصدين للشر وإثارة الفتنة ، بل كان الظاهر من أحوالهم الثبات على المسالمة وترك المنازعة ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٢ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٣ .

فإن قيل : لما قال : ﴿ هو الذى أيدك بنصره ﴾ فأى حاجة مع نصره إلى المؤمنين حتى قال ﴿ وبالمؤمنين ﴾ ؟

قلنا : التأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين : أحدهما ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة والثانى ما يحصل بواسطة أسباب معلومة .

فالأول هو المراد من قوله ﴿ أيدك بنصره ﴾ والثانى هو المراد من قوله : ﴿ وبالمؤمنين ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله فى كيفية تأييده لرسوله بالمؤمنين فقال - تعالى - : ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ .

أى : أن من مظاهر فضل الله عليك يا محمد أن أيدك - سبحانه - بنصره وأن أيدك بالمؤمنين ، بأن حبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم ، وجعل منهم قوة موحدة ، فصاروا بفضله - تعالى - كالنفس الواحدة ، بعد أن كانوا متنازعين متفرقين وأنت يا محمد ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ﴾ من الذهب والفضة وغيرهما ما استطعت أن تؤلف بين قلوبهم المتنافرة المتنازعة ﴿ ولكن الله ﴾ بفضله وقدرته هو وحده الذى ﴿ ألف بينهم ﴾ فصاروا إخوانًا متحابين متصافين ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ عزيز ﴾ أى : غالب فى ملكه وسلطانه على كل ظاهر وباطن ﴿ حكيم ﴾ فى كل أفعاله وأحكامه ..

وهذه الآية الكريمة يؤيدها التاريخ ، ويشهد بصدقها أحداثه ، فنحن نعلم أن العرب - وخصوصًا الأوس والخزرج - كانوا قبل الإسلام فى حالة شديدة من التفرق والتخاصم والتنازع والتحارب .. فلما دخلوا فى الإسلام تحول بغضهم إلى حب ، وتخاصمهم إلى مودة ، وتفرقهم إلى اتحاد ... وصاروا فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، إلى مستوى لم يعرفه التاريخ من قبل ...

ولقد أجاد صاحب الكشاف - رحمه الله - فى تصويره لهذه المعانى حيث قال : « التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله - ﷺ - من الآيات الباهرة ، لأن العرب - لما فيهم من الحمية والعصبية ، والانطواء على الضغينة .. - لا يكاد يأتلف منهم قلبان ، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله - ﷺ - واتحدوا ، وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم ، وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتواد ، وأماط عنهم من التباغض

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ١٨٨ .

والتماقت ، وكلفهم من الحب ، فى الله والبغض فى الله ، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كيف يشاء ، ويصنع فيها ما يريد .

قيل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم ، ودق جماجمهم . ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى . وبينهما التجاور الذى يهيج الضغائن ، ويديم التحاسد والتنافس . وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها ، وتكرهه وتنفر منه .

فأنساهم الله - تعالى - ذلك كله ، حتى اتفقوا على الطاعة ، وتصافوا وصاروا أنصارًا ، وعادوا أعوانًا ، وما ذاك إلا بلطيف صنعه ، وبليغ قدرته »[١] . هذا ، وفى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - لما خطب الأنصار فى شأن غنائم « حنين » قال لهم : يامعشر الأنصار !! ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بِى ؛ وعالة فأغناكم الله بى ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ فكانوا يقولون كلما قال شيئًا : الله ورسوله أمن »[٢] .

وروى الحاكم أن ابن عباس كان يقول : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتنكر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شىء . ثم يقرأ قوله - تعالى - : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ، ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ... ﴾[٣] .

ثم مضت السورة الكريمة فى تثبيت الطمأنينة فى قلب النبى - ﷺ - وفى قلوب أصحابه ، فبينت لهم أن الله كافيهم وناصرهم ، وأن القلة منهم تغلب الكثرة من أعداء الله وأعدائهم فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ
يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٣ .
(٢) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٢٠٠ من « كتاب المغازى » طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٤٥ وصحيح مسلم جـ ٣ ص ١٠٨ من « كتاب الزكاة » .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٣ .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما وعده بالنصر عند مخادعة الأعداء ، وعده بالنصر والظفر فى هذه الآية مطلقًا على جميع التقديرات ، وعلى هذا الوجه لا يلزم حصول التكرار ؛ لأن المعنى فى الآية الأولى : إن أرادوا خداعك كفاك الله أمرهم .

والمعنى فى هذه الآية عام فى كل ما يحتاج إليه فى الدين والدنيا .

وهذه الآية نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال ... »[1] .

وقوله : ﴿ حسبك ﴾ صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل ، والكاف فى محل جر .

والواو فى قوله ﴿ ومن اتبعك ﴾ بمعنى مع ، و ﴿ من ﴾ فى محل نصب عطفًا على الموضع ، فإن قوله ﴿ حسبك ﴾ بمعنى كافيك فى جميع أمورك .

والمعنى : يأيها النبى كافيك الله وكافى متبعيك من المؤمنين فهو - سبحانه - ناصركم ومؤيدكم على أعدائكم وإن كثر عددهم وقل عددكم ، وما دام الأمر كذلك ، فاعتمدوا عليه وحده ، وأطيعوه فى السر والعلن ؛ لكى يديم عليكم عونه وتأييده ونصره .

قال بعض العلماء : قال ابن القيم عند تفسيره لهذه الآية : أى : الله وحده كافيك وكافى أتباعك فلا يحتاجون معه إلى أحد . ثم قال : وههنا تقديران :

أحدهما : أن تكون الواو عاطفة للفظ « من » على الكاف المجرورة ..

والثانى : أن تكون الواو بمعنى « مع » وتكون « من » فى محل نصب عطفًا على الموضع ، فإن « حسبك » فى معنى كافيك أى : الله يكفيك ويكفى من اتبعك ، كما يقول العرب : حسبك وزيدا درهم ، قال الشاعر :

وإذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ١٩١ . طبعة عبد الرحمن محمد .

وهذا أصح التقديرين. وفيها تقدير ثالث؛ أن تكون «من» فى موضع رفع بالابتداء: أى ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله .

وفيها تقدير رابع وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو أن يكون « من » فى موضع رفع عطفا على اسم الله . ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك .

هذا وإن قال به بعض الناس فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة ... »[1] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - بتحريض المؤمنين على القتال من أجل إعلاء كلمة الحق ، فقال - تعالى - : ﴿ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ... ﴾ .

وقوله : ﴿ حرض ﴾ من التحريض بمعنى الحث على الشىء بكثرة التزيين له ، وتسهيل الأمر فيه حتى تقدم عليه النفس برغبة وحماس .

قال الراغب : الحرض ما لا يعتد به ولا خير فيه ، ولذلك يقال لمن أشرف على الهلاك حرض . قال - تعالى - ﴿ حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ﴾ ..

والتحريض : الحث على الشىء .. فكأنه فى الأصل إزالة الحرض نحو حرضته وقذيته أى : أزلت عنه الحرض والقذى .. »[2] .

والمعنى : يأيها النبى بالغ فى حث المؤمنين وإحمائهم على القتال بصبر وجلد ، من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل .

ولهذا كان رسول الله - ﷺ - يحرض أصحابه على القتال عند صفهم ومواجهة الأعداء كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون فى عددهم وعددهم : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » . فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله : نعم . فقال عمير : بخ بخ ، فقال - ﷺ - : « ما يحملك على قولك بخ بخ » ؟ قال : رجاء أن أكون من أهلها ، قال - ﷺ - « فإنك من أهلها » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن » ثم ألقى بقيتهن من يده وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن ، إنها لحياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل - رضى الله عنه -[3] .

وقوله : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠٣٠ .
(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ١١٣ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٤ .

من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ بشارة من الله - تعالى - للمؤمنين ووعد لهم بالظفر على أعدائهم .

أى : قاتلوا - أيها المؤمنون أعداءكم بقوة وإقدام ، فإنكم إن يوجد منكم عشرون رجلاً صابرون يغلبوا - بسبب إيمانهم وصبرهم - مائتين من الكافرين ، وإن يوجد منكم مائة يغلبوا ألفًا منهم ، وذلك بسبب أن هؤلاء الكافرين قوم جهلة بحقوق الله - تعالى - وبما يجب عليهم نحوه .

فهم - كما يقول صاحب الكشاف - : « يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم » فيقل ثباتهم . ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ، ويستحقون الخذلان . بخلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله - تعالى - »[1] .

وقال صاحب المنار : والآية تدل على أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين وأفقه منهم بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وإرتقاء الأمم . وأن حرمان الكفار من هذا العلم هو السبب فى كون المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين ...

وهكذا كان المؤمنون فى قرونهم الأولى .. أما الآن فقد أصبح المسلمون غافلين عن هذه المعانى الجليلة ، فزال مجدهم ..[2] .

ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر فضله على المؤمنين ورحمته بهم فقال : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله .. ﴾ .

وقوله ﴿ ضعفًا ﴾ قرأه بعضهم بفتح الضاد ، وقرأه آخرون بضمها ، وهما بمعنى واحد عند الجمهور ، والمراد به الضعف فى البدن .

وقيل الضعف - بالفتح - يكون فى الرأى والعقل ، وبالضم يكون فى البدن .

والمعنى : لقد فرضنا عليكم - أيها المؤمنون - أول الأمر أن يثبت الواحد منكم أمام عشرة من الكافرين .. والآن وبعد أن شق عليكم الاستمرار على ذلك ، ولم تبق هناك ضرورة لدوام هذا الحكم لكثرة عددكم .. شرعنا لكم التخفيف رحمة بكم ، ورعاية لأحوالكم ، فأوجبنا عليكم أن يثبت الواحد منكم أمام اثنين من أعدائكم بدلاً من عشرة ، وبشرناكم بأنه إن يوجد منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين من أعدائكم ، وإن يوجد منكم ألف يغلبوا ألفين منهم بإذن الله وتيسيره وتأييده .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٨٩ بتصريف وتلخيص .

وقوله : ﴿ والله مع الصابرين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

أى : والله - تعالى - مع الصابرين بتأييده ورعايته ونصره ، فاحرصوا على أن تكونوا من المؤمنين الصادقين لتنالوا منه - سبحانه - ما يسعدكم فى دنياكم وآخرتكم .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن هذه الآية قد نسخت الآية السابقة عليها ، ومنهم من يرى غير ذلك .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ إن يكن منكم عشرون .. ﴾ شرط فى معنى الأمر بمصابرة الواحد العشرة ، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا - بعون الله وتأييده - فالجملة خبرية لفظًا إنشائية معنى .

والمعنى : ليصبرن الواحد لعشرة ؛ وليست بخبر محض ...

وقوله : ﴿ الآن خفف الله عنكم .. ﴾ أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما نزلت ﴿ إن يكن منكم عشرون .. ﴾ شق ذلك على المسلمين إذ فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة فجاء التخفيف وهل يعد ذلك نسخا أوْلا ؟ قولان: اختار بعضهم الثانى منهما وقال : إن الآية مخففة ، ونظير ذلك التخفيف على المسافر بالفطر .

وذهب الجمهور إلى الأول ، وقالوا : إن الآية الثانية ناسخة للأولى[1] . وقال بعض العلماء : فرض الله على المؤمنين أول الأمر ألا يفر الواحد من المؤمنين من العشرة من الكفار ، وكان ذلك فى وسعهم ، فأعز الله بهم الدين على قلتهم ، وخذل بأيديهم المشركين على كثرتهم ، وكانت السرايا تهزم من المشركين أكثر من عشر أمثالها تأييدًا من الله لدينه .

ولما شق على المؤمنين الاستمرار على ذلك ، وضعفوا عن تحمله ، ولم تبق ضرورة لدوام هذا الحكم لكثرة عدد المسلمين ممن دخلوا فى دين الله أفواجًا نزل التخفيف ، ففرض على الواحد الثبات للاثنين من الكفار ، ورخص له فى الفرار إذا كان العدو أكثر من اثنين .

وهو رخصة كالفطر للمسافر ، وذهب الجمهور إلى أنه نسخ »[2] .

وقال الشيخ القاسمى : إن قيل : إن كفاية عشرين لمائتين تغنى عن كفاية مائة لألف ، وكفاية مائة لمائتين تغنى عن كفاية ألف لألفين ، لما تقرر من وجوب ثبات الواحد للعشرة فى الأولى ، وثبات الواحد للاثنين فى الثانية فما سر هذا التكرير ؟

أجيب : بأن سره كون كل عدة بتأييد القليل على الكثير لزيادة التقرير المفيد لزيادة

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣١ بتصريف وتلخيص .

(٢) صفوة البيان لمعانى القرآن ص ٣٠٧ لفضيلة الأستاذ الشيخ حسنين مخلوف .

الاطمئنان ، والدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت ، فإن العشرين قد لا تغلب المائتين ، وتغلب المائة الألف ، وأما الترتيب فى المكرر فعلى ذكر الأقل ثم الأكثر على الترتيب الطبيعى .

وقيل فى سر ذلك : إنه بشارة للمسلمين بأن جنود الإسلام سيجاوز عددهم العشرات والمئات إلى الألوف .

ثم قال : وقال فى البحر : انظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث أثبت فى الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت فى الثانية قيد كونهم من الكفرة ، وحذفه من الأولى ، ولما كان الصبر شديد المطلوبية أثبت فى أولى جملتى التخفيف وحذف من الثانية لدلالة السابقة عليه ، ثم ختمت بقوله : ﴿ والله مع الصابرين ﴾ مبالغة فى شدة المطلوبية ، وإشارة إلى تأييدهم ، وأنهم منصورون حتمًا ، لأن من كان الله معه لا يغلب ... »[1] .

وبعد هذا الحديث المستفيض عن القتال فى سبيل الله .. عقب - سبحانه - ذلك بالحديث عن بعض الأحكام التى تتعلق بالأسرى بمناسبة ما فعله الرسول - ﷺ - مع أسرى غزوة بدر من الكافرين ، فقال - تعالى - :

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ، ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب : أنه لما كان يوم بدر نظر رسول الله - ﷺ - إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فاستقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لى ما وعدتنى .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠٣٩ .

فقتل المسلمون من المشركين يومئذ سبعين وأسروا سبعين .

قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله - ﷺ - لأبي بكر وعمر : ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فعسى أن يهديهم الله إلى الإسلام .

فقال رسول الله - ﷺ - ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكنني من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، - حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين : فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده . فهوى رسول الله - ﷺ - ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت :

فلما كان من الغد جئت ، فإذا رسول الله وأبو بكر يبكيان ، فقلت : يارسول الله . أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك . فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .

فقال رسول الله - ﷺ - : أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة « لشجرة قريبة منه - ﷺ - وأنزل الله - عز وجل - : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ... ﴾ إلخ الآيات[1] .

وروى الإمام أحمد والترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - ﷺ - « ما تقولون في هؤلاء الأسارى » ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله ! قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عمر : يارسول الله ! كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحة : يارسول الله ، أنت بواد كثير الحطب فأضرم الوادي عليهم نارًا ثم ألقهم فيه .

قال : فسكت رسول الله - ﷺ - فلم يرد شيئًا . ثم قال فدخل فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر . وقال ناس : يأخذ بقول عمر . وقال ناس : يأخذ بقول ابن رواحة .

ثم خرج عليهم رسول الله فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ؛ ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل

---

(١) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٥٦ من كتاب الجهاد والسير طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٩٦٠ .

إبراهيم إذ قال ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾[١] وكمثل عيسى إذ قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[٢] .

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا ﴾[٣] ، وكمثل موسى إذ قال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٤] .

ثم قال - ﷺ - : « أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق » .

قال ابن مسعود : فقلت يارسول ، إلا سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ثم قال : « إلا سهيل بن بيضاء » . وأنزل الله - عز وجل - ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ... ﴾ إلى آخر الآية[٥] .

وقال ابن إسحاق - وهو يحكى أخبار غزوة بدر - : فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله - ﷺ - فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله - ﷺ - متوشحًا السيف ، فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ، يخافون عليه الكرة . ورأى رسول الله - فيما ذكر لى - فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال رسول الله - ﷺ - « والله لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم » ؟ فقال : أجل والله يارسول الله : كانت هذه أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال[٦] .

قوله : ﴿ أسرى ﴾ : جمع أسير كقتلى جمع قتيل . وهو مأخوذ من الأسر بمعنى الشد بالإسار أى : القيد الذى يقيد به حتى لا يهرب ، ثم صار لفظ الأسير يطلق على كل من يؤخذ من فئته فى الحرب ولو لم يشد بالإسار .

وقوله ﴿ يثخن ﴾ من الثخانة وهى فى الأصل الغلظ والصلابة. يقال: ثخن الشىء يثخن ثخونة وثخانة وثخنًا ، أى : غلظ وصلب فهو ثخين ، ثم استعمل فى النكاية والمبالغة فى قتل العدو فقيل : أثخن فلان فى عدوه . أى : بالغ فى قتله وإنزال الجراحة الشديدة به ، لأنه بذلك يمنعه من الحركة فيصير كالثخين الذى لا يسيل ولا يتحرك .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦ .
(٢) سورة المائدة الآية ١١٨ .
(٣) سورة نوح الآية ٢٦ .
(٤) سورة يونس الآية ٨٨ .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٥ .
(٦) الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام جـ ٥ ص ١٠٦ .

والمراد بالنبى فى قوله ﴿ ما كان لنبى ﴾ : نبينا محمد - ﷺ - وإنما جيء باللفظ منكرًا تلطفًا به - ﷺ - حتى لا يواجه بالعتاب .

والمعنى : ما صح وما استقام لنبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ أن يكون له أسرى ﴾ من أعدائه الذين يريدون به وبدعوته شرًا ﴿ حتى يثخن فى الأرض ﴾أى : حتى يبالغ فى قتلهم ، وإنزاله الضربات الشديدة عليهم إذلالاً للكفر وإعزازا لدين الله .

وقوله : ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ استئناف مسوق للعتاب .

والعرض : ما لا ثبات له ولا دوام من الأشياء ، فكأنها تعرض ثم تزول ، والمراد بعرض الدنيا هنا : الفداء الذى أخذوه من أسرى غزوة بدر حتى يطلقوا سراحهم .

تريدون - أيها المؤمنون - بأخذكم الفداء من أعدائكم الأسرى عرض الدنيا ومتاعها الزائل ، وحطامها الذى لا ثبات له ، والله - تعالى - يريد لكم ثواب الآخرة .

فالكلام فى قوله : ﴿ والله يريد الآخرة ﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه والإرادة هنا بمعنى الرضا أى : والله - تعالى - يرضى لكم العمل الذى يجعلكم تظفرون بثوابه فى الآخرة ، وهو تفضيل إذلال الشرك على أخذ الفداء من أهله .

وقوله : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ أى : والله - تعالى - ﴿ عزيز ﴾ لا يغالب بل هو الغالب على أمره ﴿ حكيم ﴾ فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

فالآية الكريمة تعتب على المؤمنين ، لأنهم آثروا الفداء على القتل والإثخان فى الأرض ، وذلك لأن غزوة بدر كانت أول معركة حاسمة بين الشرك والإيمان ، وكان المسلمون فيها قلة والمشركون كثرة ، فلو أن المسلمين آثروا المبالغة فى إذلال أعدائهم عن طريق القتل لكان ذلك أدعى لكسر شوكة الشرك وأهله ، وأظهر فى إذلال قريش وحلفائها ، وأصرح فى بيان أن العمل على إعلاء كلمة الله كان عند المؤمنين فوق متع الدنيا وأعراضها ، وأنهم لا يوادون من حارب الله ورسوله مهما بلغت درجة قرابته ، وهذا ما عبر عنه عمر - رضى الله عنه - بقوله : « وحتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين » .

والخلاصة أن غزوة بدر - بظروفها وملابساتها التى سبق أن أشرنا إليها - كان الأولى بالمسلمين فيها أن يبالغوا فى قتل أعدائهم لا أن يقبلوا منهم فداء حتى يذلوهم ويعجزوهم عن معاودة الكرة .

ورضى الله - تعالى - عن « سعد بن معاذ » فقد ظهرت الكراهية على وجهه بسبب أخذ الفداء من الأسرى ، وقال - كما سبق أن بينا - : « .. كانت غزوة بدر - أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال ».

قال الفخر الرازى : قال ابن عباس : هذا الحكم إنما كان يوم بدر ، لأن المسلمين كانوا قليلين ، فلما كثروا وقوى سلطانهم أنزل الله بعد ذلك فى الأسارى ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾[١] .

ثم قال الرازى : وأقول : إن هذا الكلام يوهم أن قوله ﴿ فإما مَنًّا بعد وإما فداء ﴾ يزيد على حكم الآية التى نحن فى تفسيرها : وليس الأمر كذلك ، لأن الآيتين متوافقتان ، فإن كلتيهما تدل على أنه لابد من تقديم الإثخان ثم بعده أخذ الفداء »[٢] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر رحمته بالمؤمنين : ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ .

والمراد بالكتاب هنا : الحكم ، وأطلق عليه كتاب لأن هذا الحكم مكتوب فى اللوح المحفوظ .

وللمفسرين أقوال فى تفسير هذا الحكم السابق فى علم الله - تعالى - :

فمنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذب المخطئ فى اجتهاده .

وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره لهذه الآية بهذا الرأى فقال قوله : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ . أى : لولا حكم منه سبق إثباته فى اللوح المحفوظ ، وهو أنه - سبحانه - لا يعاقب أحدًا بخطأ ، وكان هذا خطأ فى الاجتهاد ، لأنهم نظروا فى أن استبقاءهم ربما كان سببًا فى إسلامهم وتوبتهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد فى سبيل الله ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم ، وأفل لشوكتهم .. »[٣] .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذب قومًا إلا بعد تقديم النهى عن الفعل ولم يتقدم نهى عن أخذ الفداء .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذبهم ما دام رسول الله - ﷺ - بينهم .

أو أنه - سبحانه - لا يعذب أحدًا ممن شهد بدرًا .

وقد ساق الإمام الرازى هذه الأقوال وناقشها ثم اختار أن المراد بالكتاب الذى سبق : هو حكمه - سبحانه - فى الأزل بالعفو عن هذه الواقعة ، لأنه كتب على نفسه الرحمة ، وسبقت رحمته غضبه .

---

(١) سورة محمد - عليه السلام - الآية ٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٣ ص ٢٠٢ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٧ .

أما الإمام ابن جرير فهو يرى : أن الآية خبر عام غير محصور على معنى دون معنى ، وأنه لا وجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى .. فقال : يقول الله - تعالى - لأهل بدر الذين أخذوا من الأسرى الفداء ﴿ لولا كتاب من الله سبق .. ﴾ .

أى : لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر فى اللوح المحفوظ بأن الله يحل لكم الغنيمة ، وأن الله قضى أنه لا يضل قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، وأنه لا يعذب أحدًا شهد هذا المشهد الذى شهدتموه ببدر .. لولا كل ذلك لنالكم من الله بأخذكم الفداء عذاب عظيم »[١] .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير - من أن الآية خبر عام يشمل كل هذه المعانى - أولى بالقبول ، لأنه لم يوجد نص صحيح عن النبى - ﷺ - يحدد تفسير المراد من هذا الكتاب السابق فى علمه - تعالى - .

ولعل الحكمة فى هذا الإبهام لتذهب الأفهام فيه إلى كل ما يحتمله اللفظ ، ويدل عليه المقام ، ولكى يعرفوا أن أخذهم الفداء كان ذنبًا يستحقون العقوبة عليه لولا أن الله - تعالى - قدر فى الأزل العفو عنهم بسبب وجود النبى - ﷺ - فيهم ، ولأنهم قد أخطأوا فى اجتهادهم ، ولأنهم لم يتقدم لهم نهى عن ذلك ، ولأنهم قد شهدوا هذه الغزوة التى قال الرسول فى شأن من حضرها على لسان ربه - عز وجل - : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

فقد روى الشيخان وغيرهما أن رسول الله - ﷺ - قال لعمر فى قصة حاطب بن أبى بلتعة عند ما أخبر المشركين بأن الرسول سيغزوهم قبل فتح مكة وكان حاطب قد شهد بدرًا : « وما يدريك لعل الله - تعالى - اطلع على أهل بدر وقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[٢] .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ أى : لولا حكم من الله - تعالى - سبق منه فى الأزل ألا يعذب المخطئ على اجتهاده أو ألا يعذب قومًا قبل تقديم البيان إليهم .. ولولا كل ذلك ﴿ لمسكم ﴾ أى لأصابكم ﴿ فيما أخذتم ﴾ أى بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به ﴿ عذاب عظيم ﴾ لا يقادر قدره فى شدته وألمه .

قال ابن جرير : قال ابن زيد : لم يكن من المؤمنين أحد ممن نصر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب ، جعل لا يلقى أسيرًا إلا ضرب عنقه وقال : يارسول الله مالنا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٤٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٥ .

وللغنائم ؟ نحن قوم نجاهد فى دين الله حتى يعبد الله فقال رسول الله - ﷺ - : « لو عذبنا فى هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك » ..

وقال ابن اسحاق : لما نزلت ﴿ لولا كتاب من الله سبق ... ﴾ الآية . قال رسول الله - ﷺ - « لو نزل عذاب من السماء لم ينج منه إلا سعد بن معاذ لقوله : يانبى الله ، كان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال »[١] .

وقال بعض العلماء : قال القاضى ، وفى الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأ ، ولكن لا يقرون عليه[٢] .

ثم زاد - سبحانه - المؤمنين فضلا ومنة فقال: ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبًا ، واتقوا الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

قال الآلوسى روى أنه لما نزلت الآية الأولى ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى ..﴾ كف الصحابة أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت هذه الآية .

فالمراد بقوله ﴿ مما غنمتم ﴾ إما الفدية وإما مطلق الغنائم ، والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية ، وإلا فحل الغنيمة مما عداها علم سابقًا من قوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم ﴾ ..

وقيل المراد بقوله : ﴿ مما غنمتم ﴾ الغنائم من غير اندراج الفدية فيها ، لأن القوم لما نزلت الآية الأولى امتنعوا عن الأكل والتصرف فيها تزهدًا منهم ، لا ظنًا لحرمتها .. والفاء للعطف على سبب مقدر ، أى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم[٣] .

والمعنى : لقد عفوت عنكم - أيها المؤمنون - فيما وقعتم فيه من تفضيلكم أخذ الفداء من الأسرى على قتلهم ، وأبحث لكم الانتفاع بالغنائم فكلوا مما غنمتم من أعدائكم حلالا طيبًا ، أى لذيذًا هنيئًا لا شبهة فى أكله ولا ضرر ﴿ واتقوا الله ﴾ فى كل أحوالكم بأن تخشوه وتراقبوه ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ ولذا غفر لكم ما فرط منكم وأباح لكم ما أخذتموه من فداء . فسبحانه من إله واسع الرحمة والمغفرة ، لمن اتقاه وتاب إليه توبة صادقة .

وقوله ﴿ حلالا ﴾ حال من « ما » الموصولة فى قوله : ﴿ مما غنمتم ﴾ أو صفة لمصدر محذوف ، أى : أكلًا حلالا .

ووصف هذا المأمور بأكله بأنه حلال طيب ، تأكيدًا للإباحة حتى يقبلوا على الأكل منه بدون

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٤٨ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٩٣٩ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٦ .

تحرج أو تردد، فإن معاتبتهم على أخذ الفداء قبل ذلك جعلتهم يترددون فى الانتفاع به وبما غنموه من أعدائهم .

ثم أمرت السورة النبى - ﷺ - أن يخبر الأسرى بأنهم إذا ما فتحوا قلوبهم للحق واستجابوا له ، - سبحانه - سيعوضهم عما فقدوه خيرًا منه ، أما إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم فإن الدائرة ستدور عليهم.استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور هذا المعنى بأسلوبها البليغ فتقول :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

قال : ابن كثير : عن الزهرى عن جماعة سماهم قالوا : بعثت قريش إلى رسول الله - ﷺ - فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا .

وقال العباس : يارسول الله ! قد كنت مسلمًا ! فقال رسول الله - ﷺ - : « الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول ، فإن الله يجزيك . وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبى طالب ، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر » .

قال العباس : ما ذاك عندى يارسول الله ، فقال له رسول الله - ﷺ - « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ، فقلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى دفنته لبنىّ : الفضل ، وعبد الله ، وقثم » ؟

قال : والله يارسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله . إن هذا الشىء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى يارسول الله ما أصبتم منى : - عشرين أوقية من مال كان معى - .

فقال رسول الله - ﷺ - : « لا ، ذاك شىء أعطانا الله منك » .

ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه . فأنزل الله - تعالى - فيه ﴿ يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ... ﴾ الآية .

قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام ، عشرين عبدًا كلهم فى يده مال يضرب به . مع ما أرجو من مغفرة الله – تعالى – [١] .

وفى صحيح البخارى عن أنس : أن رجالاً من الأنصار قالوا : يارسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه .

فقال – ﷺ – : « لا والله ! لا تذرون منه درهما » . هذا ، والآية الكريمة وإن كانت قد نزلت فى العباس إلا أنها عامة فى جميع الأسرى ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولأن الخطاب فيها موجه إلى سائر الأسرى لا إلى فرد منهم دون آخر .

والمعنى : ﴿ يأيها النبى قل لمن فى أيديكم ﴾ أى : قل للذين تحت تصرف أيديكم ﴿ من الأسرى ﴾ أى : من أسرى المشركين فى بدر الذين أخذتم منهم الفداء لتطلقوا سراحهم .

قل لهم – أيها النبى الكريم – ﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيرًا ﴾ أى : إيمانًا وتصديقًا وعزمًا على اتباع الحق ونبذ الكفر والعناد .. إن يعلم الله – تعالى – منكم ذلك ﴿ يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم ﴾ من فداء ، بأن يخلفه عليكم فى الدنيا ، ويمنحكم الثواب الجزيل فى الآخرة .

ولقد صدق الله – تعالى – وعده مع من آمن وعمل صالحًا من هؤلاء الأسرى ، فأعطاهم الكثير من نعمه كما قال العباس – رضى الله عنه –

وقوله : ﴿ ويغفر لكم ﴾ زيادة فى حضهم على الدخول فى الإيمان .

وقوله : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ تذييل قصد به تأكيد ما قبله من الوعد بالخير والمغفرة .

أى : والله – تعالى – واسع المغفرة ، والرحمة لمن استجاب للحق ، وقدم العمل الصالح .

والتعبير ، بقوله : ﴿ لمن فى أيديكم ﴾ للإشعار بأن هؤلاء الأسرى المشركين قد صاروا فى قبضة المؤمنين وتحت تصرفهم ، حتى لكأن أيديهم قابضة عليهم .

وأسند وجود الخير فى قلوبهم إلى علم الله – تعالى – للإشارة إلى أن ادعاء الإيمان باللسان فقط لا يكفل لهم الحصول على الخير الذى فقدوه ولا يوصلهم إلى مغفرة الله – تعالى – فعليهم أن يخلصوا لله فى إيمانهم حتى ينالوا فضله وثوابه ، فهو – سبحانه – عليم بذات الصدور .

وقوله : ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ﴾ . إنذار لهم بسوء المصير إذا مالجوا فى عنادهم وغدرهم ، وبشارة من الله – تعالى – لرسوله والمؤمنين بأن العاقبة ستكون لهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٨ .

أى : وإن يرد هؤلاء الأسرى نقض عهودهم معك - يا محمد - والاستمرار فى محاربتك ومعاداتك .. فلا تهتم بهم ، ولا تجزع من خيانتهم فهم قد خانوا الله - تعالى - من قبل هذه الغزوة بكفرهم وجحودهم لنعمه فكانت نتيجة ذلك أن أمكنك منهم ، وأظفرك بهم ، وسينصرك عليهم بعد ذلك كما نصرك عليهم فى بدر ، والله - تعالى - عليم بما يسرونه وما يعلنونه ، حكيم فى تدبيره وصنعه .

فالآية الكريمة إنذار للأسرى إذا ما استحبوا العمى على الهدى ، وتبشير للرسول - ﷺ - بأن خيانتهم سيكون وبالها عليهم .

قال الفخر الرازى : وقوله ﴿ فأمكن منهم ﴾ قال الأزهرى : يقال أمكننى الأمر يمكننى فهو ممكن ومفعول الإمكان محذوف .

والمعنى : فأمكن المؤمنين منهم ، أى : أنهم خانوا الله بما أقدموا عليه من محاربة الرسول يوم بدر . فأمكن الله منهم قتلا وأسرا ، وذلك نهاية الإمكان والظفر . فنبه الله بذلك على أنهم قد ذاقوا وبال ما فعلوه ، فإن عادوا كان التمكين منهم ثابتًا حاصلاً ، وفيه بشارة للرسول - ﷺ - أنه يتمكن من كل من يخونه وينقض عهده »[1] .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى حدثت عن أسرى غزوة بدر ما يأتى :

١ - أن على المؤمنين فى كل زمان ومكان أن يجعلوا جهادهم خالصًا لوجه الله ومن أجل إعلاء كلمته ونصرة دينه ، وذلك بأن يبالغوا فى قتال أعدائه وأعدائهم إذلالا للكفر وإعزازًا للحق ، وأن يؤثروا كل ذلك على أعراض الدنيا ومتعها .

٢ - أن أخذ الفداء من الأسرى لا شىء فيه فى ذاته ، وإنما عاتب الله المؤمنين على أخذه من أسرى بدر ، لأن هذه الغزوة كانت المعركة الأولى بين المؤمنين والمشركين ، وكان إذلال المشركين فيها عن طريق المبالغة فى قتلهم أهم من أخذ الفداء منهم ، وأظهر فى كسر شوكتهم ، وعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين .

قال ابن كثير . وقد استقر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء ، أن الإمام مخير فيهم ، إن شاء قتل - كما فعل ببنى قريظة - وإن شاء فادى بمال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسر من المسلمين ، كما فعل رسول الله - ﷺ - فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع ، حيث ردهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسر .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٠٦ .

هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من العلماء ، وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر فى موضعه »[١] .

٣ - أن الذين شهدوا بدرًا من المسلمين كانت لهم مكانتهم السامية ، ومنزلتهم العالية ، عند الله - تعالى - .

ومما يدل على ذلك أنه - سبحانه - عفا عن خطئهم فى أخذ الفداء من الأسرى ثم زادهم فضلًا ومنة فجعل غنائم الحرب حلالا لهم ، بعد أن كانت محرمة على أتباع الرسل السابقين .

ففى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى . نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[٢] .

٤ - أن الإسلام لايستبقى الأسرى لديه للإذلال والقهر والاستغلال، وإنما يستبقيهم ليوقظ فى فطرتهم نور الحق الذى باتباعه يعوضهم الله عما أخذ منهم فى الدنيا ، ويمنحهم ثوابه ومغفرته فى الآخرة .

أما إذا استمروا فى عداوتهم للحق ، فان الدائرة ستدور عليهم .

٥ - أن الإيمان لايكون صحيحا إلا إذا صاحبه التصديق والإذعان .

قال ابن العربى : لما أسر من أسر من المشركين فى بدر ، تكلم قوم منهم بالإسلام ، ولم يمضوا فيه عزيمة ، ولا اعترفوا به اعترافا جازما ، ويشبه أنهم أرادوا أن يتقربوا من المسلمين ولا يبعدوا عن المشركين فنزلت الآية : ﴿ يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى .. ﴾ الآية .

قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان فى قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنا ، وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرا إلا ما كان من الوسوسة التى لايقدر المرء على دفعها ، فإن الله قد عفا عنها وأسقطها .

وقد بين الله لرسوله -ﷺ- الحقيقة فقال : ﴿وإن يريدوا خيانتك ﴾ أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا ﴿ فقد خانوا الله من قبل ﴾ بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك ، فأمكنك منهم . وإن كان هذا القول منهم خيرا ويعلمه الله فيقبل ذلك منهم ، ويعوضهم خيرا مما

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) صحيح البخارى « باب التيمم » جـ ١ ص ٩١ .

أخذ منهم ، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم[1] .

ثم ختم الله - تعالى - سورة الأنفال بالحديث عن علاقة المسلمين بعضهم ببعض ، وعن علاقتهم بغيرهم من الكفار وعن الأحكام المنظمة لهذه العلاقات

فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

هذه الآيات الكريمة التى ختم الله - تعالى - بها سورة الأنفال ، وضحت أن المؤمنين فى العهد النبوى أقسام ، وذكرت حكم كل قسم منهم .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربى جـ ٢ ص ٧٨٤ طبعة عيسى الحلبى الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ م .

أما القسم الأول : فهم المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى .
وأما القسم الثانى : فهم الأنصار من أهل المدينة .
والقسم الثالث : المؤمنون الذين لم يهاجروا .
والقسم الرابع : المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

وقد عبر - سبحانه - عن القسمين : الأول والثانى بقوله: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا ... ﴾ .

أى : ﴿إن الذين آمنوا﴾ بالله - تعالى - حق الإيمان ﴿ وهاجروا ﴾ أى تركوا ديارهم وأوطانهم وكل نفيس من زينة الحياة الدنيا . من أجل الفرار بدينهم من فتنة المشركين ، ومن أجل نشر دين الله فى الأرض ﴿ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ أى : أنهم مع إيمانهم الصادق ، وسبقهم بالهجرة إرضاء لله - تعالى - ، قد بالغوا فى إتعاب أنفسهم من أجل نصرة الحق ، فقدموا ما يملكون من أموال ، وقدموا نفوسهم رخيصة لا فى سبيل عرض من أعراض الدنيا ، وإنما فى سبيل مرضاة الله ونصرة دينه .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا القسم الأول من المؤمنين وهم الذين سبقوا إلى الهجرة . بأعظم الصفات وأكرمها .

فقد وصفهم بالإيمان الصادق ، وبالمهاجرة فرارا بدينهم من الفتن ، وبالمجاهدة بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله .

وقد جاءت هذه الأوصاف الجليلة مرتبة حسب الوقوع ، فإن أول ما حصل منهم هو الإيمان ، ثم جاءت من بعده الهجرة ، ثم الجهاد .

ولعل تقديم المجاهدة بالأموال هنا على المجاهدة بالأنفس ، لأن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعا ، وأتم دفعا للحاجة ، حيث لاتتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالأموال .

وقوله ﴿ فى سبيل الله ﴾ متعلق بقوله ﴿ جاهدوا ﴾ لإبراز أن جهادهم لم يكن لأى غرض دنيوى ، وإنما كان من أجل نصرة الحق وإعلاء كلمته - سبحانه -

وقوله : ﴿ والذين آووا ونصروا ﴾ بيان للقسم الثانى من أقسام المؤمنين فى العهد النبوى ، وهم الأنصار من أهل المدينة الذين فتحوا للمهاجرين قلوبهم ، واستقبلوهم أحسن استقبال ، حيث أسكنوهم منازلهم ، وبذلوا لهم أموالهم ، وآثروهم على أنفسهم ، ونصروهم على أعدائهم .

فالآية الكريمة قد وصفت الأنصار بوصفين كريمين .

أولهما : الإيواء الذى يتضمن معنى التأمين من الخوف ، إذا المأوى هو الملجأ والمأمن مما

يخشى منه ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف ... ﴾ [1] ، وقوله - تعالى - ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ... ﴾[2] .

ولقد كانت المدينة مأوى وملجأ للمهاجرين ، وكان أهلها مثالا للكرم والإيثار ...

ثانيها : النصرة ، لأن أهل المدينة قد نصروا الرسول - ﷺ - والمهاجرين بكل ما يملكون من وسائل التأييد والمؤازرة ، فقد قاتلوا من قاتلهم ، وعادوا من عاداهم ، ولذا جعل الله - تعالى - حكمهم وحكم المهاجرين واحدا فقال : ﴿ أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ .

فاسم الإشارة يعود إلى المهاجرين السابقين ، وإلى الأنصار .

وقوله : ﴿ أولياء ﴾ جمع ولى ويطلق على الناصر والمعين والصديق والقريب ...

والمراد بالولاية هنا : الولاية العامة التى تتناول التناصر والتعاون والتوارث ..

أى : أولئك المذكورون الموصوفون بهذه الصفات الفاضلة يتولى بعضهم بعضا فى النصرة والمعاونة والتوارث .. وغير ذلك ، لأن حقوقهم ومصالحهم مشتركة .

قال الالوسى ما ملخصه : « روى عن ابن عباس أن النبى - ﷺ - آخى بين المهاجرين والأنصار ، فكان المهاجر يرثه أخوه الأنصارى ، إذا لم يكن له بالمدينة ولى مهاجرى وبالعكس ، واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة ثم توارثوا بالنسب بعد إذ لم تكن هجرة .. وعليه فالآية منسوخة بقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .. ﴾ .

وقال الأصم : الآية محكمة ، والمراد الولاية بالنصرة والمظاهرة[3] .

والذى نراه أن الولاية هنا عامة فهى تشمل كل ما يحتاج إليه المسلمون فيما بينهم من تعاون وتناصر وتكافل وتوارث وغير ذلك ..

وقوله - تعالى - : ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا .. ﴾ بيان لحكم القسم الثالث من أقسام المؤمنين فى العهد النبوى ..

أى : هذا الذى ذكرته لكم قبل ذلك فى الآية هو حكم المهاجرين السابقين والأنصار الذى آووهم ونصروهم أما حكم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وهم المقيمون فى أرض الشرك تحت سلطان المشركين وحكمهم . فإنهم ليس بينهم وبين المهاجرين والأنصار ولاية إرث ﴿ حتى يهاجروا ﴾ إلى المدينة ، كما أنكم - أيها المؤمنون - لاتنتظروا منهم تعاونا أو مناصرة ، لأنهم

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠ .
(٢) سورة يوسف الآية ٦٩ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٧ .

بسبب إقامتهم فى أرض الشرك وتحت سلطانه - أصبحوا لايملكون وسائل المناصرة لكم .

ثم قال- تعالى: ﴿وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ .

أى : وان طلب منكم هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا النصرة على أعدائكم فى الدين ، فيجب عليكم أن تنصروهم ، لأنهم إخوانكم فى العقيدة ، بشرط ألا يكون بينكم وبين هؤلاء الأعداء عهد ومهادنة ، فإنكم فى هذه الحالة يحظر عليكم نصرة هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا ، لأن فى نصرتهم - على من بينكم وبينهم عهد - نقضا لهذا العهد .

أى : إن نصرتكم لهم إنما تكون على الكفار الحربيين لا على الكفار المعاهدين وهذا يدل على رعاية الإسلام للعهود ، واحترامه للشروط والعقود .

قال الجمل : أثبت الله - تعالى - للقسمين الأولين النصرة والإرث ، ونفى عن هذا القسم الإرث وأثبت له النصرة[1] .

وقوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ تذييل قصد به الترغيب فى طاعة الله ، والتحذير من معصيته .

أى : والله - تعالى - مطلع على كل أعمالكم فأطيعوه ، ولا تخالفوا أمره .

قبل أن تذكر السورة القسم الرابع من أقسام المؤمنين ، تتحدث عن ولاية الكفار بعضهم لبعض فتقول : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ .

أى : والذين كفروا بعضهم أولياء بعض فى النصرة والتعاون على قتالكم وإيذائكم - أيها المؤمنون - فهم وإن اختلفوا فيما بينهم إلا أنهم يتفقون على عداوتكم وإنزال الأضرار بكم .

وقوله : ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ تحذير شديد للمؤمنين عن مخالفة أمره - سبحانه - .

أى : إلا تفعلوا - أيها المؤمنون - ما أمرتكم به من التناصر والتواصل وتولى بعضكم بعضا ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ، تحصل فتنة كبيرة فى الأرض ، ومفسدة شديدة فيها ، لأنكم إذا لم تصيروا يداً واحدة على الشرك ، يضعف شأنكم ، وتذهب ريحكم ، وتسفك دماؤكم ويتطاول أعداؤكم عليكم ، وتصيرون عاجزين عن الدفاع عن دينكم وعرضكم .. وبذلك تعم الفتنة ، وينتشر الفساد .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٥٩ .

وقوله - تعالى - ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المؤمنون حقا .. ﴾ كلام مسوق للثناء على القسمين الأولين من الأقسام الثلاثة للمؤمنين وهم المهاجرون والأنصار .

إذ أن الآية الأولى من هذه الآيات الكريمة قد ساقها الله - تعالى - لايجاب التواصل بينهم ، أما هذه الآية فقد ساقها سبحانه - للثناء عليهم والشهادة لهم بأنهم هم المؤمنون حق الايمان وأكمله ، بخلاف من أقام من المؤمنين بدار الشرك ، مع الحاجة إلى هجرته وجهاده .

قال الفخر الرازى : أثنى الله - تعالى - على المهاجرين والأنصار من ثلاثة أوجه :

أولها - قوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ فإن هذه الجملة تفيد المبالغة فى مدحهم ، حيث وصفهم بكونهم محقين فى طريق الدين .

وقد كانوا كذلك ، لأن من لم يكن محقا فى دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال .

وثانيها - قوله : ﴿ لهم مغفرة ﴾ والتنكير يدل على الكمال ، أى : مغفرة تامة كاملة .

وثالثها - قوله : ﴿ ورزق كريم ﴾ والمراد منه الثواب الرفيع .

والحاصل : أنه - سبحانه - شرح أحوالهم فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فقد وصفهم بقوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ .

وأما فى الآخرة فالمقصود إما دفع العقاب ، وإما جلب الثواب .

أما دفع العقاب فهو المراد بقوله ﴿ لهم مغفرة ... ﴾ وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله ﴿ ورزق كريم ﴾[١] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان القسم الرابع من أقسام المؤمنين فى العهد النبوى فقال : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم .. ﴾ .

أى : والذين آمنوا من بعد المؤمنين السابقين إلى الايمان والهجرة ، وهاجروا إلى المدينة ، وجاهدوا مع المهاجرين السابقين والأنصار من أجل إعلاء كلمة الله ، فأولئك الذين هذا شأنهم ﴿ منكم ﴾ أى : من جملتكم - أيها المهاجرون والأنصار فى استحقاق الموالاة والنصرة ، واستحقاق الأجر من الله ، إلا أن هذا الأجر ينقص عن أجركم ، لأنه لا يتساوى السابق فى الإيمان والهجرة والجهاد مع المتأخر فى ذلك .

قالوا : والمراد بهذا القسم الرابع من أقسام المؤمنين ، أهل الهجرة الثانية التى وقعت بعد

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢١٢ .

الهجرة الأولى ، وقيل المراد بهذا القسم المهاجرون بعد صلح الحديبية ، أو بعد غزوة بدر ، أو بعد نزول هذه الآية ، فيكون الفعل الماضى ﴿ آمنوا ﴾ وما بعده بمعنى المستقبل .

وقوله : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .. ﴾ بيان لحقوق الأقارب بالنسب

والأرحام جمع رحم ، وأصله رحم المرأة الذى هو موضع تكوين الولد فى بطنها ، وسمى به الأقارب ، لأنهم فى الغالب من رحم واحدة وأولو الأرحام فى اصطلاح علماء الفرائض : هم الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب .

أى : وذوو القرابة بعضهم أولى فى التوارث وفى غير ذلك مما تقتضيه مطالب الحياة من التكافل والتراحم .

وقوله : ﴿ فى كتاب الله ﴾ أى : فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام فى هذه الآية وغيرها .

قال الآلوسى : « أخرج الطيالسى والطبرانى وغيرهما عن ابن عباس قال : آخى رسول الله - ﷺ - بين أصحابه ، وورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب »[1] .

أى أن هذه الآية الكريمة نسخت ما كان بين المهاجرين والانصار من التوارث بسبب الهجرة والمؤاخاة .

وقوله : ﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ تذييل ختمت به السورة الكريمة لحض المؤمنين على التمسك بما اشتملت عليه من آداب وتشريعات وأحكام لينالوا رضاه وثوابه .

أى : إن الله - تعالى - مطلع على كل شىء مما يدور ويجرى فى هذا الكون ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وسيجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت المهاجرين والأنصار مدحا عظيما ، كما مدحت المؤمنين من بعدهم ، وحضت على الجهاد فى سبيل الله ، وأمرت بالوفاء بالعهود ، وبالوقوف صفا واحدا فى وجه الكفار حتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

وبعد : فهذا ما وفق الله إليه فى تفسير سورة الأنفال ، أو سورة بدر - كما سماها ابن عباس - لأنها تحدثت باستفاضة عن أحداث هذه الغزوة وعن أحوال المشتركين فيها ، وعن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٩ .

بشارات النصر التى تقدمتها وصاحبتها وعن غنائمها وأسراها .

كما تحدثت عن صفات المؤمنين الصادقين ، وعن الأقوال والأعمال التى يجب عليهم أن يتمسكوا بها لينالوا رضا الله ونصره ، وعن رذائل المشركين ومسالكهم القبيحة لمحاربة الدعوة الاسلامية ، وعن المبادىء التى يجب أن يسير عليها المسلمون فى حربهم وسلمهم ، وعن سنن الله فى خلقه التى لا تتغير ولا تتبدل ، والتى من أهمها :

أنه - سبحانه - لا يسلب نعمة عن قوم إلا بسبب معاصيهم وتنكبهم الطريق القويم ، قال - تعالى - : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

وأنه - سبحانه - قد جعل العاقبة الحسنة للمؤمنين ، والعاقبة السيئة للفاسقين ، وأخبر المنحرفين عن صراطه بأنه سيغفر لهم ما سلف من خطاياهم متى أقلعوا عنها ، وأخلصوا له العبادة .

قال - تعالى - ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ .

وختاما : نسأل الله - تعالى - أن يوفقنا للمداومة على خدمة كتابه ، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا ، وأن يتمم لنا نورنا ويغفر لنا إنه على كل شىء قدير .

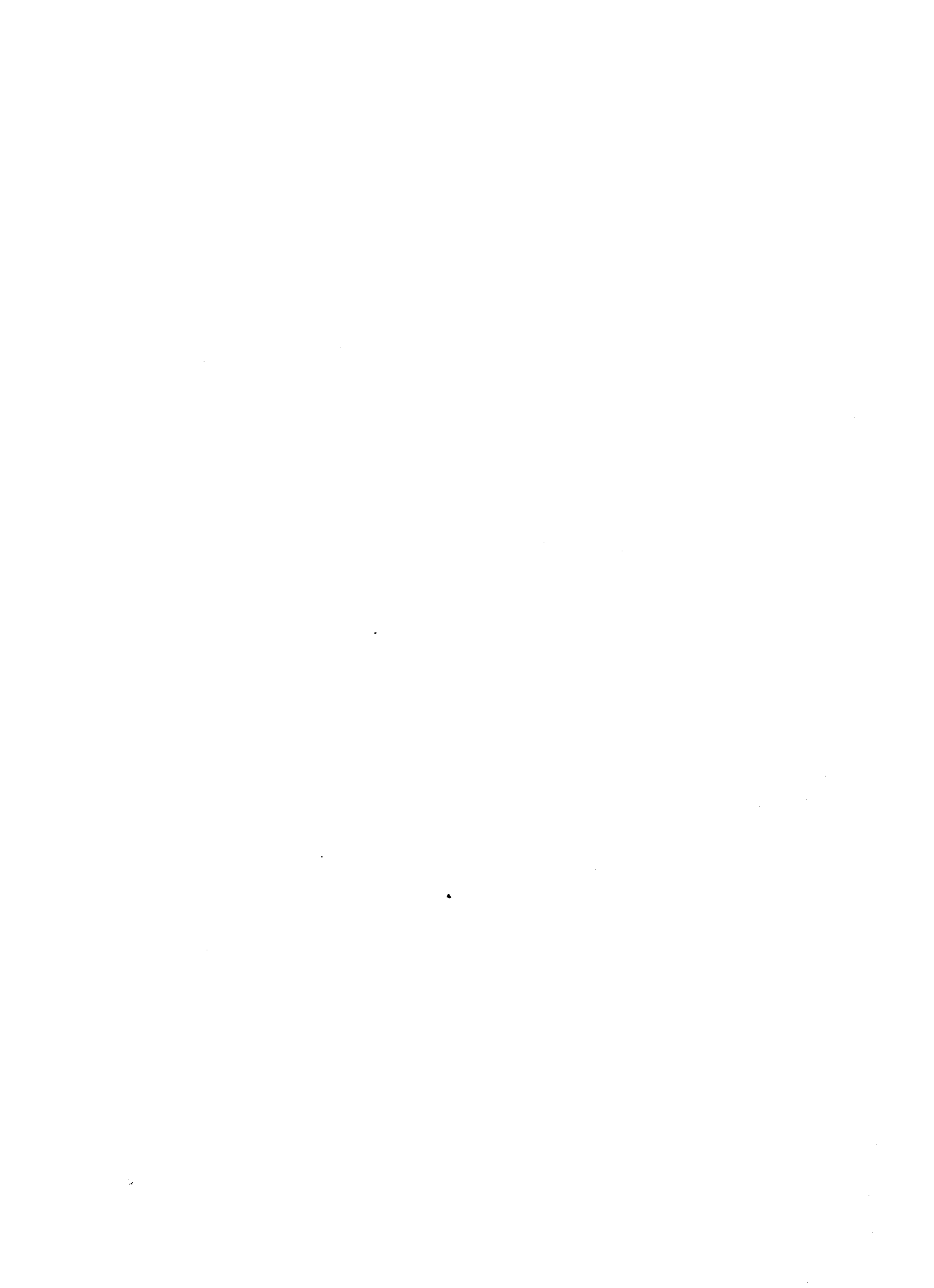
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

تفسير

سُورَةُ التَّوْبَةِ



مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير تحليلي لسورة التوبة ، توخيت فيه أن أبرز ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وهدايات شاملة ، وحكم جليلة ، وتراكيب بليغة ..

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده ، وشفيعًا لنا عنده - سبحانه - يوم نلقاه ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

تحريرًا فى ١٩ من شوال سنة ١٣٩٥ هـ
الموافق ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٧٥ م

المؤلف
د . محمد سيد طنطاوى



تمهيد بين يدى تفسير سورة التوبة

نقصد بهذا التمهيد - كما سبق أن بينا فى تفسير السور السابقة - إعطاء القارىء صورة واضحة عن السورة التى سنفسرها قبل أن نبدأ فى تفسيرها آية آية . فنقول :

١ - سورة التوبة هى السورة التاسعة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سور الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال .

٢ - وعدد آياتها مائة وتسعة وعشرون آية عند الكوفيين . ومائة وثلاثون آية عند جمهور العلماء .

٣ - أسماؤها :

عرفت هذه السورة منذ العهد النبوى بجملة من الأسماء منها :

(ا) التوبة : وسميت بهذا الاسم لتكرار الحديث فيها عن التوبة والتائبين ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ فإن تبتم فهو خير لكم ... ﴾[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ﴾[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم ... ﴾[٤] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ... ﴾[٥] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تكررت فى هذه السورة عن التوبة والتائبين .

(ب) براءة : وسميت بذلك لافتتاحها بقوله - سبحانه - : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ... ﴾ .

وهذان الاسمان - التوبة وبراءة - هما أشهر أسماء هذه السورة الكريمة .

(جـ) الفاضحة : وسميت بهذا الاسم لحديثها المستفيض عن المنافقين وصفاتهم وأحوالهم .. وفضيحتهم على رءوس الأشهاد .

---

(١) الآية ٣ .
(٢) الآية ١١ .
(٣) الآية ٢٧ .
(٤) الآية ١٠٢ .
(٥) الآية ١٠٦ .

أخرج البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة التوبة قال : التوبة هى الفاضحة . ما زالت تنزل : ومنهم ومنهم ، حتى ظنوا أنها لن تبقى أحدًا منهم إلا ذكر فيها[١] .

(د) المنقرة : وسميت بذلك ، لأنها نقرت عما فى قلوب المنافقين والمشركين فكشفت عنه ، وأظهرته للناس .

(هـ) المثيرة : وسميت بهذا الاسم ، لأنها أثارت مثالبهم وعوراتهم . أى : أخرجتها من الخفاء إلى الظهور .

(و) المبعثرة : لأنها بعثرت أسرارهم . أى بينتها وعرفتها للمؤمنين .

(ز) المدمرة : أى المهلكة لهم .

إلى غير ذلك من الأسماء التى اشتهرت بها هذه السورة الكريمة[٢] .

هذا ، وليس فى سور القرآن الكريم أكثر أسماء منها ومن سورة الفاتحة .

٤ - زمان ومكان نزولها :

قال ابن كثير : هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله - ﷺ - كما قال البخارى ... »[٣] .

وقال صاحب المنار : هى مدنية بالاتفاق . وقيل : إلا قوله - تعالى - ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ... ﴾ الآية وذلك لما روى فى الحديث المتفق عليه من نزولها فى النهى عن استغفاره - ﷺ - لعمه أبى طالب - كما سيأتى تفصيله عند تفسيرها .

ويجاب عنه بجواز أن يكون نزولها تأخر عن ذلك ، وبما يقوله العلماء فى مثل هذا المقام من جواز نزول الآية مرتين : مرة منفردة ومرة فى أثناء السورة .

واستثنى ابن الفرس قوله - تعالى - ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... ﴾ إلى آخر الآيتين اللتين فى آخرها ؛ فزعموا أنهما مكيتان .

ويرده ما رواه الحاكم وأبو الشيخ فى تفسيره عن ابن عباس من أن هاتين الآيتين من آخر ما نزل من القرآن ، كما يرده أيضا قول الكثيرين من أن هذه السورة نزلت تامة .

---

(١) صحيح البخارى : جـ ٦ ص ١٨٣ - طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٦ . الطباعة المنيرية الطبعة الثانية .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣١ . طبعة عيسى الحلبى .

وما يعارض هذا مما ورد فى أسباب نزول بعض الآيات ، يجاب عنه بأن أكثر ما روى فى أسباب النزول ، كان يراد به أن الآية نزلت فى حكم كذا . أعنى أن الرواة كانوا يذكرونها كثيرًا فى مقام الاستدلال . وهذا لا يدل على نزولها وحدها ، ولا على كون النزول كان عند حدوث ما استدل بها عليه ، كما قلنا آنفا فى احتمال نزول آية استنكار الاستغفار للمشركين فى المدينة ، وإن كان ما ذكروه من سببها حدث بمكة قبل الهجرة »[١] .

وقال بعض العلماء : ومن مراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية ، ومراجعة ما جاء فى الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته ، ومراجعة أحداث السيرة النبوية كذلك .. يتبين أن السورة بجملتها نزلت فى العام التاسع من الهجرة . ولكنها لم تنزل دفعة واحدة .

ومع أننا لا نملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التى نزلت فيها مقاطع السورة فى خلال العام التاسع ، إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت فى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى منها : كانت قبل غزوة تبوك فى شهر رجب من هذا العام .

والمرحلة الثانية : كانت فى أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم فى ثناياها .

والمرحلة الثالثة : كانت بعد العودة منها .

أما مقدمات السورة من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها ، فقد نزلت متأخرة فى نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج من ذى القعدة أو فى ذى الحجة .

وهذا - على الإجمال - هو كل ما يمكن ترجيحه والاطمئنان إليه[٢] .

والذى نراه أن هذا القول هو الذى تسكن إليه النفس فى الحديث عن زمان ومكان نزول السورة الكريمة ؛ لأن الذى يستعرض آياتها يراها - فى مجموعها - ترسم للمؤمنين ما يجب أن تكون عليه علاقاتهم مع المشركين ، ومع أهل الكتاب ومع المنافقين ؛ ومع غيرهم من الطوائف .

كما يراها ترسم لهم الطريق الذى يجب عليهم أن يتخذوه أساسًا لدولتهم . ومنهاجًا لحياتهم ، حتى تستمر عزتهم ، وتبقى كلمتهم عالية قوية بعد أن فتح الله لهم مكة وأذل الشرك وأهله .

كما يراها - أيضًا - تتحدث باستفاضة عن أحداث قد وقعت خلال غزوة تبوك أو قبلها أو بعدها . وغزوة تبوك قد كانت فى السنة التاسعة من الهجرة .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٧٤ .

(٢) تفسير « فى ظلال القرآن » للمرحوم سيد قطب . الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٦ هـ وسنة ١٩٦٧ م .

٥ - لماذا لم تذكر البسملة فى أول سورة التوبة ؟.

للإجابة على هذا السؤال ذكر العلماء أقوالاً متعددة لخصها القرطبى تلخيصًا حسنا فقال :

واختلف العلماء فى سبب سقوط البسملة من أول هذه السورة على أقوال خمسة :
الأول : - أنه قيل كان من شأن العرب فى زمانها فى الجاهلية ، إذا كان بينهم وبين قوم عهد وأرادوا نقضه ، كتبوا إليهم كتابًا ولم يكتبوا فيه بسملة ؛ فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذى كان بين النبى - ﷺ - والمشركين ، بعث بها النبى - ﷺ - على بن أبى طالب فقرأها عليهم فى الموسم ، ولم يبسمل فى ذلك على ما جرت به عادتهم فى نقض العهود من ترك البسملة .

وقول ثان : - روى النسائى قال : حدثنا أحمد قال : حدثنا محمد بن المثنى عن يحيى بن سعيد قال : حدثنا عوف ، قال : حدثنا يزيد الرقاشى - وفى صحيح الترمذى يزيد الفارسى - قال : قال لنا ابن عباس : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى « الأنفال » وهى من المثانى ، وإلى « براءة » وهى من المئين فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها فى السبع الطوال ؛ فما حملكم على ذلك ؟

قال عثمان : إن رسول الله - ﷺ - كان إذا نزل عليه الشىء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول : « ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا » وكانت « الأنفال » من أوائل ما أنزل - أى بعد الهجرة ، و « براءة » من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها . وقبض رسول الله - ﷺ - ولم يبين لنا أنها منها فظننت أنها منها ، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم .

وقول ثالث : روى عن عثمان أيضًا . وقال مالك فيما رواه ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم : إنه لما سقط أولها سقط بسم الله الرحمن الرحيم معه .

وروى ذلك عن ابن عجلان أنه بلغه أن سورة « براءة » كانت تعدل البقرة أو قربها فذهب منها : فلذلك لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم .

وقال سعيد بن جبير : كانت مثل سورة البقرة .

وقول رابع : - قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما . قالوا : لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف أصحاب رسول الله - ﷺ - فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة ، وقال بعضهم : هما سورتان ، فتركت بينهما فرجة لقول من قال إنهما سورتان وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ، فرضى الفريقان معًا ، وثبت حجتاهما فى المصحف .

وقول خامس : قال عبد الله بن عباس : سألت على بن أبى طالب لماذا لم يكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان .

– وكذا قال المبرد : إن التسمية افتتاح للخير ، وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود ، فلذلك لم تفتتح بالتسمية .

ثم قال القرطبى والصحيح أن التسمية لم تكتب ، لأن جبريل – عليه السلام – ما نزل بها فى هذه السورة .. »[1] .

هذا ، وقول القرطبى : والصحيح أن التسمية لم تكتب ... إلخ ، هو القول الذى نعتمده ، وتطمئن إليه قلوبنا ، وقد رجحه المحققون من العلماء .

فقد قال الفخر الرازى – وقد ذكر ستة أوجه فى سبب إسقاط التسمية من أولها – : الصحيح أنه – ﷺ – أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحيا ، وأنه حذف بسم الله الرحمن الرحيم من أول هذه السورة وحيا[2] .

وقال الجلال : ولم تكتب فيها البسملة لأنه – ﷺ – لم يأمر بذلك ، كما يؤكد من حديث رواه الحاكم .

أى أنه – كما يقول الجمل – لا مدخل لرأى أحد فى الإثبات والترك ، وإنما المتبع فى ذلك هو الوحى والتوقيف .وحيث لم يبين النبى – ﷺ – ذلك تعين ترك التسمية ، لأن عدم البيان من الشارع فى موضع البيان بيان للعدم »[3] .

وقال بعض العلماء : ولم تكتب فى أولها البسملة لعدم أمره – ﷺ – بكتابتها ، إذ لم ينزل بها جبريل – عليه السلام – والأصل فى ذلك التوقيف » .

أما الأقوال الخمسة التى نقلناها عن القرطبى – منذ قليل – فى سبب سقوط البسملة من أول سورة التوبة ، فإننا لا نرى واحدًا منها يعتمد عليه فى هذا الأمر . لأن القول الأول الذى حكاه بقوله : قيل كان من شأن العرب ... إلخ . إنما هو تعليل عقلى على سبيل الاجتهاد لبيان الحكمة فى عدم كتابة البسملة فى أولها . ومثل هذا التعليل يقال فى القول الخامس الذى حكاه ابن عباس ، عن على بن أبى طالب .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٦١ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٨٠ هـ سنة ١٩٦١ م .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢١٦ . طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ سنة ١٩٣٨ م .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين . جـ ٢ ص ٢٦١ . طبعة عيسى الحلبى .

وأما القول الثانى - وهو الحديث الذى رواه النسائى والترمذى - فقد علق عليه أحد العلماء المحققين بقوله : « فى إسناده نظر كثير ، بل هو عندى ضعيف جدًا ، بل هو حديث لا أصل له . يدور إسناده فى كل رواياته على « يزيد الفارسى » .. ويزيد الفارسى هذا اختلف فيه : أهو يزيد بن هرمز أم غيره .

قال البخارى فى التاريخ الكبير : « قال لى على : قال عبد الرحمن: يزيد الفارسى هو ابن هرمز . قال : فذكرته ليحيى فلم يعرفه ، قال : « وكان يكون مع الأمراء » . وفى التهذيب : « قال ابن أبى حاتم : اختلفوا هل هو يعنى ابن هرمز يزيد الفارسى أو غيره ...

فهذا يزيد الفارسى الذى انفرد برواية هذا الحديث يكاد يكون مجهولاً ، حتى شبه على مثل ابن مهدى وأحمد والبخارى أن يكون هو ابن هرمز أو غيره .

ويذكره البخارى فى الضعفاء ، فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به ، وفيه تشكيك فى معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعى ، قراءة وسماعا وكتابة فى المصاحف . وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور ، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه ، وحاشاه من ذلك .

فلا علينا إذا قلنا إنه « حديث لا أصل له » تطبيقًا للقواعد الصحيحة التى لا خلاف فيها بين أئمة الحديث .

قال السيوطى فى تدريب الراوى فى الكلام على أمارات الحديث الموضوع : أن « يكون منافيا لدلالة الكتاب القطعية ، أو السنة المتواترة ، أو الإجماع القطعى » ...[1] .

وأما القول الثالث الذى يقول « إنه لما سقط أولها سقط معه بسم الله الرحمن الرحيم ... » فهو قول ساقط لا يعتد به ، لأنه لا دليل عليه ولا سند له ، ويؤدى الالتفات إليه إلى المساس بقداسة القرآن الكريم ، حيث إن بعض سوره كانت طويلة ثم سقط منها ما سقط .

وأما القول الرابع الذى يزعم قائلوه أن بعض الصحابة قال : « براءة والأنفال سورة واحدة ... » فهو قول ضعيف ولا يعتد به - أيضًا - كسابقه ، لأنه قد عرف واشتهر بأنهما سورتان مستقلتان منذ عهد النبى - ﷺ - إلى يومنا هذا .

ولأن الذى يقرأ السورتين بإمعان وتدبر ، يرى أن لكل منهما موضوعاتها الخاصة بها ، والتى اهتمت بها أكثر من غيرها ، فسورة الأنفال تحدثت باستفاضة عن غزوة بدر وما يتعلق بها .. بينما سورة التوبة قد تحدثت باستفاضة عن غزوة تبوك أى فى السنة التاسعة .

---

(١) راجع « المسند للإمام أحمد » شرح وتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد شاكر . جـ ١ حديث رقم ٢٩٩ طبعة دار المعارف ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٩ ، فقد تكلم الأستاذ أحمد شاكر على هذا الحديث كلامًا طويلاً فانظره .

قال الحاكم : استفاض النقل أنهما سورتان .

وقال أبو السعود : اشتهارها - أى سورة التوبة - بهذه الأسماء المتقدمة - براءة والفاضحة ... إلخ - يقضى بأنها سورة مستقلة ، وليست بعضًا من سورة الأنفال ... »[1] :

وقال بعض العلماء : وهذه الأسماء وغيرها مما ثبت إطلاقه على السورة - أى سورة التوبة - من الصدر الأول ، لم يعرف إطلاق واحد منها على السورة التى قبلها وهى سورة الأنفال ، كما لم يعرف أنه أطلق اسم سورة الأنفال على هذه السورة . وبذلك احتفظت كل من السورتين منذ العهد الأول بما لها من اسم لم تشاركها فيه صاحبتها .

وكما احتفظت كل من السورتين بما لها من اسم ، احتفظت كل منها بوقت نزولها ، فسورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر . أى : فى السنة الثانية من الهجرة . وسورة التوبة نزلت بعد غزوة تبوك ، وبعد خروج أبى بكر على رأس المسلمين إلى الحج . أى : فى أواخر السنة التاسعة .

وكما احتفظت كل منها بهذا وذاك ، احتفظت كل منها - أيضًا - بهدفها الخاص .

فسورة التوبة عالجت شئونًا حدثت بعد زمن طويل من نزول سورة الأنفال ، ومعرفتها باسم سورة الأنفال . وسورة الأنفال عالجت شئونًا حدثت قبل نزول سورة التوبة ولم يرد لها ذكر فيها .

ولا شك أن كل هذه الاعتبارات الواضحة المبينة والمحققة فى السورتين من الصدر الأول ، تدل دلالة واضحة على أنهما سورتان منفصلتان ، وأن عدهما سورة واحدة رأى لا قيمة له ، كما لا قيمة للاشتباه فى استقلال كل منهما حتى يقال : تركت البسملة بينهما نظرًا لاحتمال وحدتهما ، وتركت بينهما فرجة نظرا لاحتمال انفصالهما .

وقد عرف مع ترك التسمية بينهما أنهما سورتان مستقلتان من عهد النبى - ﷺ - إلى يومنا هذا .

وقد جاءتا كذلك فى المصاحف الأولى : مصحف عثمان ، وعلى ، وابن عباس ، فلا معنى بعد هذا كله لإثارة شبهة قد تمس من قرب أو بعد قداسة تنظيم كتاب الله وترتيبه بناء على روايات ضعيفة أو موضوعة[2] .

والخلاصة أن القول بأنهما سورة واحدة ، قول لا وزن له ، ولا يعول عليه للأسباب التى ذكرناها آنفًا .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٥٠ . طبعة محمد عبد اللطيف .

(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٦٠٢ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت . طبعة دار القلم . الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦ .

٦ - مناسبتها لسورة الأنفال :

قال الآلوسى : ووجه مناسبتها للأنفال أن فى الأولى قسمة الغنائم وجعل خمسها لخمسة أصناف على ما علمت ، وفى هذه قسمة الصدقات وجعلها لثمانية أصناف على ما ستعلم إن شاء الله .

وفى الأولى - أيضًا - ذكر العهود وهنا نبذها . وأنه - سبحانه - أمر فى الأولى بالإعداد فقال : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ونعى هنا على المنافقين عدم الإعداد بقوله : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾ .

وأنه - سبحانه - ختم الأولى بإيجاب أن يوالى المؤمنون بعضهم بعضًا وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية ، وصرح - جل شأنه - فى هذه بهذا المعنى فقال : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين .. ﴾ .

إلى غير ذلك من وجوه المناسبة[١] .

وقال صاحب المنار: وأما التناسب بينها وبين ما قبلها فإنه أظهر من التناسب بين سائر السور بعضها مع بعض ، فهى - أى التوبة - كالمتممة لسورة الأنفال فى معظم ما فيهما من أصول الدين وفروعه والسنن الإلهية والتشريع وأحكام المعاهدات .. فما بدىء به فى الأولى أتم فى الثانية ، مثال ذلك .

١ - أن العهود ذكرت فى سورة الأنفال ، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها ، ولا سيما نبذها الذى قيد فى الأولى بخوف خيانة الأعداء .

٢ - تفصيل الكلام فى قتال المشركين وأهل الكتاب فى كل منهما .

٣ - ذكر فى الأولى صد المشركين عن المسجد الحرام وأنهم ليسوا بأوليائه ، وجاء فى الثانية ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ... ﴾ .

٤ - ذكر فى أول الأولى صفات المؤمنين الكاملين ، وذكر بعد ذلك بعض صفات الكافرين . ثم ذكر فى آخرها حكم الولاية بين كل من الفريقين . وجاء فى الثانية مثل هذا فى مواضع أيضًا[٢] .

والحق أن الذى يقرأ السورتين بتأمل وتدبر يراهما تعطيانه ما يشبه أن يكون صورة تاريخية مجملة لدعوة النبى - ﷺ - وجهاده إلى أن أتم الله له نعمة النصر .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣٦ .

(٢) تفسير المنار - بتصرف وتلخيص - جـ ١٠ ص ١٧٥ . للسيد محمد رشيد رضا .

فمثلاً عندما نقرأ سورة الأنفال نراها تتحدث عن حالة المسلمين قبل الهجرة كما فى قوله - تعالى - ﴿ واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ... ﴾ الآية ٢٦ .

كما تتحدث عن المكر السيء الذى صدر عن المشركين والذى كان من أسباب الهجرة ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ الآية ٣٠ .

ثم نراها تفيض فى الحديث عن غزوة بدر ، وتشير إلى ما ظهر من المنافقين فيها ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ﴾ . الآية ٤٩ . وإلى ما حدث من اليهود من نقض للعهود ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ الآية ٥٨ .

أما سورة التوبة فنراها تذكر المسلمين بالنصر الذى منحه الله لهم فى مواطن كثيرة قال - تعالى - ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ... ﴾ « الآية ٢٥ » كما تصف بالتفصيل مواقف المنافقين فى غزوة تبوك وغيرها .

ولعل قيام السورتين الكريمتين بإعطاء القارىء ما يشبه أن يكون صورة تاريخية مجملة للدعوة الإسلامية هو الحكمة فى وضعهما مقترنتين وفى تسميتهما بالقرينتين .

قال القرطبى : كانتا تدعيان القرينتين ؛ فوجب أن تجمعا وتضم إحداهما إلى الأخرى ؛ للوصف الذى لزمهما من الاقتران ورسول الله - ﷺ - حى.[1] .

٧ - المقاصد الإجمالية لسورة التوبة :

عندما نقرأ سورة التوبة بتأمل وتدبر نراها فى مطلعها تحدد تحديدًا حاسمًا المنهاج الذى يجب أن يسلكه المؤمنون فى علاقتهم مع المشركين ، وتبين بوضوح وجلاء الأسباب التى تدعو المؤمنين إلى التزام هذا المنهاج .

فهى فى أولها تعلن براءة الله ورسوله من المشركين بسبب خيانتهم ، وتمنحهم الأمان لمدة أربعة أشهر لكى يدبروا فيها أمر أنفسهم ، وتعلن للناس عامة يوم الحج الأكبر أن الله ورسوله قد برئا من عهود المشركين ، وأنها قد نبذت إليهم ، وتستثنى من هؤلاء المشركين أولئك الذين لم ينقضوا ، فتأمر المؤمنين بأن يتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، فإذا ما انتهت مدة الأمان فعلى المؤمنين أن يقتلوا المشركين الناكثين حيث وجدوهم ، وأن يؤمنوا من يطلب الأمان منهم حتى يسمع القرآن ويتدبره ، ويطلع على حقيقة الإسلام . وبذلك لا يبقى له عذر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٦٣ .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور كل هذه المعانى بأسلوبها البليغ الحاسم فتقول :

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ؛ فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ .

ثم تسوق السورة بعد ذلك الأسباب التى دعت إلى البراءة من المشركين . والتى أوجبت على المؤمنين قتالهم ، وحرضتهم على ذلك بأنواع من المشجعات فقالت :

﴿ ألا تقاتلون قومًا نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴾ .

ثم توجه السورة الكريمة خطابها إلى الذين شق عليهم القتال من المؤمنين ، وتبين أن الحكمة فى الأمر به ، إنما هى الامتحان والتمحيص فتقول :

﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾ .

ثم تصرح السورة الكريمة بعد ذلك بأن المؤمنين وحدهم هم الذين من حقهم أن يعمروا مساجد الله ... أما المشركون فليس من حقهم ذلك بسبب كفرهم ونجاستهم .

قال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ .

فإذا ما وصلنا إلى الربع الثانى من سورة التوبة رأيناها فى أوائله توجه إلى المؤمنين نداء تأمرهم فيه أن يؤثروا محبة الله ورسوله على محبة الآباء والأبناء والأموال .. وتهدد من يخالف ذلك فتقول :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون * قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تذكير المؤمنين بألوان من نعم الله عليهم ، حيث نصرهم . سبحانه : على أعدائهم فى مواطن كثيرة ، وحيث أيدهم بعونه بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت .

قال تعالى : ﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مديرين* ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ .

ثم وجهت إليهم نداء ثانياً نهتهم فيه عن تمكين المشركين من قربان المسجد الحرام ، وبشرتهم بأن الله - تعالى - سيغنيهم من فضله متى تابوا إليه وأطاعوه .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ (الآية ٢٨) .

وإلى هنا نرى السورة الكريمة قد حددت تحديداً حاسماً المنهاج الذى يجب أن يسلكه المؤمنون فى علاقاتهم مع المشركين ، وأبرزت بصورة واضحة ومقنعة الأسباب المتنوعة التى أوجبت سلوك هذا المنهاج .

وتلك عادة القرآن الكريم فى تشريعاته ، لا تكاد تجد تشريعاً من تشريعاته إلا وقد صاحبته الحكمة التى كان لأجلها هذا التشريع ، والتى من شأنها أن تدفع الناس إلى المسارعة فى التنفيذ والامتثال .

ثم بدأت السورة بعد ذلك فى تحديد المنهاج الذى يجب أن يسلكه المؤمنون فى علاقاتهم مع المنحرفين من أهل الكتاب ، وأبرزت ، أيضاً : الأسباب التى تدعو إلى التزام هذا المنهاج ، فأمرت باستمرار قتالهم ، وذكرت ما هم عليه من صفات سيئة تحمل المؤمنين على تأديبهم ، وأرشدت إلى ما كان عليه رؤساؤهم من أكل لأموال الناس بالباطل ، ومن صد عن سبيل الله ، استمع إلى الآيات الكريمة وهى تحكى كل ذلك فتقول :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون * وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل

ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

ثم وجهت السورة نداء رابعاً إلى المؤمنين ، نعت فيه على المتثاقلين الذين دعوا إلى الجهاد فتكاسلوا عنه .. وحذرتهم من سوء عاقبة هذا التكاسل وذكرتهم بما كان من نصر الله - تعالى لنبيه وقت أن أحاط به المشركون وهو فى الغار ، وأمرتهم بالخروج للجهاد فى حالتى اليسر والعسر والمنشط والمكره .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شىء قدير ﴾ .

وبعد هذه الدعوة الحارة للمؤمنين إلى الجهاد فى سبيل الله بالنفس والأموال بدأت السورة الكريمة فى الحديث عن المنافقين ، فكشفت عن أصنافهم وأوصافهم ، ورسمت أحوالهم النفسية والعملية ، وفضحت مواقفهم فى غزوة تبوك وما كان منهم قبلها وبعدها وأثناءها ، وأظهرت حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم عن القتال ، وأزاحت الستار عن أساليب نفاقهم وألوان فتنهم وتخذيلهم للمؤمنين ، وحكت ما كانوا ينطقون به من سوء فى حق النبى ﷺ وفى حق أصحابه .

وقد استغرق الحديث عن المنافقين زهاء نصف سورة التوبة - أى من أواخر الربع الثالث منها إلى نهاية الربع السابع .

وقد تركتهم السورة الكريمة - بعد هذا الكشف السافر لأحوالهم : عراة من الخير أمام المؤمنين ، منبوذين من جماعة المسلمين ، مميزين بصفاتهم القبيحة التى فصلها القرآن تفصيلا يجعل العقلاء يعرفونهم ويحذرونهم .

فمن صفاتهم الذميمة ومسالكهم الخبيثة التى تحدثت السورة عنها :

(أ) الفرار من مواطن الجد والجهاد ، والتعلل بالأعذار الكاذبة ، والتستر بالأيمان الفاجرة ، وقد حكت السورة عنهم ذلك فى مواضع كثيرة منها .

قال تعالى : ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين * رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ .

(ب) إشاعة الفتنة فى صفوف الجيش الإسلامى متى وجدوا فيه ، أى أن خلو الجيش منهم خير وبركة ووجودهم فيه شر وفتنة .

قال تعالى ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾ .

(جـ) كراهتهم الخير للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، ومحبتهم السوء لهم .

قال تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾ .

(د) تكاسلهم عن أداء الشعائر الدينية بسبب فسوقهم وكفرهم :

قال تعالى : ﴿ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قومًا فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ .

(هـ) تظاهرهم بالإسلام تقية وجبنهم عن التصريح بما هم عليه من كفر .

قال تعالى : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ .

(و) طعنهم على الرسول - ﷺ فى قسمة الأموال وفى توزيع الصدقات بقصد إشاعة التهم الباطلة حوله .

قال تعالى : ﴿ ومنهم من يلمزُكَ فى الصدقاتِ ، فإن أُعطُوا منها رضوا وإنْ لم يُعطَوْا منها إذا هم يسخطون ﴾ .

(ز) وصفهم للرسول - ﷺ بأنه أُذُن - أى يصدق كل ما يقال له بدون تثبت ...

قال تعالى : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبىَّ ويقولون هو أُذن قل أذنُ خيرٍ لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذونَ رسولَ اللهِ لهم عذاب أليم ﴾ .

(ح) استهزاؤهم بتعاليم الإسلام فيما بينهم ، واعتذارهم عن ذلك بأنهم لم يكونوا جادين فيما ينطقون به من سوء ، وتكذيب الله لهم فيما اعتذروا عنه .

قال تعالى : ﴿ يحذر المنافقونَ أن تنزل عليهم سورة تنبئُهم بما فى قلوبهم ، قل استهزئوا إنَّ الله مخرج ما تحذَرون * ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوضُ ونلعبُ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذرُوا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعفُ عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ .

(ط) تعاطفهم فيما بينهم وتعاونهم على الإثم والعدوان لا على البر والتقوى .

قال تعالى: ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرونَ بالمنكر وينهوْن عن المعروف، ويَقبضون أيديهمُ نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ .

(ى) سخريتهم من فقراء المؤمنين ، لأنهم يتصدقون بالقليل الذى لا يملكون سواه .

قال تعالى : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

(ك) نقضهم للعهود ، وبخلهم بما آتاهم الله من فضله .

قال تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ .

(ل) اتخاذهم مسجداً لهم لا من أجل العبادة ، وإنما من أجل المضارة وإيذاء المسلمين ومحاولة تفريق كلمتهم ، وتشتيت وحدتهم .

قال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضرارًا وكفرًا وتفريقاً بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد تتبعت المنافقين ، فكشفت عن أصنافهم وأوصافهم وأحوالهم .. بصورة تجعل المؤمنين الصادقين يعرفونهم ويحذرونهم .

بعد ذلك اتجهت السورة : فى أواخرها بالحديث إلى المؤمنين الصادقين .

(أ) فذكرتهم بالتعاقد الذى بينهم وبين خالقهم : عز وجل . وبشرتهم برضوانه ومحبته متى وفوا بعهودهم فقال ، تعالى :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(ب) وأعلمتهم بأن إيمانهم يحتم عليهم عدم الاستغفار لمن خالفهم فى الدين مهما بلغت درجة قرابته .

﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾.

(جـ) وأمرتهم بأن يصحبوا رسولهم : ﷺ : فى جهاده للأعداء ، وأن يكابدوا معه الشدائد والأهوال برغبة ونشاط ؛ لأن كل تعب يلحقهم معه مكتوب لهم فى سجل حسناتهم .

﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾.

(د) وأرشدتهم إلى أنه فى حالة عدم خروج النبى ﷺ معهم للجهاد ، عليهم أن يقسموا أنفسهم إلى قسمين : قسم يخرج للجهاد وقسم آخر يبقى مع النبى ﷺ ليتعلم منه العلم ويحفظ عنه ما تجدد من أحكام .

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ :

(هـ) ثم ختم . سبحانه . هذه السورة الكريمة بهاتين الآيتين الدالتين على سابغ رحمته بعباده ، حيث أرسل إليهم رسولا من أنفسهم حريصاً على منفعتهم رحيما بهم ، فقال تعالى :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ .

أما بعد : فهذا عرض إجمالى لما اشتملت عليه سورة التوبة من موضوعات ومن هذا العرض يتبين لنا أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور معينة من أهمها مايأتى :

١ - رسم المنهاج النهائى الذى يجب أن يسير عليه المسلمون فى علاقاتهم مع مشركى العرب ، ومع أهل الكتاب ، ومع المنافقين ، مع بيان الأسباب التى تدعو المسلمين إلى التزام هذا المنهاج .

٢ - كشف الغطاء عن المنافقين وأصنافهم وأوصافهم ، وعما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد ، وعما سلكوه من مسالك خبيثة لمحاربة الدعوة الإسلامية ، ومناوأة أتباعها الصادقين .

وقد أفاضت السورة فى الحديث عن ذلك إفاضة لا توجد فى غيرها من سور القرآن الكريم .

٣ - حددت السورة الكريمة معالم المجتمع الإسلامى بعد أن تم فتح مكة ، وبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا .

فأثنت على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ووعدتهم بالفوز العظيم .

قال تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ .

وحكمت على كل فريق من المتخلفين عن غزوة تبوك من أهل المدينة وما حولها بالحكم الذى يناسبه .

قال تعالى : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾.

وقال تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ﴾.

وقال تعالى : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾.

وهكذا نرى السورة الكريمة قد وضحت الطوائف المتنوعة التى كان المجتمع الإسلامى يتكون منها عند نزولها ، أى : بعد أن تم فتح مكة .

٤ - يؤخذ من الحديث المستفيض الذى ساقته السورة عن المنافقين وصفاتهم وأحوالهم .. أنهم بعد فتح مكة بدأت دولتهم تعود إلى الظهور فى المجتمع الإسلامى بينما كانت قبيل الفتح قد أوشكت على التلاشى والاندثار .

ولعل السبب فى ذلك : أن كثيراً من الناس قد دخل فى الإسلام بعد أن فتحت مكة ، لأسباب دنيوية متنوعة، دون أن يستقر الإيمان بالله فى قلوبهم، وإنما بقيت آثار الجاهلية لها وزنها فى تحريك طباعهم واتجاهاتهم وأفكارهم .

قال بعض العلماء : سياق السورة يرسم صورة كاملة للمجتمع المسلم فى فترة مابعد الفتح ، ويصف تكوينه العضوى ، ومن هذه الصورة يتجلى نوع من الخلخلة وقلة التناسق بين مستوياته الإيمانية ، كما تتكشف ظواهر وأعراض من الشح بالنفس والمال ، ومن النفاق والضعف ، والتردد فى الواجبات والتكاليف ، والخلط وعدم الوضوح فى تصور العلاقات بين

المعسكر الإسلامى والمعسكرات الأخرى ، وعدم المفاضلة الكاملة على أساس العقيدة ، وإن كان هذا كله لا يتعارض مع وجود القاعدة الصلبة الأمينة الخالصة من المهاجرين والأنصار ، مما استدعى حملات مفصلة ومنوعة للكشف والتوعية والبيان والتقرير تفى بحاجة المجتمع إليها .

وإن سبب هذه الحالة هو دخول جماعات كثيرة متنوعة من الناس فى الإسلام بعد الفتح ، لم تتم تربيتها ، ولم تنطبع بعد بالطابع الإسلامى الأصيل[1] .

٥ - عرضت السورة لبيان كثير من الأحكام والإرشادات التى تحتاج إليها الدولة الناشئة ، كحديثها عن مصارف الزكاة ، وعن الجهاد وموجباته ، وعن العهود وأحكامها ، وعن الأشهر الحرم .. إلى غير ذلك من الأحكام .

هذا ، ولعلنا ، بعد هذا التمهيد الذى سقناه بين يدى تفسير سورة التوبة نكون قد أعطينا القارئ الكريم فكرة واضحة عن أسماء هذه السورة ، وعن زمان ومكان نزولها ، وعن السبب فى عدم ذكر البسملة فى أولها ، وعن مقاصدها وموضوعاتها الإجمالية .

والله نسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يجنبنا الزلل والانحراف عن الطريق القويم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

---

(١) راجع تفسير « فى ظلال القرآن » للأستاذ سيد قطب ص ٩٠ وما بعدها . طبعة دار إحياء التراث العربى ببيروت . الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٦ هـ سنة ١٩٦٨ م .

تفسير سورة التوبة

قال تعالى :

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

قال الإمام ابن كثير : أول هذه السورة نزل على رسول الله - ﷺ لما رجع من غزوة « تبوك » وهم بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أميرا على الحج تلك السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى بالناس ﴿ براءة من الله ورسوله .. ﴾ ، فلما قفل أتبعه بعلى ابن أبى طالب ، ليكون مبلغا عنه - ﷺ ليكونه عصبة له[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٣١ طبعة عيسى الحلبى .

وقال محمد بن إسحاق : لما نزلت ﴿ براءة ﴾ على رسول الله - ﷺ - وقد كان بعث أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - ليقيم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله ، لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟ فقال : « لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » .

ثم دعا على بن أبى طالب فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله - ﷺ - عهد فهو له إلى مدته .

فخرج على بن أبى طالب على ناقة رسول الله - ﷺ - « العضباء » حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور . ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية .

حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله . ﷺ . فقال : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله« ﷺ » فهو إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة ، إلا أحد كان له عند رسول الله ، ﷺ ، عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته . فلم يحج بعد العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله . ﷺ[1] .

وقال الفخر الرازى : روى أن النبى ، ﷺ ، لما خرج إلى غزوة تبوك وتخلف المنافقون وأرجفوا الأراجيف ، جعل المشركون ينقضون العهد ، فنبذ رسول الله ، ﷺ . العهد إليهم[2] .

هذه بعض الآثار التى ذكرها المفسرون فى هذا المقام .

وقوله - تعالى - : ﴿ براءة ﴾ مصدر بَرِئَ « كتعب » ، وأصل البراءة : التباعد عن الشىء والتخلص منه . تقول : برئت من هذا الشىء أبرأ براءة فأنا منه برئ ، إذا أزلته عن نفسك ، وقطعت الصلة بينك وبينه . ومنه قولهم : برئت من الدين أى تخلصت منه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ ص ١٩٠ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٥٥ هـ سنة ١٩٣٦ م تحقيق مصطفى السقا .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢١٧ طبعة عبد الرحمن محمد .

ولفظ ﴿ براءة ﴾ مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتنوين فيه للتفخيم و ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية ، والعهد : العقد الموثق باليمين ، والخطاب فى قوله ﴿ عاهدتم ﴾ للمسلمين .

والمعنى : هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين بسبب نقضهم لعهودهم ، وإصرارهم على باطلهم ...

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين ؟ .

قلت : قد أذن الله فى معاهدة المشركين أولا ، فاتفق المسلمون مع رسول الله - ﷺ - وعاهدوهم ، فلما نقضوا العهد أوجب الله - تعالى - النبذ إليهم ، فخوطب المسلمون بما تجدد من ذلك فقيل لهم : اعلموا أن الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين .

وروى أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب ، فنكثوا إلا ناسا منهم ، فنبذ العهد إلى الناكثين ، وأمروا أن يسيحوا فى الأرض أربعة أشهر آمنين .. »[1] .

وقال بعض العلماء : والمعنى أن الله قطع ما بينه وبين المشركين من صلات فلا عهد ولا تعاهد ولا سلم ولا أمان ، وتركهم تعمل فيهم سيوف المؤمنين حتى يقوموهم أو يبيدوهم . ولا يدخل فى هذا التبرى قطع رحمته العامة عنهم التى كتبها على نفسه من جهة أنه الخالق وأنهم المخلوقون ... فهو مع هذا التبرى لايزال من هذه الجهة يرحمهم بمنح الحياة وموارد الرزق ، والتمكين من العمل حسب تقديره العام وسنته الشاملة فى خلقه ولو أن التبرى كان على إطلاقه لما عاش كافر طرفة عين ، ولما استطاع كافر أن يقف فى وجه مسلم .

فالآية تقرر حكما تكليفيا للمسلمين فى شأن معاملة المشركين ..

وإعتبار أن الآية تقرر حكما شرعيا والمشرع هو الله أضيف صدور البراءة إليه - سبحانه - وعطف عليه الرسول - ﷺ - فى هذا المقام ، لأنه هو المبلغ عنه ، والمنفذ لما يبلغه ..

ولما كان التعاهد بين المؤمنين وغيرهم تنفيذا لأمر الله به ، وأصله حق لجماعتهم ، وإنما يقوم الإمام به نائبا عن الجماعة ، أضيف - أى التعاهد - إلى جماعة المسلمين ، فقيل : ﴿ عاهدتم ﴾ .. وكثيراً ما ينسب القرآن الأحكام العامة لجماعة المؤمنين ...

ويؤخذ من تقرير البراءة من المشركين فى هذه الآية جواز نبذ العهود لمن كان بيننا وبينه

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٢ طبعة دار الكتاب العربى ببيروت .

عهد متى رأى الإمام مصلحة الأمة فى ذلك ، كأن خيف منهم خيانة ، أو نقضوا شيئا من شروط المعاهدة ، أو وضعت المعاهدة على غير شرط احترامها الشرعى ، وذلك كله أخذا من هذا المقام ، ومن قوله - تعالى - فى سورة الأنفال : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ .

كما يؤخذ أن عقد المعاهدات إنما هو حق للجماعة ، يوافق عليه أصحاب الرأى والاختصاص فى موضوع المعاهدة ، وما هو فى مصلحة الجماعة ، ثم يباشرها الإمام بعد ذلك نيابة عن الجماعة[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ... ﴾ بيان للمهلة التى منحها - سبحانه - للمشركين ليدبروا فيها أمرهم .

والسياحة فى الأصل : جريان الماء وانبساطه على موجب طبيعته ، ثم استعملت فى الضرب فى الأرض والاتساع فى السير والتجوال . يقال : ساح فلان فى الأرض سيحا وسياحة وسيوحا إذا تنقل بين أرجائها كما يشاء .

والخطاب للمؤمنين على تقدير القول . أى : فقولوا أيها المؤمنون للمشركين سيحوا فى الأرض أربعة أشهر .

ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين أنفسهم على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الحضور ، لقصد تهيئة خطابهم بالوعيد المذكور بعد ذلك فى قوله - سبحانه - ﴿ واعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾ .

والمقصود بالأمر فى قوله : ﴿ فسيحوا ﴾ الإباحة والإعلام بحصول الأمان لهم فى تلك المدة من أن يقتلوا أو يقاتلوا أو يعتدى عليهم ..

والمعنى : قولوا أيها المسلمون للمشركين - بعد هذه البراءة منهم ، سيحوا فى الأرض ، أى : سيروا فيها مقبلين ومدبرين حيث شئتم وأنتم آمنون فى هذه المدة .

وفى التعبير بقوله ﴿ فسيحوا ﴾ من الدلالة على كمال التوسعة ، ما ليس فى قوله ﴿ سيروا ﴾ أو مايشبهه ، لأن لفظ السياحة يدل على الاتساع فى السير والبعد عن المدن وعن موضع العمارة .

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٦١٢ لفضيلة الإمام الأكبر محمود شلتوت .

والحكمة فى إعطائهم هذه المدة تمكينهم من النظر والتدبر فى أمر أنفسهم حتى يختاروا ما فيه مصلحتهم ، ويعلموا أنهم ليس أمامهم بعد هذه المدة إلا الإسلام أو السيف ، ولكى لا ينسب إلى المسلمين الغدر ونبذ العهد دون إعلام أو إنذار .

وهذا من سمو تعاليم الإسلام . تلك التعاليم التى لم تبح لأتباعها أن يأخذوا أعدى أعدائهم على غرة ، بل منحت هؤلاء الأعداء مهلة كافية يدبرون فيها أمر أنفسهم وهم آمنون من أن يتعرض لهم أحد من المسلمين بأذى .

ومتى كان ذلك ؟ كان ذلك فى الوقت الذى نقض فيه المشركون عهودهم عند أول بادرة لاحت لهم ، وفى الوقت الذى أرجف فيه المرجفون أن المسلمين لن يعودوا من تبوك سالمين ، بل إن الروم سيأخذونهم أسرى ، وفى الوقت الذى كانت المجتمعات فيه يغزو بعضها بعضا بدون إنذار أو إعلام ...

فإن قيل : وما الحكمة فى تقدير هذه المهلة بأربعة أشهر ؟

فالجواب - كما يقول الجمل - اقتصر على الأربعة - هنا لقوة المسلمين إذ ذاك ، بخلاف صلح الحديبية فإنه كان لمدة عشر سنين لضعف المسلمين إذ ذاك ، والحاصل أن المقرر فى الفروع أنه إذا كان بالمسلمين ضعف جاز عقد الهدنة عشر سنين فأقل ، وإذا لم يكن بهم ضعف لم تجز الزيادة على أربعة أشهر[1] .

وقال بعض العلماء : ولعل الحكمة فى تقدير تلك المدة بأربعة أشهر ، أنها هى المدة التى كانت تكفى - إذ ذاك بحسب ما يألفون - لتحقيق ما أبيح لهم من السياحة فى الأرض ، والتقلب فى شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه فى تكوين الرأى الأخير ، وفيه فوق ذلك مسايرة للوضع الإلهى فى جعل الأشهر الحرم من شهور السنة أربعة .

على أنا نجد فى القرآن جعل الأربعة الأشهر أمدا فى غير هذا فمدة إيلاء الرجل من زوجه أربعة أشهر - وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر .

ولعل ذلك - وراء ما يعلم الله - أنها المدة التى تكفى بحسب طبيعة الإنسان لتقليب وجوه النظر فيما يحتاج إلى النظر ، وتبدل الأحوال على وجه تستقر فيه إلى ما يقصد فيه .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٣ . طبعة عيسى الحلبى .

ويؤخذ من تقرير الهدنة للأعداء فى هذا المقام تقرر مبدأ الهدنة والصلح فى الإسلام ، طلبها العدو أم تقدم بها المسلمون ، وأصل ذلك مع هدنة المشركين هذه قوله - تعالى - فى سورة الأنفال .. ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ وأن مدتها تكون على حسب ما يرى الإمام وأرباب الشورى المقررة فى قوله - تعالى - ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾[1] .

وقد اختلف المفسرون فى ابتداء هذه الأشهر الأربعة فقال مجاهد والسدى وغيرهما : كان ابتداء هذه الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر من السنة التاسعة ونهايتها فى العاشر من شهر ربيع الآخر من السنة العاشرة ، وذلك لأن المشركين قد أعلموا بهذه المهلة يوم النحر من السنة التاسعة على لسان على بن أبى طالب - كما سبق أن بينا .

وقيل كان ابتداء هذه الأشهر الأربعة يوم النحر لعشر من ذى القعدة من السنة التاسعة ونهايتها فى اليوم العاشر من شهر ربيع الأول من السنة العاشرة ، وذلك لأن الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت بسبب النسىء الذى ابتدعه المشركون .

والرأى الأول أرجح وعليه الأكثرون ، لأن معظم الآثار تؤيده . وكذلك اختلف المفسرون اختلافا كبيرا فيمن تنطبق عليهم هذه المهلة ، فقال مجاهد : هذا تأجيل للمشركين مطلقاً ، فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفع إليها ، ومن كانت أكثر حط إليها ، ومن كان عهده بغير أجل حد بها . ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله ، يقتل حيث أدرك ، ويؤسر ، إلا أن يتوب ويؤمن[2] .

وقال آخرون : كانت هذه الأربعة الأشهر مهلة لمن له عهد دون الأربعة الأشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كانت هذه المدة لقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾ .

وهذا القول قد اختاره ابن جرير وغيره ، فقد قال ابن جرير - بعد أن ذكر عدة أقوال فى ذلك :

« وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : الأجل الذى جعله الله إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله - ﷺ - ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته ، فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ، ولم يظاهروا عليه ، فإن الله - تعالى - أمر نبيه - ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ ، ثم قال : وبعد ففى

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٦١٦ لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت . طبعة دار القلم . الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٣ .

الأخبار المتظاهرة عن رسول الله - ﷺ - أنه حين بعث عليا ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم أمره فيما أمره أن ينادى به فيهم « ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته » . وهو أوضح دليل على صحة ما قلنا .

وذلك أن الله لم يأمر نبيه - ﷺ بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل ، فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه ، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل ، أو كان له عهد إلى أجل غير محدود ، فأما من كان أجل عهده محدودا ، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلا ، فإن رسول الله - ﷺ - كان بإتمام عهده إلى غاية أجله مأمورا ، وبذلك بعث مناديه فى أهل الموسم من العرب .. »[1] .

والذى يبدو لنا بعد مراجعة الأقوال المتعددة فى شأن من تنطبق عليهم هذه المهلة من المشركين - أن ما اختاره ابن جرير هو خير الأقوال وأقواها ، لأن النصوص من الكتاب والسنة تؤيده .

ومن أراد معرفة هذه الأقوال بالتفصيل فليراجع ما كتبه المفسرون فى ذلك .

ثم بين - سبحانه - أن هذا الإمهال للمشركين لن ينجيهم من إنزال العقوبة بهم متى استمروا على كفرهم فقال - تعالى - : ﴿واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين ﴾ .

أى : واعلموا - أيها المشركون - أنكم بسياحتكم فى الأرض خلال تلك المهلة لن تعجزوا الله - تعالى - فى طلبكم ، فأنتم حيثما كنتم تحت سلطانه وقدرته ، واعلموا كذلك أنه - سبحانه - مذل للكافرين ، فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالعذاب المهين .

فالآية الكريمة قد ذيلت بما يزلزل قلوب المشركين بالحقيقة الواقعة ، وهى أن ذلك الإمهال لهم ، وتلك السياحة فى الأرض منهم ، كل هذا لن يجعلهم فى مأمن من عقاب الله ، ومن إنزال الهزيمة بهم ، لأنهم فى قبضته .

ومهما أعدوا خلال تلك المهلة من عَدد وعُدد لقتال المؤمنين ، فإن ذلك لن ينفعهم ، لأن سنته - سبحانه - قد اقتضت أن يجعل النصر والفوز للمؤمنين والخزى والسوء على الكافرين .

قال الفخر الرازى ما ملخصه ، وقوله : ﴿ واعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾ . المقصود منه : أنى أمهلتكم - أيها المشركون - وأطلقت لكم السياحة فى الأرض - فافعلوا كل ما

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٦٢ طبعة مصطفى الحلبى الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣ .

أمكنكم فعله من إعداد الآلات والأدوات ، فإنكم لا تعجزون الله بل الله هو الذى يعجزكم ، لأنكم حيث كنتم فأنتم فى ملكه وتحت سلطانه ..[١] .

ثم بين – سبحانه – بعد ذلك الموعد الذى تعلن فيه هذه البراءة من المشركين حتى لا يكون لهم عذر بعد هذا الإعلان فقال – تعالى – :

﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ... ﴾ .

الأذان : الإعلام تقول : آذنته بالشىء إذا أعلمته به . ومنه الأذان للصلاة أى الإعلام بحلول وقتها . وهو بمعنى الإيذان كما أن العطاء بمعنى الإعطاء .

قال الجمل : وهو مرفوع بالابتداء . و ﴿ من الله ﴾ إما صفته أو متعلق به ﴿ إلى الناس ﴾ الخبر ، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف . أى : وهذه ، أى : الآيات الآتى ذكرها إعلام من الله ورسوله ...[٢] .

والمعنى : وهذه الآيات إيذان وإعلان من الله ورسوله إلى الناس عامة يوم الحج الأكبر بأن الله ورسوله قد برئا من عهود المشركين ، وأن هذه العهود قد نبذت إليهم ، بسبب إصرارهم على شركهم ونقضهم لمواثيقهم .

وأسند – سبحانه – الأذان إلى الله ورسوله ، كما أسندت البراءة إليهما ، إعلاء لشأنه وتأكيدا لأمره :

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية ؟ قلت : تلك إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت .

فإن قلت : لم علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس ؟ قلت : لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم وأما الأذان فعام لجميع الناس «من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث[٣] » .

واختير يوم الحج الأكبر لهذا الإعلام ، لأنه اليوم الذى يضم أكبر عدد من الناس يمكن أن يذاع الخبر عن طريقهم فى جميع أنحاء البلاد .

وأصح ما قيل فى يوم الحج الأكبر أنه يوم النحر . وقيل : هو يوم عرفة ، وقيل : هو جميع أيام الحج .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٢٠ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٥ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٤ .

وقد رجح ابن جرير - بعد أن بسط الأقوال فى ذلك - أن المراد بيوم الحج الأكبر : يوم النحر فقال . وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة عندنا : قول من قال : يوم الحج الأكبر ، يوم النحر ، لتظاهر الأخبار عن جماعة من الصحابة أن علياً نادى بما أرسله به رسول الله - ﷺ - إلى المشركين يوم النحر ، هذا مع الأخبار التى ذكرناها عن رسول الله - ﷺ - أنه قال يوم النحر : « أتدرون أى يوم هذا ؟ هذا يوم الحج الأكبر[١] » .

وقال بعض العلماء : قال ابن القيم : والصواب أن المراد بيوم الحج الأكبر يوم النحر ، لأنه ثبت فى الصحيحين أن أبا بكر وعليا أذنا بذلك يوم النحر لا يوم عرفة . وفى سنن أبى داود بأصح إسناد أن رسول الله - ﷺ - قال : «يوم الحج الأكبر يوم النحر»، وكذا قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة .

ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه ، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة .. ويكون فيه ذبح القرابين ، وحلق الرءوس ، ورمى الجمار ، ومعظم أفعال الحج[٢] .

وقد ساق ابن كثير جملة من الأحاديث التى حكت ما كان ينادى به على بن أبى طالب والناس يوم الحج الأكبر ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن محرز بن أبى هريرة عن أبيه قال : كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه النبى - ﷺ - ينادى ، فكان إذا صحل ناديت - أى كان إذا بح صوته وتعب من كثرة النداء ناديت - قلت : بأى شىء كنتم تنادون ؟ قال : بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، ومن كان له عهد عند رسول الله - ﷺ - فعهده إلى مدته[٣] .

وسمى يوم النحر بالحج الأكبر ، لأن العمرة كانت تسمى بالحج الأصغر ولأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج - كما قال ابن القيم .

هذا ، وللعلماء أقوال فى إعراب لفظ ﴿ ورسوله ﴾ من قوله - تعالى - ﴿ أن الله برئ من المشركين ورسوله ﴾ . وقد لخص الشيخ الجمل هذه الأقوال تلخيصا حسنا فقال : قوله ﴿ ورسوله ﴾ بالرفع باتفاق السبعة وقرئ شاذا بالجر على المجاورة . أو على أن الواو للقسم وقرئ شاذا أيضاً بالنصب على أنه مفعول معه ، أو معطوف على لفظ الجلالة ، وفى الرفع ثلاثة

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ من ص ٦٧ إلى ص ٧٦ .

(٢) تفسير القاسمى - بتصرف يسير - جـ ٨ ص ٢٠٦٨ . طبعة عيسى الحلبى الطبعة الأولى سنة ١٣٧٧ هـ - سنة ١٩٥٨ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٣٣ .

وجوه: أحدها أنه مبتدأ والخبر محذوف أى: ورسوله برىء منهم، وإنما حذف للدلالة عليه. والثانى أنه معطوف على الضمير المستتر فى الخبر ... والثالث: أنه معطوف على محل اسم أن[1].. » .

ثم أردف -سبحانه- هذا الإعلام بالبراءة من عهود المشركين بترغيبهم فى الإيمان وتحذيرهم من الكفر والعصيان فقال: ﴿ فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ .

أى : فإن تبتم أيها المشركون من كفركم ، ورجعتم إلى الإيمان بالله وحده واتبعتم ما جاءكم به محمد - ﷺ - فهو أى المتاب والرجوع إلى الحق ﴿ خير لكم ﴾ من التمادى فى الكفر والضلال : ﴿ وإن توليتم ﴾ وأعرضتم عن الإيمان ، وأبيتم إلا الإقامة على باطلكم ﴿ فاعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾ أى : فأيقنوا أنكم لا مهرب لكم من عقاب الله ، ولا إفلات لكم من أخذه وبطشه ، لأنكم أينما كنتم فأنتم فى قبضته وتحت قدرته .

وقوله : ﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ تذييل قصد به تأكيد زجرهم عن التولى والإعراض عن الحق .

أى : وبشر - يا محمد - هؤلاء الذين كفروا بالحق لما جاءهم بالعذاب الأليم فى الآخرة بعد إنزال الخزى والمذلة بهم فى الدنيا .

ولفظ البشارة ورد هنا على سبيل الاستهزاء بهم ، كما يقال : تحيتهم الضرب ، وإكرامهم الشتم .

وقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾ استثناء من المشركين فى قوله : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ .

والمعنى : اعلموا . أيها المؤمنون أن الله ورسوله بريئان من عهود المشركين بسبب نقضهم لها ، لكن الذين عاهدتموهم منهم ولم ينقضوا عهودهم ، ولم ينقصوكم شيئاً من شروط العهد ، ولم يعاونوا عليكم أحدا من الأعداء، فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ولا تعاملوهم معاملة الناكثين .

فالآية الكريمة تدل على أن المراد بالمشركين الذين تبرأ الله ورسوله منهم وأعطوا مهلة الأربعة الأشهر ، هم أولئك الذين عرفوا بنقض العهود .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٤ .

أما الذين عاهدوا ووفوا بعهودهم ، فإن هؤلاء يجب إتمام عهدهم إلى مدتهم وفاء بوفاء ، وكرامة بكرامة .

وعبر - سبحانه - بثم فى قوله : ﴿ ثم لم ينقصوكم شيئاً ﴾ للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة وتطاولها .

وقراءة الجمهور ﴿ ينقصوكم ﴾ بالصاد المهملة ، وعليها يجوز أن يتعدى لواحد فيكون شيئاً منصوباً على المصدرية أى : لم ينقصوكم شيئا من النقصان لا قليلا ولا كثيرا ، ويجوز أن يتعدى لاثنين فيكون شيئا مفعوله الثانى ، أى : لم ينقصوكم شيئا من شروط العهد بل أدوها بتمامها .

وقرأ عطاء بن السائب الكوفى وعكرمة وأبو زيد ﴿ ثم لم ينقضوكم ﴾ بالضاد المعجمة وهى على حذف مضاف أى : ثم لم ينقضوا عهدكم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

وفى تنكير كلمة « شيئا » وكلمة « أحدا » دلالة على أن انتقاص المعاهدة ولو شيئا يسيرا ، وأن معاونة الأعداء بأى وسيلة مهما قلت ... كل ذلك مبيح لنبذ العهد ، لأن الخيانة الصغيرة كثيرا ما تؤدى إلى الخيانة الكبيرة .

قالوا : والمراد بهؤلاء الذين أمر المسلمون بإتمام عهدهم معهم : بنو ضمرة وبنو مدلج وهم من قبائل بنى بكر وكان قد بقى من عهدهم تسعة أشهر ، ولم ينقضوا مواثيقهم .

وقوله ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ تذييل قصد به التعليل لوجوب الامتثال ، والتنبيه على أن الوفاء بالعهد إلى نهايته مع الموفين بعهدهم من تقوى الله التى يحبها لعباده ويحبهم بسببها .

قال صاحب المنار : والآية تدل على أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام مادام العهد معقودا ، وعلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته وأن شرط وجوب الوفاء به علينا محافظة العدو المعاهد لنا عليه بحذافيره .

فإن نقص شيئاً ما من شروط العهد ، وأخل بغرض ما من إغراضه عد ناقضاً ، لقوله - تعالى - ﴿ ثم لم ينقصوكم شيئاً ﴾ ، ولفظ شىء أعم الألفاظ وهو نكرة فى سياق النفى فيصدق بأدنى إخلال بالعهد .

ومن الضرورى أن من شروطه التى ينتقض بالإخلال بها ، عدم مظاهرة أحد من أعدائنا وخصومنا علينا ، وقد صرح بهذا للاهتمام به ، وإلا فهو يدخل فى عموم ما قبله ، وذلك أن الغرض الأول من المعاهدات ترك قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر ، فمظاهرة أحدهما لعدو الآخر ، أى معاونته ومساعدته على قتاله وما يتعلق به ، كمباشرته للقتال بنفسه .

يقال : ظاهره إذا عاونه ، وظاهره عليه إذا ساعده عليه ، وتظاهروا عليهم تعاونوا وكله من الظهر الذى يعبر به عن القوة ، ومنه بعير ظهير أى قوى »[١] .

وقال بعض العلماء : ويؤخذ من هذا أن الإسلام يقرر فى حالة نبذ العهود لزوم إعلان العدو بذلك النبذ ، على وجه يمكن العدو من إيصال خبر النبذ إلى أطراف بلده وأنحاء مملكته .

وفى ذلك يقول الكمال بن الهمام الفقيه الحنفى ، وهو بصدد قوله ، تعالى . ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ أنه لا يكفى مجرد إعلانهم ، بل لابد من مضى مدة يتمكن فيها مَلِكُهم بعد علمه بالنبذ من إنفاذ الخبر إلى أطراف مملكته ، ولا يجوز للمسلمين أن يغيروا على شىء من أطرافهم قبل مضى المدة .

وذلك كله أثر من آثار وجوب رعاية العهد والبعد عن النكث بكل ما يستطاع[٢] .

وبعد أن قررت السورة الكريمة براءة الله ورسوله من عهود المشركين الخائنين ، وأمرت بالوفاء لمن وفى بعهده منهم .. بعد كل ذلك أخذت فى بيان كيفية معاملة المشركين بعد انتهاء المهلة الممنوحة لهم فقال - تعالى - :

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

وقوله : ﴿ انسلخ ﴾ من السلخ بمعنى الكشط ، يقال : سلخ الإهاب عن الشاة يسلخه ويسلخه سلخاً إذا كشطه ونزعه عنها . أو بمعنى الإخراج من قولهم : سلخت الشاة عن الإهاب إذا أخرجتها منه ، ثم استعير للانقضاء والانتهاء فانسلاخ الأشهر إستعارة لانقضائها والخروج منها .

قال الآلوسى : والانسلاخ فيما نحن فيه استعارة حسنة ؛ وذلك أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد على الحيوان ، وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة كالأيام والشهور والسنين ، فإذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه ، وفى ذلك مزيد لطف لما فيه من التلويح

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٨٤ .

(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٦١٨ لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

بأن تلك الأشهر كانت حرزاً لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدى المسلمين فنيط قتالهم بزوالها »[١] .

والمراد بالأشهر الحرم : أشهر الأمان الأربعة التى سبق ذكرها فى قوله ، تعالى ، ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ﴾ ، وعليه فتكون أل فى قوله ﴿ الأشهر الحرم ﴾ للعهد الذكرى .

وسميت حرما لأنه . سبحانه . جعلها فترة أمان للمشركين ، ونهى المؤمنين عن التعرض لهم فيها .

ووضع – سبحانه – المظهر موضع المضمر حيث لم يقل فإذا انسخلت ، ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمة ، تأكيداً لما ينبئ عنه إباحة السياحة من حرمة التعرض لهم ، مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها .

وقيل المراد بالأشهر الحرم هنا : الأشهر المعروفة وهى رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، روى ذلك عن ابن عباس والضحاك والباقر واختاره ابن جرير .

قال ابن كثير : وفيه نظر ، والذى يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه وبه قال مجاهد ، وعمرو بن شعيب ، وابن إسحاق ، وقتادة والسدى وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر التيسير الأربعة المنصوص عليها بقوله: ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ﴾ ، ثم قال ﴿ فإذا أنسلخ الأشهر الحرم ﴾ أى : إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمنا عليكم فيها قتالهم ، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ، لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر ، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى وهى قوله – تعالى – ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ... ﴾[٢] .

والمراد بالمشركين فى قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أولئك الخائنون الذين انتهت مدة الأمان لهم ، أما الذين لم يخونوا ولهم عهود مؤقتة بمدة معينة فلا يحل للمسلمين قتالهم ، إلا بعد انتهاء هذه المدة ، كما سبق أن بينا قبل قليل تفسير قوله – تعالى – : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ... ﴾ .

والمعنى : فإذا انتهت هذه الأشهر الأربعة التى جعلها الله مهلة للخائنين ، فاقتلوا – أيها المؤمنون – أعداءكم المشركين ﴿ حيث وجدتموهم ﴾ أى : فى أى مكان تجدونهم فيه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٤٤ . طبعة منير الدمشقى .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٣٥ – بتصرف يسير – .

﴿ وخذوهم ﴾ وهو كناية عن الأسر ، وكانت العرب تعبر عن الأسير بالأخيذ ، ﴿ واحصروهم ﴾ أى : وامنعوهم من الخروج إذا كانت مصلحتكم فى ذلك ﴿ واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ والمرصد الموضع الذى يقعد فيه للعدو لمراقبته ، يقال : رصدت الشىء أرصده رَصْدا ورَصَدا إذا ترقبته .

والمعنى : واقعدوا لهم فى كل موضع يجتازون منه فى أسفارهم ، حتى تسد السبل فى وجوههم ، وتضعف شوكتهم ، وتذهب ريحهم ، فيستسلموا لكم .

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يرى أن هذه الوسائل الأربع - القتل والأسر والمحاصرة والمراقبة - هى الوسائل الكفيلة بالقضاء على الأعداء ، ولا يخلو عصر من العصور من استعمال بعضها أو كلها عند المهاجمة .

وهكذا نرى تعاليم الإسلام تحض المسلمين على استعمال كل الوسائل المشروعة لكيد أعدائهم ، والعمل على هزيمتهم .. ، مادام هؤلاء الأعداء مستمرين فى طغيانهم وعدوانهم وانتهاكهم لحدود الله - تعالى - .

أما إذا فتحوا قلوبهم للحق واستجابوا له ، فإن الآية الكريمة ترفع عنهم السيف ، وتأمر المؤمنين بإخلاء سبيلهم .

استمع إلى بقيتها حيث تقول: ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

أى : عليكم - أيها المؤمنون - إذا ما انتهت أشهر الأمان الأربعة أن تقتلوا المشركين الناكثين لعهودهم أينما وجدتموهم وأن تأسروهم وتحبسوهم وتراقبوهم على كل طريق حتى تضعف شوكتهم فينقادوا لكم .. ﴿ فإن تابوا ﴾ عن الشرك بأن دخلوا فى الإسلام فاتركوا التعرض لهم ، وكفوا عن قتالهم ، وافتحوا المسالك والطرق فى وجوههم .

واكتفى - سبحانه - بذكر الصلاة والزكاة عن ذكر بقية العبادات ، لكونهما الأساسين للعبادات البدنية والمالية .

وقوله : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ تذييل قصد به التعليل لوجوب إخلاء سبيلهم أى ، إن فعلوا ذلك فخلوا سبيلهم ، ولا تعاملوهم بما كان منهم من شرك ، فإن الإسلام يَجُب ما قبله ، وإن الله قد غفر لهم ما سلف من الكفر والغدر بفضله ورحمته .

قال الإمام ابن كثير : وقد اعتمد الصديق - رضى الله عنه - فى قتال ما نعى الزكاة على هذه الآية وأمثالها ، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهى الدخول فى الإسلام والقيام بأداء واجباته ، ونبه بأعلاها على أدناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التى

هى حق الله - تعالى - وبعدها الزكاة التى هى نفع متعد إلى الفقراء ، وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيرا ما يقرن الله الصلاة والزكاة .

وقد جاء فى الصحيحين عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» .

وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم » ورواه البخارى وغيره .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ثم قال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه[1] .

وبذلك ترى هذه الآية قد جمعت فى إرشادها بين الترغيب والترهيب ؛ فقد أمرت المؤمنين بأن يستعملوا مع أعدائهم كل الوسائل المشروعة لإرهابهم ثم أمرتهم فى الوقت نفسه بإخلاء سبيلهم متى تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ..

وبعد أن بين - سبحانه - حكم المصرين على الشرك وهو قتالهم وأخذهم ، وحكم الراجعين عنه وهو إخلاء سبيلهم . بعد ذلك بين - سبحانه - حكم المشركين الذين يطلبون الأمان لمعرفة شرائع الإسلام فقال - تعالى - :

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

وقوله : استجارك ، أى ، طلب جوارك وحمايتك من الاعتداء عليه ، وقد كان من الأخلاق الحميدة المتعارف عليها حماية الجار والدفاع عنه ، حتى سمى النصير جارا ، وعلى هذا المعنى جاء قوله . تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم[2] ﴾ أى : نصير لكم .

و ﴿ إن ﴾ شرطية و ﴿ أحد ﴾ مرفوع بفعل مضمر يفسره الفعل الظاهر وهو

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٥ . بتصرف وتلخيص .
(٢) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

﴿ استجارك ﴾ والمعنى : وإن استأمنك - يامحمد - أحد من المشركين ، وطلب جوارك وحمايتك بعد انقضاء مدة الأمان المحددة له ، ﴿ فأجره ﴾ أى : فأمنه وأجبه إلى طلبه ، ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ أى : لكى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة ما تدعو إليه من تعاليم مقنعة للعقول السليمة بأن الشرك ظلم عظيم .. •

واقتصر على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شىء آخر فى الفهم ، لأنهم من أهل الفصاحة والبلاغة ، وقد كان سماع بعضهم لشىء من كلام الله سببا فى هدايته .

وقوله : ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ بيان لما يجب على المسلمين نحو هذا المشرك المستجير إذا ما استمع إلى كلام الله ثم بقى على شركه .

أى : عليك - يا محمد - أن تجيره حتى يسمع كلام الله ويتدبره ولا يبقى له عذر فى الاصرار على شركه ، فإن آمن بعد سماعه صار من أتباعك ، وإن بقى على شركه وأراد الرجوع إلى جماعته ، فعليك أن تحافظ عليه حتى يصل إلى مكان أمنه واستقراره ، وهو ديار قومه : ثم بعد ذلك يصبح حكمه كحكم المصرين على الشرك ، ويعامل بما يعاملون به .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ يعود إلى الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن .

أى : ذلك الذى أمرناك به من إجارة المستجير من المشركين وإبلاغه مأمنه إذا لم يسلم ، بسبب أنهم قوم لا يعلمون الإسلام ولا حقيقة ما تدعوهم إليه أى قوم يحتاجون إلى فترة من الوقت يسمعون كلام الله فيها وهم آمنون ، وبهذا السماع منك ومن أصحابك لا يبقى لهم عذر أصلا فى استمرارهم على الباطل .

عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من المشركين إلى على بن أبى طالب فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتى إلى محمد - ﷺ - بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أولحاجة: قتل؟ فقال له على:لا ، لأن الله يقول ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ الآية[1] .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من الآية مايأتى :

١ - أن المستأمن لا يؤذى ، بل يجب على المسلمين حمايته فى نفسه وماله وعرضه مادام فى دار الإسلام ، وقد حذر الإسلام أتباعه من الغدر أشد تحذير ، ومن ذلك ما رواه البخارى والنسائى عن النبى ﷺ أنه قال : « من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا برئ من القاتل وإن كان المقتول كافرا » .

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٨ .

وروى الشيخان وأحمد عن أنس قال : قال رسول الله – ﷺ – « لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة[١] » .

٢ – يلحق بالمستجير الطالب لسماع كلام الله ؛ من كان طالبا لسماع الأدلة على كون الإسلام حقا ، ومن كان طالبا للجواب على الشبهات التى أثارها أعداء الإسلام ، لأن هؤلاء وأمثالهم يطرقون باب الفهم والمعرفة ويبحثون عن الحق فعلينا أن نحميهم ، وأن نبذل أقصى الجهود فى تعليمهم وإرشادهم وإزالة الشبهات عنهم ، لعل الله أن يشرح صدورهم للاسلام بسبب هذا التعليم والإرشاد .

قال ابن كثير : كان رسول الله – ﷺ – يعطى الأمان لمن جاءه مسترشدا أو فى رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ، ومكرز بن حفص ، وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدا بعد واحد ، يترددون فى القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين لرسولهم – ﷺ – ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر ، فرجعوا إلى قومهم ، وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم[٢] .

٣ – على الإمام أو من يقوم مقامه أن يعطى المستأمن المهلة التى يراها كافية لفهمه حقائق الاسلام وأن يبلغه مأمنه بعد انقضاء حاجته ، وأن لا يمكنه من الإقامة فى دار الاسلام إلا بمقدار قضاء حاجته .

قال الامام الرازى : ليس فى الآية ما يدل على أن مقدار هذه المهلة كم يكون ، ولعله لا يعرف مقدارها إلا بالعرف ، فمتى ظهر على المشرك علامات كونه طالبا للحق باحثا عن وجه الاستدلال أمهل وترك ومتى ظهر عليه كونه معرضا عن الحق دافعا للزمان بالأكاذيب لم يلتفت اليه[٣] .

٤ – أخذ العلماء من هذه الآية وجوب التفقه فى الدين ، وعدم الاكتفاء بالظنون والتقليد للغير ، وقد وضح الإمام الرازى هذا المعنى فقال :

دلت الآية على أن التقليد غير كاف فى الدين ، وأنه لابد من النظر والاستدلال ، وذلك لأنه لو كان التقليد كافيا ، لوجب أن لا يمهل هذا الكافر ، بل يقال له : إما أن تؤمن وإما أن نقتلك . فلما لم يقل له ذلك – بل أمهل وأزيل الخوف عنه ووجب تبليغه مأمنه – علم أن ذلك لأجل عدم كفاية التقليد فى الدين ، وأنه لابد من الحجة والدليل : فلذا أمهل ليحل له النظر والاستدلال »[٤] .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٠٧٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٣٧ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٢٧ .
(٤) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٢٧ .

٥ - تكلم العلماء عمن له حق إعطاء الأمان للمستأمن فقال القرطبى : « ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز ؛ لأنه مقدم النظر والمصلحة . نائب عن الجميع فى جلب المصالح ودفع المضار . واختلفوا فى أمان غير الخليفة ، فالحر يمضى أمانه عند كافة العلماء . وأما العبد فله الأمان فى مشهور مذهب المالكية وبه قال الشافعى وأحمد .

وقال أبو حنيفة : لا أمان له . والأول اصح لقوله - ﷺ - « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم » .

قالوا : فلما قال « أدناهم » جاز أمان العبد ...[١] .

وقال بعض العلماء: هذه الآية كانت أصلا عندالفقهاء فى إباحة تأمين المشرك، وقد توسع الإسلام فى باب الأمان فقرر به عصمة المستأمن ، وأوجب على المسلمين حمايته مادام فى دار الإسلام ، وجعل للمسلمين حق إعطاء ذلك الأمان ، ولم يشترط فى ذلك إلا ما يضمن على المسلمين سلامتهم ، بأن لا تظهر على المستأمن مظاهر الركون إلى التجسس على المسلمين .

ولا ينسى الإسلام - وهو يعطى هذا الحق للافراد - حق الإمام المهيمن على شئون المسلمين ، بل جعل له بمقتضى هيمنته العامة ، وتقديره لوجوه المصلحة ، حق إبطال أى أمان لم يصادف محله ، أو لم يستوف شروطه ، كما له أن ينتزع ذلك الحق من الأفراد متى رأى المصلحة فى ذلك .

والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجارى والصناعى والثقافى ، وفى سائر الشئون ما لم يتصل شيء منها بضرر الدولة [٢] .

٦ - هذه الآية الكريمة تشهد بسمو تعاليم الاسلام وسماحتها وحرصها على هداية الناس الى الحق ، وعلى صيانة دمائهم وأموالهم وأعراضهم من العدوان عليها .. حتى ولو كان هؤلاء الناس من أعداء الإسلام .

وقد بسط هذا المعنى بعض العلماء فقال ما ملخصه : إن هذه الآية تعنى أن الإسلام حريص على كل قلب بشرى أن يهتدى وأن يتوب ، وأن المشركين الذين يطلبون الجوار والأمان فى دار الإسلام يجب أن يعطوا الجوار والأمان ذلك أنه فى هذه الحالة آمن حربهم وتجمعهم وتألبهم عليه ، فلا ضير إذن من إعطائهم فرصة سماع القرآن ومعرفة هذا الدين ، لعل قلوبهم أن تتفتح وتستجيب وحتى إذا لم تستجب فقد أوجب الله لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون فيه على أنفسهم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٨٦ .
(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٦٢٢ لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

ولقد كانت قمة عالية تلك الإجارة والأمان لهم فى دار الاسلام .. ولكن قمة القمم هذه الحراسة للمشرك - عدو الإسلام والمسلمين - حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار السلام .

إنه منهج الهداية لا منهج الابادة ، حتى وهو يتصدى لتأمين قاعدة الإسلام .

إن هذا ا لدين إعلام لمن لا يعلمون ، وإجارة لمن يستجيرون ، حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه ..[٢] .

وبعد أن صرحت السورة الكريمة ببراءة الله ورسوله من عهود المشركين الخائنين ، وأمرت المؤمنين بإعطائهم مهلة يسيحون فيها فى الأرض ، ويتدبرون خلالها أمرهم ، ثم بعد ذلك على المؤمنين أن يقتلوهم حيث وجدوهم ، وأن يستعملوا معهم كل الوسائل المشروعة لإذلالهم ، وأن يؤمنوا المشرك الذى يريد أن يسمع كلام الله ، وأن يحافظوا عليه حتى يصل الى مكان استقراره . .

بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى بيان الاسباب التى أوجبت البراءة من عهود المشركين ، والحِكَم التى من أجلها أمر الله بقتالهم والتضييق عليهم فقال - تعالى - :

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ

(١) راجع تفسير (فى ظلال القرآن) جـ ١ ص ١٤٢ للأستاذ سيد قطب .

فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ﴾ الاستفهام فيه للانكار والاستبعاد لأن يكون للمشركين عهد . وهو إنكار للوقوع لا للواقع . أى ؛ تحذير للمؤمنين من أن يقع منهم ذلك فى المستقبل .

والمراد بالمشركين أولئك الذين نقضوا عهودهم ، لأن البراءة إنما هى فى شأنهم .

والعهد : ما يتفق شخصان أو طائفتان من الناس على التزامه بينهما ، فإن أكداه ووثقاه بما يقتضى زيادة العناية بالوفاء به سمى ميثاقا ، لا شتقاقه من الوثاق - بفتح الواو - وهو الحبل أو القيد . وإن أكداه باليمين خاصة سمى يمينا .

وسمى بذلك لوضع كل من المتعاقدين يمينه فى يمين الآخر عند عقده .

والمعنى : لا ينبغى ولا يجوز أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله لأن هؤلاء المشركين لا يدينون لله بالعبودية ، ولا لرسوله بالطاعة ، ولأنهم قوم دأبهم الخيانة . وعادتهم الغدر ، ومن كان كذلك لا يكون له عهد عند الله ولا عند رسوله .

قالوا : وفى توجيه الإنكار إلى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ما ليس فى توجيهه إلى ثبوته ، لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال، فإذا انتفت جميع أحوال وجوده ، فقد انتفى وجوده بالطريق البرهانى. وتكرير كلمة ﴿ عند ﴾ للايذان بعدم الاعتداد بعهودهم عند كل من الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - على حدة .

و ﴿ يكون ﴾ من الكون التام و﴿ كيف ﴾ محلها النصب على التشبيه بالحال أو الظرف . أو من الكون الناقص فيكون قوله ﴿ عهد ﴾ اسمها ، وقوله ﴿ كيف ﴾ خبرها وهو واجب التقديم ، لأن الاستفهام له صدر الكلام[1] .

وقوله : ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم .. ﴾ استثناء من المشركين الذين استنكرت الآية أن تكون لهم عهود عند الله وعند رسوله .

---

(١) تفسير الآلوسى . بتصرف وتلخيص . جـ ١٠ ص ٤٩ .

والمراد بالمشركين الذين استثنوا هنا : أولئك الذين سبق الحديث عنهم فى قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم.. ﴾ .

وهم - كما رجحه ابن جرير والخازن - بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة من قبائل بنى بكر ، وكانوا قد وفوا بعهودهم مع المسلمين[1] .

وأعيد ذكر استثنائهم هنا ، لتأكيد هذا الحكم وتقريره .

والمراد بالمسجد الحرام : جميع الحرم ، فيكون الكلام على حذف مضاف .

أى : عند قرب المسجد الحرام .

والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام ، لزيادة بيان اصحابها ، وللإشعار بسبب وجوب الوفاء بها .

والمعنى : لا ينبغى ولا يصح أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، لكن الذين عاهدتموهم - أيها المؤمنون - عند المسجد الحرام من المشركين ولم ينقضوا عهودهم ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ .

أى : فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم ، فتكون ﴿ ما ﴾ مصدرية منصوبة المحل على الظرفية .

ويصح أن تكون شرطية وعائدها محذوف فيكون المعنى : فأى زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم ، إذ لا يجوز أن يكون نقض العهد من جهتكم .

وقوله: ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ تذييل قصد به التعليل لوجوب الامتثال، وتبيين أن الوفاء بالعهد إلى مدته مع الموفين بعهدهم من تقوى الله التى يحبها لعباده ، ويحبهم بسبب تمسكهم بها .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية : ان العهد المعتد به فى شريعة الإسلام ، هو عهد الأوفياء غير الناكثين ، وأن من استقام على عهده عاملناه بمقتضى استقامته ، وأن الالتزام بالعهود من تقوى الله التى يحبها لعباده .

وقوله - سبحانه - ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ... ﴾ لا ستبعاد ثبات المشركين على العهد ، ولاستنكار ان يكون لهم عهد حقيق بالمراعاة ، وبيان لما يكون عليه أمرهم عند ظهورهم على المؤمنين .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٨٢ - وحاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٦ .

وفائدة هذا التكرار للفظ ﴿ كيف ﴾ : التأكيد والتمهيد لتعداد الأسباب التى تدعو المؤمنين إلى مجاهدتهم والإغلاظ عليهم ، والحذر منهم .

قال الآلوسى : وحذف الفعل بعد كيف هنا لكونه معلوما من الآية السابقة، وللإيذان بأن النفس مستحضرة له ، مترقبة لورود مايوجب استنكاره .

وقد كثر الحذف للفعل المستفهم عنه مع كيف ويدل عليه بجمله حالية بعده . ومن ذلك قول كعب الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار :

وخبرتمانى أنما الموت بالقرى فكيف وماتا هضبة وقليب

يريد فكيف مات والحال ماذكر .

والمراد هنا : كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله وعند رسوله وحالهم أنهم ﴿ إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ﴾[1] .

وقوله : ﴿ يظهروا عليكم ﴾ يظفروا بكم ويغلبوكم . يقال : ظهرت على فلان أى : غلبته ومنه قوله - تعالى - ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ أي : غالبين .

وقوله : ﴿ لا يرقبوا فيكم ﴾ أى : لا يراعوا فى شأنكم . يقال : رقب فلان الشيء يرقبه إذا رعاه وحفظه .. ورقيب القوم حارسهم .

والإل : يطلق على العهد ، وعلى القرابة ، وعلى الحلف .

قال ابن جرير - بعد أن ساق أقوالا فى معنى الإل - وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : والإل : اسم يشتمل على معان ثلاثة : وهى العهد والعقد ، والحلف ، والقرابة .. ومن الدلالة على أنه يكون بمعنى القرابة قول ابن مقبل :

أفسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الإل وأعراق الرحم

أى قطعوا القرابة .

ومن الدلالة على أنه يكون بمعنى العهد قول القائل :

وجدناهم كاذبا إلهم وذو الإل والعهد لا يكذب

وإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعانى الثلاثة ، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى ، فالصواب أن يعم ذلك كما عم بها - جل ثناؤه - معانيها الثلاثة ...[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى - بتصرف يسير - جـ ١٠ ص ٤٩ .
(٢) تفسير ابن جرير - بتصرف وتلخيص - جـ ١٠ ص ٨٣ .

والذمة : كل أمر لزمك بحيث إذا ضيعته لزمك مذمة أو هى ما يتذمم به أى يجتنب فيه الذم .

والمعنى : بأية صفة أو بأية كيفية يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، والحال المعهود منهم أنهم إن يظفروا بكم ويغلبوكم ، لا يراعوا فى أمركم لا عهدا ولا حلفا ولا قرابة ولا حقا من الحقوق .

وقوله - تعالى - : ﴿ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون ﴾ زيادة بيان للأحوال القبيحة الملازمة لهؤلاء المشركين .

أى : أن هؤلاء المشركين إن غلبوكم - أيها المؤمنون - فعلوا بكم الأفاعيل ، وتفننوا فى إيذائكم من غير أن يقيموا وزنا لما بينكم وبينهم من عهود ومواثيق ، وقرابات وصلات ... أما إذا كانت الغلبة لكم فإنهم فى هذه الحالة ﴿ يرضونكم بأفواههم ﴾ أى : يعطونكم من ألسنتهم كلاما معسولا إرضاء لكم ، وهم فى الوقت نفسه ﴿ تأبى قلوبهم ﴾ المملوءة حقدا عليكم وبغضا لكم تصديق ألسنتهم ، فهم كما وصفهم - سبحانه - فى آية أخرى : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ﴾[1] .

وتقييد الإرضاء بالأفواه ، للإشعار بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق فى قلوبهم .

وقوله : ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ أى : خارجون عن حدود الحق ، منفصلون عن كل فضيلة ومكرمة ، إذ الفسق هو الخروج والانفصال . يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها وفسق فلان إذا خرج عن حدود الشرع .

وإنما وصف أكثرهم بالفسوق ، لأن هؤلاء الاكثرين منهم ، هم الناقضون لعهودهم ، الخارجون على حدود ربهم ، أما الأقلون منهم فهم الذين وفوا بعهودهم ، ولم ينقصوا المؤمنين شيئا ، ولم يظاهروا عليهم أحدا .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد وصفت هؤلاء المشركين وصفا فى نهاية الذم والقبح ، لأنهم إن كانوا أقوياء فجروا واسرفوا فى الإيذاء ، نابذين كل عهد وقرابة وعرف ... أما إذا شعروا بالضعف فإنهم يقدمون للمؤمنين الكلام اللين الذى تنطق به ألسنتهم ، وتأباه قلوبهم الحاقدة الغادرة .

أى أن الغدر ملازم لهم فى حالتى قوتهم وضعفهم ، لأنهم فى حالة قوتهم ﴿ لا يرقبون فى

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٧ .

مؤمن إلا ولا ذمة ﴾ . وفى حالة ضعفهم يخادعون ويداهنون حتى تحين لهم الفرصة للانقضاض على المؤمنين .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك السبب الأصيل الذى جعل الغدر ديدنهم ، والحقد على المؤمنين دأبهم فقال : ﴿ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ .

والمراد بالاشتراء هنا الاستبدال والاستيعاض .

والمراد بآيات الله : كل ما جاء به النبى - ﷺ - من آيات قرآنية ، ومن تعاليم سامية تهدى إلى الخير والفلاح .

والمعنى ؛ إن السبب الأصيل الذى حمل هؤلاء المشركين على الغدر ، وعلى الفجور والطغيان عند القوة وعلى المداهنة والمخادعة عند الضعف . هو أنهم استبدلوا بآيات الله المتضمنة لكل خير وفلاح ... ثمنا قليلا . أى : عرضا حقيرا من أعراض الدنيا وزخارفها .

وليس وصف الثمن بالقلة هنا من الأوصاف المخصصة للنكرات . بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات . لأن كل ثمن يؤخذ فى مقابل آيات الله فهو قليل وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا وزينتها .

وقوله : ﴿ فصدوا عن سبيله ﴾ بيان لما ترتب على استبدالهم بآيات الله ثمنا قليلا .

والصد : المنع والحيلولة بين الشىء وغيره ، ويستعمل لازما فيقال : صد فلان عن الشىء صدودا بمعنى أعرض عنه . ويستعمل متعديا فيقال : صده عنه إذا صرفه عن الشىء .

وهنا تصح إرادة المعنيين فيكون التقدير : أن هؤلاء المشركين قد اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، يترتب على ذلك أن أعرضوا عن طريق الله الواضحة المستقيمة التى جاء بها نبيه محمد - ﷺ - ، ولم يكتفوا بهذا بل صرفوا غيرهم عنها ، ومنعوه من الدخول فيها .

وقوله : ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ تذليل قصد به بيان سوء عاقبتهم ، وقبح أعمالهم .

أى : إنهم ساء وقبح عملهم الذى كانوا يعملونه من اشترائهم بآيات الله ثمنا قليلا ، ومن صدودهم عن الحق وصدهم لغيرهم عنه .. وسيجازيهم الله على ذلك بما يستحقونه عن عقاب شديد .

ثم بين - سبحانه - أن عداوة هؤلاء المشركين ليست خاصة بالمؤمنين الذين يقيمون معهم ، وإنما هى عداوة عامة شاملة لكل مؤمن مهما تباعد عنهم فقال - تعالى - : ﴿ لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴾ .

أى : أن هؤلاء المشركين لا يراعون فى أمر مؤمن يقدرون على الفتك به عهدا يحرم الغدر ، ولا قرابة تقتضى الود ، ولا ذمة توجب الوفاء خشية الذم ... وإنما يبيتون الحقد والغدر والأذى لكل مؤمن ، من غير أن يقيموا للعهود أو للفضائل وزنا .

وهذه الآية الكريمة أعم من قوله - تعالى : قبل ذلك : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ﴾ لأن هذه بينت أن عدوانهم على المؤمنين مقيد بظهورهم عليهم، أما التى معنا فقد بينت أن عدوانهم ليس مقيدا بشىء، فهم متى وجدوا الفرصة اهتبلوها فى الاعتداء على المؤمنين ولأن التى معنا بينت أن عداوتهم قد شملت كل مؤمن مهما كان موضعه . أما الآية السابقة فهى تخاطب المؤمنين الذين كان بينهم وبين المشركين الكثير من الحروب والدماء .

وقوله ﴿ وأولئك هم المعتدون ﴾ تذييل قصد به ذمهم والتحقير من شأنهم .

أى : وأولئك المشركون الموصوفون بتلك الصفات السيئة هم المتجاوزون لحدود الله والخارجون على كل فضيلة ومكرمة .

وبعد أن وضحت السورة الكريمة طبيعة هؤلاء المشركين بالنسبة لكل مؤمن ، وبينت الاسباب التى جعلتهم بمعزل عن الحق والخير .. شرعت فى بيان ما يجب أن يفعله المؤمنون معهم فى حالتى إيمانهم وكفرهم فقال تعالى .

﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ .

أى : فان تابوا عن شركهم ومايتبعه من رذائل ومنكرات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، على الوجه الذى أمر الله به فهم فى هذه الحالة ﴿ إخوانكم فى الدين ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم وهذه الأخوة تَجُبُّ ما قبلها من عداوات .

وقوله : ﴿ ونفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ جملة معترضة ، جىء بها للحث والتحري على ما فصله - سبحانه - من أحكام المشركين ، وعلى الالتزام بها .

هذا ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء المشركين إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .. أما إن كانت الاخرى ، أى إذا لم يتوبوا واصروا على عداوتهم ، فقد بين سبحانه . ما يجب على المؤمنين نحوهم فى هذه الحالة فقال : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ﴾ .

أى : وإن نقضوا عهودهم من بعد أن تعاقدوا معكم على الوفاء بها .

وقوله : ﴿ نكثوا ﴾ من النكث بمعنى النقض والحل . يقال نكث فلان الحبل إذا نقض فتله

وحل خيوطه ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وطعنوا فى دينكم ﴾ معطوف على ما قبله . أى : وعابوه وانتقضوه .

وقوله : ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ أى : فقاتلوهم فهم أئمة الكفر ، وحملة لوائه . فوضع - سبحانه - الاسم الظاهر المبين لشر صفاتهم موضع الضمير عل سبيل الذم لهم .

وقيل : المراد بأئمة الكفر رؤساؤهم وصناديدهم الذين كانوا يحرضونهم على عداوة المؤمنين ، ويقودونهم لقتال النبى - ﷺ - وأصحابه .

وعطف . سبحانه - قوله ﴿ وطعنوا فى دينكم ﴾ على ما قبله مع أن نقض العهد كاف فى إباحة قتالهم ، لزيادة تحريض المؤمنين على مجاهدتهم والاغلاظ عليهم .

وقوله : ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾ تعليل للأمر بقتالهم أى قاتلوا هؤلاء المشركين بعزيمة صادقة ، وقلوب ثابتة . لأنهم قوم لا أيمان ولا عهود لهم على الحقيقة ، لأنهم لما لم يفوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان .

وقرأ ابن عامر ﴿ إنهم لا إيمان لهم ﴾ - بكسر الهمزة . على أنها مصدر آمنه إيمانا بمعنى إعطاء الأمان . أى إنهم لا أمان لهم فاحذروا الاغترار بهم . أو المراد الإيمان الشرعى . أى إنهم لا تصديق ولا دين لهم ، ومن كان كذلك فلا وفاء له .

وقوله : ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ متعلق بقوله ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ .

أى : ليكن مقصدكم من مقاتلتهم - بعد أن وجد منهم ما وجد من إيذائكم الرجاء فى هدايتهم ، والانتهاء عن كفرهم وخيانتهم .. واحذروا أن يكون مقصدكم من ذلك العدوان واتباع الهوى .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات سوى ما سبق - ما يأتى :

١ - أن ما ذكرته الآيات من كون المشركين ، لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، يقرر حقيقة واقعة ، ومن الأدلة على ذلك ما فعله التتار بالمسلمين - وخاصة مسلمى بغداد . سنة ٦٥٦ . وما فعله الوثنيون الهنود مع مسلمى باكستان ، وما فعله الشيوعيون . فى روسيا والصين وغيرها - مع المسلمين الذين كانوا يعيشون معهم[2] .

٢ - أن هؤلاء المشركين متى تابوا عن كفرهم ، وأقلعوا عن شركهم ، واندمجوا فى جماعة المؤمنين .. صاروا إخوة لنا فى الدين .

---

(١) سورة النحل الآية ٩٢ .

(٢) لمعرفة ذلك بالتفصيل راجع تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٠ من ص ١٤١ إلى ص ١٤٥ .

وهذه الأخوة الدينية - كما يقول صاحب المنار - مما يحسدنا جميع أهل الملل عليها فهى لاتزال أقوى فينا منها فيهم برا وتعاونا . وعاصمة لنا من فوضى الشيوعية ، واثرة المادية وغيرها ، على ما منيت به شعوبنا من الضعف وإختلال النظام ، وإختلاف الجنسيات والأحكام ..[1] .

٣ - قال القرطبى : استدل بعض العلماء بهذه الآية ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم ﴾ - على وجوب قتل كل من طعن فى الدين ، إذ هو كافر . والطعن أن ينسب إليه ما لايليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين لما ثبت من الدليل القطعى على صحة أصوله واستقامة فروعه .

وقال ابن المنذر : أجمع عامة أهل العلم على أن من سب النبى - ﷺ - عليه القتل . وممن قال بذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق والشافعى[2] .

٤ - أخذ بعضهم من قوله - تعالى - ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾ أن الكافر لا يمين له على الحقيقة .

قال الفخر الرازى : وبه تمسك أبو حنيفة . رحمه الله . فى أن يمين الكافر لا يكون يميناً . وعند الشافعى . رحمه الله - يمينهم يمين . ومعنى الآية عنده : أنهم لما لم يفوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان . والدليل على أن أيمانهم أيمان أنه - سبحانه - وصفها بالنكث فى قوله ﴿ وإن نكثوا أيمانهم .. ﴾ ولو لم يكن منعقداً لما صح وصفها بالنكث[3] .

٥ - دل قوله تعالى ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ على أن قتال المؤمنين للمشركين لا يراد به سلب أموالهم ولا هتك أعراضهم .. وإنما المراد به الرجاء فى هدايتهم ، والأمل فى انتهائهم عن الكفر وسوء الأخلاق .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ متعلق بقوله ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ .

أى : ليكن غرضكم فى مقاتلتهم - بعدما وجد منهم ما وجد من العظائم - أن تكون المقاتلة سببا فى انتهائهم عما هم عليه . وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسىء بالرحمة كلما عاد[4] .

وبعد أن بينت السورة الكريمة الأسباب الموجبة لقتال المشركين : شرعت فى تحريض المؤمنين على مهاجمتهم ومقاتلتهم بأسلوب يثير الحمية فى النفوس ، ويحمل على الأقدام وعدم المبالاة بهم .. فقال تعالى :

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢٢٨ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٨٢ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٣٤ .
(٤) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥١ .

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٣) قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ (١٤) وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)

قال الآلوسى : قوله تعالى ﴿ ألا تقاتلون قوما ... ﴾ تحريض على القتال بأبلغ وجه - ، لأن الاستفهام فيه للإنكار ، والاستفهام الإنكارى فى معنى النفى ، وقد دخل هنا على نفى ، ونفى النفى إثبات . وحيث كان الترك منكرا أفاد بطريق برهانى أن إيجاده أمر مطلوب مرغوب فيه ، فيفيد الحث والتحريض عليه . بأقوى الأدلة ، وأسمى الأساليب[1] .

وقد ذكر - سبحانه - هنا ثلاثة أسباب كل واحد منها يحمل المؤمنين على قتال المشركين بغلظة وشجاعة .

أما السبب الأول فهو قوله تعالى : ﴿ نكثوا أيمانهم ﴾ أى : نقضوا عهودهم وحنثوا فى أيمانهم التى حلفوها لتأكيد هذه العهود .

ومن مظاهر ذلك أن هؤلاء المشركين الذين تعاهدوا معكم فى صلح الحديبية على ترك القتال عشر سنين . قد نقضوا عهودهم بمساعدة حلفائهم بنى بكر على قتال حلفائكم بنى خزاعه عند أول فرصة سنحت لهم .

والسبب الثانى قوله . سبحانه . ﴿ وهموا بإخراج الرسول ﴾ والهم : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه .

أى : وهموا بإخراج الرسول - ﷺ - من مكة التى ولد فيها وعاش بها زمنا طويلا .. لكنهم لم يستطيعوا ذلك ، بل خرج باختيار . وبإذن الله له فى الهجرة .

وقد فصل سبحانه . ما هموا به فى قوله ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٦٤ - بتصرف يسير .

يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [١] .

وإنما اقتصر ، سبحانه ، فى الآية التى معنا على همهم بإخراجه . صلى الله عليه وسلم . من مكة ، مع أن آية الأنفال قد بينت أنهم قد هموا بأحد أمور ثلاثة - لأن الإخراج هو الذى وقع أثره فى الخارج بحسب الظاهر ، أما القتل والحبس فلم يكن لهما أثر فى الخارج .

وقيل : إنه . سبحانه . قد اقتصر على الأدنى وهو الهم بالإخراج ، ليعلم غيره بالطريق الأولى ، إذ الإخراج أهون من القتل والحبس .

وأما السبب الثالث فهو قوله . سبحانه . ﴿ وهم بدأوكم أول مرة ﴾ أى : وهم الذين كانوا بادئين بقتالكم فى أول لقاء بينكم وبينهم وهو يوم بدر ، كما كانوا بادئين بالعدوان عليكم فى كل قتال بعد ذلك ، كما حدث منهم فى أحد والخندق وكما حدث منهم مع حلفائكم من بنى خزاعة .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وهم بدأوكم أول مرة ﴾ أى : وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ، لأن رسول الله - ﷺ - جاءهم أولا بالكتاب المنير ، وتحداهم به ، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال . فهم البادئون بالقتال والبادىء أظلم ، فما يمنعكم من أن تقابلوهم بمثله ، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم ؟ [٢] .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد ذكرت ثلاثة أمور كل واحد منها كفيل بحمل المؤمنين على قتال المشركين .. فكيف وقد توفرت هذه الأمور الثلاثة فى هؤلاء المشركين ؟ .

ولم تكتف الآية الكريمة بهذا التهييج والتحريض للمؤمنين على القتال ، بل أمرتهم بأن تكون خشيتهم من الله وحده ، فقال سبحانه ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ .

أى : أتتركون - أيها المؤمنون - قتال هؤلاء المشركين الذين ﴿ نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ﴾ خشية منهم .. ؟ لا ، إن هذا لا يليق بكم ، وإنما الذى يليق بكم - إن كنتم مؤمنين حقا - أن تكون خشيتكم من الله وحده .

قال الإمام الرازى : وهذا الكلام يقوى داعية القتال من وجوه :

الأول : أن تعديد الموجبات القوية وتفصيلها مما يقوى هذه الداعية .

الثانى : أنك إذا قلت للرجل : أتخشى خصمك ؟ كان ذلك تحريكا لأن يستنكف أن ينسب إلى كونه خائفا من خصمه .

الثالث : أن قوله : ﴿ فالله أحق أن تخشوه ﴾ يفيد ذلك كأنه قيل : إن كنت تخشى أحدا

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٠ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٣ .

فالله أحق أن تخشاه ، لكونه فى غاية القدرة والكبرياء والجلالة ..

الرابع : أن قوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ معناه : إن كنتم مؤمنين إيمانا حقا ، وجب عليكم أن تقدموا على هذه المقاتلة ومعناه : أنكم إذا لم تقدموا لا تكونوا كذلك ، فثبت أن هذا الكلام مشتمل على سبعة أنواع من الأمور التى تحملهم على مقاتلة أولئك الكفار الناقضين للعهد [١] .

ثم أمرهم - سبحانه - أمراً صريحاً قاطعاً بمقاتلة المشركين . ورتب على هذه المقاتلة خمسة أنواع من الفوائد فقال : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ .

أى : أقدموا على قتالهم وباشروه بشجاعة وإخلاص كما أمركم ربكم ، فإنكم متى فعلتم ذلك ﴿ يعذبهم الله بأيديكم ﴾ بسبب ما تنزلونه بهم من قتل وأسر وجراحات بليغة ، واغتنام للأموال .

وأسند - سبحانه - التعذيب إليه ، لأنه أمر زائد على أسبابه من الطعن والضرب وما يفضيان إليه من القتل والجرح .. والأسر . تلك هى الفائدة الأولى من قتالهم .

أما الفائدتان الثانية والثالثة فتتجليان فى قوله . تعالى . ﴿ ويخزهم ؛ وينصركم عليهم ﴾ .

أى : ويخزهم بسبب ما ينزل بهم من هزيمة وهوان وهم يتفاخرون بقواتهم وبأسهم ، وينصركم عليهم بأن يجعل كلمتكم هى العليا وكلمتهم هى السفلى .

قال الإمام الرازى : فإن قالوا : لما كان حصول ذلك الخزى مستلزما لحصول هذا النصر ، كان إفراده بالذكر عبثاً ؟

فتقول : ليس الأمر كذلك ، لأنه من المحتمل أن يحصل الخزى لهم من جهة المؤمنين ، إلا أن المؤمنين قد تحصل لهم آفة لسبب آخر ، فلما قال : ﴿ وينصركم عليهم ﴾ دل على أنهم ينتفعون بهذا النصر والفتح والظفر » [٢] .

والفائدة الرابعة بينها - سبحانه - فى قوله . ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ .

أى : أنكم بقتالكم لهم وانتصاركم عليهم ، تشفون قلوب جماعة من المؤمنين من غيظها المكظوم ، لأن هذه الجماعة قد لقيت ما لقيت من أذى المشركين وظلمهم وغدرهم .. فكان انتصاركم عليهم شفاء لصدورهم .

قالو : والمراد بهؤلاء القوم بنو خزاعة الذين غدر بهم بنو بكر بمساعدة قريش .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٢٣٥ - بتصرف يسير .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٢ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٩٣٨ .

والأولى أن تكون الجملة الكريمة عامة فى كل من آذاهم المشركون .

أما الفائدة الخامسة فقد بينها - سبحانه . فى قوله ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ : أى : ويذهب غيظ قلوب هؤلاء القوم المؤمنين ويزيل كربها وغمها ، لأن الشخص الذى طال أذى خصمه له . ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه فإن هذا الشخص فى هذه الحالة يعظم سروره ، ويفرح قلبه ، ويتحول غيظه السابق إلى غبطة وارتياح نفسى .

قال الآلوسى : « وظاهر العطف أن إذهاب الغيظ غير شفاء الصدور . ووجه بأن الشفاء يكون بقتل الأعداء وخزيهم ، وإذهاب الغيظ يكون بالنصر عليهم ... وقيل ؛ إذهاب الغيظ كالتأكيد لشفاء الصدر ، وفائدته المبالغة فى جعلهم مسرورين بما يمن الله به عليهم من تعذيبه لأعدائهم ، ونصرته لهم عليهم ، ولعل إذهاب الغيظ من القلب أبلغ مما عطف عليه ، فيكون ذكره من باب الترقى ... »[1] .

وقوله: تعالى- ﴿ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ كلام مستأنف لبيان شمول قدرة الله - تعالى - ، وواسع رحمته ، وبالغ حكمته .

أى : ويتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه من عباده فيوفقه للايمان ، ويشرح صدره للاسلام ، والله - تعالى عليم بسائر شئون خلقه ، حكيم فى كل أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته ، فامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه ، لتنالوا السعادة فى دنياكم وآخرتكم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وهذه الآية تدل على كون الصحابة مؤمنين فى علم الله - تعالى - إيمانا حقيقيا ؛ لأنها تدل على أن قلوبهم كانت مملوءة بالغضب وبالحمية من أجل الدين ، ومن أجل الرغبة الشديدة فى علو دين الإسلام ، وهذه الأحوال لا تحصل إلا فى قلوب المؤمنين الصادقين .

كما تدل على أنها من المعجزات ، لأنه - تعالى - أخبر عن حصول هذه الأحوال ، وقد وقعت كما أخبر فقد انتصر المؤمنون ، وأسلم من المشركين أناس كثيرون - فيكون ذلك إخبارا عن الغيب ، والإخبار عن الغيب معجزة »[2] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة التى حرضت المؤمنين على القتال أعظم تحريض ، ببيان بعض الحكم التى من أجلها شرع الجهاد فى سبيل الله ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٥٥ - بتصرف وتلخيص .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٤ .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

و« أم » هنا للاستفهام الانكارى . وحسب – كما يقول الراغب – مصدره الحسبان وهو أن يحكم الشخص لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ، فيحسبه ويعقد عليه الأصابع ، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك . ويقارب ذلك الظن ، لكن الظن أن يخطر النقيضان بباله فيغلب أحدهما على الآخر[1] .

والواو فى قوله : ﴿ ولما يعلم الله ... ﴾ حالية ، و ﴿ لما ﴾ للنفى مع توقع الحصول،ونفى العلم هنا مجاز عن نفى التبيين والاظهار والتمييز .

وقوله : ﴿ وليجة ﴾ أى ، بطانة ومداخلة . من الولوج فى الشىء أى الدخول فيه .

يقال : ولج يلج ولوجا إذا دخل . وكل شىء أدخلته فى شىء ولم يكن منه فهو وليجة .

والمراد بالوليجة هنا : البطانة من المشركين الذين يطلعون على أسرار المؤمنين ويداخلونهم فى أمورهم .

قال ابن جرير : قوله : ﴿ وليجة ﴾ هو الشىء يدخل فى آخر غيره . يقال منه : ولج فلان فى كذا يلجه فهو وليجة . وإنما عنى بها فى هذا الموضع : البطانة من المشركين ، نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء يفشون إليهم أسرارهم[2] .

والمعنى : أحسبتم – أيها المؤمنون – أن تتركوا دون أن تؤمروا بقتال المشركين ، والحال أن الله – تعالى – لم يظهر الذين جاهدوا منكم بإخلاص ولم يتخذوا بطانة من أعدائكم .. ممن جاهدوا منكم بدون إخلاص ؟

لا . أيها المؤمنون ، إن كنتم حسبتم ذلك فهو حسبان باطل ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يميز المخلص فى جهاده من غيره ، وأن يجعل من حكم مشروعية الجهاد الامتحان والتمحيص .

قال ابن كثير : والحاصل أنه – تعالى – لما شرع الجهاد لعباده ، بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو – تعالى – العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ١١٧ للراغب الأصفهانى .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٩٢ .

كان كيف كان يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه »[١] .

وقوله تعالى . ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه لجميع شئون خلقه .

أى : والله - تعالى - خبير بجميع أعمالكم ، مطلع على نياتكم ، فأخلصوا له العمل والطاعة ، لتنالوا ثوابه ورضاه وعونه .

وبذلك نرى السورة الكريمة من أولها إلى هنا قد أعلنت براءة الله ورسوله من عهود المشركين ، وأعطتهم مهلة يتدبرون خلالها أمرهم ، وأمرت المؤمنين بعد هذه المهلة - أن يقتلوا المشركين حيث وجدوهم .. ثم ساقت الأسباب التى تدعو إلى مجاهدتهم ، والفوائد التى تترتب على هذه المجاهدة ، والحكم التى من أجلها شرعت هذه المجاهدة .

ثم أخذت السورة بعد ذلك فى إعلان حكم آخر يتعلق بتعمير مساجد الله ، فبينت أنه يحرم على المشركين أن يعمروا مساجد الله ، وأن المستحقين لذلك هم المؤمنون الصادقون ، فقال - تعالى - :

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

قال الجمل : وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر ، منهم العباس بن عبد المطلب ، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - يعيرونهم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٠ .

بالشرك . وجعل على بن أبى طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله - ﷺ - وقطيعة الرحم .

فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا ؟ فقيل له : وهل لكم محاسن ؟ قال : نعم . ونحن أفضل منكم . إنا لنعمر المسجد الحرام . ونحجب الكعبة - أى نخدمها - ، ونسقى الحجيج ، ونفك العانى - أى الأسير - فنزلت هذه الآية [1] .

وقال صاحب المنار : والمراد أن هذه الآية تتضمن الرد على ذلك القول الذى كان يقوله ويفخر به العباس وغيره من كبراء المشركين ، لا أنها نزلت عندما قال ذلك القول لأجل الرد عليه فى أيام بدر من السنة الثانية من الهجرة ، بل نزلت فى ضمن السورة بعد الرجوع من غزوة تبوك كما تقدم [2] .

وقوله : ﴿ يعمروا ﴾ من العمارة التى هى نقيض الخراب . يقال : عمر فلان أرضه يعمرها عمارة إذا تعهدها بالخدمة والاصلاح والزراعة .

والمراد بعمارة المساجد ، هنا : ما يشمل إقامة العبادة فيها ، وإصلاح بنائها وخدمتها ، ونظافتها ، واحترامها ، وصيانتها عن كل مالا يتناسب مع الغرض الذى بنيت من أجله .

وقوله : ﴿ مساجد الله ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿ مسجد الله ﴾ بالإفراد ، فيكون المراد به المسجد الحرام : لأنه أشرف المساجد فى الأرض ، ولأنه قبلة المساجد كلها .. فلا يجوز للمشركين دخوله أو الخدمة فيه .

وقرأ الجمهور ﴿ مساجد الله ﴾ بالجمع ، فيكون المراد من المساجد جميعها لأنها جمع مضاف فى سياق النفى فيعم سائر المساجد ، ويدخل فيها المسجد الحرام دخولا أولياً ، لأن تعميره مناط افتخارهم ، وأهم مقاصدهم . وهذه القراءة آكد فى النفى ، لأن نفى الجمع يدل على النفى عن كل فرد ، فيلزم نفيه عن الفرد المعين بطريق الكناية ، كما لو قلت : فلان لا يقرأ كتب الله ، فإن قولك هذا أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك .

قوله : ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ حال من الواو فى قوله ﴿ يعمروا ﴾ . وفائدة المجىء بهذه الجملة : الأشعار بأن كفرهم كفر صريح ، وأنهم يعترفون به اعترافاً لا يملكون إنكاره ، ولا يسعهم إلا إقراره .

والمعنى : لا ينبغى ولا يصح للمشركين أن يعمروا مساجد الله التى بنيت لعبادته وحده -

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٧٠ .

(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢٤٩ .

سبحانه . وذلك لأن هؤلاء المشركين قد شهدوا على أنفسهم بالكفر شهادة نطقت بها ألسنتهم ، وأيدتها أعمالهم .

فهم لا ينطقون بكلمة التوحيد ، وإنما ينطقون بالكفر والاشراك . وهم لا يعملون أعمال المؤمنين ، وإنما يعملون الأعمال القبيحة التى تدل على إصرارهم على باطلهم كسجودهم للأصنام عقب الطواف بالكعبة .

قال الفخر الرازى : وذكروا فى تفسير هذه الشهادة وجوها :

الأول - وهو الأصح : أنهم أقروا على أنفسهم بعبادة الأوثان ، وتكذيب القرآن ، وإنكار نبوة محمد - عليه الصلاة والسلام - وكل ذلك كفر ؛ فمن يشهد على نفسه بكل هذه الأشياء فقد شهد على نفسه بما هو كفر فى نفس الأمر ، وليس المراد أنهم شهدوا على أنفسهم بأنهم كفرة .

الثانى . قال السدى : شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن يقول عابد الوثن أنا عابد الوثن .

الثالث : أنهم كانوا يطوفون عراة ؛ وكلما طافوا شوطاً سجدوا للأصنام . وكانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك [1] .

ثم بين - سبحانه : فى ختام الآية سوء عاقبتهم فقال ﴿ أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون ﴾ :

أى : أولئك المشركون الشاهدون على أنفسهم بالكفر قد فسدت أعمالهم التى كانوا يفتخرون بها مثل العمارة والحجابة والسقاية لأنها مع الكفر لا قيمة لها ، ﴿ وفى النار هم خالدون ﴾ يوم القيامة بسبب كفرهم وإصرارهم على باطلهم .

ثم بين . سبحانه . أن المؤمنين الصادقين هم الجديرون بعمارة مساجد الله ، فقال : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ .

أى : ليس المشركون أهلا لعمارة مساجد الله ؛ وإنما الذين هم أهل لذلك المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً ، وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وآمنوا بما فرضه الله عليهم من فرائض فأدوها بالكيفية التى أرشدهم إليها نبيهم - ﷺ - فهم فى صلاتهم خاشعون ؛ وللزكاة معطون بسخاء وإخلاص .

وهم بجانب ذلك لا يخشون أحداً إلا الله فى تبليغ ما كلفوا بتبليغه من أمور الدين ؛

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٨ .

ولا يقصرون فى العمل بموجب أوامر الله ونواهيه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا ذكر الإيمان برسول الله - ﷺ - قلت : لما عُلِم وشهر أن الإيمان بالله قرينته الإيمان بالرسول . عليه الصلاة والسلام . لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين كأنهما شىء واحد .. انطوى تحت ذكر الإيمان بالله . تعالى . الإيمان بالرسول - ﷺ - فإن قلت : كيف قال : ﴿ ولم يخش إلا الله ﴾ والمؤمن يخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها .

قلت : هى الخشية والتقوى فى أبواب الدين ، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف : وإذا اعترض أمران : أحدهما حق الله والآخر حق نفسه ، آثر حق الله على حق نفسه [١] .

وقوله - تعالى - ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ تذييل قصد به حسن عاقبة المؤمنين الصادقين .

أى : فعسى أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة من الإيمان بالله واليوم الآخر .. أن يكونوا من المهتدين إلى الجنة وما أعد فيها من خير عميم ، ورزق كبير .

قال الآلوسى : وإبراز اهتدائهم لذلك - مع ما بهم من تلك الصفات الجليلة - فى معرض التوقع ، لحسم أطماع الكافرين عن الوصول إلى مواقف الاهتداء لأن هؤلاء المؤمنين . وهم من هم . إذا كان أمرهم دائراً بين لعل وعسى فكيف يقطع المشركون . وهم بيت المخازى والقبائح . أنهم مهتدون ؟! .

وفيه قطع اتكال المؤمنين على أعمالهم ، وإرشادهم إلى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء [٢] .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - أن أعمال البر الصادرة عن المشركين . كإطعام الطعام ، وإكرام الضيف .. إلخ . لا وزن لها عند الله ، لا قترانها بالكفر والإشراك به - سبحانه - .

قال . تعالى . : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[٣] .

٢ - أن عمارة مساجد الله من حق المؤمنين وحدهم ، أما المشركون فإنهم لا يصح منهم ذلك بسبب كفرهم ونجاستهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٥ - بتصريف يسير .
(٢) تفسير الأولوسى جـ ١٠ ص ٥٩ - بتصريف وتلخيص .
(٣) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

قال الجمل . لا يصح للمشركين أن يعمروا مساجد الله بدخولها والقعود فيها . فإذا دخل الكافر المسجد بغير إذن من مسلم عُزِّر ، وإن دخل بإذنه لم يعزر لكن لا بد من حاجة . فيشترط للجواز الإذن والحاجة . ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن أن النبى - ﷺ - شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سوارى المسجد وهو كافر [١] .

٣ - التنويه بشأن بناء المساجد ، والتعبد فيها ، وإصلاحها ، وخدمتها ، وتنظيفها ، والسعى إليها ، واحترامها ، وصيانتها عن كل ما يتنافى مع الغرض الذى بنيت من أجله ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى ، ومن ذلك : ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عثمان بن عفان . رضى الله عنه . قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من بنى لله مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتاً فى الجنة » .

وروى الشيخان . أيضاً . عن أبى هريرة . رضى الله عنه . قال : رسول الله - ﷺ - « من غدا إلى المسجد أو راح - أى سار قبل الزوال أو بعده لعبادة الله فى المسجد - أعد الله له نزلا - أى مكاناً طيبا فى الجنة - كلما غدا أو راح » .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى - ﷺ - قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » قال الله . تعالى - : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ..﴾ الآية .

وروى أبو داود والترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله - ﷺ - نهى عن الشراء والبيع فى المسجد ، وأن تنشد فيه ضالة ؛ أو ينشد فيه شعر » . وروى مسلم فى صحيحه عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول ولا القذر ، إنما هى لذكر الله . تعالى . وقراءة القرآن » [٢] .

إلى غير ذلك من الأحاديث التى وردت بشأن المساجد .

ثم بين . سبحانه . بعد ذلك أنه لا يصلح أن يسوى بين هؤلاء المشركين - لمجرد سقايتهم الحجاج وعمارتهم المسجد الحرام . وبين المؤمنين الصادقين المجاهدين فى سبيل الله لإعلاء كلمته فقال - سبحانه - :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) من كتاب « رياض الصالحين » للإمام النووى ص ٤١٨ ، ص ٤١٩ ، ص ٦١٤ ، ٦١٥ طبعة عيسى الحلبى .

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ (١٩) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما رواه مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر النبى . - ﷺ - فى نفر من أصحابه فقال رجل : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبى - ﷺ - وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله - ﷺ - فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله . تعالى . : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج .. الآية ﴾[1] .

وأخرج ابن جرير عن عبيد بن سليمان قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج .. ﴾ : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك . فقال العباس : أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام . ونفك العانى ، ونحجب البيت ، ونسقى الحاج فأنزل الله . تعالى . : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج .. ﴾ [2] .

وقال صاحب المنار ، بعد أن ساق عدداً من الروايات فى سبب نزول هذه ا لآيات . :

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٦٠ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ٩٦ .

والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده ، وموافقة متنه لما دلت عليه الآيات من كون موضوعها فى المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحجابه . من أعمال البر الهينة المستلذة . وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة وهى أشق العبادات البدنية والمالية [١] .

والسقاية والعمارة : مصدران من سقى وعمر . بتخفيف الميم .

والمراد بسقاية الحاج ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء ، وكان العباس . رضى الله عنه . هو الذى يتولى إدارة هذا العمل .

قال الجمل : السقاية هى المحل الذى يتخذ فيه الشراب فى الموسم . كان يشترى الزبيب فينبذ فى ماء زمزم ويسقى للناس ، وكان يليها العباس جاهلية وإسلاماً ، وأقرها النبى - ﷺ - له .. ويظهر أن المراد بها هنا المصدر . أى : إسقاء الحجاج وإعطاء الماء لهم [٢] .

والمراد بعمارة المسجد الحرام : ما يشمل العبادة فيه ، وإصلاح بنائه ، وخدمته ، وتنظيفه .. كما سبق أن بينا .

والهمزة فى قوله . ﴿ أجعلتم ﴾ للاستفهام الإنكارى المتضمن معنى النهى .

والكلام على حذف مضاف ، لأن العمارة والسقاية مصدران ولا يتصور تشبيهها بالأعيان ، فلابد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين حتى يتأتى التشبيه والمعنى : أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ؟ ويؤيده قراءة ﴿ أجعلتم سقاة الحاج ﴾ بضم السين . جمع ساق . ﴿ وعمرة المسجد الحرام ﴾ بفتح العين والميم جمع عامر .

وعلى هذا المعنى يكون التقدير فى جانب الصفة ، ويجوز أن يكون التقدير فى جانب الذات فيكون المعنى . أجعلتموهما ، أى السقاية والعمارة . كإيمان من آمن وجهاد من جاهد ؟

والخطاب يشمل بعض المؤمنين الذين آثروا السقاية والعمارة على الجهاد كما جاء فى حديث النعمان . كما يشمل المشركين الذين كانوا يتفاخرون بأنهم سقاة الحجيج ، وعمار المسجد الحرام .

والمقصود من الجملة الكريمة إنكار التسوية بين العملين وبين الفريقين . وقد جاء هذا الانكار صريحاً فى قوله تعالى . ﴿ لا يستوون عند الله ﴾ .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٢٥٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٧١ .

أى : لا يساوى الفريق الأول الفريق الثانى فى حكم الله ، إذ أن الفريق الثانى له بفضل إيمانه الصادق . وجهاده الخالص الأجر الجزيل عند الله .

فالجملة الكريمة مستأنفة لتقرير الانكار المذكور وتأكيده ثم ختم - سبحانه . الآية الكريمة بقوله . ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

أى . والله تعالى . لا يوفق القوم الظالمين إلى معرفة الحق ، وتمييزه من الباطل ، لأنهم قد آثروا الشر على الخير والضلالة على الهداية .

وقوله . ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله .. » استئناف لبيان مراتب فضلهم زيادة فى الرد ، وتكميلا له .

أى : ﴿ الذين آمنوا ﴾ بالله - تعالى - إيماناً حقاً ، ﴿ وهاجروا ﴾ من دار الكفر إلى دار الايمان فراراً بدينهم، ﴿ وجاهدوا فى سبيل الله ﴾ لإعلاء كلمة الله ﴿ بأموالهم وأنفسهم ﴾ هؤلاء الذين توفرت فيهم هذه الصفات الجليلة ﴿ أعظم درجة عند الله ﴾ أى : أعلى مقاماً وأشرف منزلة فى حكم الله وتقديره من أهل سقاية الحاج ، وعمارة المسجد ﴿ الحرام ﴾ ومن كل من لم يتصف بهذه الصفات الأربعة الكريمة وهى : الايمان ، والهجرة ، والجهاد بالمال ، والجهاد بالنفس .

قال الفخر الرازى . فان قيل : لما أخبرتم أن هذه الصفات كانت بين المسلمين والكافرين . كما جاء فى بعض روايات أسباب النزول . فكيف قال فى وصفهم اعظم درجة مع أنه ليس للكفار درجة .

قلنا . الجواب عنه من وجوه . الأول أن هذا ورد على حسب ما كانوا يقدرون لأنفسهم من الدرجة والفضيلة عند الله ، ونظيره قوله . سبحانه ﴿ آلله خير أما يشركون ﴾ [1] .

الثانى : أن يكون المراد أن أولئك أعظم درجة من كل من لم يكن موصوفًا بهذه الصفات ، تنبيهًا على أنهم لما كانوا أفضل من المؤمنين الذين ما كانوا موصوفين بهذه الصفات ، فبأن لا يقاسوا إلى الكفار أولى .

الثالث : أن يكون المراد أن المؤمن المجاهد المهاجر أفضل ممن على السقاية والعمارة . والمراد منه ترجيح تلك الأعمال . ولا شك أن السقاية والعمارة من أعمال الخير ، وإنما بطل ثوابها فى حق الكفار بسبب كفرهم[2] .

---

(١) سورة النمل : الآية ٥٩ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ١٤ وتلخيص يسير .

وقوله : ﴿ وأولئك هم الفائزون ﴾ أى : وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ، هم الفائزون ، بثواب الله الأعظم ، وبرضائه الأسمى الذى لا يصل إليه. سواهم ممن لم يفعل فعلهم .

ثم فصل – سبحانه – هذا الفوز فقال : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدًا إن الله عنده أجر عظيم ﴾ .

أى يبشرهم ربهم على لسان نبيهم – ﷺ – فى الدنيا وعلى لسان الملائكة عند الموت ﴿ برحمة منه ﴾ أى : برحمة واسعة منه – سبحانه – وبرضائه التام عنهم ، وبجنات عالية لهم فيها نعيم عظيم لا يزول ولا يبيد .

﴿ خالدين فيها أبدًا ﴾ أى : ماكثين فى تلك الجنات مكثًا أبديًا .

﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ لا يقادر قدره لهؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

قال الآلوسى : ذكر أبو حيان أنه – تعالى – لما وصف المؤمنين بثلاث صفات الإيمان والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث : الرحمة ،والرضوان ، والجنة .

وبدأ – سبحانه – بالرحمة فى مقابة الإيمان لتوقفها عليه ، ولأنها أعم النعم وأسبقها كما أن الإيمان هو السابق .

وثنى – سبحانه – بالرضوان الذى هو نهاية الإحسان فى مقابلة الجهاد الذى هو بذل الأنفس والأموال .

وثلث بالجنات فى مقابلة الهجرة وترك الأوطان ، إشارة إلى أنهم لما آثروا تركها – فى سبيله أعطاهم بدلها دارًا عظيمة دائمة وهى الجنات .

وفى الحديث الصحيح يقول الله – سبحانه – : « يا أهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون كيف لا نرضى وقد باعدتنا عن نارك وأدخلتنا جنتك ؟ فيقول – سبحانه – لكم عندى أفضل من ذلك ، فيقولون : وما أفضل من ذلك ؟ فيقول جل شأنه : أحل لكم رضائى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا »[1] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت أنه لا تصح المساواة بين المؤمنين الصادقين

(١) تفسير الآلوسى جـ ٦٠ ص ٦٢ .

الذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وبين غيرهم ممن لم يفعل فعلهم ، ولم يجاهد جهادهم ...

وبعد أن بين - سبحانه - ما أعده من عطاء عظيم للمؤمنين الصادقين ، الذين هاجروا وجاهدوا فى سبيله بأموالهم وأنفسهم ... أتبع ذلك بتوجيه نداء إليهم ، حثهم فيه على أن يجردوا أنفسهم لعقيدتهم ، وأن يقاطعوا أعداءهم فى الدين مهما بلغت درجة قرابتهم منهم ، وأن يؤثروا حب الله ورسوله على كل شىء من زينة الحياة الدنيا فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

والمعنى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ إيمانًا حقًا ﴿ لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم ﴾ المشركين ﴿ أولياء ﴾ وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم ، وتطلعونهم على ما لا يجوز إطلاعهم عليه من شئونكم ، وتلقون إليهم بالمودة .. فإن ذلك يتنافى مع الإيمان الحق ، ومع الإخلاص للعقيدة وإيثارها على كل ما سواها من زينة الحياة .

والمراد النهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة أى فرد من أفراد المشركين ، لأن الجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٢ .

قال القرطبى : وخص - سبحانه - الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها . فنفى الموالاة بينهم ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان .

ولم يذكر الأبناء فى هذه الآية ، إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء . والإحسان والهبة مستثناه من الولاية . قالت أسماء : يارسول الله إن أمى قدمت على راغبة وهى مشركة أفأصلها ؟ قال نعم . « صلى أمك »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾ قيد فى النهى عن اتخاذهم أولياء . والاستحباب : طلب المحبة : يقال : استحب له بمعنى أحبه كأنه طلب محبته .

أى : لا تتخذوهم أولياء إن اختاروا الكفر على الإيمان وأصروا على شركهم وباطلهم .. أما إذا أقلعوا عن ذلك ودخلوا فى دينكم ، فلا حرج عليكم من اتخاذهم أولياء وأصفياء .

وقوله : ﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ تذييل قصد به الوعيد والتهديد لمن يفعل ذلك .

أى : ومن يتولهم منكم فى حال استحبابهم الكفر على الإيمان ، فأولئك الموالون لهم هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم وضعوا الموالاة فى غير موضعها ، وتجاوزوا حدود الله التى نهاهم عن تجاوزها ، وسيجازيهم - سبحانه - على ذلك بما يستحقونه من عقاب .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يعلن للناس هذه الحقيقة : وهى أن محبة الله ورسوله يجب أن تفوق كل محبة لغيرهما فقال - تعالى - : ﴿ قل ﴾ يا محمد لمن اتبعك من المؤمنين : ﴿ إن كان آباؤكم ﴾ الذين أنتم بضعة منهم ، ﴿ وأبناؤكم ﴾ الذين هم قطعة منكم ﴿ وإخوانكم ﴾ الذين تربطكم بهم وشيجة الرحم ﴿ وأزواجكم ﴾ اللائى جعل الله بينكم وبينهن مودة ورحمة ﴿ وعشيرتكم ﴾ أى : أقاربكم الأدنون الذين تربطكم بهم رابطة المعاشرة والعصبة ﴿ وأموال اقترفتموها ﴾ أى : اكتسبتموها فهى عزيزة عليكم .

وأصل القرف والاقتراف قشر اللحاء عن الشجر ، والجلدة عن الجرح ثم استعير الاقتراف للاكتساب مطلقًا :

﴿ وتجارة تخشون كسادها ﴾ أى : تخافون بوارها وعدم رواجها بسبب اشتغالكم بغيرها من متطلبات الايمان .

يقال : كسد الشىء من باب نصر وكرم . كسادًا وكسودًا ، إذا قل رواجه وربحه . ﴿ ومساكن ترضونها ﴾ أى : ومنازل تعجبكم الإقامة فيها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ الآية ٩٤ .

قل لهم يا محمد : إن كان كل ذلك - من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة ، والأموال ، والتجارة ، والمساكن - ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ .

أى : إن كانت هذه الأشياء أحسن فى نفوسكم وأقرب إلى قلوبكم من طاعة الله وطاعة رسوله ومن الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الحق ، فانتظروا حتى يحكم الله فيكم ، وهو العذاب العاجل أو العقاب الآجل .

فالجملة الكريمة تهديد وتخويف لمن آثر محبة الأباء والأبناء ... على محبة الله ورسوله ، وعلى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الدين .

وقوله : ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ تذييل قصد به تأكيد التهديد السابق أى : والله - تعالى - قد اقتضت حكمته أن لا يوفق القوم الخارجين عن حدود دينه وشريعته إلى ما فيه مثوبته ورضاه .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

(١) تحريم موالاة الكافرين مهما بلغت درجة قرابتهم ، واعتبار هذه الموالاة من الكبائر ، لوصف فاعلها بالظلم : قال - تعالى - : ﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

(٢) قوة إيمان الصحابة ، وسرعة امتثالهم لأوامر الله ، فإنهم فى سبيل عقيدتهم قاطعوا أقرب الناس إليهم ممن خالفوهم فى الدين ، بل وحاربوهم وقتلوهم .

قال ابن كثير : روى الحافظ البيهقى من حديث عبد الله بن شوذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه . فلما أكثر الجراح ، قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله فيه هذه الآية - التى بآخر سورة المجادلة - ﴿ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[1] .

(٣) إن المؤمن لا يتم إيمانه إلا إذا كانت محبته لله ورسوله مقدمة على كل محبوب ، وقد وردت عدة أحاديث فى هذه المعنى ، ومن ذلك ما أخرجه البخارى والإمام أحمد عن أبى عقيل

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٢ .

زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام قال : كنا مع رسول الله - ﷺ - وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : يارسول الله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى . فقال رسول الله - ﷺ - « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فقال عمر : فأنت والله أحب إلى من نفسى . فقال رسول الله ﷺ « الآن يا عمر »[١] .

(٤) فى الآية الثانية دليل على أنه إذا تعارضت مصلحة من مصالح الدين مع مهمات الدنيا ، وجب ترجيح جانب الدين على الدنيا ليبقى الدين سليمًا ، وهذا عمل لا يستطيعه إلا الأتقياء .. ولذا قال الإمام الزمخشرى : وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها . كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين . فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله والثبات على دينه ، ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله ؟ أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته ، فلا يدرى أى طرفيه أطول ؟ ويغويه الشيطان عن أجَلّ حظ من حظوظ الدين، فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره ؟[٢].

(٥) قال بعض العلماء : وليس المطلوب . من قوله - تعالى - ﴿ قل إن كان آباؤكم ...﴾ إلخ . أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ، ولا أن يترهبن ويزهد فى طيبات الحياة .. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يفرغ لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هى المسيطرة الحاكمة ، وهى المحركة الدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ، على أن يكون مستعدًا لنبذها كلها فى اللحظة التى تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الحياة ؟ فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة والعشيرة والزوج .. ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن . ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق . فى غير سرف ولا مخيلة .

بل إن المتاع حينئذ لمستحب ، باعتباره لونًا من ألوان الشكر لله الذى أنعم بها ليتمتع بها عباده . وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

ثم انتقلت السورة الكريمة من نهى المؤمنين عن موالاة المشركين مهما بلغت درجة قرابتهم ، وعن إيثارهم محبة الآباء والأبناء على محبة الله .. انتقلت من ذلك إلى تذكيرهم بجانب من نعم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٧ .

الله عليهم . حيث نصرهم - سبحانه - فى حنين بعد أن ولوا مدبرين دون أن تنفعهم كثرتهم وقوتهم فقال - تعالى - :

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

قال ابن كثير . هذه أول آية نزلت من براءة يذكر - تعالى - المؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده - تعالى - : وبتأييده وتقديره لا بعَددهم ولا بعُددهم ، ونبههم إلى أن النصر من عنده سواء قل الجمع أم كثر ، فإنهم يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم ... ثم أنزل الله نصره على رسوله والمؤمنين .

وقد كانت واقعة حنين بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة : وذلك أنه لما فرغ - ﷺ - من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله - ﷺ - بلغه أن هوزان جمعوا له ليقاتلوه ، ومعهم ثقيف بكمالها وبنو سعد بن بكر .

فخرج إليهم رسول الله - ﷺ - فى جيشه الذى جاء للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء فى ألفين . فسار بهم رسول الله - ﷺ - إلى العدو ، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين ، فكانت فيه الموقعة فى أول النهار فى غلس الصبح .

انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد .. فعند ذلك ولى المسلمون الأدبار ، وثبت رسول الله - ﷺ - وثبت معه من أصحابه قريب من مائة .

ثم أمر - ﷺ - عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادى بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة - أى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون تحتها على أن لا يفروا عنه - فجعل ينادى بهم .. فجعلوا يقولون : لبيك لبيك .

وانعطف الناس فتراجعوا .. فأمرهم رسول الله - ﷺ - أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من تراب ثم رمى بها القوم ، فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينيه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدى رسول الله - ﷺ -[1] .

هذه خلاصة لغزوة حنين التى اجتمع فيها للمسلمين - للمرة الأولى - جيش تعداده اثنا عشر ألفًا ، فلما أعجبتهم هذه الكثرة والقوة .. أصيبوا بالهزيمة فى أول معركة .. ليعلموا أن كثرتهم لن تغنى عنهم شيئًا إذا لم يكن عون الله معهم .

فقوله - تعالى - : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا ﴾ تذكير للمؤمنين ببعض نعم الله عليهم ؛ حتى يداوموا على طاعته ومحبته . وحتى لا يغتروا بقوتهم مهما كثرت .

والمواطن : جمع موطن . وهو المكان الذى يقيم فيه الإنسان . يقال : استوطن فلان بمكان كذا ، إذا جعله وطنا له .

والمراد بالمواطن هنا : الأماكن التى حدثت فيها الحروب بين المسلمين وأعدائهم .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ ويوم حنين ﴾ معطوف على محل مواطن وعطف ظرف الزمان على ظرف المكان وعكسه جائز .. وأوجب الزمخشرى كون ﴿ يوم ﴾ منصوبًا بفعل مضمر والعطف من قبيل عطف الجملة على الجملة .

أى : « ونصركم يوم حنين .. »[2] .

وقوله : ﴿ إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ بدل من يوم حنين ، أو عطف بيان له .

---

(١) تفسير ابن كثير . بتصرف وتلخيص . جـ ٢ ص ٣٤٣ . وراجع تفاصيل هذه الغزوة فى السيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ من ص ٨٠ إلى ص ١٤٣ . طبعة الحلبى سنة ١٩٣٦ تحقيق مصطفى السقا وزميليه .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٦٥ - بتصرف وتلخيص :

وأعجبتكم : من الإعجاب بمعنى السرور بما يتعجب منه . وسبب هذا الإعجاب أن عدد المسلمين كان اثنا عشر ألفا ، وعدد أعدائهم كان أربعة آلاف .

وقوله : ﴿ فلم تغن عنكم شيئًا ﴾ بيان للأثر السيء الذى أعقب الإعجاب بالكثرة ، وأن سرورهم بهذه الكثرة لم يدم طويلاً ، بل تبعه الحزن والهزيمة .

وقوله : ﴿ تغن ﴾ من الغناء بمعنى النفع . تقول : ما يغنى عنك هذا الشيء ، أى : ما يجزيء عنك وما ينفعك .

وقوله : ﴿ وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ﴾ بيان لشدة خوفهم وفزعهم .

قال القرطبى : والرحب - بضم الراء - السعة . تقول منه : فلان رحب الصدر .

والرحب - بالفتح - الواسع . تقول منه : بلد رحب وأرض رحبة .

وقيل : الباء بمعنى مع ، أى : وضاقت عليكم الأرض مع رحبها . وقيل بمعنى على . أى : على رحبها . وقيل المعنى برحبها فتكون « ما » مصدرية[1] .

والمعنى : اذكروا - أيها المؤمنون - نعم الله عليكم ، وحافظوا عليها بالشكر وحسن الطاعة ، ومن مظاهر هذه النعم أنه - سبحانه - قد نصركم على أعدائكم مع قلتكم . فى مواقف حروب كثيرة ؛ كغزوة بدر ، وغزوة بنى قينقاع والنضير ... كما نصركم . أيضا . فى يوم غزوة حنين ، وهو اليوم الذى راقتكم فيه كثرتكم فاعتمدتم عليها حتى قال بعضكم : لن نغلب اليوم من قلة ...

ولكن هذه الكثرة التى أعجبتم بها لم تنفعكم شيئًا من النفع فى أمر العدو بل انهزمتم أمامه فى أول الأمر ، وضاقت فى وجوهكم الأرض مع رحابتها وسعتها بسبب شدة خوفكم ، فكنتم كما قال الشاعر :

كأن بلاد الله وهى عريضة على الخائف المطلوب كِفَّة حابل[2]

وقوله : ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ تذييل مؤكد لما قبله وهو شدة خوفهم .

ووليتم : من التولى بمعنى الإعراض . ومدبرين : من الإدبار بمعنى الذهاب إلى الخلف .

أى : ثم وليتم الكفار ظهوركم منهزمين لا تلوون على شيء .

وهكذا ، نرى الآية الكريمة تصور ما حدث من المؤمنين فى غزوة حنين تصويرًا بديعًا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٠١ .
(٢) الكفة . بالكسر . حبالة الصائد . والحابل : الذى ينصب الحبالة .

معجزًا .. فهى تنتقل من تصوير سرورهم بالكثرة ، إلى تصوير عدم نفعهم بهذه الكثرة ، إلى تصوير شدة خوفهم حتى لكأن الأرض على سعتها تضيق بهم ، وتقفل فى وجوههم ، إلى تصوير حركاتهم الحسية المتمثلة فى تولية الأدبار ، والنكوص على الأعقاب .

وبعد هذا الخوف الشديد الذى أصاب المؤمنين فى مبدأ لقائهم بأعدائهم فى غزوة حنين ، يجىء نصر الله الذى عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين .. ﴾ .

والسكينة : الطمأنينة والرحمة والأمنة وهى فعيلة من السكون : وهو ثبوت الشىء بعد التحرك . أو من السكن وهو كل ما سكنت إليه واطمأننت به من أهل وغيرهم .

أى : ثم أنزل الله - تعالى - على رسوله - ﷺ - وعلى المؤمنين رحمته التى تسكن إليها القلوب ، وتطمئن بها اطمئنانًا يستتبع النصر القريب .

وقد كان الرسول - ﷺ - فى حاجة إلى هذه السكينة ؛ لأنه مع شجاعته وثباته ووقوفه فى وجه الأعداء كالطود الأشم . أصابه الحزن والأسى لفرار هذا العدد الكبير من أصحابه عنه .

وكان المؤمنون الذين ثبتوا من حوله فى حاجة إلى هذه السكينة ؛ ليزدادوا ثباتًا على ثباتهم ، وإيمانًا على إيمانهم .

وكان الذين فروا فى حاجة إلى هذه السكينة ، ليعود إليهم ثباتهم ، فيقبلوا على قتال أعدائهم بعد أن دعاهم رسولهم - ﷺ - إلى ذلك .

وقوله : ﴿ وأنزل جنودًا لم تروها ﴾ بيان لنعمة أخرى سوى إنزال السكينة .

أى : وأنزل مع هذه السكينة جنودًا من الملائكة لم تروها بأبصاركم ، ولكنكم وجدتم آثرها فى قلوبكم ، حيث عاد إليكم ثباتكم وإقدامكم .

وقوله : ﴿ وعذب الذين كفروا ﴾ ، بيان لنعمة ثالثة سوى السابقتين .

أى : أنزل سكينته وأنزل جنودًا لم تروها ، وعذب الذين كفروا بأن سلطكم عليهم فقتلتم منهم من قتلتم ، وأسرتم من أسرتم .

وقوله ﴿ وذلك جزاء الكافرين ﴾ أى وذلك الذى نزل بهؤلاء الكافرين من التعذيب جزاء لهم على كفرهم ، وصدهم عن سبيل الله .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته ورحمته بعباده فقال - تعالى - ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾ .

أى : ثم يتوب الله - تعالى - من بعد هذا التعذيب للذين كفروا فى الدنيا ، على من يشاء أن يتوب عليه منهم ، بأن يوفقه للدخول فى الإسلام ، والله - تعالى - واسع المغفرة ، عظيم الرحمة ، لا يحاسب الكافرين بعد إيمانهم على ما حصل منهم من كفر .

قال - تعالى - : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾[١] .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ... ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا ، وقدموا عليه مسلمين ، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة ، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يومًا فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم ، وكانوا ستة آلاف أسير ، ما بين صبى وامرأة فرده عليهم : وقسم الأموال بين الغانمين ، ونفل أناسا من الطلقاء لكى يتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطاهم مائة من الإبل مالك بن عوف النضرى واستعمله على قومه[٢] .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد ذكرت المؤمنين بجانب من نعم الله عليهم . ومن رحمته بهم ، وأرشدتهم إلى أن النصر لا يتأتى لمن أعجبوا بكثرتهم فانشغلوا بها عن الاعتماد عليه - سبحانه - وإنما النصر يتأتى لمن أخلصوا لله سرائرهم وعلانيتهم . وباشروا الأسباب التى شرعها - سبحانه - للوصول إلى الفوز والظفر .

قال ابن القيم : افتتح الله - تعالى - غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، لهذا يقرن بين هاتين بالذكر ، فقال بدر وحنين وإن كان بينهما سبع سنين .. وبهاتين الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله - ﷺ - والمسلمين . فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم ، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول فى دين الله[٣] .

وبعد هذا التذكير والتوجيه من الله - تعالى - لعباده المؤمنين .. وجه - سبحانه - إليهم نداء أمرهم فيه بمنع المشركين من قربان المسجد الحرام ، ووعدهم بالعطاء الذى يغنيهم ، فقال :

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤٦ .
(٣) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٠٩٩ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

وقوله : ﴿ نجس ﴾ بالتحريك – مصدر نجس الشىء ينجس فهو نجس إذا كان قذرًا غير نظيف ، وفعله من باب « تعب » وفى لغة من باب « قتل » .

قال صاحب الكشاف : النجس : مصدر . يقال نجس نجسا وقذر قذرا ، لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس ، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم . أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها ، مبالغة فى وصفهم بها[١] .

قيل : وجوز أن يكون لفظ « نجس » صفة مشبهة – وإليه ذهب الجوهرى ولابد حينئذ من تقدير موصوف مفرد لفظًا مجموع معنى ، ليصح الإخبار به عن الجمع . أى جنس نجس ونحوه[٢] .

وقوله : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ فيه ما فيه من التعبير البديع المصور المجسم لهم ، حتى لكأنهم بأرواحهم وماهيتهم وكيانهم : النجس يمشى على الأرض فيتحاشاه المتطهرون ، ويتحاماه الأتقياء من الناس .

وقوله : ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ تفريع على نجاستهم والمراد النهى عن الدخول إلا أنه عبر عنه بالنهى عن القرب مبالغة فى إبعادهم عن المسجد الحرام .

والنهى وإن كان موجهًا إلى المشركين ، إلا أن المقصود منه نهى المؤمنين عن تمكينهم من ذلك ، والمراد بقوله : ﴿ بعد عامهم هذا ﴾ العام الذى حصل فيه النداء بالبراءة من المشركين ، وبعدم طوافهم بالمسجد الحرام .. وهو العام التاسع من الهجرة .

قال ابن كثير : أمر الله عباده المؤمنين الطاهرين دينا وذاتًا بنفى المشركين الذين هم نجس دينا – عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية . وكان نزولها فى سنة تسع .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٦١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١ ص ٦٨ .

ولهذا بعث رسول الله - ﷺ - عليا صحبة أبي بكر رضى الله عنهما - عامئذ ، وأمره أن ينادى فى المشركين : أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . فأتم الله ذلك وحكم به شرعًا وقدرًا[1] .

وقوله : ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ بشارة من الله تعالى للمؤمنين بأن سيعطيهم من فضله ما يغنيهم عن المشركين .

والعيلة : الفقر والفاقة : يقال : عال الرجل يعيل عيلة فهو عائل إذا افتقر ، ومنه قول الشاعر :

وما يدرى الفقير متى غناه ... وما يدرى الغنى متى يقيل

وقرىء « عائلة » بمعنى المصدر كالعافية : اسم فاعل صفة لموصوف مؤنث مقدر أى : حالا عائلة .

قال ابن جرير - بعد أن ساق روايات فى سبب نزول الآية - : عن عطية العوفى قال : لما قيل « ولا يحج بعد العام مشرك » قالوا : قد كنا نصيب من بياعاتهم فى الموسم ، قال فنزلت ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ... ﴾ الآية[2] .

والمعنى : لا تمكنوا أيها المؤمنون . المشركين من دخول المسجد الحرام بعد هذه السنة ، لأنهم نجس .. ولا تخشوا الفقر والفاقة بسبب عدم تمكينهم ، حيث إنكم تتبادلون معهم التجارات والمبايعات .. لأن الله - تعالى - قد وعدكم أن يغنيكم من فضله بالعطايا والخيرات التى تكفيكم أمر معاشكم ..

وقد أنجز الله - تعالى - لهم وعده ، فأرسل السماء عليهم مدرارا ، وفتح لهم البلاد ، فكثرت بين أيديهم الغنائم وألوان الخيرات ، ودخل فى دين الله من هم أيسر حالا وأغنى مالا من هؤلاء المشركين ..

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ أى : من عطائه أو من تفضله بوجه آخر ، فأرسل عليهم السماء مدرارا ، فأغزر بها خيرهم ، وأكثر مسيرهم . وأسلم أهل تبالة[3] وجرس فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به : فكان أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته »[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٨ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١٠٧ .
(٣) تبالة : بلد باليمن خصبة ومثلها جرس .
(٤) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٠ .

والتقييد بالمشيئة فى قوله : ﴿ إن شاء ﴾ ليس للتردد ، بل هو لتعليم المؤمنين رعاية الأدب مع الله - تعالى - كما فى قوله : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ . ولبيان أن هذا الاغناء بإرادته - سبحانه - وحده ، فعليهم أن يجعلوا اعتمادهم عليه ، وتضرعهم إليه لا إلى غيره ، وللتنبيه على أن عطاءه سبحانه لهم ، هو من باب التفضل لا الوجوب ، لأنه لو كان واجبا ما قيده بالمشيئة .

ولما كانت مشيئته - سبحانه - تجرى حسب مقتضى علمه وحكمته ، فقد ختم الآية بقوله : ﴿ إن الله عليم حكيم ﴾ .

أى : إن الله عليم بأحوالكم ومصالحكم ، وبما يكون عليه أمر حاضركم ومستقبلكم حكيم فيما شرعه لكم . فاستجيبوا له لتنالوا السعادة فى دنياكم وآخرتكم .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى استنبطها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - أن المراد بالمشركين فى الآية ما يتناول عبدة الأوثان وغيرهم من أهل الكتاب . كما هو مقتضى ظاهر اللفظ ، وكما يدل عليه قوله - تعالى - ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .. ﴾[1] .

أى : لا يغفر أن يشرك به بأى لون من ألوان الشرك .

ويرى كثير من الفقهاء أن المراد بالمشركين هنا عبدة الأوثان فحسب ، لأن الحديث خاص بهم من أول السورة إلى هنا .

٢ - يرى جمهور الفقهاء أن نجاسة المشركين مرجعها إلى خبث بواطنهم لعبادتهم سوى الله - تعالى - أما أبدانهم فطاهرة .

وقد بسط صاحب المنار القول فى هذه المسألة فقال ما ملخصه : « قال بعضهم بنجاسة أعيان المشركين ، ووجوب تطهير ما تصيبه أبدانهم مع البلل .

حكى هذا القول عن ابن عباس والحسن البصرى .. وجمهور الظاهرية ..

ويرى جمهور السلف والخلف وأصحاب المذاهب الأربعة أن أعيانهم طاهرة . لأنه من المعلوم أن المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم . ومع هذا فالنبى - ﷺ - لم يأمر بغسل شىء مما أصابته أبدانهم .. بل الثابت أنه - ﷺ - توضأ من مزادة مشركة ،وأكل من طعام اليهود ... وأطعم هو وأصحابه وفدًا من الكفار ولم يأمر بغسل الأوانى التى أكلوا وشربوا فيها ..

---

(١) سورة النساء الآية ٤٨ .

وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول الله ، فنصيب من آنية المشركين وأسقيتهم فنستمتع بها ولا يعيب ذلك علينا ... »[1] .

٣ - اختلف الفقهاء فى المراد بالمسجد الحرام فى قوله - تعالى - ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ... ﴾ .

فقال ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعطاء : المراد به الحرم كله فيشمل المسجد الحرام ومكة ، لأن المسجد الحرام حيث أطلق فى القرآن فالمراد به الحرم كله . وعليه فالكافر يمنع من دخول الحرم كله ..

ويرى الشافعى أن المراد المسجد الحرام بخصوصه أخذا بظاهر اللفظ .

قال القرطبى : وقال الشافعى : الآية عامة فى سائر المشركين ، خاصة فى المسجد الحرام ، ولا يمنعون من دخول غيره ، فأباح دخول اليهودى والنصرانى فى سائر المساجد »[2] .

ويرى الإمام مالك أن المراد المسجد الحرام بالنص وبقية المساجد تقاس عليه ، لأن العلة - وهى النجاسة - موجودة فى المشركين ، والحرمة موجودة فى كل مسجد .

وعليه فلا يجوز تمكينهم لا من المسجد الحرام ولا من غيره من المساجد .

ويرى الأحناف أن المراد بالمسجد الحرم كله ، إلا أن النهى هنا ليس منصبًا على دخوله وإنما هو منصب على المنع من الحج والعمرة . ومن الحج إليه أى : لا تمكنوا - أيها المؤمنون - المشركين من الطواف بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا .

قال الآلوسى : ويؤيده قوله - تعالى - ﴿ بعد عامهم هذا ﴾ ، فإن تقييد النهى يدل على اختصاص المنهى عنه بوقت من أوقات العام . أى : لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة .. ويدل عليه نداء على - كرم الله وجهه - يوم نادى ببراءة ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، وكذا قوله - سبحانه - ﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ أى : فقرًا بسبب منعهم ، لما أنهم كانوا يأتون فى الموسم بالمتاجر ، فإنه إنما يكون إذا منعوا من دخول الحرم كما لا يخفى .

ثم قال : والحاصل أن الإمام الأعظم يقول بالمنع عن الحج والعمرة ويحمل النهى عليه ، ولا يمنعون عنده من دخول المسجد الحرام ومن دخول سائر المساجد »[3] .

---

(١) راجع تفسير المنار جـ ١٠ ص ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٠٥ .

(٣) تفسير الألوسى جـ ١٠ ص ٦٨ .

٤ - قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب فى الرزق جائز ، وليس ذلك بمناف للتوكل ، وإن كان الرزق مقدرًا ، ولكنه علقه بالأسباب لتظهر القلوب التى تتعلق بالأسباب ، من القلوب التى تتوكل على رب الأرباب وقد تقدم أن السبب لا ينافى التوكل ، ففى الحديث الذى أخرجه البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا »[1] - أى : تغدو صباحا وهى جياع ، وتعود عشية وهى ممتلئةالبطون - .

هذا ، وبتدبر آيات السورة الكريمة - من أولها إلى هنا - نراها قد وضحت العلاقات النهائية بين المسلمين وعبدة الأوثان ، وفصلت كثيرًا من الأحكام التى تخص الفريقين ، ومن ذلك أنها قررت :

١ - براءة الله ورسوله من عهود المشركين الذين مردوا على نقض المواثيق .

٢ - إعطاؤهم مهلة مقدارها أربعة أشهر يتدبرون خلالها أمرهم ، دون أن يتعرض المسلمون لهم بسوء .

٣ - إعلان الناس جميعًا يوم الحج الأكبر بهذه البراءة ..

٤ - أمر المؤمنين بإتمام مدة العهد لمن حافظ من المشركين على عهده .

٥ - بيان ما يجب على المؤمنين فعله إذا ما انقضت أشهر الأمان التى أعطيت للمشركين .

٦ - إرشاد المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم تأمين المشرك المستجير بهم حتى يسمع كلام الله ، ويطلع على حقيقة الإسلام .. ثم توصيله إلى موضع أمنه إن لم يسلم .

٧ - بيان الأسباب التى تدعو إلى قتال المشركين ، وإلى وجوب البراءة منهم .

٨ - بيان بعض الحكم والأسرار التى من أجلها شرع الجهاد فى الإسلام .

٩ - بيان أن المشركين ليسوا أهلاً لعمارة مساجد الله .. وأن الذين هم أهل لذلك : المؤمنون الصادقون .

١٠ - توجيه المؤمنين إلى أن إيمانهم يحتم عليهم أن يؤثروا محبة الله ورسوله على أى شىء آخر ، من الآباء والأبناء والإخوان .

١١ - تذكيرهم بجانب من نعم الله عليهم حيث نصرهم فى مواطن كثيرة ونصرهم يوم غزوة حنين ، بعد أن هزموا فى أول المعركة دون أن تنفعهم كثرتهم التى أعجبوا بها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٠٧ - بتصرف يسير -

١٢ - نهيهم عن تمكين المشركين من قربان المسجد الحرام ، وإزالة الوساوس التى قد تخطر ببالهم بسبب هذا النهى ، بأن وعدهم - سبحانه - بأنه سيعطيهم من فضله ما يغنيهم عن المكاسب التى تأتيهم عن طريق تبادل المنافع مع المشركين فى موسم الحج .

هذه أهم الموضوعات التى تعرضت لها سورة التوبة فى ثمان وعشرين آية من أولها إلى هنا . وهى موضوعات وضحت . كما أسلفنا . الأحكام النهائية فى علاقات المسلمين بالمشركين عبدة الأوثان .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك سبع آيات بينت فيها ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين من المنحرفين من أهل الكتاب ، كما حكت بعض أقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة ، التى تدعو المسلمين إلى قتالهم حتى يخضعوا لسلطان الإسلام ، وقد بدئت هذه الآيات بقوله - تعالى -

قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه لما ذكر - سبحانه - حكم المشركين فى إظهار البراءة من عهدهم ، وفى إظهار البراءة عنهم فى أنفسهم ، وفى وجوب مقاتلتهم ، وفى تبعيدهم عن المسجد الحرام .. ذكر بعده حكم أهل الكتاب ، وهو أن يقاتلوا إلى أن يعطوا الجزية فحينئذ يقرون على ما هم عليه بشرائط ، ويكونون عند ذلك من أهل الذمة والعهد[1] .

وقال ابن كثير ما ملخصه : هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب - اليهود والنصارى . وكان ذلك فى سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله - ﷺ - لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة ، فندبهم فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة . ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك فى عام جدب ، ووقت قيظ حر . وخرج رسول الله - ﷺ -

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٢٧ .

يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك ، ونزل بها ، وأقام بها قريبًا من عشرين يومًا ، ثم استخار الله فى الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال ، وضعف الناس .... »[1] .

وقوله : ﴿ قاتلوا الذين .... ﴾ أمر منه - سبحانه - للمؤمنين بقتال أهل الكتاب ، وبيان للأسباب التى اقتضت هذا الأمر ، وهى أنهم :

أولًا : ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ لأنهم لو كانوا مؤمنين به إيمانًا صحيحًا ، لاتبعوا رسوله محمداً - ﷺ - ، ولأن منهم من قال : ﴿ عزير ابن الله ﴾ ومنهم من قال : ﴿ المسيح ابن الله ﴾ .

وقولهم هذا كفر صريح ، لأنه - سبحانه - منزه عما يقولون .

قال - تعالى - ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ .

وثانيًا : أنهم « لا يؤمنون باليوم الآخر » على الوجه الذى أمر الله - تعالى - به ، ومن كان كذلك كان إيمانه . على فرض وجوده . كلا إيمان .

قال الجمل ما ملخصه : فإن قلت : اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف نفى الله عنهم ذلك ؟

قلت : إن إيمانهم بهما باطل لا يفيد ، بدليل أنهم لم يؤمنوا بالنبى - ﷺ - فلما لم يؤمنوا به كان إيمانهم بالله واليوم الآخر كالعدم فصح نفيه فى الآية ولأن إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين ، وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه ، والنصارى يعتقدون الحلول ، ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك .

وأيضًا فإن إيمانهم باليوم الآخر ليس كإيمان المؤمنين ، وذلك لأنهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد ، وأن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون - أى أنهم يرون نعيم الجنة وعذاب النار يتعلقان بالروح فقط ولا شأن للجسد بذلك . ومن اعتقد ذلك فليس إيمانه كإيمان المؤمنين وإن زعم أنه مؤمن[2] .

وثالثًا : أنهم ﴿ لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﴾ أى : أنهم لا يحرمون ما حرمه الله ورسوله محمد - ﷺ - فى القرآن والسنة ، وفضلًا عن ذلك فهم لا يلتزمون ما حرمته

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٧٥ .

شريعتهم على ألسنة رسلهم ، وإنما غيروا وبدلوا فيها على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم .

أى أنهم لا يحرمون ما حرمه الله لا فى شريعتنا ولا فى شريعتهم .

فاليهود - بجانب كفرهم بشريعتنا - لم يطيعوا شريعتهم ، بدليل أنهم استحلوا أكل أموال الناس بالباطل مع أنها . أى شريعتهم . نهتهم عن ذلك .

قال - تعالى - ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ... ﴾[1] .

والنصارى - بجانب كفرهم - أيضًا - بشريعتنا - لم يطيعوا شريعتهم بدليل أنهم ابتدعوا الرهبانية مع أن شريعتهم لم تشرع لهم ذلك .

قال - تعالى - ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾[2] .

ورابعًا : ﴿ لا يدينون دين الحق ﴾ . وقوله : ﴿ يدينون ﴾ بمعنى يعتقدون ويطيعون . يقال : فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده وأطاع أوامره ونواهيه .

والمراد بدين الحق : دين الإسلام الناسخ لغيره من الأديان .

أى : أنهم لا يتخذون دين الإسلام دينًا لهم ، مع أنه الدين الذى ارتضاه الله لعباده ، والذى لا يقبل - سبحانه - دينًا سواه . قال - تعالى - : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا ... ﴾[3] .

وقال - تعالى - : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[4] .

ويصح أن يكون المراد بدين الحق . ما يشمل دين الإسلام وغيره من الأديان السماوية التى جاء بها الأنبياء السابقون .

أى : ولا يدينون بدين من الأديان التى أنزلها الله على أنبيائه ، وشرعها لعباده ، وإنما هم يتبعون أحبارهم ورهبانهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم .

---

(١) سورة النساء . الآية ١٦١ .

(٢) سورة الحديد ٢٧ .

(٣) سورة المائدة . الآية ٣ .

(٤) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

وعبر عنهم فى قوله : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون .. ﴾ بالاسم الموصول للإيذان بعلية ما فى حيز الصلة للأمر بالقتال .

أى أن العلة فى الأمر بقتالهم ، كونهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق .

وقوله : ﴿ من الذين أوتوا الكتاب ﴾ بيان للمتصفين بهذه الصفات الأربعة وهم اليهود والنصارى ؛ لأن الحديث عنهم ، وعن الأسباب التى توجب قتالهم .

والمراد بالكتاب : جنسه الشامل للتوراة والإنجيل .

أى : قاتلوا من هذه صفاتهم ، وهم اليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل - عن طريق موسى وعيسى - عليهما السلام - ولكنهم لم يعملوا بتعاليمهما وإنما عملوا بما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم .

والمقصود بقوله : ﴿ من الذين أوتوا الكتاب ﴾ تميزهم عن المشركين عبدة الأوثان فى الحكم ، لأن حكم هؤلاء قتالهم حتى يسلموا ، أما حكم أهل الكتاب فهو القتال ، أو الإسلام ، أو الجزية :

وقوله : ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ غاية لإنهاء القتال .

أى : قاتلوا من هذه صفاتهم من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن طوع وانقياد ، فإن فعلوا ذلك فاتركوا قتالهم .

والجزية : ضرب من الخراج يدفعه أهل الكتاب للمسلمين وهى - كما يقول القرطبى : - من جزى يجزى - مجازاة - إذا كافأ من أسدى إليه . فكأنهم أعطوها للمسلمين جزاء ما منحوا من الأمن ، وهى كالقعدة والجلسة ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

يجزيك أو يثنى عليك وإن من ... أثنى عليك بما فعلت فقد جزى[1]

والمراد بإعطائها فى قوله : ﴿ حتى يعطوا الجزية ﴾ ، التزام دفعها وإن لم يذكر الوقت المحدد لذلك .

واليد هنا : يحتمل أن تكون كناية عن الاستسلام والانقياد . أى : حتى يعطوا الجزية عن خضوع وإنقياد .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١١٤

ويحتمل أن تكون كناية و « عن » الدفع نقدًا بدون تأجيل . أى : حتى يعطوها نقدًا بدون تسويف أو تأخير .

ويحتمل أن تكون على معناها الحقيقى، و«عن» بمعنى الباء أى: حتى يعطوها بيدهم إلى المسلمين لا أن يبعثوا بها بيد أحد سواهم .

وهذه المعانى لليد إنما تتأتى إذا أريد بها يد المعطى . أى : يد الكتابى .

أما إذا أردنا بها اليد الآخذة - وهى يد الحاكم المسلم - ففى هذه الحالة يكون معناها القوة والقهر والغلبة .

أى : حتى يعطوها عن يد غالبة قوية لا قبل لهم بالوقوف أمامها .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال:قوله : « عن يد » إما أن يراد يد المعطى أو الآخذ فمعناه على إرادة يد المعطى حتى يعطوها عن يده ، أى عن يد مؤاتية غير ممتنعة ؛ إذ أن من أبى وامتنع لم يعط يده ، بخلاف المطيع المنقاد ، ولذلك قالوا : أعطى بيده ، إذا انقاد وأصحب - أى : سهل بعد صعوبة - ألا ترى إلى قولهم : نزع يده عن الطاعة ، كما يقال : خلع ربقة الطاعة عن عنقه .

أو المعنى : حتى يعطوها عن يد إلى يد نقدًا غير نسيئة ، لا مبعوثًا بها على يد أحد ، ولكن يد المعطى إلى يد الآخذ .

ومعناه على إرادة يد الآخذ : حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية - وهى يد المسلمين - أو حتى يعطوها عن إنعام عليهم ، لأن قبول الجزية منهم ، وترك أرواحهم لهم ، نعمة عظيمة عليهم »[1] .

وقوله : ﴿ وهم صاغرون ﴾ من الصغار بمعنى الذل والهوان . يقال : صغر فلان يصغر صغرًا وصغارًا إذا ذل وهان وخضع لغيره .

والمعنى : قاتلوا من هذه صفاتهم من أهل الكتاب حتى يدفعوا لكم الجزية عن طواعية وانقياد . وهم أذلاء خاضعون لولايتكم عليهم ... فإن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرمه الله ورسوله . ولا يتخذون الدين الحق دينًا لهم . يستحقون هذا الهوان فى الدنيا ، أما فى الآخرة فعذابهم أشد وأبقى .

هذا . ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - إن هذه الآية أصل فى مشروعية الجزية ، وأنها لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عند

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٤ .

كثير من الفقهاء - لأن أهل الكتاب هم الذين يخيرون بين الإسلام أو القتال أو الجزية، أما غيرهم من مشركى العرب فلا يخيرون إلا بين الإسلام أو القتال.

قال القرطبى ما ملخصه: وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية فقال الشافعى: لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة، عربا كانوا أو عجمًا لهذه الآية: فإنهم هم الذين خصوا بالذكر فتوجه الحكم إليهم دون من سواهم، لقوله - تعالى - فى شأن المشركين: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ولم يقل: حتى يعطوا الجزية كما قال فى أهل الكتاب.

وقال الشافعى: وتقبل من المجوس لحديث « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » أى: فى أخذ الجزية منهم.

وبه قال أحمد وأبو ثور. وهو مذهب الثوري وأبى حنيفة وأصحابه وقال الأوزاعى: تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب.

وكذلك مذهب مالك: فإنه يرى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيا أو عجميًا تغلبيا أو قرشيًا؛ كائنا من كان إلا المرتد .. »[1].

٢ - أن أخذ الجزية منهم إنما هو نظير ما ينالهم، وكفنا عن قتالهم، ومساهمة منهم فى رفع شأن الدولة الإسلامية التى أمنتهم وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم، ومقدساتهم .. وإقرار منهم بالخضوع لتعاليم هذه الدولة وأنهم متى التزموا بدفعها وجب علينا حمايتهم، ورعايتهم، ومعاملتهم بالعدل والرفق والرحمة ..

وفى تاريخ الإسلام كثير من الأمثلة التى تؤيد هذا المعنى، ومن ذلك، ما جاء فى كتاب الخراج لأبى يوسف أنه قال فى خطابه لهارون الرشيد « وينبغى يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد - ﷺ - والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم؛ فقد روى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: « من ظلم من أمتى معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه ».

وكان فيما تكلم عمر بن الخطاب عند وفاته: أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله - ﷺ - أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوهم فوق طاقتهم »[2].

وجاء فى كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » أن جيوش التتار، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام، ووقع فى أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضد المسلمون

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٨ هـ ١٩٦١ م.
(٢) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٤.

شوكة التتار ، ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية ، أمير التتار بإطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لابد من إطلاق جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيرا لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، فأطلقهم له »[1] .

وجاء فى كتاب « الإسلام والنصرانية » للأستاذ الإمام محمد عبده ما ملخصه :

« ... الإسلام كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من دين . ثم يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونًا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار ، لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة .

خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديرة للعبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال وكل من لم يعن على القتال .

جاءت السنة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة ، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين ، « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » و « من آذى ذميا فليس منا » .

واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالى إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف فى أبناء الإسلام فضيق الصدر من طبع الضعيف .

ثم قال : أما المسيحية فترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله ، وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم ، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم - بعد العجز عن إخراجهم من دينهم - طردتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيًا .

ولا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى إلا كثرة العدد أو شدة العضد ، كما شهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه .

ثم قال : فأنت ترى الإسلام يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها ، بشىء من المال ، أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء ، لا يعكرون معه

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٢ .

صفو الدولة ، ولا يخلون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شئونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها سوى ضمائرهم »[١] .

وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : قال السيوطى : استدل بقوله - تعالى - ﴿ وهم صاغرون ﴾ من قال إنها تؤخذ بإهانة ، بأن يجلس الآخذ ويقوم الذمى ويطأطىء رأسه ، ويحنى ظهره ، ويقبض الآخذ لحيته ... إلخ .

وقد رد الإمام ابن القيم على هذا القائل بقوله : هذا كله مما لا دليل عليه ، ولا هو من مقتضى الآية ، ولا نقل عن رسول الله - ﷺ - ولا عن أصحابه .

والصواب فى الآية ، أن الصغار : هو التزامهم بجريان أحكام الله عليهم ، وإعطاء الجزية ، فإن ذلك هو الصغار ، وبه قال الشافعى »[٢] .

والذى نراه أن ما قاله الإمام ابن القيم فى رده هو عين الصواب ، وأن ما نقله السيوطى عن بعضهم ... يتنافى مع سماحة الإسلام وعدله ورحمته بالناس .

هذا ، وهناك أحكام أخرى تتعلق بالجزية لا مجال لذكرها هنا ، فليرجع إليها من شاء فى بعض كتب الفقه والتفسير[٣] .

وبعد أن بين - سبحانه - بعض رذائل أهل الكتاب على سبيل الإجمال ، اتبع ذلك بتفصيل هذه الرذائل ، فحكى أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الذميمة ، ونواياهم السيئة فقال - تعالى - :

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ

(١) الإسلام والنصرانية ص ٧٤ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٠٨ .
(٣) راجع على سبيل المثال تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٠٩ . وتفسير المنار جـ ١٠ ص ٣٣١ وتفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٠٥ .

مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول الله - ﷺ - سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى . وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك - يا محمد - وقد تركت قبلتنا ، وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله .. ﴾ الآية[1] .

و « عزير » كاهن يهودى سكن بابل سنة ٤٥٧ ق م تقريبًا ، ومن أعماله أنه جمع أسفار التوراة ؛ وأدخل الأحرف الكلدانية عوضًا عن العبرانية القديمة ، وألف أسفار : الأيام ، وعزرا ، ونحميا .

وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة ، وأطلقوا عليه لقب « ابن الله » .

قال البيضاوى : وإنما قالوا ذلك - أى : عزير ابن الله - لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة « بختصر » - سنة ٥٨٦ ق م ه من يحفظ التوراة . وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظًا فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما هذا إلا لأنه ابن الله »[2] .

وقال صاحب المنار ما ملخصه : جاء فى دائرة المعارف اليهودية الانكليزية - طبعة ١٩٠٣ - أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملى لليهودية الذى تفتحت فيه أزهاره ، وعبق شذا

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١٠ .
(٢) تفسير البيضاوى ص ٢٢٣ .

ورده . وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة .. »[١] .

وقد ذكر المفسرون هنا أقوالاً متعددة فى الأسباب التى حملت اليهود على أن يقولوا « عزير ابن الله » وأغلب هذه الأقوال لا يؤيدها عقل أو نقل ، ولذا فقد ضربنا عنها صفحا[٢] .

وقد نسب - سبحانه - القول إلى جميع اليهود مع أن القائل بعضهم ، لأن الذين لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم ، فكانوا مشاركين لهم فى الإثم والضلال ، وفيما يترتب على ذلك من عقاب .

وأما قول النصارى « المسيح ابن الله » فهو شائع مشهور ، ومن أسبابه أن الله - تعالى - قد خلق عيسى بدون أب على خلاف ما جرت به سنته فى التوالد والتناسل ، فقالوا عنه « ابن الله » .

وقد حاجهم - سبحانه - فى سورة آل عمران بأن آدم قد خلقه الله من غير أب أو أم ، فكان أولى بنسبة البنوة إليه ، لكنهم لم ينسبوا إليه ذلك ، فينبغى أن يكون عيسى كآدم .

قال - تعالى - ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ .

وقوله: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ ذم لهم على ما نطقوا به من سوء يمجه العقل السليم، والفكر القويم .

أى : ذلك الذى قالوه فى شأن « عزير والمسيح » قول تلوكه ألسنتهم فى أفواههم بدون تعقل ، ولا مستند لهم فيما زعموه سوى افترائهم واختلاقهم ، فهو من الألفاظ الساقطة التى لا وزن لها ولا قيمة ، فقد قامت الأدلة السمعية والعقلية على استحالة أن يكون لله ولد أو والد أو صاحبة أو شريك .

قال - تعالى - ﴿ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾[٣] .

ولقد أنذر ، سبحانه ، الذين نسبوا إليه الولد بالعقاب الشديد فقال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾[٤] .

---

(١) راجع تفسير المنار ص ٣٧٧ وما بعدها ففيه كلام مفيد عن عقيدة اليهود والنصارى .
(٢) راجع - على سبيل المثال - تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١١ . وتفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٧٢ .
(٣) سورة مريم الآيات : ٩٢ - ٩٥ .
(٤) سورة الكهف الآيتان ٥ ، ٦ .

وأسند ، سبحانه ، القول إلى الأفواه مع أنه لا يكون إلا بها ، لاستحضار الصورة الحسية الواقعية ، حتى لكأنها مسموعة مرئية ولبيان أن هذا القول لا وجود له فى عالم الحقيقة والواقع ، وإنما هو قول لغو ساقط وليد الخيالات والأوهام ، ولزيادة التأكيد فى نسبة هذا القول إليهم ، أى : أنه قول صادر منهم وليس محكيا عنهم .

قال صاحب الكشاف ، فإن قلت : كل القول يقال بالفم فما معنى قوله ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ ؟ .

قلت : فيه وجهان : أحدهما - أن يراد أنه قول لا يعضده برهان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من أى معنى تحته ، كالألفاظ المهملة التى هى أجراس ونغم ، لا تدل على معان . وذلك أن القول الدال على معنى ، لفظه مقول بالفم ، ومعناه مؤثر فى القلب ، وما لا معنى له مقول بالفم لاغير .

والثانى - أن يراد بالقول : المذاهب ، كقولهم « قول أبى حنيفة » يريدون مذهبه وما يقول به ، كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة ، حتى يؤثر فى القلوب ، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة فى انتفاء الولد »[1] .

وقوله : ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ ذم آخر لهم على تقليدهم لمن سبقوهم بدون تعقل أو تدبر .

قال الجمل ما ملخصه : قرأ العامة ﴿ يضاهون ﴾ بضم الهاء بعدها واو - . وقرأ عاصم «يضاهئون» بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة - فقيل هما بمعنى واحد وهو المشابهة ، وفيه لغتان : ضاهأت وضاهيت ... »[2] .

والمراد بالذين كفروا من قبل : قيل ، أهل مكة وأمثالهم من المشركين السابقين الذين قالوا ، الملائكة بنات الله وقيل ، المراد بهم قدماء أهل الكتاب ، أى ، أن اليهود والنصارى المعاصرين للنبى - ﷺ - يشابه قولهم فى العزير وعيسى قول آبائهم الأقدمين ، - أى المعاصرين للعهد النبوى - قد ورثوا الكفر كابرا عن كابر .

والأولى من هذين الوجهين أن يكون المراد بالذين كفروا من قبل . جميع الأمم التى ضلت وانحرفت عن الحق ، وأشركت مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

قال صاحب المنار ، وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٤ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٧٧ .

الابن لله والحلول والتثليث ، كانت معروفة عند البراهمة فى الهند وفى الصين واليابان وقدماء المصريين وقدماء الفرس .

وهذه الحقيقة التاريخية - والتى بينها القرآن فى هذه الآية - من معجزاته لأنه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا ممن حولهم ، بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان »[١] .

والمعنى. أن هؤلاء الضالين الذين قال بعضهم «عزير ابن الله» وقال البعض الآخر « المسيح ابن الله » ليس لهم على قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان ، ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم « فهم على آثارهم يهرعون »[٢] .

وقوله . ﴿ قاتلهم الله ﴾ تعجيب من شناعة قولهم ، ودعاء عليهم بالهلاك فإن من قاتله الله لابد أن يقتل ، ومن غالبه لابد أن يغلب .

وعن ابن عباس ، أن معنى ﴿ قاتلهم الله ﴾ لعنهم الله وكل شىء فى القرآن قتلٍ فهو لعن[٣] .

وقوله : ﴿ أنى يؤفكون ﴾ تعجيب آخر من انصرافهم الشديد عن الحق الواضح إلى الباطل المظلم المعقد .

و ﴿ أنى ﴾ بمعنى كيف . و ﴿ يؤفكون ﴾ من الإفك بمعنى الانصراف عن الشىء والابتعاد عنه ، يقال ، أفكه عن الشىء يأفكه أفكا ، أى ، صرفه عنه وقلبه . ويقال ، أفكت الأرض أفكا ، أى : صرف ، عنها المطر .

والمعنى : قاتل الله هؤلاء الذين قالوا ﴿ عزير ابن الله ﴾ والذين قالوا ﴿ المسيح ابن الله ﴾ لأنهم بقولهم هذا محل مقت العقلاء وعجبهم ، إذ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، بعد وضوح الدليل على استحالة أن يكون له - تعالى - ولد أو والد أو صاحبة أو شريك .. ؟ ! .

إن ماقالوه ظاهر البطلان وهو محل عجب العقلاء واستنكارهم وغضبهم .

وقوله - سبحانه ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ بيان للون آخر من ألوان انحراف اليهود والنصارى عن الحق إلى الباطل ، وتقرير لما سبقت حكايته عنهم من أقوال فاسدة ، وأفعال ذميمة .

---

(١) تفسير المنار - بتصرف وتلخيص جـ ١٠ ص ٣٩٩ وراجع تفسير فى ظلال القرآن جـ ١٠ ص ٢٠٠ .
(٢) سورة الصافات . الآية ٧٠ .
(٣) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١٣ .

والضمير فى قوله ﴿ اتخذوا ﴾ يعود إلى الفريقين اللذين حكت الآية السابقة ما قالوه من باطل وبهتان .

والأحبار : علماء اليهود جمع حبر ، بكسر الحاء وفتحها - وهو الذى يحسن القول ويتقنه ، مأخوذ من التحبير بمعنى التحسين والتزيين ، ومنه ثوب محبر أى جمع الزينة والحسن ، والرهبان : علماء النصارى جمع راهب وهو الزاهد فى متع الدنيا ، المنعزل عن الناس مأخوذ من الرهبة بمعنى الخشية والخوف من الله - تعالى .

والمراد باتخاذهم لأحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، أنهم أطاعوهم فيما أحلوه لهم ، وفيما حرموه عليهم ، ولو كان هذا التحليل والتحريم مخالفاً لشرع الله .

وهذا التفسير مأثور عن رسول الله - ﷺ - فقد روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم أنه لما بلغته دعوة رسول الله ، ﷺ ، فر إلى الشام : وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومها ، ثم مَنَّ رسول الله - ﷺ - على أخته وأعطاها . فرجعت إلى أخيها ، فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله - ﷺ-فقدم عدى المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طيئ وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ ، وفى عنق عدى صليب من فضة ، وكان الرسول يقرأ هذه الآية ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ... ﴾ .

قال عدى : فقلت ، إنهم لم يعبدوهم ، فقال ، بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم .

قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما فى تفسير هذه الآية : أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

وقال السدى : استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم[1] .

وقال الآلوسى : وقيل اتخاذهم أربابًا بالسجود لهم ونحوه مما لايصلح إلا لله ، تعالى ، وحينئذ فلا مجاز ، إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله ﷺ .

والآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله ، لكلام علمائهم ورؤسائهم ، والحق أحق بالاتباع ، فمتى ظهر الحق فعلى المسلم اتباعه وإن أخطأه اجتهاد مقلده »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١ ص ٧٥ .

وقوله : ﴿ والمسيح ابن مريم ﴾ معطوف على قوله ﴿ أحبارهم ﴾ والمفعول الثانى بالنسبة إليه محذوف أى : اتخذوه رباً وإلهًا .

قال صاحب المنار ما ملخصه : جمع - سبحانه . بين اليهود والنصارى فى اتخاذ رجال دينهم أربابا بأن أعطوهم حق التشريع فيهم : وذكر بعد ذلك ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المسيح ربا وإلها يعبدونه واليهود لم يعبدوا عزيرا ، ولم يؤثر عمن قال منهم إنه ابن الله ، أنهم عنوا ما يعنيه النصارى من قولهم فى المسيح : إنه هو الله الخالق المدبر لأمور العباد »[1] .

وقوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدو إلها واحدا لا إله إلا هو ﴾ جملة حالية أى : اتخذ هؤلاء المفترون على الله الكذب من اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، بأن أطاعوهم فيما يحلونه لهم وفيما يحرمونه عليهم ولو كان ذلك مخالفاً لشرع الله ؛ وكذلك اتخذ النصارى المسيح ابن مريم رباً وإلهاً .

والحال أنهم جميعاً ما أمروا على ألسنة رسلهم إلا بعبادة الله وحده ، فهو المعبود الذى لا تعنو الوجوه إلا له ، ولا يكون الاعتماد إلا عليه ، وكل ما سواه فهو مخلوق له .

وقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ صفة ثانية لقوله ﴿ إلها ﴾ . أو هو استئناف بيانى لتعليل الأمر بعبادة الله وحده ، وأنه - سبحانه - هو المستحق لذلك شرعا وعقلا .

وقوله : ﴿ سبحانه عما يشركون ﴾ تنزيه له عن الشرك والشركاء إثر الأمر بإخلاص العبادة له .

أى : تنزه الله - عز وجل - وتقدس عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، فهو رب العالمين ، وخالق الخلائق أجمعين ..

قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : ومن النص القرآنى الواضح الدلالة ، ومن تفسير رسول الله - ﷺ - للآية وهو فصل الخطاب ، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين ، تخلص لنا حقائق فى العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار وهى : أن العبادة هى الاتباع فى الشرائع بنص القرآن وتفسير الرسول - ﷺ فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابا بمعنى الاعتقاد فى ألوهيتهم ، أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم ... ومع هذا فقد حكم الله ، سبحانه ، عليهم

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٢٦ .

بالشرك فى هذه الآية ، وبالكفر فى آية تالية فى السياق لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها - فهذا وحده دون الاعتقاد والشعائر يكفى لاعتبار من يفعله مشركا بالله ، الشرك الذى يخرجه من عداد المؤمنين ، ويدخله فى عداد الكافرين .

إن النص القرآنى يسوى فى الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله ، بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه ، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقادا وقدموا إليه الشعائر فى العبادة(١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يهدف إليه أهل الكتاب من وراء أقاويلهم الكاذبة ، ودعاواهم الباطلة فقال : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

والمراد بنور الله : دين الإسلام الذى ارتضاه . سبحانه - لعباده ديناً وبعث به رسوله ﷺ ، وأعطاه من المعجزات والبراهين الدالة على صدقه ، وعلى صحته ما جاء به مما يهدى القلوب ، ويشفى النفوس ، ويجعلها لا تدين بالعبادة والطاعة إلا لله الواحد القهار .

وقيل المراد بنور الله : حججه الدالة على وحدانيته - سبحانه - وقيل المراد به ، القرآن ، وقيل المراد به : نبوة النبى - ﷺ - وكلها معان متقاربة .

والمراد بإطفاء نور الله : محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه ، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه ، كإثارتهم للشبهات من حول تعاليمه ، وكتحريضهم لأتباعهم وأشياعهم على الوقوف فى وجهه ، وعلى محاربته .

والمراد بأفواههم . أقوالهم الباطلة الخارجة من تلك الأفواه التى تنطق بما لا وزن له ولا قيمة .

والمعنى : يريد هؤلاء الكافرون بالحق من أهل الكتاب أن يقضوا على دين الإسلام ، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التى جاء بها نبيه - ﷺ - عن طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن أفواههم من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه ، أو أصل تستند إليه ، وإنما هى أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذى لا وزن له ولا قيمة ...

قال الآلوسى ما ملخصه : فى الكلام استعارة تمثيلية ، حيث شبه - سبحانه - حال أهل

---

(١) راجع تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٠ ص ٢٠٣ للأستاذ سيد قطب . طبعة دار إحياء التراث العربى الطبعة الخامسة .

الكتاب فى محاولة إبطال نبوة النبى ، ﷺ ، عن طريق تكذيبهم له ، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم مثبت فى الآفاق ليطفئه بنفخه ..

وروعى فى كل من المشبه والمشبه به معنى الإفراط والتفريط ، حيث شبه الإبطال والتكذيب بالإطفاء بالفم ، ونسب النور إلى الله - تعالى - العظيم الشأن .

ومن شأن النور المضاف إليه - سبحانه - أن يكون عظيما ، فكيف يطفأ بنفخ الفم[1] .. ؟ !!

وقوله : ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ بشارة منه - سبحانه - للمؤمنين ، وتقرير لسنته التى لا تتغير ولا تتبدل فى جعل العاقبة للحق وأتباعه .

والفعل ﴿ يأبى ﴾ هنا بمعنى لا يريد أو لا يرضى - أى : أنه جار مجرى النفى ، ولذا صح الاستثناء منه .

قال أبو السعود : وإنما صح الاستثناء المفرغ - وهو قوله ﴿ إلا أن يتم نوره ﴾ . من الموجب ، وهو قوله ﴿ ويأبى الله ﴾ - لكونه بمعنى النفى ، ولوقوعه فى مقابلة قوله : ﴿ يريدون ﴾ ، وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس فى نفى الإرادة ، أى : لا يريد شيئا من الأشياء إلا إتمام نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه ، فضلا عن الإطفاء .

وفى إظهار ﴿ النور ﴾ فى مقام الإضمار مضافا إلى ضميره - سبحانه - زيادة اعتناء بشأنه ، وتشريف له على تشريف ، وإشعار بعلة الحكم »[2] .

وجواب ﴿ لو ﴾ فى قوله ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه .

والمعنى : يريد أعداء الله أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والحال أن الله - تعالى - لا يريد إلا إتمام هذا النور ، ولو كره الكافرون هذا الإتمام لأتمه - سبحانه - دون أن يقيم لكراهتهم وزنا .

فالآية الكريمة وعد من الله ، تعالى للمؤمنين بإظهار دينهم وإعلاء كلمتهم لكى يمضوا قدماً إلى تنفيذ ما كلفهم الله به بدون إبطاء أو تثاقل ، وهى فى الوقت نفسه تتضمن فى ثناياها الوعيد لهؤلاء الضالين وأمثالهم .

- ثم أكد - سبحانه - وعده بإتمام نوره ، وبين كيفية هذا الإتمام فقال : ﴿ هو الذى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٧٦ - بتصرف وتلخيص .

(٢) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٦٧ . طبعة صبيح .

أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

والمراد بالهدى : القرآن الكريم المشتمل على الارشادات السامية ، والتوجيهات القويمة ، والأخبار الصادقة ، والتشريعات الحكيمة .

والمراد بدين الحق : دين الإسلام الذى هو خاتم الأديان .

وقوله ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان ، والسيادة والسلطان .

والجملة تعليلية لبيان سبب هذا الإرسال والغاية منه .

والضمير فى ﴿ ليظهره ﴾ يعود على الدين الحق أو الرسول - ﷺ - والمعنى : هو الله - سبحانه - الذى أرسل رسوله محمدا - ﷺ ، بالقرآن الهادى للتى هى أقوم ، وبالدين الحق الثابت الذى لا ينسخه دينٍ آخر ، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحجة والغلبة ، ولإظهار رسوله ، ﷺ ، على أهل الأديان كلها ، بما أوحى إليه - سبحانه - من هدايات ، وعبادات ، وتشريعات ، وآداب ... فى اتباعها سعادة الدنيا والآخرة .

وختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ﴿ ولو كره المشركون ﴾ وختم التى قبلها بقوله : ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ للاشعار بأن هؤلاء الذين قالوا : « عزير ابن الله والمسيح ابن الله » قد جمعوا بسبب قولهم الباطل هذا ، بين رذيلتى الكفر والشرك ، وأنه ، سبحانه ، سيظهر أهل دينه على جميع أهل الأديان الأخرى .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث التى تؤيد ذلك ، منها : ما ثبت فى الصحيح عن رسول الله . ﷺ . أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض من مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » .

وروى الإمام أحمد عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول : « إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار ، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة » .

وروى أيضا عن تميم الدارى قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزا ويذل ذليلا ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر ». وكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الشرف والخير والعز ، ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية .

وأخرج أيضا عن عدى بن حاتم قال : دخلت على رسول الله ، ﷺ فقال : « يا عدى أسلم تسلم » ، فقلت يا رسول الله : إنى من أهل دين . قال : « أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال نعم ، ألست من الركوسية[١] ، وأنت تأكل مرباع قومك »[٢] .

قلت : بلى . قال : « فإن هذا لا يحل لك فى دينك » .

ثم قال - ﷺ - : « أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، ومن رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة » ؟

قلت : لم أرها وقد سمعت بها .

قال : « فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر ، حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » .

قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم . كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » .

قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد . ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله - ﷺ - قد قالها[٣] .

وإلى هنا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد كذبت أهل الكتاب فى قولهم « عزير ابن الله والمسيح ابن الله » ، وأرشدتهم إلى الطريق الحق الواضح المستقيم ليسيروا عليه ، ووبختهم على تشبههم فى هذه الأقوال الباطلة بمن سبقهم من الضالين ، وعلى انقيادهم لأحبارهم ورهبانهم بدون تعقل أو تدبر ، وبشرت المؤمنين بظهور دينهم الذى ارتضاه الله لهم على الأديان كلها .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن أهل الكتاب بتوجيه نداء إلى المؤمنين بين لهم فيه بعض الرذائل التى انغمس فيها الأحبار والرهبان ، وكيف جمعوا بين ضلال أنفسهم وإضلال أتباعهم ، حيث أمروا هؤلاء الأتباع بالانقياد لهم فيما يأتون ويذرون ... فقال - تعالى - :

---

(١) الركوسية « بفتح الراء المشددة » قوم لهم دين بين النصارى والصابئين .

(٢) المرباع بمعنى الربع ، كالمعشار بمعن العشر . وكان الناس فى الجاهلية يعطون رئيسهم ربع ما يغنمونه خالصًا له دون أن يشاركه فيه أحد . وكان عدى رئيسًا لقومه .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٤٩ .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه – تعالى – لما وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية والترفع على الخلق ، وصفهم فى هذه الآية بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس ، تنبيها على أن المقصود من إظهار تلك الربوبية والتجبر والفخر ، أخذ أموال الناس بالباطل .

ولعمرى من تأمل أحوال أهل الناموس والتزوير فى زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا فى شأنهم ، وفى شرح أحوالهم ، فترى الواحد منهم يدعى أنه لا يلتفت إلى الدنيا ، ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات ، وأنه فى الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين ؛ حتى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ؛ ويتحمل نهاية الذل والدناءة فى تحصيله[1] .

والمراد بالأكل فى قوله : ﴿ ليأكلون ﴾ مطلق الأخذ والانتفاع .

وعبر عن ذلك بالأكل ، لأنه المقصود الأعظم من جمع الأموال ، فسمى الشىء باسم ما هو أعظم مقاصده ، على سبيل المجاز المرسل ، بعلاقة العلية والمعلولية . وأكلهم أموال الناس بالباطل ، يتناول ما كانوا يأخذونه من سفلتهم عن طريق الرشوة والتدليس أو التحايل أو الفتاوى الباطلة . كما يتناول ما سوى ذلك مما كانوا يأخذونه بغير وجه حق .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٤١ .

وأسند - سبحانه - هذه الجريمة - وهى أكل أموال الناس بالباطل - إلى كثير من الأحبار والرهبان ولم يسندها إلى جميعهم ، إنصافا للعدد القليل منهم الذى لم يفعل ذلك ، فإن كل طائفة أو جماعة لا تخلو من وجود أفراد من بينها يتعففون عن الحرام ، ويقيدون أنفسهم بالحلال .

قال صاحب المنار : وإسناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحرى الحق فى عبارات الكتاب العزيز ، فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم ، بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر ، أو يطلق اللفظ العام ثم يستثنى منه .

فمن الأول قوله - تعالى - فى اليهود : ﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانون يصنعون[1] ﴾.

ومن الثانى قوله - تعالى - فى اليهود أيضا : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون[2] ﴾.

ومن الثالث قوله - سبحانه - فى شأن المحرفين للكلم الطاعنين فى الإسلام من اليهود + أيضا - : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع ، وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا[3] ﴾.

وقد نبهنا فى تفسير هذه الآيات وأمثالها على العدل الدقيق فى أحكام القرآن على البشر وإنما نكرره لعظيم شأنه ... »[4] .

وقوله : ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ جريمة من جرائمهم الكثيرة .

والصد : المنع والصرف عن الشىء .. وسبيل الله : دينه وشريعته .

أى ، أن هؤلاء الكثيرين من الأحبار والرهبان لا يكتفون بأكل أموال الناس بالباطل ، بل إنهم يضيفون إلى ذلك جريمة ثانية من جرائمهم المتعددة وهى إنهم ينصرفون عن الدين الحق وهو دين الإسلام انقياداً لأحقادهم وشهواتهم ، ويصرفون أتباعهم عنه بشتى الوسائل ، كأن

---

(١) سورة المائدة الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .
(٢) سورة المائدة الآية ٥٩ .
(٣) سورة النساء الآية ٤٦ .
(٤) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٦٢ - بتصرف يسير .

يصفوه لهم بأنه دين باطل ، أو بأن رسوله - ﷺ - ليس هو الرسول الذى بشرت به الكتب السماوية السابقة ... إلى غير ذلك من وسائلهم المتنوعة فى صرف الناس عن الحق .

والاسم الموصول فى قوله : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله .. ﴾ يرى بعضهم أن المراد به أولئك الأحبار والرهبان ، لأن الكلام مسوق فى ذمهم ، وتكون هذه الجملة ذما لهم على رذيلة ثالثة هى الحرص والبخل ، بعد ذمهم على رذيلتى أكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله .

ويرى آخرون أن المراد بهم البخلاء من المسلمين ، وأن الجملة مستأنفة لذم مانعى الزكاة بقرينة قوله : ﴿ ولا ينفقونها فى سبيل الله ﴾ ويكون نظمهم مع أهل السوء من الأحبار والرهبان من باب التحذير والوعيد والإشارة إلى أن الأشحاء المانعين لحقوق الله ، مصيرهم كمصير الأحبار والرهبان فى استحقاق البشارة بالعذاب .

وترى طائفة ثالثة من العلماء أن المراد به كل من كنز المال ، ولم يخرج الحقوق الواجبة فيه ، سواء أكان من المسلمين أم من غيرهم ، لأن اللفظ مطلق ، فيجب إجراؤه على إطلاقه وعمومه ، إذ لم يرد ما يقيده أو يخصصه .

وقوله : ﴿ يكنزون ﴾ من الكنز ، وأصله فى اللغة العربية : الضم والجمع .

يقال : كنزت التمر فى الوعاء إذا جمعته فيه . وكل شىء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض أو على ظهرها فهو كنز ، وجمعه كنوز .

وخص الذهب والفضة بالذكر ، لأنهما الأصل الغالب فى الأموال ولأنهما اللذان يقصدان بالكنز أكثر من غيرهما .

وقال الفخر الرازى ما ملخصه : ذكر - سبحانه - شيئين هما الذهب والفضة ثم قال : ﴿ ولا ينفقونها ﴾ - وكان الظاهر أن يقول « ولا ينفقونهما » والجواب من وجهين :

الأول : أن الضمير عائد إلى المعنى دون اللفظ ، لأن كل واحد منهما جملة وافية ؛ وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله - تعالى - ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا .. ﴾

أو أن يكون التقدير : والذين يكنزون الكنوز ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فيكون الضمير عائد إلى الكنوز المدلول عليها بالفعل ﴿ يكنزون ﴾ .

الثانى : أن يكون الضمير عائد إلى اللفظ ، ويكون ذكر أحدهما يغنى عن ذكر الآخر ،

كقوله - تعالى - ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها[1] ﴾ جعل الضمير للتجارة ... [2] .

وقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ خبر الموصول .

والتعبير بالبشارة من باب التهكم بهم ، والسخرية منهم ، فهو كقولهم : تحيتهم الضرب ؛ وإكرامهم الشتم .

وقوله : ﴿ يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .. ﴾ تفصيل لهذا العذاب الأليم ، وبيان لميقاته ، حتى يقلع البخلاء عن بخلهم ، والأشحاء عن شحهم ...

والظرف ﴿ يوم ﴾ منصوب بقوله : ﴿ عذاب أليم ﴾ ؛ أو بفعل محذوف يدل عليه هذا القول .

أى : يعذبون يوم يحمى عليها ، أو بفعل مقدر ؛ أى : اذكر يوم يحمى عليها .

وقوله ﴿ يحمى ﴾ يجوز أن يكون من حميت وأحميت - ثلاثيا ورباعيا - يقال : حميت الحديدة وأحميتها ، أى : أوقدت عليها لتحمى .

وقوله : ﴿ عليها ﴾ جار ومجرور فى موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . ويجوز أن يكون القائم مقام الفاعل مضمرا ، أى : يحمى الوقود أو الجمر عليها .

قال الآلوسى : وأصله تحمى بالنار من قولك : حميت الميسم وأحميته فجعل الإحماء للنار مبالغة ؛ لأن النار فى ذاتها ذات حمى ، فإذا وصفت بأنها تحمى دل على شدة توقدها . ثم حذفت النار ، وحول الإسناد إلى الجار والمجرور تنبيها على المقصود بأتم وجه فانتقل من صيغة التأنيث إلى التذكير كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير . فإذا طرحت القصة وأسند الفعل إلى الجار والمجرور قلت : رفع إلى الأمير ، وقرأ ابن عامر ﴿ تحمى ﴾ بالتاء بإسناده إلى النار كأصله »[3] . والمعنى : بشر - يا محمد - أولئك الذين يكنزون الأموال فى الدنيا ولا ينفقونها فى سبيل الله ، بالعذاب الأليم يوم الحساب يوم تحمى النار المشتعلة على تلك الأموال التى لم يؤدوا حق الله فيها ﴿ فتكوى بها جباههم ﴾ أى : فتحرق بها جباههم التى كانوا يستقبلون بها الناس ، والتى طالما ارتفعت غرورا بالمال المكنوز ، وتحرق بها - أيضا - « جنوبهم » التى كثيرا ما انتفخت من شدة الشبع وغيرها جائع ، وتحرق بها كذلك « ظهورهم » التى نبذت وراءها حقوق الله بجحود وبطر ...

---

(١) سورة الجمعة الآية ١١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٤٧ - بتصرف وتلخيص .

(٣) تفسير الآلوسى : جـ ١٠ ص ٧٨ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم خصت هذه الأعضاء بالكى ؟

قلت : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم - حيث لم ينفقوها فى سبيل الله - إلا الأغراض الدنيوية ، من وجاهة عند الناس ، وتقدم ، وأن يكون ماء وجوههم مصونا عندهم ، يتلقون بالجميل ويحيون بالإكرام ، ويبجلون ويحتشمون ، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم ، كما ترى أغنياء زمانك ، هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم ، لا يخطر ببالهم قول رسول الله - ﷺ - « ذهب أهل الدثور بالأجر كله » .

وقيل : لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه ، وتولوا بأركانهم ، وولوه ظهورهم .. »[1] .

وقوله : ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ مقول لقول محذوف .

والتفسير : تقول لهم ملائكة العذاب على سبيل التبكيت والتوبيخ ، وهى تتولى حرق جباههم وجنوبهم وظهورهم : هذا العذاب الأليم النازل بكم فى الآخرة هو جزاء ما كنتم تكنزونه فى الدنيا من مال لمنفعة أنفسكم دون أن تؤدوا حق الله فيه . فذوقوا وحدكم وبال كنزكم . وتجرعوا غصصه ، وتحملوا سوء عاقبته فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم ، لأنكم لم تشكروا الله على هذه الأموال . بل استعملتموها فى غير ما خلقت له .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين مايأتى .

١ - التحذير من الانقياد لدعاة السوء ، ومن تقليدهم فى رذائلهم وقبائحهم ووجوب السير على حسب ما جاء به الإسلام من تعاليم وتشريعات ...

ولذا قال ابن كثير عند تفسيره للآية الأولى : والمقصود التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال ، كما قال سفيان بن عيينه : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من أحبار اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من رهبان النصارى .

وفى الحديث الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذوالقذة بالقذة» قالوا: اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » ؟ وفى رواية : فارس والروم ؟ قال : « فمن الناس إلا هؤلاء » والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم[2] .

هذا ، ونص الحديث الصحيح الذى ذكره الإمام ابن كثير - كما رواه الشيخان - هكذا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٠ .

عن أبي سعيد الخدرى أن النبى . ﷺ . قال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه ، قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟[1] .

أما الحديث الذى جاء فيه حذو القذة بالقذة ، فقد أخرجه الإمام أحمد عن شداد بن أوس ونصه : « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم . أهل الكتاب ، حذو القذة بالقذة »[2] .

٢ - يرى جمهور العلماء أن المقصود بالكنز فى قوله ، تعالى ، ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ﴾.. ألخ المال الذى لم تؤد زكاته ، أما إذا أديت زكاته فلا يسمى كنزا ، ولا يدخل صاحبه تحت الوعيد الذى اشتملت عليه الآية .

وقد وضح الإمام القرطبى هذه المسألة فقال : واختلف العلماء فى المال الذى أديت زكاته هل يسمى كنزا أولا ؟ .

فقال قوم : نعم . رواه أبو الضحا عن جعدة بن هبيرة عن على قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما كثر فهو كنز وإن أديت زكاته ، ،،، ولا يصح .

وقال قوم : ما أديت زكاته منه أو من غيره عنه فليس بكنز،قال ابن عمر:ما أديت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل مالم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . ومثله عن جابر ، وهو الصحيح .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسوله الله ﷺ - من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك .. » .

وفيه أيضا عن أبى ذر قال : انتهيت إلى النبى - ﷺ - فقال : « والذى نفسى بيده ، ما من رجل تكون له إبل أو بقر أوغنم ، لا يؤدى حقها ، إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه ، تطؤه بأخفافها ، وتنطحه بقرونها ، كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس» .

فدل دليل خطاب هذين الحديثين على صحة ما ذكرنا . وقد بين ابن عمر فى صحيح البخارى هذا المعنى . قال له أعرابى : أخبرنى عن قول الله . تعالى - ﴿ والذين يكنزون

---

(١) أخرجه الترمذى فى باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، جـ ٤ ص ٢٠٦ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٥ هـ .
(٢) راجع المسند جـ ٤ ص ١٢٥ ، طبعة عيسى الحلبى . تحقيق الأستاذ أحمد شاكر .

الذهب والفضة ..﴾ الآية فقال ابن عمر : من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال .

وروى أبو داود عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة .. ﴾ كبر ذلك على المسلمين ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق فقال : يا نبى الله ، إنه كبر على أصحابك هذه الآية . فقال - ﷺ - « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم » قال : فكبر عمر . ثم قال له رسول الله - ﷺ - : « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » [١] .

٣ - أخذ بعض الصحابة من هذه الآية تحريم اكتناز الأموال التى تفيض عن حاجات الإنسان الضرورية .

قال ابن كثير : كان من مذهب أبى ذر - رضى الله عنه - تحريم ادخار ماز اد على نفقة العيال ، وكان يفتى بذلك ، ويحثهم عليه ويأمرهم به ، ويغلظ فى خلافه ، فنهاه معاوية فلم ينته ، فخشى أن يضر بالناس فى هذا ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان ، وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة - وهى بلدة قريبة من المدينة - وبها مات - رضى الله عنه - فى خلافة عثمان .

وروى البخارى فى تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة ، فإذا بأبى ذر ، فقلت له : ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ . فقال معاوية : ما هذه فينا ما هذه إلا فى أهل الكتاب . قال : قلت : إنها لفينا وفيهم .

ثم قال ابن كثير : وفى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال لأبى ذر : « ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شىء إلا دينار أرصده لدين » فهذا - والله أعلم - هو الذى حدا أباذر على القول بهذا »[٢] .

وقال الشيخ القاسمى : قال ابن عبد البر : وردت عن أبى ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش ، فهو كنز يذم فاعله ، وأن آية الوعيد نزلت فى ذلك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٢٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٢ - بتصرف وتلخيص .

وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وحملوا الوعيد على مانعى الزكاة ، وأصح ما تمسكوا به حديث طلحة وغيره فى قصة الأعرابى حيث قال : هل على غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع »[1] .

وحديث طلحة الذى أشار إليه ابن عبد البر ، قد جاء فى صحيح البخارى ونصه : عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام .

فقال رسول الله - ﷺ - « خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فقال : هل على غيرها ؟ : قال :«لا .. إلا أن تطوع ، قال رسول الله ﷺ : « وصيام رمضان » قال: هل على غيره ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » ، قال . وذكر له رسول الله - ﷺ - الزكاة ، قال . هل على غيرها ؟ قال « لا إلا أن تطوع » .

قال ، فأدبر الرجل وهو يقول . والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص . فقال ، رسول الله - ﷺ - « أفلح إن صدق »[2] .

هذا ؛ ومما استدل به جمهور الصحابة ومن بعدهم من العلماء ، على عدم حرمة اقتناء الأموال التى تفيض عن الحاجة - مادام قد أدى حق الله فيها - مايأتى :

(أ) أن قواعد الشرع لا تحرم ذلك ، وإلا لما شرع الله المواريث لأنه لو وجب إنفاق كل مازاد عن الحاجة ، لما كان لمشروعية المواريث فائدة .

(ب) ثبت فى الحديث الصحيح أن سعد بن أبى وقاص عندما كان مريضاً ، وزاره رسول الله - ﷺ - قال له : يا رسول الله : أأوصى بمالى كله ؟ قال : « لا . قال سعد : فالشطر ؟ قال : لا . قال سعد : فالثلث ؟ فقال له - ﷺ - : فالثلث والثلثَ كثير . إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ... »[3] .

ولو كان جمع المال واقتناؤه محرما ، لأقر النبى - ﷺ - سعدا على التصدق بجميع ماله ، ولأمر المسلمين أن يحذوا حذو سعد ، ولكنه ﷺ - لم يفعل ذلك ، بل قال لسعد : « إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس .. » .

وقد كان فى عهده - ﷺ - من الصحابة من يملكون الكثير من الأموال - كعثمان بن

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٣٧ .
(٢) صحيح البخارى جـ ١ ص ١٨ باب : الزكاة من الإسلام . من كتاب الإيمان .
(٣) صحيح البخارى جـ ٤ ص ٣ باب « أن يترك ورثته أغنياء » . من كتاب الوصايا .

عفان ، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما - ومع هذا فلم يأمرهم بإنفاق كل ما زاد عن حاجتهم الضرورية .

قال القرطبى : قرر الشرع ضبط الأموال وأداء حقها ، ولو كان ضبط المال ممنوعا ، لكان حقه أن يخرج كله ، وليس فى الأمة من يلزم هذا . وحسبك حال الصحابة وأموالهم - رضوان الله عليهم - وأما ما ذكر عن أبى ذر فهو مذهب له[1] .

(جـ) ما ورد من آثار فى ذم الكنز والكانزين كان قبل أن تفرض الزكاة أو هو فى حق من امتنع عن أداء حق الله فى ماله .

قال صاحب الكشاف . فإن قلت فما تصنع فى قوله - ﷺ - « من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها » .

قلت . كان هذا قبل أن تفرض الزكاة ، فأما بعد فرضيتها ، فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه ، ويؤدى عنه ما أوجب عليه فيه ، ثم يعاقبه .

ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله يقتنون الأموال ويتصرفون فيها ، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لأن الإعراض اختيار للأفضل ، والاقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه ، ولكل شىء حد[2] » .

٤ - أن الإسلام وإن كان قد أباح للمسلم اقتناء المال - بعد أداء حق الله فيه - إلا أنه أمر أتباعه أن يكونوا متوسطين فى حبهم لهذا الاقتناء ، حتى لا يشغلهم حب المال عن طاعة الله .

ورحم الله الإمام الرازى ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه ، اعلم أن الطريق الحق أن يقال ، الأولى أن لا يجمع الرجل الطالب للدين المال الكثير ، إلا أنه لم يمنع عنه فى ظاهر الشرع . فالأول محمول على التقوى والثانى على ظاهر الفتوى .

أما بيان أن الأولى الاحتراز عن طلب المال الكثير فلوجوه منها :

أن كثرة المال سبب لكثرة الحرص فى الطلب ، والحرص متعب للروح والنفس والقلب .. والعاقل هو الذى يحترز عما يتعب روحه ونفسه وقلبه . وأن كسب المال شاق شديد ؛ وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب ، فيبقى الإنسان طول عمره تارة فى طلب التحصيل ؛ وأخرى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٣١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٨ .

فى تعب الحفظ وأن كثرة الجاه والمال تورث الطغيان ، كما قال - تعالى - ﴿ إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾[١] .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث فى ذم التكثر من الذهب والفضة ، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن حسان بن عطية قال :

كان شداد بن أوس - رضى الله عنه - فى سفر ، فنزل منزلا فقال لغلامه : ائتنا بالسفرة نعبث بها ، فأنكرت عليه ذلك . فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه فلا تحفظوها عنى واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد ؛ وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلبا سليما ، وأسألك لسانا صادقا ، واسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم . إنك أنت علام الغيوب[٢] .

وبعد : فهذه سبع آيات عن أهل الكتاب ، بدأت - بقوله تعالى ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ وانتهت بقوله تعالى : ﴿ فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

وقد بينت هذه الآيات ما يجب أن يكون عليه موقف المؤمنين منهم ، وكشفت عن أقوالهم الباطلة ، وعن جحود رؤسائهم للحق ، وعن انقياد : عامتهم للضلال ، وعن استحلال كثير من أحبارهم ورهبانهم لمحارم الله ...

ثم عادت السورة بعد ذلك إلى تكملة الحديث عن أحوال المشركين السيئة ، وعن وجوب مقاتلتهم ، فقال تعالى .

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٤٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥١ .

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

قال صاحب المنار ، هاتان الآيتان عود إلى الكلام فى أحوال المشركين ، وما يشرع من معاملاتهم بعد الفتح ، وسقوط عصبية الشرك ، وكان الكلام قبل هاتين الآيتين - فى قتال أهل الكتاب وما يجب أن ينتهى به من إعطاء الجزية من قبيل الاستطراد ، اقتضاه ما ذكر قبله من أحكام قتال المشركين ومعاملتهم ، وقد ختم الكلام فى أهل الكتاب ببيان حال كثير من رجال الدين الذين أفسدت عليهم دينهم المطامع المالية ، التى هى وسيلة العظمة الدنيوية والشهوات الحيوانية ، وإنذار من كانت هذه حالهم بالعذاب الشديد يوم القيامة وجعل هذا الإنذار موجهاً إلينا وإليهم جميعاً .. »[1].

والعدة - فى قوله . إن عدة الشهور - : على وزن فعله من العدد وهى بمعنى المعدود . قال الراغب : العدة : هى الشىء المعدود ، قال - تعالى ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ أى : وما جعلنا عددهم إلا فتنة للذين كفروا ..

والشهور : جمع شهر . والمراد بها هنا : الشهور التى تتألف منها السنة القمرية وهى شهور . المحرم . وصفر. وربيع الأول ..الخ .

وهذه الشهور عليها مدار الأحكام الشرعية ، وبها يعتد المسلمون فى عبادتهم وأعيادهم وسائر أمورهم .

والمراد بقوله : ﴿ يوم خلق السموات والأرض ﴾ : الوقت الذى خلقهما فيه ، وهو ستة أيام كما جاء فى كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش[2] ﴾.

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٨ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

والمعنى : إن عدد الشهور « عند الله » أى : فى حكمه وقضائه ﴿ اثنا عشر شهراً ﴾ هى الشهور القمرية التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية .

وقوله ﴿ فى كتاب الله ﴾ ، أى : فى اللوح المحفوظ .

قال القرطبى : وأعاده بعد أن قال ﴿ عند الله ﴾ لأن كثيراً من الأشياء يوصف بأنه عند الله ، ولا يقال إنه مكتوب فى كتاب الله ، كقوله ﴿ إن الله عنده علم الساعة[1] ﴾.

وقيل معنى « فى كتاب الله » أى فيما كتبه - سبحانه - وأثبته وأوجب على عباده العمل به منذ خلق السموات والأرض .

قال الجمل : وقوله . ﴿ فى كتاب الله ﴾ صفة لاثنى عشر ، وقوله : ﴿ يوم خلق السموات والأرض ﴾ متعلق بما تعلق به الظرف قبله من معنى الثبوت والاستقرار ، أو بالكتاب ، إن جعل مصدرا .

والمعنى : أن هذا أمر ثابت فى نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة[2] أى : أن المقصود من هذه الآية الكريمة ، بيان أن كون الشهور كذلك حكم أثبته - سبحانه - فى اللوح المحفوظ منذ أوجد هذا العالم ، وبينه لأنبيائه على هذا الوضع .. فمن الواجب اتباع ترتيب الله لهذه الشهور ، والتزام أحكامها ونبذ ما كان يفعله أهل الجاهلية من تقديم بعض الشهور أو تأخيرها أو الزيادة عليها ، أو انتهاك حرمة المحرم منها .

وقوله ، ﴿ حرم ﴾ جمع حرام - كسحب جمع سحاب - مأخوذ من الحرمة وذلك لأن الله تعالى - أوجب على الناس احترام هذه الشهور ، ونهى عن القتال فيها :

وقد أجمع العلماء على أن المراد بها ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله - ﷺ - .

فقد أخرج البخارى عن أبى بكر عن النبى ﷺ - أنه قال فى خطبة حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان »[3] .

وسماه - ﷺ - رجب مضر ، لأن بنى ربيعة بن نزار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمونه

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٣٢ .

(٢) حاشية الجمل جـ ٢ ص ٢٨٠ .

(٣) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٨٣ - كتاب التفسير .

رجباً وكانت قبيلة مضر تحرم رجباً نفسه ، لذا قال - ﷺ فيه « ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » .

قال ابن كثير . وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة : ثلاثة سرد . وواحد فرد لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل الحج شهراً وهو ذو القعدة يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ، ويشتغلون بأداء المناسك ، وحرم بعده شهرا آخر هو المحرم ، ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه آمنا[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ يعود إلى ما شرعه الله - تعالى من أن عدة الشهور اثنا عشر شهراً، ومن أن منها أربعة حرم .

والقيم : القائم الثابت المستقيم الذى لا التواء فيه ولا اعوجاج أى : ذلك الذى شرعناه لكم من كون عدة الشهور كذلك ، ومن كون منها أربعة حرم : هو الدين القويم ، والشرع الثابت الحكيم ، الذى لا يقبل التغيير أو التبديل .. لا ما شرعه أهل الجاهلية لأنفسهم من تقديم بعض الشهور وتأخير بعضها استجابة لأهوائهم وشهواتهم ، وإرضاء لزعمائهم وسادتهم .

والضمير المؤنث فى قوله ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ يرى ابن عباس أنه يعود على جميع الشهور أى : فلا تظلموا فى الشهور الاثنى عشر أنفسكم ، بأن تفعلوا فيها شيئاً مما نهى الله عن فعله ، ويدخل فى هذا النهى هتك حرمة الأشهر الأربعة الحرم دخولا أوليا .

ويرى جمهور العلماء أن الضمير يعود إلى الأشهر الأربعة الحرم ، لأنه إليها أقرب ؛ لأن الله تعالى قد خص هذه الأربعة بمزيد من الاحترام تشريفا لها .

وقد رجح ابن جرير ما ذهب إليه الجمهور فقال ما ملخصه : وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصواب قول من قال : فلا تظلموا فى الأشهر الأربعة أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها .

وعن قتادة : إن الله اصطفى صفايا من خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس رسلا ، واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالى ليلة القدر ، فعظموا ما عظم الله ، فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم .. فإن قال قائل : فإن كان الأمر على ما وصفت ، فقد يكون مباحا لنا ظلم أنفسنا فى غيرهن من سائر شهور السنة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٤ .

قيل : ليس ذلك كذلك ، بل ذلك حرام علينا فى كل وقت ولكن الله عظم حرمة هؤلاء الأشهر وشرفهم على سائر شهور السنة : فخص الذنب فيهن ، بالتعظيم كما خصهن بالتشريف ، وذلك نظير قوله - تعالى - ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة والوسطى ﴾ ولاشك أن الله قد أمرنا بالمحافظة على الصلوات المفروضات كلها بقوله : ﴿ حافظوا على الصلوات ﴾ . ولم يبح ترك المحافظة عليهن بأمره بالمحافظة على الصلاة الوسطى ، ولكنه تعالى - زادها تعظيما ، وعلى المحافظة عليها توكيداً ، وفى تضييعها تشديداً ، فكذلك فى قوله ﴿ منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ .

وقد كانت الجاهلية تعظم هذه الأشهر الحرم وتحرم القتال فيهن ، حتى لو لقى الرجل منهم فيهن قاتل أبيه لم يهجه[1] .

وقال القرطبى : لا يقال كيف جعلت بعض الأزمنة أعظم حرمة من بعض فإنا نقول : للبارى - تعالى - أن يفعل ما شاء ، ويخص بالفضيلة ما يشاء ليس لعمله علة ، ولا عليه حجر ، بل يفعل ما يريد بحكمته ، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى[2] .

وقوله : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ تحريض للمؤمنين على قتال المشركين بقلوب مجتمعه ، وعزيمة صادقة .

وكلمة ﴿ كافة ﴾ مصدر فى موضع الحال من ضمير الفاعل فى ﴿ قاتلوا ﴾ أو من المفعول وهو لفظ المشركين . ومعناها : جميعا .

وقالوا : وهذه الكلمة من الكلمات التى لا تثنى ولا تجمع ولا تدخلها أل ولا تعرب إلا حالا فهى ملتزمة للإفراد والتأنيث مثل : عامة وخاصة[3] .

أى : قاتلوا - أيها المؤمنون - المشركين جميعا ، كما يقاتلونكم هم جميعا ، بأن تكونوا فى قتالكم لهم مجتمعين متعاونين متناصرين . لا مختلفين ولا متخاذلين .

وقوله : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ تذييل قصد به إرشادهم إلى ما ينفعهم فى قتالهم لأعدائهم بعد أمرهم به .

أى : واعلموا - أيها المؤمنون أن الله تعالى - مع عباده المتقين بالعون والنصر والتأييد ، ومن كان الله معه فلن يغلبه شىء فكونوا - أيها المؤمنون من عباد الله المتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى عنه ؛ لتنالوا عونه وتأييده .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١٢٧ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٣٦ .

(٣) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٨٢ . وتفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٨٤ .

ثم نعى - سبحانه - على ما كانوا يفعلون من تحليل وتحريم للشهور على حسب أهوائهم .. فقال تعالى : ﴿ إنما النسىء زيادة فى الكفر .. ﴾ والنسىء : مصدر بزنة فعيل مأخوذ من نسأ الشىء إذا أخره . ومنه نسأت الإبل عن الحوض إذا أخرتها عنه . ومنه : أنسأ الله فى أجل فلان ، أى : أخره والمراد به : تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى الأسباب التى جعلت المشركين يحلون الأشهر الحرم فقال : « كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرمون مكانه شهرا آخر - وكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها - حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ؛ فكانوا يحرمون من شتى شهور العام أربعة أشهر ، وذلك قوله ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ أى ليوافقو العدة التى هى الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين[1] .

والمعنى : إنما النسئ الذى يفعله المشركون ، من تأخيرهم حرمة شهر إلى آخر ، ﴿ زيادة فى الكفر ﴾ أى : زيادة فى كفرهم ؛ لأنهم قد ضموا إلى كفرهم بالله كفرا آخر ، هو تحليلهم لما حرمه الله وتحريمهم لما أحله وبذلك يكونون قد جمعوا بين الكفر فى العقيدة والكفر فى التشريع .

قال القرطبى : وقوله : ﴿ زيادة فى الكفر ﴾ بيان لما فعلته العرب من جمعها أنواعا من الكفر ، فإنها أنكرت وجود البارى - تعالى - فقالت : ﴿ وما الرحمن ﴾ فى أصح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ ، وأنكرت بعثة الرسل فقالوا : ﴿ أبشرا منا واحدا نتبعه ﴾ وزعمت أن التحليل والتحريم إليها ، فابتدعته من ذاتها مقتفية لشهواتها فأحلت ما حرمه الله : ولا مبدل لكلماته ولو كره المشركون »[2] .

وقوله ﴿ يضل به الذين كفروا ﴾ قرأه الكوفيون بضم الياء وفتح الضاد بالبناء للمفعول .

أى : يوقع الذين كفروا بسبب ارتكابهم للنسىء فى الضلال والموقع لهم فى هذا الضلال كبراؤهم وشياطينهم .

وقرأه أهل الحرمين وأبو عمرو ﴿ يضل ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد بالبناء للفاعل .

أى : يضل الله الذين كفروا ، بأن يخلق فيهم الضلال بسبب مباشرتهم لما أدى إليه وهو ارتكابهم للنسىء .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٧٠ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٣٩ .

ويصح أن يكون الفاعل هو الذين كفروا أى يضل الذين كفروا عن الحق بسبب استعمالهم للنسىء الذى هو لون من ألوان استحلال محارم الله .

وقوله : ﴿ يحلونه عاما ويحرمونه عاما ﴾ بيان وتفسير لكيفية ضلالهم .

والضمير المنصوب فى ﴿ يحلونه ويحرمونه ﴾ يعود إلى النسىء ، أى الشهر المؤخر عن موعده .

والمعنى أن هؤلاء الكافرين من مظاهر ضلالهم ، أنهم يحلون الشهر المؤخر عن وقته عاما من الأعوام ، ويحرمون مكانه شهرا آخر ليس من الأشهر الحرم ، وأنهم يحرمونه أى : يحافظون على حرمة الشهر الحرام عاما آخر ، إذا كانت مصلحتهم فى ذلك .

والمواطأة : الموافقة . يقال : واطأت فلاناً على كذا إذا وافقته عليه بدون مخالفته .

والمعنى : فعل المشركون ما فعلوه من التحليل والتحريم للأشهر على حسب أهوائهم ، ليوافقوا بما فعلوه عدة الأشهر الحرم ، بحيث تكون أربعة فى العدد وإن لم تكن عين الأشهر المحرمة فى شريعة الله .

قال ابن عباس : ما أحل المشركون شهراً من الأشهر الحرم إلا حرموا مكانه شهراً من الأشهر الحلال . وما حرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرا من الأشهر الحرام ، لكى يكون عدد الأشهر الحرم أربعة .[1] .

وقوله : ﴿ فيحلوا ما حرم الله ﴾ تفريع على ما تقدم .

أى : فيحلوا بتغييرهم الشهور المحرمة ، ما حرمه الله فى شرعه . فهم وإن كانوا وافقوا شريعة الله فى عدد الشهور المحرمة ، إلا أنهم خالفوه فى تخصيصها فقد كانوا - مثلا - يستحلون شهر المحرم ويحرمون بدله شهر صفر .

وقوله : ﴿ زين لهم سوء أعمالهم ﴾ ذم لهم على انتكاس بصائرهم ، وسوء تفكيرهم .

أى: زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، فجعلهم يرون العمل القبيح عملا حسنا. وقوله: ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ تذييل قصد به التنفير والتوبيخ للكافرين .

أى : والله تعالى . اقتضت حكمته أن لا يهدى القوم الكافرين إلى طريقه القويم ، لأنهم بسبب سوء اختيارهم استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا طريق الغى على طريق الرشاد .. فكان أمرهم فرطا .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٥٨ - بتصرف يسير .

١ - أن السنة اثنا عشر شهراً ، وأن شهور السنة القمرية هى المعول عليها فى الأحكام لا شهور السنة الشمسية .

قال الفخر الرازى ، اعلم أن السنة عند العرب عبارة عن اثنى عشر شهراً من الشهور القمرية ، والدليل عليه هذه الآية - ﴿ إن عدة الشهور .﴾ الآية . وقوله . تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب .. ﴾ فجعل تقدير القمر بالمنازل علة للسنين والحساب وذلك إنما يصح إذا كانت السنة معلقة بسير القمر .

وأيضاً قوله . تعالى : (يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج ..) .

ثم قال ، واعلم أن مذهب العرب من الزمان الأول أن تكون السنة قمرية لا شمسية ، وهذا الحكم توارثوه عن إبراهيم وإسماعيل . عليهما السلام . فأما عند اليهود والنصارى ، فليس الأمر كذلك ..)[١] .

وقال الجمل : قوله (اثنا عشر شهرا) هذه شهور السنة القمرية التى هى مبنية على سير القمر فى المنازل ، وهى شهور العرب التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم . وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوماً . والسنة الشمسية عبارة عن دوران الشمس فى الفلك دورة تامة، وهى ثلثمائة وخمسة وستون يومًا. وربع يوم . فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام ، فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف)[٢] .

هذا ، وقد تكلم بعض المفسرين عن الشهور القمرية ، وعن سبب تسميتها بما سميت به فارجع إليه إن شئت[٣] .

٢ - وجوب التقييد بما شرعه الله من أحكام بدون زيادة أو نقصان عليها .

قال القرطبى ما ملخصه : وضع - سبحانه - هذه الشهور وسماها بأسمائها على مارتبها عليه يوم خلق السموات والأرض ، وأنزل ذلك على أنبيائه فى كتبه المنزلة ، وهو معنى قوله : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ﴾ . وحكمها باق على ما كانت عليه لم يزلها عن ترتيبها تغيير المشركين لأسمائها ، وتقديم المقدم فى الاسم منها .

والمقصود من ذلك اتباع أمر الله فيها ، ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء الشهور وتقديمها .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٥٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٣٤ .

ولذا قال - ﷺ - فى خطبته فى حجة الوداع : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات الأرض » .

ثم قال القرطبى : كانوا يحرمون شهراً فشهراً حتى استدار التحريم على السنة كلها . فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذى وضعه الله فيه . فهذا معنى قوله - ﷺ - « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » [1] .

٣ - أخذ بعضهم من قوله تعالى - ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت لم ينسخ ، وأنه لا يصح القتال فيها إلا أن يكون دفاعاً .

قال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبى رباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها .

وذهب جمهور العلماء إلى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم قد نسخ ، بدليل أن الله - تعالى - بعد أن نهى المؤمنين عن أن يظلموا أنفسهم بالقتال فيها أمرهم بقتال المشركين من غير تقيد بزمن فقال ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ فدل ذلك على أن القتال فى الأشهر الحرم مباح .

وبدليل أن النبى - ﷺ - حاصرأهل الطائف فى شهر حرام وهو شهر ذى القعدة .

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - خرج إلى هوازن فى شوال ، فلما كسرهم .. لجأوا إلى الطائف ، فعمد - ﷺ - إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً ، وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام - أى . فى شهر ذى القعدة .

ثم قال ما ملخصه : وأما قوله - تعالى - ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ، ويكون من باب التهييج للمؤمنين على قتال أعدائهم .. ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال أعدائهم فى الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم - . أى من الأعداء : كما قال : - تعالى - ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴾ وكما قال - تعالى - ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ .

وهكذا الجواب عن حصار رسول الله - ﷺ - أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها ، فإنهم الذين بدأوا القتال للمسلمين .. فعند ذلك قصدهم رسول الله - ﷺ - فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم

---

(١) تفسير القرطبى ج ٨ ص ١٣٧ .

من حصونهم فنالوا من المسلمين ، وقتلوا جماعة منهم .. واستمر حصار المسلمين لهم أربعين يوماً ، وكان ابتداؤه فى شهر حلال ، ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياما ثم قفل عنهم ، لأنه يغتفر فى الدوام مالا يغتفر فى الابتداء ، وهذا أمر مقرر [١] .

ومن كلام ابن كثير . رحمه الله - نستنتج أنه يميل إلى القول بأن المنهى عنه هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم ، لا إتمام القتال فيها متى بدأ الاعداء ذلك وهو قريب من قول القائل : لا يحل القتال فيها ولا فى الحرم إلا إن يكون دفاعاً .

وهذا القول هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه لم يثبت أن الرسول - ﷺ - بدأ أعداءه القتال فى الأشهر الحرم ، وإنما الثابت أن الاعداء هم الذين ابتدأوا قتال المسلمين فيها ، فكان موقف المسلمين هو الدفاع عن أنفسهم :

٤ - ذكر المفسرون روايات فى أول من أخر حرمة شهر إلى آخر ، فعن مجاهد قال : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس . إنى لا أعاب ولا أخاب ولا مرد لما أقول . إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا رجل من بنى كنانة يقال له « القلمس » وكان فى الجاهلية . وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام . يلقى الرجل قاتل أبيه فلا يمد إليه يده . فلما كان هو قال لقومه : أخرجوا بنا - أى للقتال - . فقالوا له : هذا المحرم . قال : ننسئه العام ، هى العام صفران . فإذا كان العام القابل قضينا .. جعلنا هما محرمين .

قال : ففعل ذلك . فلما كان عام قابل قال : لا تغزوا فى صفر . حرموه مع المحرم . هما محرمان » [٢] .

وقد كان بعض أهل الجاهلية يتفاخر بهذا النسىء ، ومن ذلك قول شاعرهم :

ومنا ناسىء الشهر القلمس

قال آخر :

ألسنا الناسئين على معد   شهور الحل نجعلها حراما

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٥ بتصريف يسير .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٦ .

وقد أبطل الإسلام كل ذلك ، وأمر بترتيب الشهور على ما رتبها - سبحانه - عليه يوم خلق السموات والأرض .

وبعد : فهذه سبع وثلاثون آية من أول السورة إلى هنا ، نراها - فى مجموعها كما سبق أن بينا - قد حددت العلاقات النهائية بين المسلمين وبين أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب ، كما نراها قد أبرزت الأسباب التى دعت إلى هذا التحديد بأسلوب حكيم مؤثر ، يقنع العقول ، ويشبع العواطف .

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن غزوة تبوك وما جرى فيها من أحداث متنوعة .. وقد استغرق هذا الحديث معظم آيات السورة ، لا سيما فيما يتعلق بهتك أستار المنافقين ، والتحذير منهم .

وقد بدأت السورة حديثها عن غزوة تبوك بتوجيه نداء إلى المؤمنين نعت فيها على المتثاقلين عن الجهاد ، وحرضت عليه بشتى ألوان التحريض قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ
فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا

وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

قال الإمام ابن كثير : هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله - ﷺ - فى غزوة تبوك ، حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر ، وحمارة القيظ ، [1] .

وتبوك : اسم لمكان معروف فى أقصى بلاد الشام من ناحية الجنوب ، ويبعد عن المدينة المنورة من الجهة الشمالية بحوالى ستمائة كيلو متر .

وكانت غزوة تبوك فى شهر رجب من السنة التاسعة ، وهى آخر غزوة لرسول الله ، - ﷺ .

وكان السبب فيها أن الرسول - ﷺ - بلغه أن الروم قد جمعوا له جموعا كثيرة على أطراف الشام ، وأنهم يريدون أن يتجهوا إلى الجنوب لمهاجمة المدينة .

فاستنفر . - ﷺ - الناس إلى قتال الروم ، وكان - ﷺ - قلما يخرج إلى غزوة إلا ورى بغيرها حتى يبقى الأمر سراً .

ولكنه فى هذه الغزوة صرح للمسلمين بوجهته وهى قتال الروم ، وذلك لبعد المسافة ، وضيق الحال ، وشدة الحر ، وكثرة العدو .

وقد لبى المؤمنون دعوة رسولهم . - ﷺ - لقتال الروم ، وصبروا على الشدائد ، والمتاعب وبذلوا الكثير من أموالهم ، ولم يتخلف منهم إلا القليل .

أما المنافقون وكثير من الأعراب ، فقد تخلفوا عنها ، وحرضوا غيرهم على ذلك ، وحكت السورة . فى كثير من آياتها الآتية . ما كان منهم من جبن ومن تخذيل الناس عن القتال ، ومن تحريض لهم على القعود وعدم الخروج .

وبعد أن وصل الرسول - ﷺ - والمؤمنون إلى تبوك ، لم يجدوا جموعا للروم . فأقاموا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩ بتصرف وتلخيص .

هناك بضع عشرة ليلة ، ثم عادوا إلى المدينة »[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ انفروا ﴾ من النفر وهو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لسبب من الأسباب الداعية لذلك .

يقال : نفر فلان إلى الحرب ينفر وينفر نفراً ونفوراً ، إذا خرج بسرعة ويقال : استنفر الإمام الناس ، إذا حرضهم على الخروج للجهاد . ومنه قوله - ﷺ - : ﴿ وإذا استنفرتم فانفروا ﴾ أى : وإذا دعاكم الإمام إلى الخروج معه للجهاد فاخرجوا معه بدون تثاقل .

واسم القوم الذين يخرجون للجهاد : النفير والنفرة والنفر .

ويقال : نفر فلان من الشىء ، إذا فزع منه ، وأدبر عنه ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ، ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ اثاقلتم ﴾ : من الثقل ضد الخفة . يقال : تثاقل فلان عن الشىء ، إذا تباطأ عنه ولم يهتم به .. ويقال : تثاقل القوم : إذا لم ينهضوا لنجدة المستجير بهم . وأصل ﴿ اثاقلتم ﴾ تثاقلتم ، فأبدلت التاء ثاء ثم أدغمت فيها ، ثم اجتلبت همزة الوصل من أجل التوصل للنطق بالساكن .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله ، ﴿ مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ أى : ما الذى جعلكم تباطأتم عن الخروج إلى الجهاد ، حين دعاكم رسولكم - ﷺ - إلى قتال الروم ، وإلى النهوض لإعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه ؟

وقد ناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم ، وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان الصادق من طاعة لله ولرسوله . والاستفهام فى قوله : ﴿ مالكم ﴾ لإنكار واستبعاد صدور هذا التثاقل منهم ، مع أن هذا يتنافى مع الإيمان والطاعة .

قال الجمل : و « ما » مبتدأ ، و « لكم » خبر ، وقوله « اثاقلتم » حال . وقوله : « إذا قيل لكم » ظرف لهذه الحال مقدم عليها .

والتقدير : أى شىء ثبت لكم من الأعذار . حال كونكم متثاقلين فى وقت قول الرسول لكم : انفروا فى سبيل الله[٣] .

وقوله . « إلى الأرض » متعلق بقوله : « اثاقلتم » على تضمينه معنى الميل إلى الراحة ،

---

(١) لمعرفة تفاصيل غزوة تبوك : راجع « سيرة ابن هشام » جـ ٤ ص ١٥٩ . طبعة الحلبى .

(٢) سورة الإسراء . الآية ٤٦ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٢ .

والإخلاد إلى الأرض ، ولذا عدى بإلى .

أى : اثاقلتم مائلين إلى الراحة وإلى شهوات الدنيا الفانية ، وإلى الإقامة بأرضكم ودياركم ، وكرهتم الجهاد مع أنه ذروة سنام الإسلام .

وإن التعبير بقوله ، سبحانه ، ﴿اثاقلتم﴾ لفى أسمى درجات البلاغة، وأعلى مراتب التصوير الصادق ، لأنه بلفظه وجرسه يمثل الجسم المسترخى الثقيل الذى استقر على الأرض .. والذى كلما حاول الرافعون أن يرفعوه عاد إليه ثقله فسقط من بين أيديهم ، وأخلد إلى الأرض .

وذلك لأن ما استولى عليه من حب للذائذ الدنيا وشهواتها ، أثقل بكثير من حبه لنعيم الآخرة وخيراتها .

وقوله ، سبحانه ، : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ إنكار آخر لتباطئهم عن الجهاد ، وتعجب من ركونهم إلى الدنيا مع أن إيمانهم يتنافى مع ذلك .

وقوله . ﴿ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ﴾ بيان لحقارة متاع الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة الدائم .

والمعنى : أى شىء حال بينكم ، أيها المؤمنون ، وبين المسارعة إلى الجهاد عندما دعاكم رسولكم - ﷺ - إليه . أرضيتم براحة الحياة الدنيا ولذائذها الناقصة .

إن كان أمركم كذلك ، فقد أخطأتم الصواب ، لأن متاع الحياة الدنيا مهما كثر فهو قليل مستحقر بجانب متاع الآخرة الباقى ، ونعيمها الخالد .

قال الآلوسى ما ملخصه : « فى » من قوله ﴿ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة ﴾ تسمى بفى القياسية . لأن المقيس يوضع فى جنب ما يقاس به . وفى ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ، ويستدعى الرغبة فيها ، وتجريد الآخرة عن ذلك مثل مبالغة فى بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة ورفعتها .

وقد أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن المستورد ، أخى بنى فهر ، قال : قال رسول الله - ﷺ - « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم ، فلينظر بم ترجع »[1] .

وقال الفخر الرازى : اعلم أن هذه الآية تدل على وجوب الجهاد فى كل حال ، لأنه ،

---

(١) الآلوسى تفسير جـ ١٠ ص ٨٥ .

سبحانه ، نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر ، ولو لم يكن الجهاد واجبا لما كان هذا التثاقل منكرا . وليس لقائل أن يقول : الجهاد إنما يجب فى الوقت الذى يخاف هجوم الكفار فيه ، لأنه عليه السلام ، ما كان يخاف هجوم الروم عليه ، ومع ذلك فقد أوجب الجهاد معهم .. وأيضا هو واجب على الكفاية ، فإذا قام به البعض سقط عن الباقين . والخطاب فى الآية للمؤمنين الذين تقاعسوا فى الخروج إلى غزوة تبوك مع رسول الله - ﷺ - [1] .

ثم هددهم ، سبحانه ، بالعذاب الأليم ، إن لم ينفروا للجهاد فى سبيله فقال ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئاً ﴾ .

أى : ﴿ إلا تنفروا ﴾ ، أيها المؤمنون ، للجهاد كما أمركم رسولكم ﴿ يعذبكم ﴾ الله ﴿ عذابا أليما ﴾ فى الدنيا بإنزال المصائب ، بكم ، وفى الآخرة بنار جهنم .

وقوله : ﴿ ويستبدل قوما غيركم ﴾ أى : ويستبدل بكم قوما يطيعون رسوله فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره .. كما قال ، : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

قال صاحب المنار : قيل المراد بهؤلاء القوم : أهل اليمن ، وقيل أهل فارس وليس فى محله ، فإن الكلام للتهديد ، والله يعلم أنه لا يقع الشرط ولا جزاؤه .

وإنما المراد يطيعونه - سبحانه - ويطيعون رسوله ، لأنه قد وعده بالنصر ؛ وإظهار دينه ، فإن لم يكن هذا الإظهار بأيديكم . فلابد أن يكون بأيدى غيركم ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ .

وقد مضت سنته - تعالى - بأنه لا بقاء للأمم التى تتثاقل عن الدفاع عن نفسها وحفظ حقيقتها وسيادتها ، ولا تتم فائدة القوة الدفاعية والهجومية إلا بطاعة الامام ، فكيف إذا كان الأمام والقائد هو النبى الموعود من ربه بالنصر ..[2] .

والضمير فى قوله ﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ يعود إلى الله ، تعالى .

أى : إن تباطأتم « أيها المؤمنون » عن الجهاد ، يعذبكم الله عذاباً أليما ويستبدل بكم قوماً سواكم لنصرة نبيه ، ولن تضروا الله شيئاً من ا لضرر بسبب تقاعسكم . لأنكم أنتم الفقراء إليه ، وهو ، سبحانه ، الغنى الحميد .

وقيل : الضمير يعود للرسول ، - ﷺ - أى : ولا تضروا الرسول شيئاً ما من الضرر بسبب تثاقلكم عن الجهاد ، لأن الله قد وعده بالنصر ووعده كائن لا محاله .

---

(١) تفسير الفخر الرازى - بتصرف وتلخيص - جـ ١٦ ص ٦٠ .

(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٥٩٥ - بتصرف وتلخيص .

وقوله : ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ تذييل مؤكد لما قبله .

أى : والله ، تعالى : على كل شىء من الأشياء قدير ، ولا يعجزه أمر ، ولا يحول دون نفاذ مشيئته حائل ، فامتثلوا أمره لتفوزوا برضوانه .

فأنت ترى أن هذه الآية وسابقتها قد اشتملت على أقوى الأساليب التى ترغب فى الجهاد ، وترهب من النكوص عنه ، وتبعث على الطاعة لله ولرسوله .

ثم ذكرهم ، سبحانه ، بما يعرفونه من حال الرسول - ﷺ - حيث نصره الله . تعالى ، على أعدائه بدون عون منهم ، وأيده بجنود لم يروها فقال ، ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ .

قال ابن جرير . هذا إعلام من الله لأصحاب رسوله - ﷺ - أنه المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه ، وإظهاره عليهم دونهم ، أعانوه أو لم يعينوه ، وتذكير منه لهم بأنه فعل ذلك به ، وهو من العدد فى قلة ، والعدو فى كثرة فكيف به وهو من العدد فى كثرة والعدو فى قلة [1] .

والمعنى : إنكم ، أيها المؤمنون ، إن آثرتم القعود والراحة على الجهاد وشدائده ، ولم تنصروا رسولكم الذى استنفركم للخروج معه . فاعلموا أن الله سينصره بقدرته النافذة ، كما نصره ، وأنتم تعلمون ذلك ، وقت أن أخرجه الذين كفروا من مكة ﴿ ثانى اثنين ﴾ أى : أحد اثنين . والثانى : أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه .

يقال . فلان ثالث ثلاثة ، أو رابع أربعة .. أى : هو واحد من الثلاثة أو من الأربعة .

فإذا قيل : فلان رابع ثلاثة أو خامس أربعة ، فمعناه أنه صير الثلاثة أربعة بإضافة ذاته اليهم ، أو صير الأربعة خمسة .

وأسند سبحانه الإخراج الى المشركين مع أن الرسول - ﷺ - قد خرج بنفسه بإذن من الله ، تعالى ، لأنهم السبب فى هذا الخروج حيث اضطروه إلى ذلك ، بعد أن تآمروا على قتله .

قيل : وجواب الشرط فى قوله ، ﴿ الا تنصروه ﴾ محذوف وقوله ﴿ فقد نصره الله ﴾ تعليل لهذا المحذوف .

والتقدير : إلا تنصروه ينصره الله فى كل حال . ﴿ فقد نصره ﴾ سبحانه وقت أن أخرجه الكافرون من بلده ولم يكن معه سوى رجل واحد .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت . كيف يكون قوله ﴿ فقد نصره الله ﴾ جواباً للشرط ؟. قلت « فيه وجهان » أحدهما : إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١٣٥ .

واحد . ولا أقل من الواحد ، فدل بقوله . ﴿ فقد نصره الله ﴾ على أنه ينصره فى المستقبل كما نصره فى ذلك الوقت .

والثانى . أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً فى ذلك الوقت ، فلن يخذل من بعده ، "[١] .

وقوله : ﴿ ثانى اثنين ﴾ حال من الهاء فى قوله ﴿ أخرجه ﴾ أى اخرجه الذين كفروا حال كونه منفرداً عن جميع الناس إلا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه .

وقوله : ﴿ إذ هما فى الغار ﴾ بدل من قوله ﴿ إذ أخرجه ﴾ .

والغار : النقب العظيم يكون فى الجبل . والمراد به هنا : غار جبل ثور . وهو جبل فى الجهة الجنوبية لمكة ، وقد مكثا فيه ثلاثة أيام .

وقوله : ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ بدل ثان من قوله ﴿إذ أخرجه﴾ .

أى . إلا تنصروه فقد نصره الله وقت أن أخرجه الذين كفروا من مكة ، ووقت أن كان هو وصاحبه أبو بكر فى الغار ، ووقت أن كان - ﷺ - يقول لصاحبه الصديق : لا تحزن إن الله معنا بتأييده ونصره وحمايته .

وذلك أن أبا بكر وهو مع النبى - ﷺ - فى الغار ، أحس بحركة المشركين من فوق الغار ، فخاف خوفا شديداً لا على حياته هو ، وإنما على حياة النبى - ﷺ - فلما رأى النبى - ﷺ - منه ذلك ، أخذ فى تسكين روعه وجزعه وجعل يقول له : لا تحزن إن الله معنا .

أخرج الشيخان عن أبى بكر قال . نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار ، وهم على رءوسنا ، فقلت . يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، فقال : « يا أبابكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا »[٢] .

وقوله : ﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها .. ﴾ بيان لما أحاط الله به نبيه - ﷺ - من مظاهر الحفظ والرعاية .

والسكينة : من السكون ، وهو ثبوت الشىء بعد التحرك . أو من السكن - بالتحريك - وهو كل ما سكنت إليه نفسك ، واطمأنت به من أهل وغيرهم .

والمراد بها هنا : الطمأنينة التى استقرت فى قلب النبى - ﷺ - فجعلته لا يبالى بجموع المشركين المحيطين بالغار ، لأنه واثق بأنهم لن يصلوا إليه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة التوبة جـ ٦ ص ٨٣ وأخرجه مسلم فى كتاب « فضائل الصحابة » جـ ٧ ص ١٠٨ .

والمراد بالجنود المؤيدين له . الملائكة الذين أرسلهم - سبحانه - لهذا الغرض : والضمير فى قوله : ﴿ عليه ﴾ يعود إلى النبى - ﷺ .

أى . فأنزل الله سكينته وطمأنينته وأمنه على رسوله - ﷺ - وأيده وقواه بجنود من الملائكة لم تروها أنتم ، كان من وظيفتهم حراسته وصرف أبصار المشركين عنه .

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله ﴿ عليه ﴾ يعود إلى أبى بكر الصديق ، لأن الأصل فى الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور ، وأقرب مذكور هنا هو الصاحب ولأن الرسول لم يكن فى حاجة إلى السكينة . وإنما الذى كان فى حاجة إليها هو أبو بكر ، بسبب ما اعتراه من فزع وخوف .

وقد رد أصحاب الرأى الأول على ذلك بأن قوله ﴿ وأيده بجنود لم تروها ﴾ الضمير فيه لا يصح إلا للنبيِ - ﷺ - وهو معطوف على ما قبله فوجب أن يكون الضمير فى قوله ﴿ عليه ﴾ عائداً إلى النبى - ﷺ - حتى لا يحصل تفكك فى الكلام .

أما نزول السكينة فلا يلزم منه أن يكون لدفع الفزع والخوف، بل يصح أن يكون لزيادة الاطمئنان ، وللدلالة على علو شأنه - ﷺ .

قال ابن كثير قوله ﴿ فأنزل الله سكينته عليه ﴾ أى . تأييده ونصره عليه أى . على الرسول - ﷺ - فى أشهر القولين . وقيل . على أبى بكر .

قالوا : لأن الرسول - ﷺ - لم تزل معه سكينة . وهذا لا ينافى تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ، ولهذا قال : ﴿ وأيده بجنود لم تروها ﴾ أى : الملائكة [1] .

وقوله : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ﴾ بيان لما ترتب على إنزال السكينة والتأييد بالملائكة .

والمراد بكلمة الذين كفروا . كلمة الشرك ، أو كلمتهم التى اجتمعوا عليها فى دار الندوة وهى اتفاقهم على قتل رسول الله - ﷺ .

والمراد بكلمة الله : دينه الذى ارتضاه لعباده ، وهو دين الإسلام ، وما يترتب على اتباع هذا الدين من نصر وحسن عاقبة ، أى : كانت نتيجة إنزال السكينة والتأييد بالملائكة ، أن جعل كلمة الشرك هى السفلى ، أى . المقهورة الذليلة . وكلمة الحق والتوحيد المتمثلة فى دين الإسلام هى العليا أى : هى الثابتة الغالبة النافذة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٨ .

وقراءة الجمهور برفع . ﴿ كلمة ﴾ على الابتداء . وقوله ﴿ هى ﴾ مبتدأ ثان : وقوله : ﴿ العليا ﴾ خبرها ، والجملة خبر المبتدأ الأول .

ويجوز أن يكون الضمير ﴿ هى ﴾ ضمير فصل ، وقوله ﴿ العليا ﴾ هو الخبر وقرأ الأعمش ويعقوب ﴿ وكلمة الله ﴾ بالنصب عطفاً على مفعول جعل وهو ﴿ كلمة الذين كفروا ﴾ .

أى : وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وجعل كلمة الله هى العليا .

قالوا : وقراءة الرفع أبلغ وأوجه ، لأن الجملة الأسمية تدل . على الدوام والثبوت ، ولأن الجعل لم يتطرق إلى الجملة الثانية وهى قوله : ﴿ وكلمة الله هى العليا ﴾ لأنها فى ذاتها عالية ثابتة ، بدون جعلها كذلك فى حادثة معينة . بخلاف علو غيرها فهو غير ذاتى ، وإنما هو علو مؤقت فى حالة معينة ، ثم مصيرها إلى الزوال والخذلان بعد ذلك .

وقوله : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

أى : والله - تعالى - ﴿ عزيز ﴾ لا يغلبه غالب ، ولا يقهره قاهر ، ولا ينصر من عاقبه ناصر ، ﴿ حكيم ﴾ فى تصريفه شأن خلقه ، لا قصور فى تدبيره ، ولا نقص فى أفعاله .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية : الدلالة على فضل أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وعلى علو منزلته ، وقوة إيمانه ، وشدة اخلاصه لله - تعالى - ولرسوله - ﷺ - .

ومما يشهد لذلك ، أن الرسول - ﷺ - عندما أذن الله له بالهجرة ، لم يخبر أحدا غيره لصحبته فى طريق هجرته إلى المدينة .

ولقد أظهر الصديق - رضى الله عنه - خلال مصاحبته للرسول - ﷺ - الكثير من ألوان الوفاء والإخلاص وصدق العقيدة [1] .

قال الآلوسى ما ملخصه : واستدل بالآية على فضل أبى بكر .. فإنها خرجت مخرج العتاب للمؤمنين ماعدا أبا بكر .. فعن الحسن قال : عاتب الله جميع أهل الأرض غير أبى بكر فقال : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ الآية .

---

(١) راجع قصة الهجرة فى كتاب « السيرة النبوية » لابن هشام جـ ٢ ص ٤٨٠ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٥٥ .

ولأن فيها النص على صحبته للرسول - ﷺ - ولم يثبت ذلك لأحد من الصحابة : لأنه هو المراد بالصاحب فى قوله ﴿ إذ يقول لصاحبه ﴾ وهذا مما وقع عليه الإجماع .

ومن هنا قالوا : من أنكر صحبة أبى بكر فقد كفر ، لإنكار كلام الله ، وليس ذلك لسائر الصحابة [1] .

وقد ساق الإمام الرازى ، والشيخ رشيد رضا ، عند تفسيرهما لهذه الآية اثنى عشر وجهاً فى فضل أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ، فارجع إليهما إن شئت [2] .

وبعد هذا التذكير للمؤمنين بما كان منه - سبحانه - من تأييد لرسوله عند هجرته ، أمرهم - جل شأنه - بالنفير فى كل حال فقال : ﴿ انفروا خفافا وثقالا . وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما توعد من لا ينفر مع الرسول - ﷺ - ، وضرب له من الأمثال ما وصفنا ، اتبعه بهذا الأمر الجازم فقال : ﴿ انفروا خفافاً وثقالا ﴾ .

والمراد : انفروا سواء أكنتم على الصفة التى يخف عليكم الجهاد فيها ، أو على الصفة التى يثقل . وهذا الوصف يدخل تحته أقسام كثيرة .

منها : ﴿ خفافا ﴾ فى النفور لنشاطكم له ، و ﴿ ثقالا ﴾ عنه لمشقته عليكم .

ومنها : ﴿ خفافاً ﴾ لقلة عيالكم ، و ﴿ ثقالا ﴾ لكثرتها .

ومنها : ﴿ خفافا ﴾ من السلاح ، و ﴿ ثقالا ﴾ منه .

والصحيح ما ذكرنا ، إذ الكل داخل فيه ، لأن الوصف المذكور وصف كلى يدخل فيه كل هذه الجزئيات » [3] .

والمعنى : ﴿ انفروا ﴾ - أيها المؤمنون - ﴿ خفافاً وثقالا ﴾ أى : فى حال سهولة النفر عليكم ، وفى حال صعوبته ومشقته .

﴿ وجاهدوا ﴾ أعداءكم ببذل أموالكم . وببذل أنفسكم ﴿ فى سبيل الله ﴾ أى : فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ورسوله - ﷺ - .

فمن استطاع منكم الجهاد بالمال والنفس وجب عليه الجهاد بهما . ومن قدر على أحدهما

---

(١) راجع تفسير الالوسى جـ ١٠ ص ٨٩ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ص ٦٣ . تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤١٧ .

(٣) تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٦٩ .

دون الآخر ، وجب عليه ما كان فى قدرته منها .

قال القرطبى روى أبو داود عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال : ﴿ جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم ﴾ .

وهذا وصف لأكمل ما يكون الجهاد وأنفعه عند الله - تعالى - فقد حض - سبحانه - على كمال الأوصاف .

وقدم الأموال فى الذكر ، إذ هى أول مصرف وقت التجهيز ، فرتب الأمر كما هو فى نفسه [1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ يعود إلى المذكور من الأمرين السابقين وهما : النفور والجهاد .

أى : ذلكم الذى أمرتم به من النفور والجهاد فى سبيل الله ، خير لكم فى دنياكم وفى آخرتكم من التثاقل عنهما ، إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بين لكم خالقكم ومربيكم على لسان رسوله - ﷺ - .

ولقد أدرك المؤمنون الصادقون هذا الخير فامتثلوا أمر ربهم ، ونفروا للجهاد فى سبيله خفافاً وثقالا ، بدون تباطؤ أو تقاعس .

وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية كثيراً من الأمثلة التى تدل على محبة السلف الصالح للجهاد فى سبيل الله ، ومن ذلك .

ما جاء عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة براءة ، فأتى على هذه الآية : ﴿ انفروا خفافاً وثقالا ﴾ فقال : أى بنى ، جهزونى جهزونى . فقال بنوه . يرحمك الله !! لقد غزوت مع النبى - ﷺ - حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات . ومع عمر حتى مات . فنحن نغزو عنك . فقال : لا ، جهزونى . فغزوا فى البحر فمات فى البحر ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها ، ولم يتغير - رضى الله عنه .

وقال الزهرى: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل : فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع [2] .

وأخرج ابن جرير عن حيان بن زيد الشرعبى قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو: وكان

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٥٣ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٥١ .

والياً على حمص ، فلقيت شيخاً كبيراً هرما ، على راحلته فيمن نفر ، فأقبلت عليه فقلت : يا عماه لقد أعذر الله إليك .

قال : فرفع حاجبيه فقال . ياابن أخى ، استنفرنا الله خفافا وثقالا ، من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده فيبقيه ، وإنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله [١] .

وعن أبى راشد الحبرانى قال . وافيت المقداد بن الأسود ، فارس رسول الله - ﷺ - جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ، وهو يريد الغزو - وقد تقدمت به السن - فقلت له : لقد أعذر الله إليك .

فقال : أبت علينا سورة البعوث ذلك . يعنى هذه الآية : ﴿ انفروا خفافاً وثقالا ﴾[٢] .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن هذه الآية تجعل الجهاد على الجميع حتى المريض والزمن والفقير .. وليس الأمر كذلك ، فما معنى هذا الأمر ؟ .

قلت . من العلماء من حمله على الوجوب ثم إنه نسخ بقوله - تعالى - ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى .. ﴾[٣] .

ومنهم من حمل هذا الأمر على الندب .

والصحيح أنها منسوخة ، لأن الجهاد من فروض الكفاية ، ويدل عليه أن هذه الآيات نزلت فى غزوة تبوك ، وأن النبى - ﷺ - خلف فى المدينة فى تلك الغزوة النساء وبعض الرجال ، فدل ذلك على أن الجهاد من فروض الكفايات ، وأنه ليس على الأعيان [٤] .

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست منسوخة ، فقد قال الإمام القرطبى - ما ملخصه - واختلف فى هذه الآية ، فقيل إنها منسوخة بقوله - تعالى - ﴿ ليس عن الضعفاء ولا على المرضى ﴾ .

والصحيح أنها ليست بمنسوخة .

روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله - تعالى - : ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ قال : شباناً وكهولا . ما سمع الله عذر أحد . فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات .

ثم قال - بعد أن ساق نماذج متعددة لمن خرجوا للجهاد خفافاً وثقالا - فلهذا وما كان مثله مما روى عن الصحابة والتابعين قلنا . إن النسخ لا يصح .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١٤٠ - بتصريف يسير .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٩٣ - بتصريف يسير .
(٣) سورة التوبة الآية ٩١ .
(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٥ .

فقد تكون هناك حالة يجب فيها نفير الكل ، وذلك إذا تعين الجهاد لغلبة العدو على قطر من الأقطار الإسلامية ، أو بحلوله فى العقر . ففى هذه الحالة يجب على جميع أهل الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالا ؛ شباباً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته . ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج .

فإن عجز أهل تلك البلدة عن صد عدوهم ؛ كان على من قاربهم أن يخرجوا معهم لصد العدو ، وكذلك الشأن بالنسبة لكل من علم بضعفهم عن عدوهم فالمسلمون كلهم يد على من سواهم .

حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التى نزل العدو عليها ، سقط الفرض عن الآخرين .

ثم قال - رحمه الله - : ومن الجهاد أيضاً ما هو نافلة ، وهو إخراج الإمام طائفة .. لإظهار القوة ، وإعزاز دين الله .

ثم قال : وقال ابن العربى ، ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله . سنة سبع وعشرين وخمسمائة : فجاس ديارنا ، وأسر خيرتنا ، وتوسط بلادنا .. فقلت للوالى والمولى عليه : عدو الله قد حصل فى الشرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس .. فيحاط به فيهلك .

فغلبت الذنوب ، ورجفت القلوب بالمعاصى ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوى إلى وجاره [1] ، وإن رأى المكيدة بجاره .

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله [2] .

والذى نراه . أن ما ذهب إليه الإمام القرطبى ، من أن الآية الكريمة ليست منسوخة ، أولى بالاتباع .

لأن الجهاد قد يكون فرض كفاية فى بعض الحالات ، وقد يكون فرض عين فى حالات أخرى والآية الكريمة التى معنا تدعو المؤمنين إلى النفير العام فى تلك الحالات الأخرى التى يكون الجهاد فيها فرض عين وبذلك يمكن الجمع بين الآيات التى تدعو إلى النفير العام . والآيات التى تعفى بعض الناس من مشاقه ومتاعبه .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن هذه الآيات الأربع قد عاتبت المؤمنين الذين تخلفوا عن الجهاد فى غزوة تبوك عتاباً شديداً ؛ وأنذرتهم بالعذاب الأليم إن لم ينفروا .. وذكرتهم بما كان من نصر الله لنبيه حين أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين .. وأمرتهم بالنفور إلى الجهاد خفافاً وثقالا .

---

(١) الوجار بكسر الواو وفتحها - بيت الثعلب .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٥٠ .

وبمجاهدة المشركين بأموالهم وأنفسهم ، فذلك هو الخير لهم فى عاجلتهم وآجلتهم .

ثم أخذت السورة الكريمة فى بيان قبائح المنافقين ، ومعاذيرهم الواهية ، ومسالكهم الخبيثة . وأيمانهم الفاجرة .. فقال - تعالى - :

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

قال الفخر الرازى هذه الآية نزلت فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك [١] والعرض . ما يعرض للانسان من منافع الدنيا وشهواتها .

والسفر القاصد : هو السفر القريب السهل الذى لا يصاحبه ما يؤدى إلى التعب الشديد . من القصد بمعنى التوسط والاعتدال فى الشىء .

والشقة : المسافة التى لا تقطع إلا بعد تكبد المشقة والتعب ، فهى مأخوذة من المشقة وشدة العناء .

قال القرطبى : حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة : السفر إلى أرض بعيدة . يقال : منه شقة شاقة . والمراد بذلك كله غزوة تبوك .. » [٢] .

والمعنى : لو كان الذى دعوتهم إليه يا محمد ، متاعاً من متع الحياة الدنيا ، وسفراً سهلا قريباً ، لا تبعوك فيما دعوتهم إليه ، لأنه يوافق أهواءهم ، ويشبع رغباتهم ، ولكنهم حين عرفوا أن ما دعوتهم إليه هو الجهاد فى سبيل الله وما يصحبه من أسفار شاقة . وتضحيات جسيمة .. تعللوا لك بالمعاذير الكاذبة ، وتخلفوا عن الخروج معك ، جبناً منهم ، وحباً للراحة والسلام .

وشبيه بهذه الآية من حيث المعنى ، قول الرسول - ﷺ - فى شأن المتخلفين عن صلاة الجماعة « لو يعلم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً ، أو مرماتين [٣] حسنتين لشهد العشاء » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٢ - المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٤ هـ الطبعة الثانية .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٥٤ طبعة دار الكاتب العربى سنة ١٩٤٧ .
(٣) مرماتين : تثنية مرماة ، وهى ظلف الشاة ، أو ما بين ظلفها من اللحم .

أى : لو يعلم أحد هؤلاء المتخلفين عن صلاة العشاء فى جماعة ، أنه يجد عند حضور صلاتها فى جماعة شيئاً من اللحم لحضرها .

ثم حكى - سبحانه - ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من الجهاد فقال : ﴿ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ .

أى . وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله - كذباً وزوراً - قائلين . لو استطعنا أيها المؤمنون أن نخرج معكم للجهاد فى تبوك لخرجنا : فاننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين ، فقد كانت لنا أعذارنا القاهرة التى حملتنا على التخلف !!

وأتى - سبحانه - بالسين فى قوله : ﴿ وسيحلفون ﴾ لأنه من قبيل الإخبار بالغيب . فقد كان نزول هذه الآية قبل رجوعه - ﷺ - من تبوك . وحلفهم هذا كان بعد رجوعه منها .

قال الفخر الرازى : قالوا : الرسول - ﷺ - أخبر عنهم أنهم سيحلفون ، وهذا إخبار عن غيب يقع فى المستقبل ، والأمر لما وقع كما أخبر كان هذا إخباراً عن الغيب فكان معجزاً ،[1] .

والمراد بالاستطاعة فى قوله : « لو استطعنا » : وجود وسائل للجهاد معهم ، من زاد وعدة وقوة فى البدن ، وغير ذلك مما يستلزمه الجهاد فى سبيل الله .

وقوله : ﴿ لخرجنا معكم ﴾ ساد مسد جوابى القسم والشرط .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بسبب كذبهم ونفاقهم فقال : ﴿ يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ :

أى . أن هؤلاء المتخلفين عن الجهاد يهلكون أنفسهم بسبب حلفهم الكاذب ، وجرأتهم على الله . تعالى . فى اختلاق المعاذير الباطلة ، مع أنه . سبحانه . يعلم إنهم لكاذبون فى أيمانهم ، وفيما انتحلوه من أعذار .

قال ابن جرير قوله : ﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ فى قولهم : ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ ، لأنهم كانوا للخروج مطيقين ، بوجود السبيل إلى ذلك بالذى كان عندهم من الأموال ، مما يحتاج إليه الغازى فى غزوه ، وصحة الأبدان ، وقوة الأجسام[2] .

هذا ، ومن الإحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ، أن الأيمان الكاذبة تؤدى إلى الخسران والهلاك : وفى الحديث الشريف : « اليمين الغموس تدع الديار بلاقع » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٣ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٢٧١ طبعة دار المعارف . تحقيق محمود شاكر .

ثم عاتب الله . تعالى . نبيه - ﷺ - عتاباً رقيقاً لأنه اذن للمنافقين بالتخلف عن الجهاد حين طلبوا منه ذلك ، دون أن يتبين أحوالهم فقال . تعالى .

عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

قال ابن كثير . قال مجاهد . نزلت هذه الآية فى أناس قالوا : استأذنوا رسول الله - ﷺ - فإن أذن لكم فاقعدوا . وإن لم يأذن لكم فاقعدوا .

والعفو : يطلق على التجاوز عن الذنب أو التقصير ، كما يطلق على ترك المؤاخذة على عدم فعل الأولى والأفضل ، وهو المراد هنا .

والمعنى : عفا الله عنك يا محمد ، وتجاوز عن مؤاخذتك فيما فعلته مع هؤلاء المنافقين من سماحك لهم بالتخلف عن الجهاد معك فى غزوة تبوك ، حين اعتذروا إليك بالأعذار الكاذبة ، وكان الأولى بك أن تتريث وتتأنى فى السماح لهم بالتخلف ، حتى يتبين لك الذين صدقوا فى اعتذارهم من الذين كذبوا فيه ، فقد كانوا - إلا قليلا منهم - كاذبين فى معاذيرهم ، وكانوا مصرين على القعود عن الجهاد حتى ولو لم تأذن لهم به .

وقدم سبحانه . العفو على العتاب . وهو قوله : ﴿ لم أذنت لهم ﴾ - للإشارة إلى المكانة السامية التى له - ﷺ - عند ربه .

قال بعض العلماء : هل سمعتم بعتاب أحسن من هذا ؟ لقد خاطبه سبحانه بالعفو قبل أن يذكر المعفو عنه .

وقال العلامة أبو السعود ما ملخصه : وعبر - سبحانه - عن الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث ، وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام ، للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين ، وبأن ما صدر من الآخرين ، وإن كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ، ناشىء عن رسوخهم فى الكذب .

وعبر عن ظهور الصدق بالتبين ، وعما يتعلق بالكذب بالعلم ، لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق ، والكذب احتمال عقلى ، فظهور صدق الخبر إنما هو تبين ذلك المدلول ، وانقطاع احتمال نقيضه بعدما كان محتملا له احتمالا عقلياً . وأما كذبه فأمر حادث لا دلالة

للخبر عليه فى الجملة حتى يكون ظهوره تبيناً له ، بل نقيض لمدلوله . فما يتعلق به يكون علما مستأنفاً ..[١] .

هذا ، ومن الأمور التى تكلم عنها العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية ما يأتى :

١ – أن النبى – ﷺ – كان يحكم بمقتضى اجتهاده فى بعض الوقائع . وقد بسط القول فى هذه المسألة صاحب المنار فقال ما ملخصه :

وقد كان الإذن المعاتب عليه اجتهاداً منه – ﷺ – فيما لا نص فيه من الوحى ، وهو جائز وواقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه ، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحى ببيانه والعمل به ، فيستحيل على الرسول أن يكذب أو أن يخطىء فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل .

ويؤيده حديث طلحة فى تأبير النخل إذ رآهم – ﷺ – يلقحونها فقال : « ما أظن يغنى ذلك شيئاً » فأخذوا بذلك فتركوه ظناً منهم أن قوله هذا من أمر الدين ، فنفضت النخل وسقط ثمرها . فأخبر بذلك فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فانى ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فانى لن أكذب على الله عز وجل » .

وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ فى الاجتهاد على الأنبياء . عليهم الصلاة والسلام ؛ قالوا : ولكن لا يقرهم الله على ذلك ، بل يبين لهم الصواب فيه .. »[٢] .

٢ – أن من الواجب على المسلم التريث فى الحكم على الأمور .

قال الفخر الرازى : دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة ، ووجوب التثبت والتأنى ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة فى التفحص ، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد[٣] .

٣ – أن المتتبع لآراء العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية يرى لهم ثلاثة أقوال :

أما القول الأول فهو لجمهور العلماء : وملخصه : أن المراد بالعفو فى قوله سبحانه: ﴿ عفا الله عنك ﴾ عدم مؤاخذته : – ﷺ – فى تركه الأولى والأفضل ، لأنه كان من الأفضل له ألا يأذن للمنافقين فى التخلف عن الجهاد حتى يتبين أمرهم .

وهذا القول هو الذى نختاره ونرجحه ، لأنه هو المناسب لسياق الآية ولما ورد فى سبب نزولها :

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٧٢ ، طبعة صبيح .
(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٥٣ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٤ .

وأما القول الثانى فهو لصاحب الكشاف : وملخصه : أن العفو هنا كناية عن الجناية ، فقد قال : قوله ﴿ عفا الله عنك ﴾ كناية عن الجناية لأن العفو مرادف لها ، ومعناه . أخطأت وبئس ما فعلت ، وقوله ﴿ لم أذنت لهم ﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو[١] .

ولم يرتض كثير من العلماء ما ذهب إليه صاحب الكشاف من أن العفو هنا كناية عن الجناية ، ووصفوا ما ذهب إليه بالخطأ وإساءة الأدب .

قال أبو السعود : ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئسمافعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية ، وأن معناه أخطأت ، وبئس ما فعلت .

هب أنه كناية ، أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف فى الخطاب والتخفيف فى العقاب ؟ :[٢] .

وقال الشيخ أحمد بن المنير : ليس له - أى الزمخشرى : - أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير ، وهو بين أحد أمرين : إما أن لا يكون هو المراد وإما أن يكون هو المراد ، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ، وخصوصاً فى حق المصطفى - عليه الصلاة والسلام - فالزمخشرى على كلا التقديرين ذهل عما يجب فى حقه - ﷺ - .

ولقد أحسن من قال فى هذه الآية : إن من لطف الله - تعالى - بنبيه ، أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداء « لم أذنت لهم » لتفطر قلبه - عليه الصلاة والسلام . فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه فى حق سيد البشر - عليه الصلاة والسلام[٣] .

وأما القول الثالث فهو للامام الفخرى الرازى ، ولمن حذا حذوه كالقرطبى وغيره ، وملخص هذا القول أنه يجوز أن يكون المراد بالعفو هنا : المبالغة فى تعظيم النبى - ﷺ - وتوقيره ، أو أن قوله - سبحانه - : ﴿ عفا الله عنك ﴾ افتتاح كلام .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : لا نسلم أن قوله - تعالى - ﴿ عفا الله عنك ﴾ يوجب الذنب ، ولم لا يجوز أن يقال : إن ذلك يدل على مبالغة الله ، تعالى فى تعظيمه وتوقيره ، كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظما عنده ، عفا الله عنك ماصنعت فى أمرى .. فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم .

ويؤيد ذلك قول على بن الجهم يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه :

عفـا الله عنـك ألا حـرمـة   تـعـوذ بـعـفـوك أن أبـعـد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٢ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦٦ .

(٢) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) حاشية تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٢ .

ألم تر عبداً عدا طوره ومولى عفا ورشيداً هدى
أقلنى أقالك من لم يزل يقيك ، ويصرف عنك الردى [١]

وقال القرطبى : قوله : - تعالى - ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ قيل : هو افتتاح كلام ؛ كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك كان كذا وكذا .. [٢] .

والذى نراه أن القول الأول هو الراجح لما سبق أن بيناه .

ثم بين - سبحانه - الصفات التى يتميز بها المؤمنون الصادقون ، عن غيرهم من ضعاف الإيمان ، فقال - تعالى - :

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

أى : ليس من شأن المؤمنين الصادقين أن يستأذنوك - يا محمد - فى ﴿ أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه .. وإنما الذى من شأنهم وعادتهم - كما أثبته واقعهم وتاريخهم - أن ينفروا خفافا وثقالا عندما يدعو الداعى إلى الجهاد ، دون أن ينتظروا إذنا من أحد .

فهم لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، يسارعون إلى الجهاد بقلوب مشتاقة إليه ، وبنفوس تتمنى الموت عن طريقه .

وهم فى ذلك ممتثلون لقول النبى - ﷺ - : « من خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هيعة - أى صيحة - وفزعا طار على متنه يبتغى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٣ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ١٥٤ .

القتل أو الموت فى مظانه »[١] .

وقوله : ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ تحريض لهم على الاتصاف بهذه الصفة الكريمة ، وهى صفة التقوى .

والمراد بالعلم هنا لازمه ، وهو مجازاتهم بالثواب الجزيل على تقواهم .

أى : والله - تعالى - عليم بهؤلاء الذين ملأت خشيته قلوبهم . وسيثيبهم على ذلك ثوابا يرضيهم .

هذا ، وقد استنبط العلماء من هذه الآية أنه ينبغى على المؤمن أن يقوم بأداء الأعمال الحسنة ، والأفعال الجميلة بدون تردد أو استئذان .

قال صاحب الانتصاف عند تفسيره لهذه الآية : وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقا ، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه فى أن يسدى له معروفا ، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاما ؛ فإن الاستئذان فى أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكره . وصلوات الله وسلامه على خليله إبراهيم ، فقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم ، فلذلك مدحه الله - تعالى - : بهذه الخلة الجميلة ، فقال : ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين .. ﴾ أى : ذهب على خفاء منهم ، كيلا يشعروا به ..[٢] .

وقال صاحب المنار : وقد استنبط من الآية أنه لا ينبغى الاستئذان فى أداء شىء من الواجبات ، ولا فى الفضائل والفواضل من العادات ، كقرى الضيف ، وإغاثة الملهوف ، وسائر عمل المعروف .

ويعجبنى قول بعض العلماء ما معناه : من قال لك أتأكل ؟ هل آتيك بكذا من الفاكهة مثلا ؟ فقل له : لا فإنه لو أراد أن يكرمك لما استأذنك[٣] .

ثم بين سبحانه - الصفات التى يعرف بها المنافقون ، بعد بيانه للصفات التى يعرف بها المؤمنون الصادقون فقال : ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم .. ﴾ .

أى : إنما يستأذنك - يا محمد - فى القعود عن الجهاد أولئك الذين من صفاتهم أنهم لا يؤمنون بالله إيمانا كاملا ، ولا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب إيمانا يقينيا .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١٠ .
(٢) حاشية الكشاف جـ ٣ ص ٢٧٤ - طبعة دار الكاتب العربى ببيروت .
(٣) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٤٥٤ .

قال الآلوسى : وتخصيص الإيمان بهما - أى بالله واليوم الآخر - فى الموضعين للإيذان بأن الباعث على الجهاد والمانع عنه الإيمان بهما وعدم الإيمان بهما ، فمن آمن بهما قاتل فى سبيل دينه ، وهان عليه القتل فيه لما يرجوه فى اليوم الآخر من النعيم المقيم ، ومن لم يؤمن كان بمعزل عن ذلك . على أن الإيمان بهما مستلزم للإيمان بسائر ما يجب الإيمان به »[1] .

وقوله : ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾ صفة ثالثة من صفاتهم الذميمة .

أى : أنهم بجانب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر ، رسخ الريب فى قلوبهم فصاروا يشكون فى صحة ما جئت به - أيها الرسول الكريم - ، ويقفون من تعاليمك وتوجيهاتك ، موقف المكذب المرتاب لا موقف المصدق المذعن .

وأضاف الشك والارتياب إلى القلوب ، لأنها محل المعرفة والإيمان . وأوثرت صيغة الماضى - ارتابت ، للدلالة على تحقق الريب وتوبيخهم . وأصل معنى التردد : الذهاب والمجيء . والمراد به هنا التحير على سبيل المجاز ، لأن المتحير لا يستقر فى مكان ، ولا يثبت على حال .

أى : فهم فى شكهم الذى حل بهم يتحيرون ، فنراهم كما وصفهم - سبحانه - فى آية أخرى . ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .. ﴾[2] .

أى : متحيرين بين الكفر وبين الإيمان .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا السمات التى بها يتميز المؤمنون الصادقون عن غيرهم من الذين قالوا آمنا وما هم بمؤمنين .

ثم حكى - سبحانه - بعض المسالك الخبيثة التى كان يتبعها هؤلاء المنافقون لمحاربة الدعوة الإسلامية ، وكيف أنه - سبحانه - أحبط مكرهم فقال - تعالى - :

﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٤٣ .

ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

وقوله : ﴿ ولو أرادوا الخروج .. ﴾ كلام مستأنف لبيان المزيد من رذائل المنافقين . أو معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك ﴿ لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصداً لاتبعوك ﴾ .

وقوله : ﴿ انبعاثهم ﴾ أى : نهوضهم وانطلاقهم للخروج بنشاط وهمة . من البعث وهو إثارة الإنسان أو الحيوان وتوجيهه إلى الشىء بقوة وخفة .

تقول : بعثت البعير فانبعث إذا أثرته للقيام والسير بسرعة .

وقوله : « فثبطهم » أى : فمنعهم وحبسهم ، من التثبيط « وهو رد الإنسان عن الفعل الذى هم به عن طريق تعويقه عنه ومنعه منه .

يقال : ثبطه تثبيطا ، أى : قعد به عن الأمر الذى يريده ومنعه منه بالتخذيل ونحوه .

والمعنى : ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك - يا محمد - إلى تبوك لأعدوا لهذا الخروج عدته اللازمة له من الزاد والراحلة ، وغير ذلك من الأشياء التى لا يستغنى عنها المجاهد فى سفره الطويل ، والتى كانت فى مقدورهم وطاقتهم .

وقوله . ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ استدراك على ما تقدم .

أى : ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته ، ولكنهم لم يريدوا ذلك ، لأن الله - تعالى - كره خروجهم معك ، فحبسهم عنه ، لما يعلمه - سبحانه - من نفاقهم وقبح نواياهم ، وإشاعتهم للسوء فى صفوف المؤمنين .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت . كيف موقع حرف الاستدراك ؟ قلت : لما كان قوله ﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ معطيا معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو، قيل: ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ ، كأنه قيل : ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم ، كما تقول . ما أحسن إلى زيد ولكن أساء إلى ،[1] .

وقال الجمل . وهاهنا يتوجه سؤال ، وهو أن خروج المنافقين مع رسول الله - ﷺ - إما

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٥ .

أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة ، فإن كان فيه مصلحة فلم قال : ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ﴾ وإن كان فيه مفسدة فلماذا عاتب نبيه - ﷺ - فى إذنه لهم فى القعود ؟

والجواب عن هذا السؤال : أن خروجهم مع رسول الله - ﷺ - كان فيه مفسدة عظيمة : بدليل أنه - سبحانه - أخبر بتلك المفسدة بقوله ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ﴾ .

بقى أن يقال . فلم عاتب الله نبيه بقوله : ﴿ لم أذنت لهم ﴾ فنقول : إنه - ﷺ - اذن لهم قبل إتمام الفحص ، وإكمال التدبير والتأمل فى حالهم ، فلهذا السبب قال - تعالى - ﴿ لم أذنت لهم ﴾ وقيل إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحى إليه فى أمرهم بالقعود [1] .

وقوله . ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ تذييل المقصود منه ذمهم ووصفهم بالجبن الخالع ، والهمة الساقطة ، لأنهم بقعودهم هذا سيكونون مع النساء والصبيان والمرضى والمستضعفين الذين لا قدرة لهم على خوض المعارك والحروب .

قال الآلوسى . وقوله : ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ : تمثيل لخلق الله داعية القعود فيهم ، وإلقائه كراهة الخروج فى قلوبهم بالأمر بالقعود أو تمثيل لوسوسة الشيطان بذلك فليس هناك قول حقيقة . ويجوز أن يكون حكاية قول بعضهم لبعض ؛ أو حكاية لإذن الرسول - ﷺ - لهم فى القعود ، فيكون القول على حقيقته [2] .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية . أن الفعل يحسن بالنية ؛ ويقبح بها . أيضاً . ، وإن استويا فى الصورة ، لأن النفير واجب مع نية النصر . وقبيح مع إرادة تحصيل القبيح ، وذلك لأنه . تعالى . أخبر أنه كره انبعاثهم لما يحصل من إرادة المكر بالمسلمين .

ومنها : أن للامام أن يمنع من يتهم بمضرة المسلمين من الخروج للجهاد ؛ حماية لهم من شروره ومفاسده .

ومنها : أن إعداد العدة للجهاد أمر واجب ، وقد قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ [3] .

ثم بين - سبحانه - المفاسد المترتبة على خروج المنافقين فى جيش المؤمنين فقال : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ﴾ ، وأصل الخبال . الاضطراب والمرض الذى يؤثر فى العقل كالجنون ونحوه . أو هو الاضطراب فى الرأى .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١١ . بتصرف يسير .

(٣) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٦٧ .

أى : لو خرج هؤلاء المنافقون معكم أيها المؤمنون إلى تبوك مازادوكم شيئاً من الأشياء إلا اضطراباً فى الرأى ؛ وفسادا فى العمل ، وضعفا فى القتال ، لأن هذا هو شأن النفوس المريضة التى تكره لكم الخير ، وتحب لكم الشر .

قال الآلوسى . والاستثناء مفرغ متصل ، والمستثنى منه محذوف ، ولا يستلزم أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه ؛ لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذى وقع منه الاستثناء .

وقال أبو حيان : إنه كان فى تلك الغزوة منافقون لهم خبال فلو خرج هؤلاء أيضاً واجتمعوا بهم زاد الخبال ، فلا فساد فى ذلك الاستلزام لو ترتب[1] .

وقوله : ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ معطوف على قوله : « مازادوكم » . والإيضاع . كما يقول القرطبى . سرعة السير قال الراجز .

يـا ليتنى فيهـا جـذع أخـب فـيـهـا وأضـع

يقال : وضع البعير . إذا أسرع فى السير ، وأوضعته . حملته على العدو[2] .

والخلل الفرجة بين الشيئين . والجمع الخلال ، أى : الفرج التى تكون بين الصفوف وهو هنا ظرف مكان بمعنى بين ، ومفعول الإيضاع محذوف ، أى . ولأسرعوا بينكم ركائبهم بالوشايات والنمائم والإفساد .

ففى الكلام استعارة تبعية ، حيث شبه سرعة إفسادهم لذات البين بسرعة سير الراكب ، ثم استعير لها الإيضاع وهو للإبل وأصل الكلام ولأوضعوا ركائبهم ، ثم حذفت الركائب .

وجملة ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل (أوضعوا) .

أى : لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً ، ولأسرعوا بينكم بالإشاعات الكاذبة ، والأقوال الخبيثة ، حال كونهم باغين وطالبين لكم الافتتان فى دينكم ، والتشكيك فى صحة عقائدكم ، والتثبيط عن القتال ، والتخويف من قوة أعدائكم ، ونشر الفرقة فى صفوفكم .

فالمراد بالفتنة هنا : كل ما يؤدى إلى ضعف المسلمين فى دينهم أو فى دنياهم .

وقوله : ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ بيان لأحوال المؤمنين فى ذلك الوقت .

أى . وفيكم . فى ذلك الوقت . يا معشر المؤمنين ، أناس كثيرو السماع لهؤلاء المنافقين ، سريعو الطاعة لما يلقون إليهم من أباطيل .

قال ابن كثير . قوله : ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ أى : مطيعون لهم ، ومستحسنون

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٥٧ .

لحديثهم وكلامهم ، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير .

وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير ، (وفيكم سماعون لهم) أى : عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم .

وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام فى جمع الأحوال .

والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق . وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .

وقال محمد بن إسحاق : كان الذين استأذنوا ، فيما بلغنى ، من ذوى الشرف ، منهم عبد الله بن أبى بن سلول ، والجد بن قيس ، وكانوا أشرافا فى قومهم ، فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا فيفسدوا عليه جنده . وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم ، وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فقال : ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾[1] .

وقوله : ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ تذييل المقصود منه وعيد هؤلاء المنافقين وتهديدهم بسبب ما قدمت أيديهم من مفاسد .

أى : والله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أحوال هؤلاء الظالمين، وسيعاقبهم بالعقاب المناسب لجرائمهم ورذائلهم .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد وضحت أن هناك ثلاث مفاسد كانت ستترتب على خروج هؤلاء المنافقين مع المؤمنين إلى تبوك .

أما المفسدة الأولى : فهى زيادة الاضطراب والفوضى فى صفوف المجاهدين .

وأما المفسدة الثانية : فهى الإسراع بينهم بالوشايات والنمائم والإشاعات الكاذبة .

وأما المفسدة الثالثة : فهى الحرص على تفريق كلمتهم ، وتشكيكهم فى عقيدتهم .

وهذه المفاسد الثلاث ما وجدت فى جيش إلا وأدت إلى انهزامه وفشله .

ومن هنا كان تثبيط الله - تعالى - لهؤلاء المنافقين ، نعمة كبرى للمؤمنين .

ومن هنا - أيضاً - كانت الكثرة العددية فى الجيوش لا تؤتى ثمارها المرجوة منها ، إلا إذا كانت متحدة فى عقيدتها ، وأهدافها ، واتجاهاتها .. أما إذا كانت هذه الكثرة مشتملة على عدد كبير من ضعاف الإيمان ، فإنها فى هذه الحالة يكون ضررها أكبر من نفعها .

ثم ذكر الله تعالى - نبيه - ﷺ - بطرف من الماضى المظلم لهؤلاء المنافقين فقال : ﴿ لقد

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦١ .

ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ .

أى : لقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الشرور والمفاسد فى صفوف المسلمين ، من قبل ما حدث منهم فى غزوة تبوك .

ومن مظاهر ذلك أنهم ساءهم انتصاركم فى غزوة بدر ، وامتنعوا عن مناصرتكم فى غزوة أحد ، متبعين فى ذلك زعيمهم عبد الله بن أبى بن سلول ، ثم واصلوا حربهم لكم سراً وجهراً حتى كانت غزوة تبوك التى فضح الله فيها أحوالهم .

فالمراد بقوله : ﴿ من قبل ﴾ أى : من قبل هذه الغزوة التى كانت آخر غزوة غزاها رسول الله - ﷺ - .

أى أن ما صدر عن هؤلاء المنافقين من مسالك خبيثة خلال غزوة تبوك ليس هو الأول من نوعه ، بل هم لهم فى هذا المضمار تاريخ مظلم بدأ منذ أوائل عهد الدعوة الإسلامية بالمدينة .

وقوله: ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ بيان لتفننهم فى وجوه الأذى للنبى- ﷺ - وتقليب الأمر : تصريفه ، وترديده ، وإجالة الرأى فيه ، والنظر إليه من كل نواحيه : لمعرفة أى ناحية منه توصل إلى الهدف المنشود .

والمراد أن هؤلاء المنافقين قد ابتغوا الأذى للدعوة الإسلامية من قبل هذه الغزوة ، ودبروا لصاحبها - ﷺ - المكايد ، واستعملوا قصارى جهدهم ، ومنتهى اجتهادهم ، وخلاصة مكرهم ، من أجل صد الناس عن الحق الذى جاء به محمد - ﷺ - .

وقوله : ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله .. ﴾ غاية لمحذوف ،والتقدير : أن هؤلاء المنافقين استمروا على حربهم للدعوة الإسلامية « حتى جاء الحق » أى : النصر الذى وعد الله عباده به « وظهر أمر الله » أى : دينه وشرعه « وهم » أى المنافقون وأشباههم « كارهون » لذلك ؛ لأنهم يكرهون انتصار دين الإسلام ، ويحبون هزيمته وخذلانه ، ولكن الله - تعالى - خيب آمالهم ، وأحبط مكرهم .

قال الإمام ابن كثير : عندما قدم النبى - ﷺ - المدينة ، رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد الله بن أبى ، وأصحابه : هذا أمر قد توجه ، فدخلوا فى الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم وساءهم ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦١ .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين ، فحكت جانبا من أعذارهم الكاذبة ، ومن أقوالهم الخبيثة .. فقال - تعالى - :

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

روى محمد بن إسحاق ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبى بكر ، وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله - ﷺ - ذات يوم وهو فى جهازه - أى لغزوة تبوك - للجد بن قيس أخى بنى سلمة: «هل لك ياجد فى جلاد بنى الأصفر»؟- يعنى الروم- فقال الجد : يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فو الله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله - ﷺ - وقال قد أذنت لك » .

ففى الجد بن قيس نزلت هذه الآية ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ﴾[1] .

أى : ومن هؤلاء المنافقين الذين لم ينته الحديث عنهم بعد « من يقول » لك - يا محمد -

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦٢ .

« ائذن لى » فى القعود بالمدينة ، « ولا تفتنى » أى ولا توقعنى فى المعصية والإثم بسبب خروجى معك إلى تبوك ، ومشاهدتى لنساء بنى الأصفر .

وعبر - سبحانه - عن قول هذا المنافق بالفعل المضارع ، لاستحضار تلك الحال لغرابتها ، فإن مثله فى نفاقه وفجوره لا يخشى إثم الافتتان بالنساء إذ لا يجد من دينه ما نعا من غشيان الشهوات الحرام .

وقوله : ﴿ ألا فى الفتنة سقطوا ﴾ رد عليه فيما قال ، وذم له على ما تفوه به .

أى : ألا إن هذا وأمثاله فى ذات الفتنة قد سقطوا ، لا فى أى شىء آخر مغاير لها .

وبدأ - سبحانه - الجملة الكريمة بأداة التنبيه « ألا » ، لتأكيد الخبر ، وتوجيه الأسماع إلى ما اشتمل عليه من توبيخ لهؤلاء المنافقين .

وقدم الجار والمجرور على عامله ؛ للدلالة على ا لحصر . أى فيها لا فى غيرها قد سقطوا وهووا إلى قاع سحيق .

قال الآلوسى : وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة ، تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل سافلين [١] .

وقال الفخرى الرازى ما ملخصه : « وفيه تنبيه على أن القوم إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا فى الفتنة ، فالله - تعالى - بيّن أنهم فى عين الفتنة واقعون ، لأن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله وبرسوله ، والتمرد على قبول التكاليف التى كلفنا الله بها .. » [٢] .

وقوله : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ وعيد وتهديد لهم على أقوالهم وأفعالهم .

أى : وإن جهنم لمحيطة بهؤلاء الكافرين بما جاء من عند الله ، دون أن يكون لهم منها مهرب أو مفر .

وعبر عن إحاطتها بهم باسم الفاعل الدال على الحال ، لإفادة تحقيق ذلك حتى لكأنه واقع مشاهد .

قالوا : ويحتمل أنها محيطة بهم الآن ، بأن يراد بجهنم الأسباب الموصلة إليها من الكفر والنفاق وغير ذلك من الرذائل التى سقطوا فيها .

وقوله : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم .. ﴾ بيان لنوع آخر من خبث نواياهم ، وسوء بواطنهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٠ ص ١١٤ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٨ .

أى : « إن تصبك » يا محمد حسنة من نصر أو نعمة أو غنيمة - كما حدث يوم بدر - « تسؤهم » تلك الحسنة ، وتورثهم حزنا وغما ، بسبب شدة عداوتهم لك ولأصحابك .

« وإن تصبك مصيبة » من هزيمة أو شدة - كما حدث يوم أحد - « يقولوا » باختيال وعجب وشماتة « قد أخذنا أمرنا من قبل » .

أى : قد تلافينا ما يهمنا من الأمر بالحزم والتيقظ ، من قبل وقوع المصيبة التى حلت بالمسلمين ، ولم نلق بأيدينا إلى التهلكة كما فعل هؤلاء المسلمون .

وقوله : ﴿ ويتولوا وهم فرحون ﴾ تصوير لحالهم ، ولما جبلوا عليه من شماتة بالمسلمين .

أى : عندما تصيب المسلمين مصيبة أو مكروه ، ينصرف هؤلاء المنافقون إلى أهليهم وشيعتهم - والفرح يملأ جوانحهم - ليبشروهم بما نزل بالمسلمين من مكروه .

قال الجمل : فإن قلت : فلم قابل الله الحسنة بالمصيبة ، ولم يقابلها بالسيئة كما قال فى سورة آل عمران : « وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها » ؟ .

قلت : لأن الخطاب هنا للنبى - ﷺ - وهى فى حقه مضية يثاب عليها ، لا سيئة يعاتب عليها ، والتى فى آل عمران خطاب للمؤمنين » [1] .

وقوله : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا .. ﴾ إرشاد للرسول - ﷺ - إلى الجواب الذى يكبتهم ويزيل فرحتهم .

أى : « قل » يا محمد - لهؤلاء المنافقين الذين يسرهم ما يصيبك من شر ، ويحزنهم ما يصيبك من خير ، والذين خلت قلوبهم من الإيمان بقضاء الله وقدره ، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت . لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا وقدره علينا « هو مولانا » الذى يتولانا فى كل أمورنا ، ونلجأ إليه فى كل أحوالنا . وعليه وحده - سبحانه نكل أمورنا وليس على أحد سواه .

وقوله : ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين .. ﴾ إرشاد آخر للرسول - ﷺ - إلى الجواب الذى يخرس ألسنة هؤلاء المنافقين ويزيل فرحتهم .

وقوله : ﴿ تربصون ﴾ التربص بمعنى الانتظار فى تمهل . يقال : فلان يتربص بفلان الدوائر ، إذا كان ينتظر وقوع مكروه به .

والحسنيان : مثنى الحسنى . والمراد بهما : النصر أو الشهادة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٨ .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين - أيضا - إنكم ما تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما أحسن من جميع العواقب ، وهما إما النصر على الأعداء ، وفى ذلك الأجر والمغنم والسلامة ، وإما أن نقتل بأيديهم وفى ذلك الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار .

قال الآلوسى : والحاصل أن ما تنتظرونه بنا - أيها المنافقون - لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، كل منهما عاقبته حسنى لا كما تزعمون من أن ما يصيبنا من القتل فى الغزو سوء ، ولذلك سررتم به .

وصح من حديث أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « تكفل الله - تعالى - لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلمته أن يدخله الجنة . أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة »[1] .

وقوله : ﴿ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ بيان لما ينتظر المؤمنون وقوعه بالمنافقين .

أى : ونحن معشر المؤمنين نتربص بكم أيها المنافقون إحدى السوءيين من العواقب : إما « أن يصيبكم الله بعذاب » كائن « من عنده » فيهلككم كما أهلك الذين من قبلكم ، وإما أن يصيبكم بعذاب كائن « بأيدينا » بأن يأذن لنا فى قتالكم وقتلكم .

والفاء فى قوله : ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ للإفصاح .

أى إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ، فإنا معكم متربصون ما هو عاقبتكم ، وسترون أن عاقبتنا على كل حال هى الخير ، وأن عاقبتكم هى الشر .

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد حكت طرفا من رذائل المنافقين ومن مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية ، وردت عليهم بما يكبتهم ، ويفضحهم على رءوس الأشهاد .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين نفقاتهم غير مقبولة ، لأن قلوبهم خالية من الإيمان . ولأن عباداتهم ليست خالصة لوجه الله ، وأن ما ينفقونه سيكون عليهم حسرة فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١٦ .

قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

روى أن بعض المنافقين قال للنبى - ﷺ - عندما دعاهم إلى الخروج معه إلى تبوك : ائذن لى فى القعود وهذا مالى أعينك به ، فنزل قوله - تعالى - : ﴿ قل انفقوا طوعاً أو كرها لن يتقبل منكم .. ﴾ .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء ؛ أنفقوا ما شئتم من أموالكم فى وجوه الخير حالة كونكم طائعين ، أى : من غير إجبار أحد لكم ، أو كارهين ، أى بأن تجبروا على هذا الإنفاق إجباراً ، فلن يقبل منكم ذلك الإنفاق .

والكلام وإن كان قد جاء فى صورة الأمر ، إلا أن المراد به الخبر وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف بقوله .

فإن قلت : كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال : ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ ؟

قلت : هو أمر فى معنى الخبر ، كقوله - تعالى - ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ ومعناه : لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرها ، ونحوه قوله - تعالى - : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ وقول الشاعر .

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة　　　لدينا ولا مقلية إن تقلت

أى : لن يغفر الله لهم ، استغفرت لهم .. أم لم تستغفر لهم.ولا نلومك سواء أسأت إلينا أم أحسنت ... [1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٩ .

وجاء الكلام فى صورة الأمر، للمبالغة فى تساوى الأمرين، وعدم الاعتداد بنفقتهم سواء أقدموها عن طواعية أم عن كراهية.

وقوله. ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ بيان لثمرة إنفاقهم. أى: لن يتقبل منكم ما أنفقتموه، ولن تنالوا عليه ثواباً.

وقوله: ﴿ إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ تعليل لعدم قبول نفقاتهم.

أى: لن تقبل منكم نفقاتكم بسبب عتوكم فى الكفر، وتمردكم على تعاليم الإسلام وخروجكم عن الطاعة والاستقامة.

قال القرطبى ما ملخصه. وفى الآية دليل على أن أفعال الكافر إذا كانت براً كصلة القرابة، وجبر الكسير، وإغاثة الملهوف، لا يثاب عليها، ولا ينتفع بها فى الآخرة، بيد أنه يطعم بها فى الدنيا.

دليله ما رواه مسلم عن عائشة – رضى الله عنها – قالت: قلت يا رسول الله، ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟

قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين.

وروى عن أنس قال: قال رسول الله – ﷺ –: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها فى الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها»[1].

وقال الجمل: وهذه الآية وإن كانت خاصة فى إنفاق المنافقين، فهى عامة فى حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله، بل أنفقه رياء وسمعة فإنه لا يقبل منه[2].

ثم بين – سبحانه – على سبيل التفصيل لمظاهر فسقهم – أن هناك ثلاثة أسباب أدت إلى عدم قبول نفقاتهم.

أما السبب الأول فقد عبر عنه – سبحانه – بقوله: ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله .. ﴾.

أى: وما منعهم قبول نفقاتهم شىء من الأشياء إلا كفرهم بالله – تعالى – ورسوله – ﷺ –.

فالاستثناء من أهم الأشياء. والضمير فى «منعهم» هو المفعول الأول للفعل، وقوله:

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٦١.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٩.

﴿ أن تقبل ﴾ هو المفعول الثانى، لأن الفعل « منع » يتعدى لمفعولين تارة بنفسه كما هنا ، وتارة يتعدى إلى المفعول الثانى بحرف الجر وهو حرف « من » أو « عن » .

والفاعل ما فى حيز الاستثناء وهو قوله : ﴿ إلا أنهم كفروا .. ﴾ .

وأما السبب الثانى فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ .

ولفظ « كسالى » . جمع كسلان ، مأخوذ من الكسل بمعنى التثاقل عن الشيء ، والفتور عن أدائه . وفعله بزنة فرح .

أى : ولا يأتون الصلاة التى كتبها الله عليهم فى حال من الأحوال ، إلا فى حال كونهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان ، فصاروا لا يرجون من وراء أدائها ثواباً ولا يخشون من وراء تركها عقاباً ، وإنما يؤدونها رياء أو تقية للمسلمين .

وشبيه بهذه الجملة الكريمة قوله - تعالى - فى سورة النساء : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ .

وأما ، السبب الثالث فقد عبر عنه - سبحانه- بقوله : ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ .

أى . ولا ينفقون نفقة فى سبيل الله إلا وهم كارهون لها لأنهم يعدونها مغرماً ، ويعتبرون تركها مغنما ، وما حملهم على الإنفاق إلا الرياء أو المخادعة أو الخوف من انكشاف أمرهم ، وافتضاح حالهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : الكراهية خلاف الطواعية ، وقد جعلهم الله - تعالى - طائعين فى قوله « طوعاً » ثم وصفهم هنا بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون فكيف ذلك ؟

قلت : المراد بطوعهم أنهم يبذلون نفقتهم من غير إلزام من رسول الله - ﷺ - أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار ، لا عن رغبة واختيار[1] .

أى : أن نفقتهم فى جميع الأحوال لا يقصد بها الاستجابة لشرع الله ، وإنما يقصد بها الرياء أو المخادعة ، أو خدمة مصالحهم الخاصة .

ثم نهى الله - تعالى - المؤمنين فى شخص نبيهم - ﷺ - عن التطلع إلى ما فى أيدى هؤلاء المنافقين فقال . ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم .. ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٠ .

والإعجاب بالشيء معناه : أن تسر به سروراً يجعلك راضياً به ومتمنياً له ، والفاء فى قوله : ﴿ فلا تعجبك ﴾ للإفصاح .

أى إذا كان هذا هو شأن المنافقين ، فلا تستحسن . أيها العاقل . ما أعطيناهم إياه من أموال وأولاد ، فإنه نوع من الاستدراج .

وقوله : ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ﴾ تعليل للنهى عن الإعجاب بما أعطاهم الله من أموال وأولاد .

أى : إنما يريد الله بعطائهم تلك الأموال والأولاد أن يعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وقد بسط الإمام الرازى مظاهر تعذيب المنافقين فى الدنيا بالأموال والأولاد فقال ما ملخصه :

المنافقون يعذبهم الله بأموالهم وأولادهم فى الحياة الدنيا من وجوه :

أحدها : أن الرجل إذا آمن بالله واليوم الآخر ، علم أنه خلق للآخرة لا للدنيا ، وبهذا العلم يفتر حبه للدنيا ، وأما المنافق فإنه لما اعتقد أنه لا سعادة له إلا فى هذه الخيرات العاجلة ، عظمت رغبته فيها ، واشتد حبه لها ، وكانت الآلام الحاصلة بسبب فواتها أكثر فى حقه .. فهذا النوع من العذاب حاصل لهم فى الدنيا بسبب الأموال والأولاد .

وثانياً : أن النبى - ﷺ - كان يكلفهم إنفاق تلك الأموال فى وجوه الخيرات ، ويكلفهم إرسال أولادهم إلى الجهاد والغزو ، وذلك يوجب تعريض أولادهم للقتل ، وهم كانوا يعتقدون أن محمداً ليس صادقا فى كونه رسول ، وكانوا يعتقدون أن إنفاق تلك الأموال تضييع لها من غير فائدة وأن تعريض أولادهم للقتل التزام لهذا المكروه الشديد من غير فائدة ، ولاشك أن هذا كله تعذيب لهم .

وثالثاً : أنهم كانوا يبغضون محمداً - ﷺ - بقلوبهم ، ثم إنهم كانوا يحتاجون إلى بذل أموالهم وأولادهم فى خدمته . ولا شك أن هذه الحالة شاقة شديدة عليهم .

ورابعاً : أنهم كانوا خائفين من أن يفتضحوا ويظهر نفاقهم وكفرهم ظهوراً تاماً ، فيصيرون أمثال سائر أهل الحرب من الكفار . وحينئذ يتعرض الرسول - ﷺ - لهم بالقتل وسبى الأولاد .. وكل ذلك يوجب ألمهم وقلقهم .

وخامسا : أن كثيراً من المنافقين كان لهم أولاد أتقياء كحنظلة بن أبى عامر وعبد الله بن عبد الله بن أبى .. وكانوا لا يرتضون طريقة آبائهم فى النفاق ، ويقدحون فيهم .

والإبن إذا صار هكذا عظم تأذى الأب به ، واستيحاشه منه ، فصار حصول تلك الأولاد سببا لعذابهم ..[1] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٥٣ .

وقوله : ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة بعد بيان عذابهم فى الدنيا .

وزهوق النفس : خروجها من الجسد بصعوبة ومشقة . يقال : زهقت نفسه تزهق إذا خرجت ، وزهق الشىء إذا هلك واضمحل ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ... ﴾ .

والمعنى : لا تعجبك - أيها العاقل - أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، ويريد كذلك أن تخرج أرواحهم من أجسادهم وهم كافرون ، فيعذبهم بسبب كفرهم عذابا أليما .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت المنافقين بسوء المصير فى الآخرة ولن يحسد إنسان مصيره كهذا المصير .

قال الإمام الرازى : ومن تأمل فى هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه ، فإنه - سبحانه - لما بين قبائح أفعالهم ، وفضائح أعمالهم ، بين مالهم فى الآخرة من العذاب الشديد ، ومالهم فى الدنيا من وجوه المحنة والبلية ، ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر لا ينتفعون به يوم القيامة ألبتة ثم بين فى هذه الآية أن ما يظنونه من منافع الدنيا ، فهو فى حقيقته سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم ، وعند ذلك يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات فى الدنيا والدين ، ومبطل لجميع الخيرات فى الدين والدنيا ... » [1] .

وبعد أن بينت السورة الكريمة أن هؤلاء المنافقين قد خسروا الدنيا والآخرة ، أتبعت ذلك بالحديث عن رذائلهم وقبائحهم التى على رأسها الجبن والكذب فقال - تعالى - :

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

أى : أن هؤلاء المنافقين يحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - « إنهم لمنكم » أى : فى الدين والملة ، والحق أنهم ما هم منكم ، لأنهم يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ، فهم كما وصفهم - سبحانه - فى قوله : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٥٢ .

لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ .

وقوله : ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ استدراك للرد عليهم فيما قالوه وأقسموا عليه كذبا وزورا .

وقوله : ﴿ يفرقون ﴾ من الفرق ، بمعنى الفزع الشديد من أمر يتوقع حصوله .

يقال : فرق فرقا إذا اشتد خوفه وهلعه .

أى : أن هؤلاء المنافقين لشدة خوفهم وهلعهم - أيها المؤمنون - يحلفون لكم كذبا وزورا بأنهم منكم ، والحق أنهم ما هم منكم ، ولكنهم قوم جبناء . لا يستطيعون مصارحتكم بالعداوة ، ولا يجرؤون على مجابهتكم بما تخفيه قلوبهم لكم من بغضاء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات ... ﴾ تأكيد لما كان عليه أولئك المنافقون من جبن خالع .

والملجأ : اسم للمكان الذى يلجأ إليه الخائف ليحتمى به سواء أكان حصنا أو قلعة أو غيرهما .

والمغارات : جمع مغارة وهى المكان المنخفض فى الأرض أو فى الجبل . قال بعضهم : والغور - بفتح الغين - من كل شىء قعره . يقال : غار الرجل غورا إذا أتى الغور وهو المنخفض من الأرض [1] .

والمدخل - بتشديد الدال اسم للموضع الذى يدخلون فيه ، بصعوبة ومشقة لضيقه ، كالنفق فى الأرض .

وقوله : ﴿ يجمحون ﴾ أى : يسرعون أشد الإسراع مأخوذ من الجموح وهو أن يغلب الفرس صاحبه فى سيره وجريه . يقال : جمح الفرس براكبه جموحا ، إذا استعصى عليه حتى غلبه .

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين لو يجدون حصنا يلتجئون إليه أو مغارات يستخفون فيها . أو سردابا فى الأرض ينجحرون فيه ، لأقبلوا نحوه مسرعين أشد الإسراع دون أن يردهم شىء ، كالفرس الجموح الذى عجز صاحبه عن منعه من النفور والعَدْو .

فالآية الكريمة تصوير معجز لما كان عليه أولئك المنافقون من خوف شديد من المؤمنين ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٩٠ .

ومن بغض دفين لهم ، حتى إنهم لو وجدوا شيئا من هذه الأمكنة - التى هى منفور منها - لأسرعوا نحوها إسراعا شديداً .

ثم تمضى السورة بعد ذلك فى الكشف عن الأقوال المنكرة ، والأفعال القبيحة التى كانت تصدر عن المنافقين فتقول .

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن المقصود من هذا ، شرح نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم ، وهو طعنهم فى الرسول - ﷺ - بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء ، ويقولون إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته ، وينسبونه إلى أنه لا يراعى العدل ،[1] .

هذا ، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها :

ما أخرجه البخارى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : بينما النبى - ﷺ - يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : « ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل » ؟ ، فقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : ائذن لى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله - ﷺ - : « دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم فى الرمية ... » .

قال أبو سعيد ، فنزلت فيهم : ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات .. ﴾ .

وروى ابن مردويه عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « لما قسم النبى - ﷺ - غنائم حنين سمعت رجلا يقول : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فأتيت النبى - ﷺ -

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٥٥ .

فذكرت له ذلك فقال : « رحمة الله على موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » . ونزل ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾[1] .

وقوله : ﴿ يلمزك ﴾ أى : يعيبك ويطعن عليك فى قسمة الصدقات وغيرها من الأموال ، مأخوذ من اللمز وهو العيب. يقال لمزه وهمزه يلمزه ويهمزه إذا عابه وطعن عليه، ومنه قوله- تعالى - : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ .

وقيل : اللمز ما كان يحضره الملموز ، والهمز ما كان فى غيابه .

والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين - يا محمد - من يعيبك ويطعن عليك فى قسمة الصدقات والغنائم ، زاعمين أنك لست عادلا فى قسمتك .

وقوله : ﴿ فان اعطوا منها رضوا ... ﴾ بيان لفساد لمزهم وطعنهم ، وأن الدافع إليه إنما هو الطمع والشره فى حطام الدنيا ، وليس الغضب من أجل إحقاق الحق : أو من أجل نشر العدالة بين الناس .

أى : أن هؤلاء المنافقين إن أعطيتهم . يا محمد . من تلك الصدقات ، رضوا عنك ، وحكموا على هذا العطاء بأنه عدل حتى ولو كان ظلماً ، وإن لم تعطهم منها سخطوا عليك ، واتهموك بأنك غير عادل ، حتى ولو كان عدم عطائهم هو الحق بعينه ، فهم لا يقولون ما يقولونه فيك غضبا للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين .. وإنما يقولون ما يقولون من أجل مطامعهم الشخصية ، ومنافعهم الذاتية .

قال الجمل . وقوله ﴿ إذا هم يسخطون ﴾ إذا هنا فجائية ، قائمة مقام فاء الجزاء فى الربط على حد قوله : « وتخلف الفاء إذا المفاجأة » . والأصل . فهم يسخطون ، وغاير . سبحانه . بين جوابى الجملتين ، للاشارة إلى أن سخطهم ثابت لا يزول ولا يفنى بخلاف رضاهم[2] .

وقال صاحب المنار . وقد عبر . سبحانه . عن رضاهم بصيغة الماضى : للدلالة على أنه كان يكون لأجل العطاء فى وقته وينقضى ، فلا يعدونه نعمة يتمنون دوام الإسلام لدوامها ، وعبر عن سخطهم بإذا الفجائية وبالفعل المضارع ، للدلالة على سرعته واستمراره . وهذا دأب المنافقين وخلقهم فى كل زمان ومكان ، كما نراه بالعيان حتى من مدعى كمال الإيمان ، والعلم والعرفان[3] .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٥٦٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٩١ .

(٣) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٥٦٧ .

ثم وضح - سبحانه - : المنهج الذى يليق بأصحاب العقيدة السليمة فقال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله .. ﴾ .

أى . ولو أن هؤلاء المنافقين الذين يلمزونك . يامحمد . فى الصدقات ، رضوا ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء ، وقالوا - على سبيل الشكر والقناعة - « حسبنا الله » أى : كفانا فضله وما قسمه لنا ، « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » أى : سيعطينا الله فى المستقبل الكثير من فضله وإحسانه ، وسيعطينا رسوله من الصدقات وغيرها « إنا إلى الله راغبون » أى : إنا إلى الله راغبون فى أن يوسع علينا من فضله ، فيغنينا عن الصدقات وغيرها من أموال الناس ومن صلاتهم ، لأنه - سبحانه - له خزائن السموات والأرض .

وجواب « لو » محذوف . والتقدير : ولو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرا لهم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والآية تدل على أن من طلب الدنيا - بطمع وشراهة - آل أمره فى الدين إلى النفاق ، وأما من طلب الدنيا بتوسط وبغرض التوسل إلى مصالح الدين ، فهذا هو الطريق الحق ، والأصل فى هذا الباب أن يكون راضياً بقضاء الله .

ألا ترى أنه - سبحانه - ذكر هنا فى هذه الآية مراتب أربعة :

أولها : الرضا بما آتاهم الله ورسوله ، لعلمه بأنه - تعالى - حكم منزه عن العبث ، وكل ما كان حكما له وقضاء كان حقا وصوابا ولا اعتراض عليه .

وثانيها : أن يظهر أثر ذلك الرضا على لسانهم وهو قولهم : « حسبنا الله » يعنى : أن غيرنا أخذ المال ، ونحن قد رضينا بحكم الله وقضائه . وفزنا بهذه المرتبة العظيمة فى العبودية .

وثالثها : وهى أن الإنسان إذا لم يبلغ تلك الدرجة العالية التى عندها يقول : « حسبنا الله»، نزل منها إلى مرتبة أخرى وهى أن يقول : « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » .

ورابعها : أن يقول : « إنا إلى الله راغبون » فنحن لا نطلب من الإيمان والطاعة أخذ الأموال ، وإنما نطلب اكتساب سعادات الآخرة ..[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - المنهج اللائق بأصحاب العقيدة السليمة فى طلب الدنيا عقب ذلك ببيان المستحقين للصدقات فقال - تعالى - .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٥٦ طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ - الطبعة الثانية .

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

قال الإمام ابن كثير . لما ذكر الله - تعالى - اعتراض المنافقين الجهلة على النبى - ﷺ - ولمزهم إياه فى قسم الصدقات . بين - سبحانه - أنه هو الذى قسمها ، وبين حكمها ، وتولى أمرها بنفسه ، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين ، كما رواه أبو داود فى سننه عن زياد بن الحارث الصدائى قال . أتيت النبى - ﷺ - فبايعته . فأتى رجل فقال . أعطنى من الصدقة فقال له . « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره . فى الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك »[١] .

والمراد بالصدقات هنا - عند كثير من العلماء - الزكاة المفروضة .

ولفظ الصدقات . مبتدأ ، والخبر محذوف ، والتقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء والمساكين ... إلخ .

والفقراء . جمع فقير ، وهو من له أدنى شىء من المال . أو هو من لا يملك المال الذى يقوم بحاجاته الضرورية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن .

يقال فقر الرجل يفقر - من باب تعب - إذا قل ماله .

قالوا : وأصل الفقير فى اللغة : الشخص الذى كسر فقار ظهره ، ثم استعمل فيمن قل ماله لانكساره بسبب احتياجه إلى غيره .

أو هو من الفقرة بمعنى الحفرة ، ثم استعمل فيما ذكر لكونه أدنى حالا من أكثر الناس ، كما أن الحفرة أدنى من مستوى سطح الأرض المستوية .

والمساكين : جمع مسكين ، وهو من لاشىء له ، فيحتاج إلى سؤال الناس لسد حاجاته ومطالب حياته .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦٤ .

وهو مأخوذ من السكون الذى هو ضد الحركة ، لأن احتياجه إلى غيره أسكنه وأذله .

وقيل . المسكين هو الذى له مال أو كسب ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون قريب الشبه بالفقير .

وقوله : ﴿ والعاملين عليها ﴾ بيان للصنف الثالث من الأصناف الذين تجب لهم الزكاة .

والمراد بهم . من كلفهم الإمام بجمع الزكاة وتحصيلها ممن يملكون نصابها .

ويدخل فيهم العريف ، والحاسب ، والكاتب ، وحافظ المال ، وكل من كلفه الإمام أو نائبه بعمل يتعلق بجمع الزكاة أو حفظها ، أو توزيعها .

وقوله . ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ بيان للصنف الرابع .

والمراد بهم الأشخاص الذين يرى الإمام دفع شيء من الزكاة إليهم تأليفاً لقلوبهم ، واستمالة لنفوسهم نحو الإسلام ، لكف شرهم ، أو لرجاء نفعهم ، وهم أنواع :

منهم قوم من الكفار ، كصفوان بن أمية ، فقد أعطاء النبى - ﷺ - من غنائم حنين ، وكان صفوان يومئذ كافرا ، ثم أسلم وقال : والله لقد أعطانى النبى - ﷺ - وكان أبغض الناس إلى ، فما زال يعطينى . حتى أسلمت وإنه لأحب الناس إلى .

ومنهم قوم كانوا حديثى عهد بالإسلام وكانوا من ذوى الشرف فى أقوامهم فكان النبى - ﷺ - يعطيهم ، ليثبت إيمانهم ، وليدخل معهم فى الإسلام أتباعهم .

ومن أمثلة ذلك ما فعله الرسول - ﷺ - مع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، والزبرقان بن بدر ، فقد أعطاهم - ﷺ - لمكانتهم فى عشيرتهم ، ولشرفهم فى أقوامهم . وليدخل معهم فى الإسلام غيرهم .

ومنهم قوم كانوا ضعاف الإيمان ، فكان - ﷺ - يعطيهم تأليفاً لقلوبهم ، وتقوية لإيمانهم . لكى لا يسرى ضعف إيمانهم إلى غيرهم .

ومن أمثلة هذا الصنف العباس بن مرداس السلمى ، فقد أعطاه النبى - ﷺ - تأليفاً لقلبه ، وتثبيتاً لإيمانه .

والخلاصة أن النبى - ﷺ - كان يتألف قلوب بعض الناس بالعطاء ، دفعاً لشرهم ، أو أملا فى نفعهم ، أو رجاء هدايتهم .

وقوله : ﴿ وفى الرقاب ﴾ بيان لنوع خامس من مصارف الزكاة . وفى الكلام مجاز بالحذف ، والتقدير : وتصرف الصدقات أيضا فى فك الرقاب بأن يعان المكاتبون بشيء منها

على أداء بدل الكتابة؛ لكن يصيروا أحراراً . أو بأن يشترى بجزء منها عددًا من العبيد لكى يعتقوا من الرق .

وذلك لأن الإسلام يحبب أتباعه فى عتق الرقاب ، وفى مساعدة الأرقاء على أن يصيروا أحراراً .

وقوله : « والغارمين » من الغرم بمعنى الملازمة للشىء ومنه قوله . تعالى : ﴿ إن عذابها كان غراما ﴾ أى : عذاب جهنم كان ملازماً لأهلها من الكافرين .

والمراد بالغارمين : من لزمتهم الديون فى غير معصية لله ، ولا يجدون المال الذى يدفعونه لدائنيهم ، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على سداد ديونهم .

وقوله : ﴿ وفى سبيل الله ﴾ بيان لنوع سابع من مصارف الزكاة .

والسبيل : الطريق الذى فيه سهولة ، وجمعه سبل . وأضيف إلى الله تعالى للإشارة إلى أنه هو السبيل الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو الذى يوصل السائر فيه إلى مرضاة الله ومثوبته .

أى : وتصرف الصدقات فى سبيل الله ، يدفع جزء منها لمساعدة المجاهدين والغزاة والفقراء الذين خرجوا لإعلاء كلمة الله .

قال بعض العلماء ما ملخصه : قال أبو حنيفة ومالك والشافعى . يصرف سهم سبيل الله المذكور فى الآية الكريمة إلى الغزاة .. ، لأن المفهوم فى الاستعمال المتبادر إلى الأفهام أن سبيل الله هو الغزو ، وأكثر ما جاء فى القرآن الكريم كذلك .

وقال الإمام أحمد : يجوز صرف سبيل الله إلى مريد الحج .

وقال بعضهم . يجوز صرف سبيل الله إلى طلبة العلم .

وفسره بعضهم بجميع القربات . فيدخل فيه جميع وجوه الخير ، مثل تكفين الموتى ، وبناء القناطر ، والحصون ، وعمارة المساجد « وفى سبيل الله » عام فى الكل ..[1] .

وقوله: ﴿وابن السبيل﴾ بيان للصنف الثامن والأخير من الأصناف الذين هم مصارف الزكاة .

والمراد بابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله فى سفره . ولو كان غنياً فى بلده ، فيعطى من الزكاة ما يساعده على بلوغ موطنه .

وقد اشترط العلماء لابن السبيل الذى يعطى من الصدقة ، أن يكون سفره فى غير معصية

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٤٢ لفضيلة الشيخ محمد على السايس .

الله . فإن كان فى معصية لم يعط : لأن إعطاءه يعتبر إعانة له على المعصية ، وهذا لا يجوز .

وقد ألحقوا بابن السبيل ، كل من غاب عن ماله ، ولو كان فى بلده .

وقوله . فريضة من الله ، منصوب بفعل مقدر أى : فرض الله لهم هذه الصدقات فريضة ، فلا يصح لكم أن تبخلوا بها عنهم ، أو تتكاسلوا فى إعطائها لمستحقيها .

فالجملة الكريمة زجر للمخاطبين عن مخالفة أحكامه . سبحانه .

وقوله : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ تذييل قصد به بيان الحكمة من فرضية الزكاة .

أى : والله - تعالى - عليم بأحوال عباده ، ولا تخفى عليه خافية من تصرفاتهم ، حكيم فى كل أوامره ونواهيه ، فعليكم . أيها المؤمنون . أن تأتمروا بأوامره ، وأن تنتهوا عن نواهيه لتنالوا رضاه .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - أن المراد بالصدقات هنا ما يتناول الزكاة المفروضة وغيرها من الصدقات المندوبة ، وذلك لأن اللفظ عام فيشمل كل صدقة سواء أكانت واجبة أم مندوبة ، ولأن لفظ الصدقة فى عرف الشرع وفى صدر الاسلام ، كان يشمل الزكاة المفروضة ، والصدقة المندوبة ، ويؤيده قوله - تعالى - : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالصدقات فى الآية : الزكاة المفروضة ، لأن (أل) فى الصدقات للعهد الذكرى والمعهود هو الصدقات الواجبة التى أشار إليها القرآن . بقوله قبيل هذه الآية . ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾ ولأن الصدقات المندوبة يجوز صرفها فى غير الأصناف الثمانية كبناء المساجد والمدارس .

ويبدو لنا أن لفظ الصدقات فى الآية عام بحيث يتناول كل صدقة ، إلا أن الزكاة المفروضة تدخل فيه دخولا أوليا .

٢ - قال بعض العلماء : ظاهر الآية يقضى بالقسمة بين الثمانية الأصناف ، ويؤيد هذا وجهان .

الأول . ما يقتضيه اللفظ اللغوى ، إن قلنا . الواو للجمع والتشريك .

والثانى . ما رواه أبو داود فى سننه من قوله - ﷺ - « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات ، حتى حكم فيها ، فجزأها ثمانية أجزاء » .

وقد ذهب إلى هذا الشافعى وعكرمة والزهرى ، إلا إن استغنى أحدهما فتدفع إلى الآخرين بلا خلاف .

وذهبت طوائف إلى جواز الصرف فى صنف واحد . منهم عمر وابن عباس وعطاء وابن جبير ومالك وأبو حنيفه .

قال فى التهذيب : وخرجوا عن الظاهر فى دلالة الآية المذكورة والخبر بوجوه :

الأول : أن الله – تعالى – قال فى سورة البقرة : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾[١] فدل على أن ذكر العدد هنا لبيان جنس من يستحقها .

الثانى : الخبر ، وهو قوله – ﷺ – لمعاذ : « أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد فى فقرائهم .

الثالث : حديث سلمة بن صخر . فإنه – ﷺ – جعل له صدقة بنى زريق .

الرابع : أنه لم يظهر فى ذلك خلاف من جهة الصحابة فجرى كالمجمع عليه [٢] .

٣ – يرى جمهور العلماء أن الفقراء والمساكين صنفان من مصارف الزكاة لأن الله . – تعالى – قد ذكر كل صنف منها على حدة ، إلا أنهم اختلفوا فى أيهما أسوأ حالا من الآخر . فالشافعية يرون أن الفقير أسوأ حالا من المسكين .

ومن أدلتهم على ذلك ، أن الله . تعالى . بدأ فى الآية بالفقراء ، وهذا البدء . يشير إلى أنهم أشد حاجة من غيرهم ، لأن الظاهر تقديم الأهم على المهم .

ولأن لفظ الفقير أصله فى اللغة المفقور الذى نزعت فقرة من فقار ظهره ؛ فلا يستطيع التكسب ، ومعلوم أنه لا حال فى الاقلال والبؤس آكد من هذه الحال .

ولأن الله . تعالى . وصف بالمسكنة من كانت له سفينة من سفن البحر فقال : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر .. ﴾[٣] .

أما الأحناف والمالكية فيرون أن المسكين أسوأ حالا من الفقير .

ومن أدلتهم على ذلك : أن علماء اللغة عرفوا المسكين بأنه أسوأ حالا من الفقير ، وإلى هذا ذهب يعقوب بن السكيت ، والقتبى ، ويونس بن حبيب .

ولأن الله – تعالى – وصف المسكين وصفاً يدل على البؤس والفاقة فقال : ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ أى : مسكيناً ذا حاجة شديدة ، حتى لكأنه قد لصق بالتراب من شدة الفاقة ، ولم يصف الفقير بذلك .. [٤] .

---

(١) الآية ٢٧١ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٨٢ .
(٣) سورة الكهف . الآية ٧٩ .
(٤) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٦٨ .

قال بعض العلماء : وأنت إذا تأملت أدلة الطرفين وجدت أنها متعارضة ومحل نظر ، وأياما كان فقد اتفق الرأيان على أن الفقراء والمساكين صنفان .

وروى عن أبى يوسف ومحمد أنهما صنف واحد واختاره الجبائى ، ويكون العطف بينهما لاختلاف المفهوم . وفائدة الخلاف تظهر فيما إذا أوصى لفلان وللفقراء والمساكين ؛ فمن قال إنهما صنف واحد جعل لفلان نصف الموصى به ، ومن قال إنهما صنفان جعل له الثلث من ذلك [1] .

٤ – ظاهر الآية يدل على أن الزكاة يجوز دفعها لكل من يشمله اسم الفقير والمسكين ، إلا أن هذا الظاهر غير مراد ؛ لأن الأحاديث الصحيحة قد قيدت هذا الإطلاق .

قال القرطبى : اعلم أن قوله – تعالى – : ﴿ للفقراء ﴾ مطلق ليس فيه شرط وتقييد ، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء ، سواء أكانوا من بنى هاشم أو من غيرهم ، إلا أن السنة وردت باعتبار شروط ، منها : ألا يكونوا من بنى هاشم ، وألا يكونوا ممن تلزم المتصدق نفقته ، وهذا لا خلاف فيه .

وشرط ثالث ألا يكن قوياً على الاكتساب ؛ لأنه – سبحانه – قال : « لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرة سوى » .

ولا خلاف بين علماء المسلمين فى أن الصدقة المفروضة لا تحل للنبى – ﷺ – ولا لبنى هاشم ولا لمواليهم .. [2] .

وكذلك لا يصح أن تعطى لغير المسلمين ، ففى الصحيحين عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن النبى – ﷺ – قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » فاقتضى ذلك ان الصدقة مقصورة على فقراء المسلمين .

إلا أنه نقل عن أبى حنيفة جواز دفع صدقة الفطر إلى الذمى .

٥ – أخذ بعض العلماء من قوله – تعالى – ﴿ والعاملين عليها ﴾ أنه يجب على الإمام أن يرسل من يراه أهلا لجمع الزكاة ممن تجب عليهم .

وقد تأكد هذا الوجوب بفعل النبى – ﷺ – فقد ثبت فى أحاديث متعددة أنه أرسل بعض الصحابة لجمع الزكاة .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٣٤ للأستاذ محمد على السايس – بتصرف وتلخيص –

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٩١ .

روى البخارى عن أبى حميد الساعدى قال : استعمل رسول الله - ﷺ - رجلا على صدقات بنى سليم يدعى ابن اللتبية ، فلما جاء حاسبه [١] .

٦ - أخذ بعض العلماء - أيضاً - من قوله - تعالى - ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ أن حكمهم باق ، لأنهم قد ذكروا من بين مصارف الزكاة ، ولأن الرسول - ﷺ - قد أعطاهم ، فيعطون عند الحاجة .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : واختلف العلماء فى بقاء المؤلفة قلوبهم .

فقال عمر والحسن والشعبى وغيرهم : انقطع هذا الصنف بعز الإسلام وظهوره .

وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى .

قال بعض علماء الحنفية . لما أعز الله الإسلام وأهله ، أجمع الصحابة فى خلافة أبى بكر على سقوط سهمهم .

وقال جماعة من العلماء : هم باقون لأن الإمام ربما احتاج أن يستألف على الإسلام وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين .

وقال ابن العربى . الذى عندى أنه إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله - ﷺ - يعطيهم ، فإن فى الصحيح « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » [٢] .

والذى يبدو لنا أن ما قاله ابن العربى أقرب الأقوال إلى الصواب لأن مسألة إعطاء المؤلفة قلوبهم تختلف باختلاف الأحوال ؛ فإن كان الإمام يرى أن من مصلحة الإسلام إعطاءهم اعطاهم ، وإن كانت المصلحة فى غير ذلك لم يعطهم .

٧ - دلت الآية الكريمة على أن الزكاة ركن من أركان الاسلام ، لقوله تعالى « فريضة من الله » .

قال بعض العلماء ما ملخصه ، تلك هى فريضة الزكاة . ليست أمر الرسول وإنما هى أمر الله وفريضته وقسمته وما الرسول فيها إلا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين .

وهذه الزكاة تؤخذ من الأغنياء على أنها فريضة من الله ، وترد على الفقراء على أنها فريضة من الله ، وهى محصورة فى طوائف من الناس عينهم القرآن وليست متروكة لاختيار أحد حتى ولا اختيار الرسول نفسه .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٧٧ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٨١ .

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى شريعة الله ، ومكانها فى النظام الإسلامى ، لا تطوعاً ولا تفضلا ممن فرضت عليهم ، فهى فريضة محتمة ، ولا منحة ولا جزافا من القاسم الموزع فهى فريضة معلومة . إنها إحدى فرائض الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها خدمة اجتماعية محدودة . وهى . ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ ، كلا فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ولن يقوم .

إن قوام الحياة فى النظام الإسلامى هو العمل - بكل صنوفه وألوانه - على الدولة المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه .

والزكاة ضريبة تكافل اجتماعى بين القادرين والعاجزين ، تنظمها الدولة وتتولاها فى الجمع والتوزيع ، متى قام المجتمع على أساس الإسلام الصحيح ، منفذاً شريعة اللهلا يبتغى له شرعاً ولا منهجاً سواه .

إن فريضة الزكاة تؤدى فى صورة عبادة إسلامية ، ليطهر الله بها القلوب من الشح ، وليجعلها شرعة تراحم وتضامن بين أفراد الأمة المسلمة .

إنها فريضة من الله ، الذى يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، ويدير أمرها بالحكمة ﴿ والله عليم حكيم ﴾[1] .

وبعد هذا الحديث عن الصدقات التى كان المنافقون يلمزون الرسول - ﷺ - فيها ، أخذت السورة فى مواصلة حديثها عن رذائل المنافقين ، وعن سوء أدبهم .. فقال تعالى - :

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد بن صامت ورفاعة ابن عبد المنذر ،

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٠ .

ووديعة بن ثابت وغيرهم ، قالوا مالا ينبغى فى حقه - ﷺ - .

فقال رجل منهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغ محمدًا ما تقولونه فيقع فينا . فقال الجلاس : بل نقول ما شئنا ، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإن محمدًا أذن[1] .

فمرادهم بقولهم « هو أذن » أى : كثير الاستماع والتصديق لكل ما يقال له .

قال صاحب الكشاف : الأذن : الرجل الذى يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد ، سمى بالجارحة التى هى آلة السماع كأن جملته أذن سامعة ونظيره قولهم للربيئة - أى الطليعة - عين »[2] .

وقال بعضهم : « الأذن » الرجل المستمع القابل لما يقال له . وصفوا به الذكر والانثى والواحد والجمع . فيقال : رجل أذن ، وامرأة أذن ورجال ونساء أذن ، فلا يثنى ولا يجمع . إنما سموه باسم العضو تهويلا وتشنيعًا فهو مجاز مرسل أطلق فيه الجزء على الكل مبالغة بجعل جملته - لفرط استماعه - آلة السماع ، كما سمى الجاسوس عينًا لذلك »[3] .

والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين قوم يؤذون النبى - ﷺ - فيقولون عنه أنه كثير السماع والتصديق لكل ما يقال له بدون تمييز بين الحق والباطل .

وقوله: ﴿قل أذن خير لكم﴾ رد عليهم بما يخرس ألسنتهم ويكبت أنفسهم وهو من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة على سبيل المبالغة فى المدح كقولهم رجل صدق أى قد بلغ النهاية فى الصدق والاستقامة .

والمعنى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتبكيت : سلمنا . كما تزعمون . أنى كثير السماع والتصديق لما يقال ، لكن هذه الكثرة ليست للشر والخير بدون تمييز وإنما هى للخير ولما وافق الشرع فحسب .

ويجوز أن تكون الإضافة فيه على معنى « فى » ، أى هو أذن فى الخير والحق ، وليس بأذن فى غير ذلك من وجوه الباطل والشر .

وهذه الجملة الكريمة من أسمى الأساليب وأحكمها فى الرد على المرجفين والفاسقين ، لأنه - سبحانه - صدقهم فى كونه - ﷺ - أذنًا ، وذلك بما هو مدح له ، حيث وصفه بأنه أذن خير لا شر .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٢٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٤ .
(٣) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣١٨٦ .

قال صاحب الإنصاف : لا شئ أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه ، لأنه فى الأول إطماع لهم بالموافقة ثم كر على طمعهم بالحسم ، وأعقبهم فى تنقصه باليأس ، منه ، ولا شىء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه[١] .

وقوله : ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾ تفسير وتوضيح لكونه - ﷺ - أذن خير لهم لا أذن شر عليهم .

أى : أن من مظاهر كونه - ﷺ - أذن خير ، أنه « يؤمن بالله » إيمانًا حقًا لا يحوم حوله شىء من الرياء ، أو الخداع أو غيرهما من ألوان السوء « ويؤمن للمؤمنين » أى : يصدقهم فيما يقولونه من أقوال توافق الشرع لأنهم أصحابه الذين أطاعوه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، فهم أهل للتصديق والقبول . دون غيرهم من المنافقين والفاسقين .

قال الفخر الرازى : فإن قيل لماذا عدى الإيمان إلى الله بالباء ، وإلى المؤمنين باللام ؟

قلنا : لأن الإيمان المعدى إلى الله المراد منه التصديق الذى هو نقيض الكفر فعدى بالباء . والإيمان المعدى إلى المؤمنين المراد منه الاستماع منهم ، والتسليم لقولهم فعدى باللام ، كما فى قوله ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ . أى بمصدق لنا . وقوله : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ وقوله : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أذن خير لكم ﴾ .

أى : أن هذا الرسول الكريم بجانب أنه أذن خير لكم هو رحمة للذين آمنوا منكم - أيها المنافقون - إيمانًا صحيحًا ، لأنه عن طريق إرشاده لهم إلى الخير ، واتباعهم لهذا الإرشاد يصلون إلى ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا من المنافقين : أولئك الذيم صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا لله قلوبهم ، وتركوا النفاق والرياء .

أو أن المراد بالذين آمنوا منهم : أولئك الذين أظهروا الإيمان ، فيكون المعنى :

أن هذا الرسول الكريم رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم - أيها المنافقون - حيث إنه - ﷺ - عاملهم بحسب الظاهر ، دون أن يكشف أسرارهم ، أو يهتك أستارهم ؛ لأن الحكمة تقتضى ذلك .

وعلى هذا المعنى سار صاحب الكشاف فقد قال : وهو رحمة لمن آمن منكم ، أى : أظهر

---

(١) حاشية الكشاف لابن المنير جـ ٢ ص ١٩ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٦٥ .

الإيمان - أيها المنافقون - ، حيث يسمع منكم ، ويقبل إيمانكم الظاهر ، ولا يكشف أسراركم ، ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، مراعاة لما رأى الله من المصلحة فى الإبقاء عليكم ...[1] .

وقوله : ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ تذييل قصد به تهديدهم وزجرهم عن التعرض لرسول الله - ﷺ - بأية إساءة .

أى : والذين يؤذون رسول الله بأى لون من ألوان الأذى ، لهم عذاب أليم فى دنياهم وآخرتهم ؛ لأنهم بإيذائهم له يكونون قد استهانوا بمن أرسله الله رحمة للعالمين .

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونًا من جبنهم وعجزهم عن مصارحة المؤمنين بالحقائق ، فقال - سبحانه - :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

قال القرطبى : روى أن قومًا من المنافقين اجتمعوا ، وفيهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحقروه وتكلموا فقالوا : إن كان ما يقوله محمد حقًا لنحن شر من الحمير . فغضب الغلام وقال : والله إن ما يقوله محمد - ﷺ - لحق ، ولأنتم شر من الحمير . ثم أخبر النبى - ﷺ - بقولهم فحلفوا إن عامرا كاذب .

فقال عامر : هم الكذبة ، وحلف على ذلك وقال : اللهم لا تفرق بيننا حتى يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب . فأنزل الله هذه الآية[2] .

فقوله - سبحانه - : ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ خطاب للمؤمنين الذين كان المنافقون يذكرونهم بالسوء ، ثم يأتون إليهم بعد ذلك معتذرين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٩٣ - بتصرف يسير -

أى : إن هؤلاء المنافقين يحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - ليرضوكم ، فتطمئنوا إليهم ، وتقبلوا معاذيرهم .

قال أبو السعود : وإفراد إرضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم إرضاء الرسول - ﷺ - للإيذان بأن ذلك بمعزل عن أن يكون وسيلة لإرضائه ، وأنه - عليه الصلاة والسلام - إنما لم يكذبهم رفقا بهم ، وسترا لعيوبهم ، لا عن رضا بما فعلوا ، وقبول قلبى لما قالوا ... »[1] .

وقوله : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ جملة حالية فى محل نصب من ضمير « يحلفون » جىء بها لتوبيخهم على إيثارهم رضا الناس على رضا الله ورسوله .

أى : هم يحلفون لكم . والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء منكم لأن الله - تعالى - هو خالقهم ورازقهم ومالك أمرهم ، وهو العليم بما ظهر وبطن من أحوالهم . ولأن رسوله - ﷺ - هو المبلغ لوحيه - عز وجل -

قال صاحب المنار ما ملخصه : وكان الظاهر أن يقال : « يرضوهما » ونكتة العدول عنه إلى « يرضوه » : الإعلام بأن إرضاء رسوله عين إرضائه سبحانه ... وهذا من بلاغة القرآن فى نفس الإيجاز . ولو قال « يرضوهما » لما أفاد هذا المعنى ؛ إذ يجوز فى نفس العبارة أن يكون إرضاء كل منهما فى غير ما يكون به إرضاء الآخر ، وهو خلاف المراد هنا ، وكذلك لو قيل : « والله أحق أن يرضوه ، ورسوله أحق أن يرضوه » لا يفيد هذا المعنى أيضًا وفيه ما فيه من الركاكة والتطويل ...

وقد خرجه علماء النحو على قواعدهم ... وأقرب الأقوال إلى قواعدهم قول سيبويه : إن الكلام جملتان حذف خبر إحداهما لدلالة خبر الأخرى عليه ، كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف .

فهذا لا تكلف فيه من ناحية التركيب العربى ، ولكن تفوت به النكتة التى ذكرناها ... »[2] .

وقوله : ﴿ إن كانوا مؤمنين ﴾ تذييل قصد به بيان أن الإيمان الحق لا يتم إلا بإرضاء الله ورسوله عن طريق طاعتهما والانقياد لأوامرهما .

أى : إن كانوا مؤمنين حقًا ، فليعملوا على إرضاء الله ورسوله ، بأن يطيعوا أوامرهما ،

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٩ .

ويجتنبوا نواهيهما ، وإلا كانوا كاذبين فى دعواهم الإيمان ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير بسبب مخالفتهم لله ورسوله فقال :

﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدًا فيها ... ﴾

وقوله : ﴿ يحادد ﴾ من المحادة بمعنى المخالفة والمجانبة والمعاداة ، مأخوذة من الحد بمعنى الجانب ، كأن كل واحد من المتخاصمين فى جانب غير جانب صاحبه . ويقال : حاد فلان فلانا ، إذا صار فى غير حده وجهته بأن خالفه وعاداه .

والاستفهام فى الآية الكريمة للتوبيخ والتأنيب وإقامة الحجة .

والمعنى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين مردوا على الفسوق والعصيان أنه من يخالف تعاليم الله ورسوله ، فجزاؤه نار جهنم يصلاها يوم القيامة خالدًا فيها ؟! إن كانوا لا يعلمون ذلك - على سبيل الفرض - فأعلمهم يامحمد بسوء مصيرهم إذا ما استمروا على نفاقهم ومعاداتهم لله ولرسوله .

قال الجمل ما ملخصه : « من » شرطية مبتدأ . وقوله : ﴿ فأن له نار جهنم ﴾ فى موضع المبتدأ المحذوف الخبر ، والتقدير . فحق أن له نار جهنم ، أى : فكون نار جهنم له أمر حق ثابت . وهذه الجملة جواب من الشرطية ، والجملة الشرطية ، أى مجموع اسم الشرط وفعله والجزاء خبر أن الأولى ، وهى ﴿ أنه من يحادد الله ورسوله ﴾ وجملة أن الثانية واسمها وخبرها سدت مسد مفعولى يعلم إن لم يكن بمعنى العرفان ، ومسد مفعوله أى الواحد إن كان بمعنى العرفان[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك الخزى العظيم ﴾ يعود على ما ذكر من العذاب أى : ذلك الذى ذكرناه من خلودهم فى النار يوم القيامة هو الذل العظيم ، الذى يتضاءل أمامه كل خزى وذل فى الدنيا .

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا جانبًا من رذائل المنافقين وأكاذيبهم ، وتوعدتا كل مخالف لأوامر الله ورسوله بسوء المصير .

ثم واصلت السورة حملتها على المنافقين ، فكشفت عن خباياهم ، وهتكت أستارهم ، وأبطلت معاذيرهم ، وتوعدتهم بسوء المصير فقال - تعالى - :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٩٥ .

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

قال صاحب المنار : هذه الآيات فى بيان شأن آخر من شئون المنافقين التى كشفت سوأتهم فيها غزوة تبوك . أخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله - تعالى - : ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة ﴾ ...

قال : كانوا يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون : عسى أن لا يفشى علينا هذا .

وعن قتادة قال : كانت هذه السورة تسمى الفاضحة . فاضحة المنافقين ، وكان يقال لها المنبئة . أنبأت بمثالبهم وعوراتهم[1] .

والضمير فى قوله : ﴿ عليهم ﴾ وفى قوله : ﴿ تنبئهم ﴾ يعود على المنافقين . فيكون المعنى : ﴿ يحذر المنافقون ﴾ ويخافون من ﴿ أن تنزل عليهم ﴾ أى : فى شأنهم وحالهم « سورة من سور القرآن الكريم » ، تنبئهم بما فى قلوبهم . أى : تخبرهم بما انطوت عليه قلوبهم من أسرار خفية ، ومن أقوال كانوا يتناقلونها فيما بينهم ، ويحرصون على إخفائها عن المؤمنين .

وفى التعبير بقوله : ﴿ تنبئهم ﴾ مبالغة فى كون السورة مشتملة على أسرارهم ، حتى أنها تعلم من أحوالهم الباطنة مالا يعلمونه هم عن أنفسهم ، فتنبئهم بهذا الذى لا يعلمونه ، وتنعى عليهم قبائحهم ورذائلهم . وتذيع على الناس ما كانوا يخشون ظهوره من أقوال ذميمة ، وأفعال أثيمة .

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٦١٠ .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ﴿ عليهم ﴾ وقوله : ﴿ تنبئهم ﴾ يعود على المؤمنين ، فيكون المعنى : يحذر المنافقون ويخشون من أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوب المنافقين من أضغان وأحقاد وفسوق عن أمر الله .

وقد ذكر هذين الوجهين صاحب الكشاف فقال : والضمير فى « عليهم » و « تنبئهم » للمؤمنين ، و « فى قلوبهم » للمنافقين . وصح ذلك لأن المعنى يقود إليه .

ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين : لأن السورة إذا نزلت فى معناهم - أى فى شأنهم وأحوالهم - فهى نازلة عليهم . ومعنى « تنبئهم بما فى قلوبهم » كأنها تقول لهم : فى قلوبكم كيت وكيت : يعنى أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها »[1] .

وقال الإمام الرازى . فإن قيل : المنافق كافر فكيف يحذر نزول الوحى على الرسول - ﷺ - ؟ قلنا فيه وجوه ؟

قال أبو مسلم : هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول - ﷺ - يذكر كل شىء ، ويدعى أنه عن الوحى ، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم ، فأخبر الله رسوله بذلك ، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذى حذروا ظهوره ، وفى قوله : ﴿ قل استهزئوا ﴾ دلالة على ما قلناه .

٢ - أن القوم وإن كانوا كافرين بدين الرسول - ﷺ - إلا أنهم شاهدوا أنه - ﷺ - كان يخبرهم بما يضمرونه ويكتمونه ، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف فى قلوبهم .

٣ - قال الأصم . إنهم كانوا يعرفون كون الرسول - ﷺ - صادقا ، إلا أنهم كفروا به حسدًا وعنادًا ...

٤ - معنى الحذر : الأمر بالحذر . أى : ليحذر المنافقون ذلك .

٥ - أنهم كانوا شاكين فى صحة نبوته ، وما كانوا قاطعين بفسادها ، والشاك خائف ، فلهذا السبب خافوا أن ينزل عليه فى أمرهم ما يفضحهم[2] . والذى نراه أن الرأى الخامس أقرب الآراء إلى الصواب ، لأن المنافقين كانوا مترددين بين الإيمان والكفر : فهم كما وصفهم الله - تعالى - ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .. ﴾ .

ومن شأن هذا التذبذب أن يغرس الخوف والحذر فى القلوب .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٨ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٨ .

أى أن هذا الحذر والإشفاق . كما يقول بعض العلماء . أثر طبيعى للشك والارتياب ، لأنهم لو كانوا موقنين بتكذيب الرسول - ﷺ - لما خطر لهم هذا الخوف على بال ، ولو كانوا موقنين بتصديقه ، لما كان هناك محل لهذا الحذر « لأن قلوبهم مطمئنة بالإيمان »[1] .

وقوله : ﴿ قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ تهديد ووعيد لهم على نفاقهم وسوء أدبهم .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين المذبذبين بين الحق والباطل ، قل لهم ، على سبيل التهديد والتبكيت : افعلوا ما شئتم من الاستخفاف بتعاليم الإسلام إن الله - تعالى - مظهر ما تحذرونه من إنزال الآيات القرآنية التى تفضحكم على رءوس الأشهاد ، والتى تكشف عن أسراركم ، وتهتك أستاركم ، وتظهر للمؤمنين ما أردتم إخفاءه عنهم .

وأسند الإخراج إلى الله - تعالى - للإشارة إلى أنه - سبحانه - يخرج ما يحذرونه إخراجًا لا مزيد عليه من الكشف والوضوح ، حتى يحترس منهم المؤمنون ولا يغتروا بأقوالهم المعسولة .

وقوله : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب .. ﴾ بيان للون آخر من معاذيرهم الكاذبة ، وجبنهم عن مواجهة الحقائق .

وأصل الخوض - كما يقول الآلوسى - الدخول فى مائع مثل الماء والطين ، ثم كثر حتى صار اسمًا لكل دخول فيه تلويث وأذى[2] .

أى : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عن سبب استهزائهم بتعاليم الإسلام ليقولن لك على سبيل الاعتذار ، إنما كنا نفعل ذلك على سبيل الممازحة والمداعبة لا على سبيل الجد .

وقوله : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ إبطال لحجتهم ، وقطع لمعاذيرهم ، وتبكيت لهم على جهلهم وسوء أخلاقهم .

أى : قل لهم يا محمد - على سبيل التوبيخ والتجهيل - ألم تجدوا ما تستهزئون به فى مزاحكم ولعبكم - كما تزعمون - سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله الذى جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور ؟

فالاستفهام للانكار والتوبيخ ، ودفع ما تذرعوا به من معاذير واهية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ... ﴾ تأكيد لإبطال ما أظهروه من معاذير .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٦١٠ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٣١ .

والاعتذار معناه محاولة محو أثر الذنب ، مأخوذ من قولهم : اعتذرت المنازل إذا اندثرت وزالت ، لأن المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين المستهزئين بما يجب إجلاله واحترامه وتوقيره : قل لهم على سبيل التوبيخ والتجهيل أيضًا - لا تشتغلوا بتلك المعاذير الكاذبة فإنها غير مقبولة ، لأنكم بهذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ﴿ قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ أى : قد ظهر كفركم وثبت ، بعد إظهاركم الإيمان على سبيل المخادعة ، فإذا كنا قبل ذلك نعاملكم معاملة المسلمين بمقتضى نطقكم بالشهادتين فنحن الآن نعاملكم معاملة الكافرين بسبب استهزائكم بالله وآياته ورسوله - ﷺ - لأن الاستهزاء بالدين . كما يقول الإمام الرازى . يعد من باب الكفر ، إذ أنه يدل على الاستخفاف ، والأساس الأول فى الإيمان تعظيم الله - تعالى - بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ بيان لمظهر من مظاهر عدله - سبحانه - ورحمته .

أى : ﴿ إن نعف عن طائفة منكم ﴾ - أيها المنافقون - بسبب توبتهم وإقلاعهم عن النفاق ، ﴿ نعذب طائفة ﴾ أخرى منكم بسبب إصرارهم على النفاق ، واستمرارهم فى طريق الفسوق والعصيان .

هذا ، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها :

ما جاء عن زيد بن أسلم : أن رجلًا من المنافقين قال لعوف بن مالك فى غزوة تبوك : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا ، وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء !! فقال له عوف : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله - ﷺ - فذهب عوف إلى رسول الله - ﷺ - ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه .

قال زيد : قال عبد الله بن عمر : فنظرت إليه - أى إلى المنافق - متعلقًا بحقب[2] ناقة رسول الله - ﷺ - تنكبه[3] الحجارة يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، فيقول له الرسول - ﷺ - « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون »[4] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٦٠ .
(٢) الحقب - بفتحتين - حبل يشد به الرحل فى بطن البعير ..
(٣) تنكبه الحجارة : تصيبه وتؤذيه .
(٤) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٣٣ طبعة دار المعارف .

وعن قتادة قال : بينما رسول الله - ﷺ - يسير فى غزوته إلى تبوك ، وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا : يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها !! هيهات هيهات !.

فأطلع الله نبيه - ﷺ - على ذلك ، فقال نبى الله - ﷺ - : « أحبسوا على الركب » فأتاهم فقال لهم . قلتم كذا ، قلتم كذا . فقالوا : « يانبى الله إنما كنا نخوض ونلعب » فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون[1] .

وقال ابن اسحاق : كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت .. ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له « مخشى بن حمير » يسيرون مع رسول الله - ﷺ - وهو منطلق إلى تبوك - فقال بعضهم - أتحسبون جلاد بنى الأصفر - أى الروم - كقتال العرب بعضهم ؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال ، إرجافا وترهيبًا للمؤمنين .

فقال مخشى بن حمير : والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة ، وأننا ننجو أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه .

وقال رسول الله - ﷺ - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر - أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى ، قلتم كذا وكذا . فانطلق إليهم عمار ؛ فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله - ﷺ - يعتذرون إليه .

فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله - ﷺ - واقف على راحلته - يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب .

فقال مخشى بن حمير : يارسول الله ، قعد بى اسمى واسم أبى ، فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشى بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيدًا ، لا يعلم مكانه . فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر[2] .

هذه بعض الآثار التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ، وهى توضح ما كان عليه المنافقون من كذب فى المقال ، وجبن عن مواجهة الحقائق .

ثم مضت السورة الكريمة بعد ذلك فى تقرير حقيقة المنافقين ، وفى بيان جانب من صفاتهم ، والمصير السىء الذى ينتظرهم فقال - ﷺ - :

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦٧ .

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن هذا شرح لنوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم ، والمقصود بيان أن إناثهم كذكورهم فى تلك الأعمال المنكرة ، والأفعال الخبيثة فقال : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ أى : فى صفة النفاق ، وذلك كما يقول إنسان لآخر : أنت منى وأنا منك . أى : أمرنا واحد لا مباينة فيه ولا مخالفة ... [1] .

وقوله : ﴿ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ تفصيل لجانب من رذائلهم ، ومن مسالكهم الخبيثة .

أى : يأمرون غيرهم بكل ما تستنكره الشرائع ، وتستقبحه العقول ، وينهونه عن كل أمر دعت إليه الأديان ، وأحبته القلوب السليمة .

وقوله : ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ كناية عن بخلهم وشحهم ، لأن الإنسان السخى يبسط يده بالعطاء ، بخلاف الممسك القتور فإنه يقبض يده عن ذلك .

أى : أن من صفات هؤلاء المنافقين أنهم بخلاء أشحاء عن بذل المال فى وجوهه المشروعة .

وقوله : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ كناية عن رسوخهم فى الكفر ، وانغماسهم فى كل ما يبعدهم عن الله - تعالى - .

والمقصود بالنسيان هنا لازمه ، وهو الترك والإهمال ؛ لأن حقيقة النسيان محالة على الله - تعالى - ، كما أن النسيان الحقيقى لا يذم صاحبه عليه لعدم التكليف به .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٧٠ .

أى : تركوا طاعة الله وخشيته ومراقبته ، فتركهم - سبحانه - وحرمهم من هدايته ورحمته وفضله .

وقوله : ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ تذييل قصد به المبالغة فى ذمهم .

أى : إن المنافقين هم الكاملون فى الخروج عن طاعة الله ، وفى الانسلاخ عن فضائل الإيمان ، ومكارم الأخلاق .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ... ﴾ بيان لسوء مصيرهم ، بعد بيان جانب من صفاتهم الذميمة .

أى : وعد الله - تعالى - المنافقين والمنافقات والكفار المجاهرين بكفرهم « نار جهنم خالدين فيها » خلودًا أبديًا .

وقوله : ﴿ هى حسبهم ﴾ أى : إن تلك العقوبة الشديدة كافية لإهانتهم وإذلالهم بسبب فسوقهم عن أمر ربهم .

وقوله : ﴿ ولعنهم الله ﴾ أى : طردهم وأبعدهم من رحمته ولطفه .

وقوله : ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أى : ولهم عذاب دائم لا ينقطع ؛ فهم فى الدنيا يعيشون فى عذاب القلق والحذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم ، وفى الآخرة يذوقون العذاب الذى هو أشد وأبقى ، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان .

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد بينتا جانبًا من قبائح المنافقين ، ومن سوء مصيرهم فى عاجلتهم وآجلتهم .

ثم ساقت السورة الكريمة - لهؤلاء المنافقين - نماذج لمن حبطت أعمالهم بسبب غرورهم ، وضربت لهم الأمثال بمن هلك من الطغاة السابقين بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، فقال - تعالى - :

كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلًا وَأَوۡلَٰدًا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا

وَٱلْآخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة ... ﴾ جاء على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزجر المنافقين ، وتحريك نفوسهم إلى الاعتبار والاتعاظ .

والكاف فى قوله : ﴿ كالذين ﴾ للتشبيه ، وهى فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف .

والتقدير : أنتم - أيها المنافقون - حالكم كحال الذين خلوا من قبلكم من الطغاة فى الانحراف عن الحق ، والاغترار بشهوات الدنيا وزينتها ، ولكن هؤلاء الطغاة المهلكين ، يمتازون عنكم بأنهم « كانوا أشد منكم قوة » فى أبدانهم ، وكانوا « أكثر » منكم « أموالاً وأولادًا » .

وقوله : ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ بيان لموقف هؤلاء المهلكين من نعم الله - تعالى - والخلاق : مشتق من الخلق بمعنى التقدير . وأطلق على الحظ والنصيب لأنه مقدر لصاحبه .

أى : كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولادًا ، ولكنهم لم يشكروا الله على إحسانه ، بل فتنوا بما بين أيديهم من نعم ، واستمتعوا بنصيبهم المقدر لهم فى هذه الحياة الدنيا ، استمتاع الجاحدين الفاسقين .

والتعبير بالفاء المفيدة للتعقيب فى قوله : ﴿ فاستمتعوا ﴾ ؛ للإشعار بأن هؤلاء المهلكين بمجرد أن امتلأت أيديهم بالنعم ، قد استعملوها فى غير ما خلقت له ، وسخروها لإرضاء شهواتهم الخسيسة ، وملذاتهم الدنيئة .

وقوله : ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ ذم للمخاطبين وللذين سبقوهم ؛ لانتهاجهم جميعًا طريق الشر والبطر .

أى : فأنتم - أيها المنافقون - قد استمتعتم بنصيبكم المقدر لكم من ملاذ الدنيا ، وشهواتها الباطلة ، كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم فى ذلك .

وقوله : ﴿ وخضتم كالذى خاضوا ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : وخضتم - أيها المنافقون - فى حمأة الباطل وفى طريق الغرور والهوى ، كالخوض الذى خاضه السابقون من الأمم المهلكة .

قال الآلوسى قوله : « وخضتم » أى : دخلتم فى الباطل « كالذى خاضوا » .

أى : كالذين فحذفت نونه تخفيفًا ، كما فى قول الشاعر :

إن الـذى حـانت بفلج دمـاؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

ويجوز أن يكون « الذى » صفة لمفرد اللفظ ، مجموع المعنى ، كالفوج والفريق ، فلوحظ فى الصفة اللفظ . وفى الضمير المعنى ، أو هو صفة لمصدر محذوف ، أى : كالخوض الذى خاضوه ، ورجح بعدم التكلف فيه[1] .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فائدة فى قوله : ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ وقوله : ﴿ كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ مغن عنه كما أغنى قوله : ﴿ كالذى خاضوا ﴾ عن أن يقال : وخاضوا فخضتم كالذى خاضوا ؟

قلت : فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها ، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة ، وطلب الفلاح فى الآخرة ، وأن يخسس أمر الاستمتاع ، ويهجن أمر الرضا به ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون : كان يقتل بغير جرم ، ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل ما فعله .

وأما « وخضتم كالذى خاضوا » فمعطوف على ما قبله مستند إليه ، مستغن باستناده إليه عن تلك التقدمة »[2] .

وقوله : ﴿ أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الدارين .

واسما الإشارة يعودان على المتصفين بتلك الصفات القبيحة من السابقين واللاحقين .

أى : أولئك المستمتعون بنصيبهم المقدر لهم فى الشهوات الخسيسة ، والخائضون فى الشرور والآثام « حبطت أعمالهم » أى : فسدت وبطلت أعمالهم التى كانوا يرجون منفعتها « فى الدنيا والآخرة » لأن هذه الأعمال لم يكن معها إيمان أو إخلاص ، وإنما كان معها الرياء

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٣٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٨ .

والنفاق ، والفسوق والعصيان ، والله - تعالى - لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم .

وقوله : ﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾ أى : الكاملون فى الخسران ، الجامعون لكل ما من شأنه أن يؤدى إلى البوار والهلاك .

ثم ساق لهم - سبحانه - من أخبار السابقين ما فيه الكفاية للعظة والاعتبار لو كانوا يعقلون ، فقال - تعالى - : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ، قوم نوح وعاد وثمود ... ﴾ .

والاستفهام للتقرير والتحذير . والمراد بنبأ الذين من قبلهم : أخبارهم التى تتناول أقوالهم وأعمالهم ، كما تتناول ما حل بهم من عقوبات ، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم .

والمعنى : ألم يصل إلى أسماع هؤلاء المنافقين ، خبر أولئك المهلكين من الأقوام السابقين بسبب عصيانهم لرسلهم ، ومن هؤلاء الأقوام « قوم نوح » الذين أغرقوا بالطوفان ، وقوم « عاد » الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية ، وقوم « ثمود » الذين أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، « وقوم إبراهيم » الذين سلب الله نعمه عنهم ، وأذل غرور زعيمهم الذى حاج إبراهيم فى ربه ، « وأصحاب مدين » وهم قوم شعيب الذين أخذتهم الصيحة ، « والمؤتفكات » وهم أصحاب قرى قوم لوط ، التى جعل الله عاليها سافلها ...

والائتفاك : معناه الانقلاب بجعل أعلى الشىء أسفله . يقال : أفكه يأفكه إذا قلبه رأسًا على عقب .

وذكر - سبحانه - هنا هذه الطوائف الست ، لأن آثارهم باقية ، ومواطنهم هى الشام والعراق واليمن ، وهى مواطن قريبة من أرض العرب ، فكانوا يمرون عليها فى أسفارهم ، كما كانوا يعرفون الكثير من أخبارهم .

قال - تعالى - : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1] .

وقوله : ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ كلام مستأنف لبيان أنبائهم وأخبارهم .

أى : أن هؤلاء الأقوام المهلكين السابقين ، قد أتتهم رسلهم بالحجج الواضحات الدالة على وحدانية الله وعلى وجوب إخلاص العبادة له ..

والفاء فى قوله : ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ للعطف على كلام مقدر يدل عليه المقام .

أى : أتتهم رسلهم بالبينات ، فكذبوا هؤلاء الرسل ، فعاقبهم الله - تعالى - على هذا التكذيب . وما كان من سنته - سبحانه - ليظلمهم ، لأنه لا يظلم الناس شيئًا « ولكن كانوا

---

(١) سورة الصافات . الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

أنفسهم يظلمون » بسبب كفرهم وجحودهم ، واستحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم الغى على الرشد .

هذا ، ومن هاتين الآيتين الكريمتين نرى بوضوح ، أن الغرور بالقوة ، والافتتان بالأموال والأولاد ، والانغماس فى الشهوات والملذات الخسيسة . والخوض فى طريق الباطل ، وعدم الاعتبار بما حل بالطغاة والعصاة ..

كل ذلك يؤدى إلى الخسران فى الدنيا والآخرة ، وإلى التعرض لسخط الله وعقابه .

كما نرى منها أن من سنة الله فى خلقه ، أنه - سبحانه - لا يعاقب إلا بذنب ، ولا يأخذ العصاة والطغاة أخذ عزيز مقتدر ، إلا بعد استمرارهم فى طريق الغواية ، وإعراضهم عن نصح الناصحين ، وإرشاد المرشدين . وصدق الله إذ يقول : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئًا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن أحوال المنافقين ، وصفاتهم ، وسوء عاقبتهم ..

أتبعت ذلك بالحديث عن المؤمنين الصادقين ، وعما أعده الله لهم من نعيم مقيم ، فقال - سبحانه - :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

قال الإمام ابن كثير : لما ذكر - سبحانه - صفات المنافقين الذميمة ، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ .

أى : يتناصرون ويتعاضدون كما جاء فى الحديث الصحيح : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» . وفى الصحيح - أيضا - : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[١] .

وقال - سبحانه - هنا ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ بينما قال فى المنافقين ﴿ بعضهم من بعض ﴾ للإشعار بأن المؤمنين فى تناصرهم وتعاضدهم وتراحمهم مدفوعون بدافع العقيدة الدينية التى ألفت بين قلوبهم ، وجعلتهم أشبه ما يكونون بالجسد الواحد ، أما المنافقون فلا توجد بينهم هذه الروابط السامية ، وإنما الذى يوجد بينهم هو التقليد واتباع الهوى ، والسير وراء العصبية الممقوتة ، فهم لا ولاية بينهم ، وإنما الذى بينهم هو التقليد وكراهية ما أنزل الله على رسوله - ﷺ - .

وقوله ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .... ﴾ بيان للآثار التى تترتب على تلك الولاية الخالصة ، وتفصيل للصفات الحسنة التى تحلى بها المؤمنون والمؤمنات .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين والمؤمنات الذين جمعتهم العقيدة الدينية على التناصر والتراحم .. من صفاتهم ﴿ أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ أى يأمرون بكل خير دعا إليه الشرع ، وينهون عن كل شر تأباه تعاليم الإسلام الحنيف .

وقوله : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ أى : يؤدونها فى أوقاتها بإخلاص وخشوع ..

وقوله : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أى : يعطونها لمستحقيها بدون منٍّ أو أذى ..

وقوله : ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ أى : فى سائر الأحوال بدون ملل أو انقطاع أو تكاسل ..

وقوله : ﴿ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ بيان للجزاء الطيب الذى ادخره الله - تعالى - لهم .

أى : أولئك المؤمنون والمؤمنات المتصفون بتلك الصفات السامية ، سيرحمهم الله - تعالى - برحمته الواسعة ، إنه - سبحانه - « عزيز » لا يعجزه شىء « حكيم » فى كل أفعاله وتصرفاته .

قال صاحب الكشاف : « والسين هنا مفيدة لوجود الرحمة ، فهى تؤكد الوعد ، كما تؤكد الوعيد كما فى قولك : سأنتقم منك يوما ، تعنى أنك لا تفوتنى وإن تباطأ ذلك ، ونحوه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦٩ .
(٢) تفسير الكشاف - بتصرف يسير - جـ ٢ ص ٢٨٩ .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر رحمته للمؤمنين والمؤمنات أصحاب تلك الصفات السابقة فقال : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .

أي : ﴿ وعد الله ﴾ بفضله وكرمه ﴿ المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار ﴾ أى : من تحت بساتينها وأشجارها وقصورها ﴿ خالدين فيها ﴾ فى تلك الجنات خلودا أبديا .

ووعدهم كذلك « مساكن طيبة » أى : منازل حسنة ، تنشرح لها الصدور وتستطيبها النفوس .

وقوله : « فى جنات عدن » أى فى جنات ثابته مستقرة . يقال : فلان عدن بمكان كذا ، إذا استقر به وثبت فيه ، ومنه سمى المعدن معدنا لاستقراره فى باطن الأرض .

وقيل : إن كلمه « عدن » علم على مكان مخصوص فى الجنة ، أى فى جنات المكان المسمى بهذا الاسم وهو « عدن » .

ثم بشرهم - سبحانه - بما هو أعظم من كل ذلك فقال : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ .

أى أن المؤمنين والمؤمنات ليس لهم هذه الجنات والمساكن الطيبة فحسب وإنما لهم ما هو أكبر من ذلك وأعظم وهو رضا الله - تعالى - عنهم ، وتجليه عليهم ، وتشرفهم بمشاهدة ذاته الكريمة ، وشعورهم بأنهم محل رعاية الله وكرمه .

والتنكير فى قوله : ﴿ ورضوان ﴾ للتعظيم والتهويل ، وللإشارة إلى أن الشىء اليسير من هذا الرضا الإلهى على العبد ، أكبر من الجنات ومن المساكن الطيبة ، ومن كل حطام الدنيا .

روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله - عز وجل - يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : ياربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

وروى البزار فى مسنده عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله - تعالى - : هل تشتهون شيئا فأزيدكم ؟

قالوا : ياربنا وما خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضوانى أكبر »[1] .

وقوله : ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أى : ذلك الذى وعد الله به المؤمنين والمؤمنات فى جنات ومساكن طيبة ، ومن رضا من الله عنهم ، هو الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا يدانيه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٧٠ .

نعيم ، ولا يسامى شرفه شرف ..

وبهذا نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد بشرتا المؤمنين والمؤمنات بأعظم البشارات ، ووصفتهم بأشرف الصفات ، وقابلت بين جزائهم وبين جزاء الكفار والمنافقين ، بما يحمل العاقل على أن يسلك طريق المؤمنين ، وعلى أن ينهج نهجهم ، ويتحلى بأوصافهم ... وبذلك يفوز بنعيم الله ورضاه كما فازوا ، ويسعد كما سعدوا ، وينجو من العذاب الذى توعد الله به المنافقين والكافرين، بسبب اصرارهم على الكفر والنفاق ، وإيثارهم الغىّ على الرشد .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بمجاهدة الكفار والمنافقين بكل وسيلة ، لأنهم جميعا لا يريدون الانتهاء عن المكر السىء بالدعوة الإسلامية فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ جاهد ﴾ من المجاهدة ، بمعنى بذل الجهد فى دفع ما لا يرضى ، سواء أكان ذلك بالقتال أم بغيره .

وقوله : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ من الغلظة التى هى نقيض الرقة والرأفة . يقال أغلظ فلان فى الأمر إذا اشتد فيه ولم يترفق .

ونحن عندما نقرأ السيرة النبوية ، نجد أنه - ﷺ - بعد هجرته إلى المدينة، ظل فترة طويلة يلاين المنافقين ، ويغض الطرف عن رذائلهم . ويصفح عن مسيئهم .. إلا أن هذه المعاملة الحسنة لم زادتهم رجسا إلى رجسهم .. لذا جاءت هذه السورة - وهى من أواخر ما نزل من القرآن لتقول للنبى - ﷺ - لقد آن الأوان لإحلال الشدة والحزم ، محل اللين والرفق ، فإن للشدة مواضعها وللين مواضعه ..

والمعنى : عليك - أيها النبى الكريم - أن تجاهد الكفار بالسيف إذا كان لا يصلحهم سواه ، وأن تجاهد المنافقين - الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر - بما تراه مناسبا لردهم وزجرهم وإرهابهم ، سواء أكان ذلك باليد أم باللسان أم بغيرهما ، حتى تأمن شرهم .

قال الإمام ابن كثير ، أمر الله رسوله - ﷺ - بجهاد الكفار والمنافقين ، كما أمره أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين .. وقد تقدم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : بعث رسول الله - ﷺ - بأربعة أسياف . سيف للمشركين ﴿ فإذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ... ﴾ وسيف للكفار أهل الكتاب ﴿ قاتلوا الذين

لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ... ﴾ وسيف للمنافقين ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ وسيف للبغاة ﴿ فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال ابن مسعود فى قوله : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ قال : بيده ، فإن لم يستطع فليكشر فى وجهه - أى فليلق المنافق بوجه عابس لا طلاقة فيه ولا انبساط .

وقال ابن عباس : أمره الله - تعالى - بجهاد المنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم .

وقد يقال أنه لا منافاة بين هذه الأقوال ، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا ، وتارة بهذا على حسب الأحوال ...[1] .

والضمير المجرور فى قوله : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ يعود على الفريقين : الكفار والمنافقين أى : جاهدهم بكل ما تستطيع مجاهدتهم به ، مما يقتضيه الحال ، واشدد عليهم فى هذه المجاهدة بحيث لا تدع مجالا معهم للترفق واللين ، فإنهم ليسوا أهلا لذلك ، بعد أن عموا وصموا عن النصيحة ، وبعد أن لجوا فى طغيانهم .

وقوله : ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ تذييل قصد به بيان سوء مصيرهم فى الآخرة بعد بيان ما يجب على المؤمنين نحوهم فى الدنيا .

أى : عليك - أيها النبى - أن تجاهدهم وأن تغلظ عليهم فى الدنيا ، أما فى الآخرة فإن جهنم هى دارهم وقرارهم .

والمخصوص بالذم محذوف والتقدير : وبئس المصير مصيرهم ، فانه لا مصير أسوأ من الخلود فى جهنم .

ومن هذه الآية الكريمة نرى أن على المؤمنين - فى كل زمان ومكان - أن يجاهدوا أعداءهم من الكفار والمنافقين بالسلاح الذى يرونه كفيلا بأن يجعل كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه المنافقون من كذب وفجور ، ومن خيانة وغدر ، وفتح أمامهم باب التوبة ، وأنذرهم بالعذاب الأليم إذا ما استمروا فى نفاقهم فقال - سبحانه - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨١ .

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما رواه ابن جرير عن هشام بن عروة عن أبيه قال : نزلت هذه الآية : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ . الآية فى الجلاس بن سويد بن الصامت . أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء . فقال الجلاس : إن كان ما يقول محمد حقا لنحن أشر من حمرنا هذه التى نحن عليها !!

فقال مصعب : أما والله ياعدو الله لأخبرن رسول الله - ﷺ - بما قلت : قال مصعب : فأتيت النبى - ﷺ - . وخشيت أن ينزل فى القرآن أو تصيبنى قارعة .. فقلت يارسول الله : أقبلت أنا والجلاس من قباء . فقال كذا وكذا ، ولولا مخافة ان أخلط بخطيئة أو تصيبنى قارعة ما أخبرتك .

قال مصعب : فدعا رسول الله - ﷺ - الجلاس فقال له : أقلت الذى قال مصعب ؟ فحلف الجلاس بأنه ما قال ذلك . فأنزل الله الآية »[1] .

وأخرج ابن اسحاق وابن أبى حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل القرآن وفيه ذكر المنافقين قال الجلاس بن سويد : والله لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير . فسمعه عمير بن سعد فقال : والله ياجلاس إنك لأحب الناس إلى . وأحسنهم عندى أثراً . ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ، ولئن سكت عنها هلكت ، ولإحداها أشد على من الأخرى .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٦٢ بتصرف يسير . طبعة دار المعارف .

فمشى عمير إلى رسول الله - ﷺ - فذكر ما قال الجلاس . فسأل رسول الله - ﷺ - الجلاس عما قاله عمير ، فحلف بالله ما قال ذلك ، وزعم أن عميرا كذب عليه فنزلت هذه الآية[١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبى الطفيل .

قال : لما أقبل رسول الله - ﷺ - من غزوة تبوك أمر مناديه فنادى إن رسول الله - ﷺ - أخذ طريق العقبة ـ وهو مكان مرتفع ضيق ـ فلا يأخذها أحد .

قال : فبينما رسول الله - ﷺ - يقود ركابه حذيفة ويسوقه عمار ، إذا أقبل رهط ملثمون على الرواحل ، فغشوا عمارًا وهو يسوق برسول الله - ﷺ - ، فأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل . فقال رسول الله - ﷺ - لحذيفة : « قد ، قد » . أى حسبك حسبك . حتى هبط رسول الله - ﷺ - ورجع عمار .

فقال رسول الله - ﷺ - يا عمار : « هل عرفت القوم » ؟ فقال : لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون . قال : « هل تدرى ما أرادوا » ؟ قال : الله ورسوله اعلم . قال : « أرادوا أن ينفروا برسول الله - ﷺ - راحلته فيطرحوه » ..[٢] .

هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية وهى تكشف عن كذب المنافقين وغدرهم .

وقوله . سبحانه : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ... ﴾ استئناف مسوق لبيان جانب مما صدر عنهم من جرائم تستدعى جهادهم والإغلاظ عليهم .

أى : يحلف هؤلاء المنافقون بالله كذبا وزورا أنهم ما قالوا هذا القول القبيح الذى بلغك عنهم يا محمد .

والحق أنهم قد قالوا «كلمة الكفر» وهى تشمل كل ما نطقوا به من اقوال يقصدون بها إيذاءه . - ﷺ - ، كقولهم : « هو أذن » وقولهم . « لئن كان ما جاء به حقا فنحن أشر من حمرنا ... » وغير ذلك من الكلمات القبيحة التى نطقوا بها .

وأنهم قد « كفروا بعد إسلامهم » أى : أظهروا الكفر بعد إظهارهم الإسلام .

وأنهم قد « هموا بما لم ينالوا » أى : حاولوا إلحاق الأذى برسول الله - ﷺ - ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ، لأن الله تعالى . عصمه من شرورهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٣٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٢ . بتصرف وتلخيص .

وقوله: ﴿ومانقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ توبيخ لهم على جحودهم وكنودهم ومقابلتهم الحسنة بالسيئة .

ومعنى : نقموا : كرهوا وعابوا وأنكروا ، يقال نقم منه الشىء إذا أنكره ، وكرهه وعابه ، وكذا إذا عاقبه عليه .

أى : وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام شيئا ، إلا أنهم بسببه أغناهم الله ورسوله من فضله بالغنائم وغيرها من وجوه الخيرات التى كانوا لا يجدونها قبل حلول الرسول - ﷺ - وأصحابه بينهم .

وهذه الجملة الكريمة جاءت على الأسلوب الذى يسميه علماء البلاغة : تأكيد المدح بما يشبه الذم .

قال الجمل : كأنه قال - سبحانه - ليس له - ﷺ - صفة تكره وتعاب ، سوى أنه ترتب على قدومه إليهم وهجرته عندهم ، إغناء الله إياهم بعد شدة الحاجة ، وهذه ليست صفة ذم - بل هى صفة مدح - فحينئذ ليس له صفة تذم أصلا »[1] .

وشبيه بهذا الاسلوب قول الشاعر يمدح قوما بالشجاعة والإقدام .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بترغيبهم وترهيبهم فقال : ﴿ فإن يتوبوا يك خيرا لهم . وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة .. ﴾

أى : فإن يتب هؤلاء المنافقون عن نفاقهم وشقاقهم وقبائح أقوالهم وأفعالهم ، يكن المتاب خيرا لهم فى دنياهم وآخرتهم . « وإن يتولوا » ويعرضوا عن الحق : ويستمروا فى ضلالهم « يعذبهم الله عذابًا أليما فى الدنيا والآخرة » .

أما عذاب الدنيا فمن مظاهره : حذرهم وخوفهم من أن يطلع المؤمنون على أسرارهم وجبنهم عن مجابهة الحقائق ، وشعورهم بالضعف أمام قوة المسلمين ، وإحساسهم بالعزلة والمقاطعة من جانب المؤمنين ومعاقبة الرسول - ﷺ - إياهم بالعقوبة المناسبة لجرمهم ..

وأما عذاب الآخرة ، فهو أشد وأبقى ، بسبب إصرارهم على النفاق ، وإعراضهم عن دعوة الحق .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٠ - بتصرف يسير -

وقوله : ﴿ وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير ﴾ تذييل قصد به تيئيسهم من كل معين أو ناصر .

أى : أن هؤلاء المنافقين ليس لهم أحد فى الأرض يدفع عنهم عذاب الله ، أو يحميهم من عقابه ، لأن عقاب الله لن يدفعه دافع إلا هو ؛ فعليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يتوبوا إلى ربهم قبل أن يحل بهم عذابه .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك نماذج أخرى من جحودهم ، ونقضهم لعهودهم ، وبخلهم بما آتاهم الله من فضله فقال - سبحانه - .

۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى ، أن سبب نزول هذه الآيات أن ثعلبة ابن حاطب الانصارى قال لرسول الله - ﷺ - يارسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا . فقال له الرسول - ﷺ - : « ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . ثم قال له مرة أخرى : « أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ؟ فو الذى نفسى بيده لو شئت أن تصير الجبال معى ذهبا وفضة لصارت » .

فقال ثعلبة ، والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه .

فقال رسول الله - ﷺ - : « اللهم ارزق ثعلبة مالا » .

فاتخذ ثعلبة غنما فنمت ، ثم ضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما . ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، ثم ترك الجمعة ..

وأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ فبعث الرسول - ﷺ - رجلين على الصدقة من المسلمين .. وقال لهما : « مرا على ثعلبة وعلى فلان . رجل من بنى سليم . فخذا صدقاتهما » .

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله . فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، ما أدرى ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى .

فانطلقا وسمع بهما السلمى « فنظر الى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة . ثم استقبلهم بها . فلما رأوها قالوا له : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك . فقال : بل خذوها فإن نفسى بذلك طيبة ، فأخذاها منه ومرا على ثعلبة فقال لهما : أرونى كتابكما فقرأه فقال : ما هذه إلا جزية ... انطلقا حتى أرى رأيى .

فانطلقا حتى أتيا النبى - ﷺ - ، فلما رآهما قال : « يا ويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمى بالبركة . فأخبراه بالذى صنعه ثعلبة معهما ..

فأنزل الله تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين .. ﴾ الآيات .

فسمع رجل من أقارب ثعلبة هذه الآيات فذهب إليه وأخبره بما أنزل فيه من قرآن .

فخرج ثعلبة حتى أتى النبى - ﷺ - وسأله أن يقبل منه صدقته فقال له : إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك ..

ثم لم يقبلها منه بعد ذلك أبو بكر أو عمر أو عثمان ، وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان[1] .

هذا ، وقد ضعف بعض العلماء هذا الحديث ، لأسباب تتعلق بسنده ، وبصاحب القصة وهو ثعلبة بن حاطب .

والذى نراه أن هذه الآيات الكريمة تحكى صورة حقيقية وواقعية لبعض المنافقين المعاصرين للعهد النبوى . والذين عاهدوا الله فنقضوا عهودهم معه ، وقابلوا ما أعطاهم من نعم بالبخل والجحود ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٤ - بتصرف وتلخيص .

وتلك الصورة قد تكون لثعلبة بن حاطب وقد تكون لغيره ، لأن المهم هو حصولها فعلا من بعض المنافقين .

وهذه الآيات - أيضا - تنطبق فى كل زمان ومكان على من يقابل نعم الله بالكفران ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : هذا بيان لحال طائفة من أولئك المنافقين الذين أغناهم الله ورسوله من فضله بعد الفقر والإملاق ، ويوجد مثلهم فى كل زمان ، وهم الذين يلجأون إلى الله - تعالى - فى وقت العسرة والفقر ، أو الشدة والضر ، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له ، والطاعة لشرعه ، إذا هو كشف ضرهم ، وأغنى فقرهم . فإذا استجاب لهم نكسوا على رءوسهم ، ونكصوا على أعقابهم ، وكفروا النعمة ، وبطروا الحق ، وهضموا حقوق الخلق وهذا مثل من شر أمثالهم »[1] .

ومعنى الآيات الكريمة : ومن المنافقين قوم « عاهدوا الله » وأكدوا عهودهم بالايمان المغلظة فقالوا : « لئن آتانا » الله - تعالى - من فضله مالا وفيرا ، لنصدقن منه على المحتاجين ، ولنعطين كل ذى حق حقه ولنكونن من عباده « الصالحين » الذين يؤدون واجبهم نحو الله والناس ، والذين يصلحون فى الأرض ولا يفسدون .

قال الجمل وقوله : ﴿ من عاهد الله ﴾ فيه معنى القسم ، وقوله : ﴿ لئن آتانا من فضله ﴾ تفسير لقوله : عاهد الله . واللام موطئة لقسم مقدر . وقد اجتمع هنا قسم وشرط ، فالمذكور وهو قوله : « لنصدقن ».. جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف ... واللام فى قوله « لنصدقن » ... واقعة فى جواب القسم[2] .

وقوله : ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به ﴾... بيان لموقفهم الجحودى من عطاء الله وكرمه .

أى : فلما أعطى الله - تعالى - من فضله هؤلاء المنافقين ما تمنوه من مال وفير « بخلوا به » أى : بخلوا بهذا المال ، فلم ينفقوا منه شيئا فى وجوهه المشروعة ، ولم يعترفوا فيه بحقوق الله أو حقوق الناس ، ولم يكتفوا بذلك بل « تولوا وهم معرضون » .

أى : أدبروا عن طاعة الله وعن فعل الخير ، وهم قوم دأبهم التولى عن سماع الحق ، وشأنهم الانقياد للهوى والشيطان .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٦٤٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠١ .

وقوله : ﴿ فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ... ﴾ تصوير للآثار الذميمة التى ترتبت على بخلهم وإعراضهم عن الحق والخير .

أى : فجعل الله - تعالى - عاقبة فعلهم نفاقا وسوء اعتقاد فى قلوبهم إلى يوم يلقونه للحساب ، فيجازيهم بما يستحقون على بخلهم وإعراضهم عن الحق .

فالضمير المستتر فى « أعقب » لله - تعالى - وكذا الضمير المنصوب فى قوله : « يلقونه » .

ويصح أن يكون الضمير فى « أعقب » يعود على البخل والتولى والإعراض ، فيكون المعنى : فأعقبهم وأورثهم ذلك البخل والتولى والإعراض عن الحق والخير ، نفاقا راسخا فى قلوبهم ، وممتدا فى نفوسهم إلى اليوم الذى يلقون فيه ربهم ، فيعاقبهم عقابا أليما على سوء أعمالهم .

والباء فى قوله : ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ للسببية .

أى : أن النفاق قد باض وفرخ فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله - تعالى - ، بسبب إخلافهم لوعودهم مع خالقهم ، وبسبب استمرارهم على الكذب ، ومداومتهم عليه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتوبيخهم على إصرارهم على المعاصى ، مع علمهم بأنه - عز وجل - عليم رقيب عليهم ، ومطلع على أحوالهم فقال : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب ﴾ .

أى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله - تعالى - يعلم ما يسرونه فى أنفسهم من نفاق ، وما يتناجون به فيما بينهم من أقوال فاسدة ، وأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ بلى إنهم ليعلمون ذلك علم اليقين ، ولكنهم لاستيلاء الهوى والشيطان عليهم ، لم ينتفعوا بعلمهم .

فالاستفهام فى قوله : ﴿ ألم يعلموا .. ﴾ للتوبيخ والتهديد والتقرير ، وتنبيهم إلى أن الله عليم بأحوالهم ، وسيجازيهم عليها .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات مايأتى :

١ - وجوب الوفاء بالعهود ، فإن نقض العهود ، وخلف الوعد ، والكذب كل ذلك يورث النفاق ، فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه ، فإذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به .

ومذهب الحسن البصرى - رحمه الله - أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية

وبقوله - ﷺ - : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »[1] .

٢ - أن للإمام أن يمتنع عن قبول الصدقة من صاحبها إذا رأى المصلحة فى ذلك ، اقتداء بما فعله الرسول - ﷺ - مع ثعلبة ، فإنه لم يقبل منه الصدقة بعد أن جاء بها .

قال الإمام الرازى : فإن قيل إن الله - تعالى - أمره - أى ثعلبه - بإخراج الصدقة فكيف يجوز من الرسول - ﷺ - أن لا يقبلها منه ؟

قلنا : لا يبعد أن يقال أنه - تعالى - منع رسوله عن قبول الصدقة منه على سبيل الإهانة له ، ليعتبر غيره به ، فلا يمتنع عن أداء الصدقات .

ولا يبعد - أيضا - أنه إنما أتى بها على وجه الرياء لا على وجه الإخلاص وأعلم الله رسوله بذلك ، فلم يقبل تلك الصدقة لهذا السبب .

ويحتمل - أيضا - أنه - تعالى - لما قال : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ وكان هذا المقصود غير حاصل فى ثعلبه مع نفاقه ، فلهذا السبب امتنع رسول الله -ﷺ- عن أخذ تلك الصدقة[2] .

٣ - أن النفس البشرية ضعيفة شحيحة - إلا من عصم الله .

وأن مما يعين الإنسان على التغلب على هذا الضعف والشح ، أن يوطن نفسه على طاعة الله ، وأن يجبرها إجباراً على مخالفة الهوى والشيطان ، وأن يؤثر ما عند الله على كل شىء من حطام الدنيا ...

أما إذا ترك لنفسه أن تسير على هواها ، فإنها ستورده المهالك ، التى لن ينفع معها الندم ، وستجعله أسير شهواته وأطماعه ونفاقه إلى أن يلقى الله ، وصدق - سبحانه - حيث يقول : ﴿ فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - موقف هؤلاء المنافقين من المؤمنين الصادقين الذين كانوا يبذلون أموالهم فى سبيل الله ، فقال - سبحانه :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٧٨ . طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٧٦ . طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ .

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا أيضا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم فى جميع الأحوال ، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم . إن جاء أحد منهم بمال جزيل ، قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بشىء يسير قالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، كما روى البخارى عن أبى مسعود - رضى الله عنه - قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا - أى : نؤاجر أنفسنا فى الحمل - فجاء رجل فتصدق بشىء كثير ، فقالوا هذا يقصد الرياء ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت هذه الآية[١] .

وأخرج ابن جرير عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه : أن رسول الله - ﷺ - قال : « تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثا ، - أى إلى تبوك - قال : فقال عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله .. إن عندى أربعة آلاف : ألفين أقرضهما الله ، وألفين لعيالى .

قال : فقال رسول الله - ﷺ - : « بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت » ؟ ! فقال رجل من الأنصار : وإن عندى صاعين من تمر ، صاعا لربى ، وصاعا لعيالى ، قال : فلمز المنافقون وقالوا : ما أعطى أبو عوف هذا إلا رياء !!

وقالوا : أو لم يكن الله غنيا عن صاع هذا !! فأنزل الله - تعالى - ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ... ﴾[٢] .

وقال ابن اسحاق : كان المطوعون من المؤمنين فى الصدقات : عبد الرحمن بن عوف وعاصم بن عدى - أخابنى عجلان - وذلك أن رسول الله - ﷺ رغب فى الصدقة وحض عليها . فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف ، وقام عاصم بن عدى وتصدق بمائة وسق من تمر ، فلمزوهما ، وقالوا : ما هذا إلا رياء . وكان الذى تصدق بجهده أبا عقيل - أخابنى أنيف - أتى بصاع من تمر ، فأفرغها فى الصدقة ، فتضاحكوا به ، وقالوا : إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل »[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٥ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٨٦ . طبعة دار المعارف .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٥ .

هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية ، وهناك روايات أخرى ، قريبة فى معناها بما ذكرناها .

وقوله : « يلمزون » من اللمز ، يقال : لمز فلان فلانا إذا عابه وتنقصه .

والمراد بالمطوعين : أغنياء المؤمنين الذين قدموا أموالهم عن طواعية واختيار ، من أجل إعلاء كلمة الله .

والمراد بالصدقات : صدقات التطوع التى يقدمها المسلم زيادة على الفريضة .

والمراد بالذين لا يجدون إلا جهدهم : فقراء المسلمين . الذين كانوا يقدمون أقصى ما يستطيعونه من مال مع قلته ، إذ الجهد : الطاقة ، وهى أقصى ما يستطيعه الإنسان .

والمعنى : إن من الصفات القبيحة - أيضاً - للمنافقين ، أنهم كانوا يعيبون على المؤمنين ، إذا ما بذلوا أموالهم لله ورسوله عن طواعية نفس ، ورضا قلب ، وسماحة ضمير ....

وذلك لأن هؤلاء المنافقين - لخلو قلوبهم من الإيمان - كانوا لايدركون الدوافع السامية ، والمقاصد العالية من وراء هذا البذل ..

ومن أجل هذا كانوا يقولون عن المكثر : إنه يبذل رياء ، وكانوا يقولون عن المقل : إن الله غنى عن صدقته ، فهم - لسوء نواياهم وبخل نفوسهم ، وخبث قلوبهم - لا يرضيهم أن يروا المؤمنين يتنافسون فى إرضاء الله ورسوله .

وقوله : ﴿ والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ المطوعين ﴾ .

أى : أن هؤلاء المنافقين يلمزون الأغنياء المطوعين بالمال الكثير ، ويلمزون الفقراء الباذلين للمال القليل ؛ لأنه هو مبلغ جهدهم ، وآخر طاقتهم .

وقوله : ﴿ فيسخرون منهم ﴾ بيان لموقفهم الذميم من المؤمنين .

أى : إن هؤلاء المنافقين يستهزئون بالمؤمنين عندما يلبون دعوة رسول الله - ﷺ - إلى الإنفاق فى سبيل الله .

وجاء عطف ﴿ فيسخرون ﴾ على ﴿ يلمزون ﴾ بالفاء ، للإشعار بأنهم قوم يسارعون إلى الاستهزاء بالمؤمنين ، بمجرد أن يصدر عن المؤمنين أى عمل من الأعمال الصالحة التى ترضى الله ورسوله .

وقوله : ﴿ سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ بيان لجزائهم وسوء عاقبتهم .

أى : إن هؤلاء الساخرين من المؤمنين جازاهم الله على سخريتهم فى الدنيا ، بأن فضحهم وأخزاهم ، وجعلهم محل الاحتقار والازدراء ...

أما جزاؤهم فى الآخرة فهو العذاب الأليم الذى لا يخف ولا ينقطع .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت جانبا من طبائع المنافقين وردت عليهم بما يفضحهم ويخزيهم ويبشرهم بالعذاب الأليم .

ثم عقب الله - تعالى - هذا الحكم عليهم بالعذاب الأليم ، بحكم آخر وهو عدم المغفرة لهم بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق ، فقال - تعالى - :

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

قال الجمل : قال المفسرون : لما نزلت الآيات المتقدمة فى المنافقين ، وفى بيان نفاقهم ، وظهر أمرهم للمؤمنين ، جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - يعتذرون إليه ، ويقولون : استغفر لنا فنزلت هذه الآية .

وهذا كلام خرج مخرج الأمر ومعناه الخبر، والتقدير : استغفارك وعدمه لهم سواء[١] .

وإنما جاء هذا الخبر هنا فى صورة الأمر للمبالغة فى بيان استوائهما .

وقد جاء هذا الحكم فى صورة الخبر فى موضع آخر هو قوله - تعالى - ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[٢] .

والمقصود بذكر السبعين فى قوله: ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ إرادة التكثير، والمبالغة فى كثرة الاستغفار ، فقد جرت عادة العرب فى أساليبهم على استعمال هذا العدد للتكثير لا للتحديد ، فهو لا مفهوم له .

ونظيره قوله - تعالى - ﴿ ذرعها سبعون ذراعا .. ﴾[٣] .

أى : مهما استغفرت لهم يا محمد فلن يغفر الله لهم .

وقوله : ﴿ ذلك أنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ بيان للأسباب التى أدت إلى عدم مغفرة الله لهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) سورة « المنافقون » الآية ٦ .

(٣) سورة الحاقة الآية ٣٢ .

واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى امتناع المغفرة لهم ، المفهوم من قوله : ﴿ فلن يغفر الله لهم ﴾ .

أى : ذلك الحكم الذى أصدرناه عليهم بعدم مغفرة ذنوبهم مهما كثر استغفارك لهم،سببه : أنهم قوم « كفروا بالله ورسوله » ومن كفر بالله ورسوله ، فلن يغفر الله له ، مهما استغفر له المستغفرون ، وشفع له الشافعون .

وقوله : ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ تذييل مؤكد لما قبله ، أى والله - تعالى - لا يهدى إلى طريق الخير أولئك الذين فسقوا عن أمره ، وخرجوا عن طاعته ، ولم يستمعوا إلى نصح الناصحين ، وإرشاد المرشدين ، وإنما آثروا الغواية على الهداية .

هذا ، ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، شدة شفقته - ﷺ - بأمته ، وحرصه على هدايتها ، وكثرة دعائه لها بالرحمة والمغفرة ، وأنه مع إيذاء المنافقين له كان يستغفر لهم - أملا فى توبتهم - إلى أن نهاه الله عن ذلك .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية ، قال الرسول - ﷺ - أسمع ربى قد رخص لى فيهم ، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة ، فلعل الله أن يغفر لهم ، فقال الله - تعالى - من شدة غضبه عليهم ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ... ﴾ .

وعن قتادة لما نزلت هذه الآية قال النبى - ﷺ - : « وقد خيرنى ربى فلأزيدنهم على السبعين » فقال الله - تعالى - : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ... ﴾[1] .

وهكذا أصدر الله حكمه العادل فى هؤلاء المنافقين ، بعدم المغفرة لهم ، بسبب كفرهم به وبرسوله ...

وبعد هذا الحديث الطويل المتنوع عن أحوال المنافقين ومسالكهم الخبيثة ، أخذت السورة الكريمة فى الحديث عن حال المنافقين الذين تخلفوا فى المدينة ، وأبوا أن يخرجوا مع الرسول - ﷺ - إلى تبوك ، فقال - تعالى - :

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٩٧ .

وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

وقوله : « المخلفون » اسم مفعول مأخوذ من قولهم خلف فلان فلانا وراءه إذا تركه خلفه .

والمراد بهم : أولئك المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك بسبب ضعف إيمانهم ، وسقوط همتهم ، وسوء نيتهم ..

قال الجمل : وقوله ﴿ خلاف رسول الله ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر مدلول عليه بقوله «مقعدهم» لأنه فى معنى تخلفوا أى: تخلفوا خلاف رسول الله . الثانى : أن خلاف مفعول لأجله والعامل فيه إما فرح وإما مقعد . أى : فرحوا لأجل مخالفتهم رسول الله - ﷺ حيث مضى هو للجهاد وتخلفوا هم عنه . أو بقعودهم لمخالفتهم له ، وإليه ذهب الطبرى والزجاج ، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ : « خلف رسول الله » - بضم الخاء واللام ، الثالث : أن ينتصب على الظرف . أى بعد رسول الله ، يقال : أقام زيد خلاف القوم ، أى : تخلف بعد ذهابهم ، وخلاف يكون ظرفا ، وإليه ذهب أبو عبيدة وغيره ، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس ، وأبى حيوه ، وعمرو بن ميمون ، « خلف رسول الله » - بفتح الخاء وسكون اللام[1] .

والمعنى : فرح المخلفون : من هؤلاء المنافقين ، بسبب قعودهم فى المدينة ، وعدم خروجهم إلى تبوك للجهاد مع الرسول ﷺ والمؤمنين ، وكرهوا أن يبذلوا شيئا من أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٤ .

وإنما فرحوا بهذا القعود ، وكرهوا الجهاد ؛ لأنهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهبطت نفوسهم عن الارتفاع إلى معالى الأمور ، وآثروا الدنيا وشهواتها الزائلة على الآخرة ونعيمها الباقى .

وفى التعبير بقوله : ﴿ المخلفون ﴾ تحقير لهم ، وإهمال لشأنهم ، حتى لكأنهم شىء من سقط المتاع الذى يخلف ويترك ويهمل ؛ لأنه لا قيمة له ، أو لأن ضرره أكبر من نفعه .

قال الآلوسى : وإيثار ما فى النظم الكريم على أن يقال ، وكرهوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ إيذان بأن الجهاد فى سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب التى ينبغى أن يتنافس فيها المتنافسون ، قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح وهو القعود خلاف رسول الله ﷺ ، وفى الكلام تعريض بالمؤمنين الذين آثروا ذلك وأحبوه »[١] .

وقوله : ﴿ وقالوا لا تنفروا فى الحر ﴾ حكاية لأقوالهم التى تدل على ضعفهم وجبنهم ، وعلى أنهم قوم لا يصلحون للأعمال التى يصلح لها الرجال .

أى . وقال هؤلاء المنافقون المخلفون لغيرهم ، اقعدوا معنا فى المدينة ، ولا تخرجوا للجهاد مع المؤمنين ، فإن الحر شديد ، والسفر طويل ، وقعودكم يريحكم من هذه المتاعب ، ويحمل غيرنا وغيركم على القعود معنا ومعكم ، وبذلك ننال بغيتنا من تثبيط همة المجاهدين عن الجهاد فى سبيل الله .

وقوله : ﴿ قل نار جهنم أشد حرا ﴾ رد على أقولهم القبيحة ، وأفعالهم الخبيثة ، أى ، قل يا محمد لهؤلاء المنافقين على سبيل التهكم بهم ، والتحقير من شأنهم : نار جهنم أشد حرا من هذا الحر الذى تخشونه وترونه مانعا من النفير بل هى أشد حرا من نار الدنيا ...

روى الإمام مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ .قال : « نار بنى آدم التى توقدونها . جزء من سبعين جزءا من نار جهنم .. »[٢] .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : وقوله : ﴿ قل نار جهنم أشد حرا ﴾ استجهال لهم ، لأن من تصون مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل ، ولبعضهم :

مسـرة أحقـاب تلقيت بعـدهـا مساءة يوم أريهـا شبه الصاب
فكيف بـأن تلقى مسرة سـاعـة وراء تقضيهـا مسـاءة أحقـاب[٣]

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٥١ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٦ فقد ساق هنا جملة من الأحاديث فى هذا المعنى .
(٣) الأحقاب : الأزمان الطويلة . والأرى : السل والصاب نبات مر .

أى : أن حزن يوم واحد يجعل المسرات الطويلة قبله تتحول إلى ما يشبه الصاب مرارة ، فكيف يكون الحال إذا كانت المسرات ساعة واحدة تعقبها أحقاب طويلة من المساءات ؟ !! .

وقوله : ﴿ لو كانوا يفقهون ﴾ تذييل قصد به الزيادة فى توبيخهم وتحقيرهم .

أى : لو كانوا يفقهون أن نار جهنم أشد حرا ويعتبرون بذلك ، لما فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، ولما كرهوا الجهاد ، ولما قالوا ما قالوا ، بل لحزنوا واكتأبوا على ما صدر منهم ، ولبادروا بالتوبة والاستغفار ، كما فعل أصحاب القلوب والنفوس النقية من النفاق والشقاق .

وقوله : ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً .. ﴾ وعيد لهم بسوء مصيرهم ، وإخبار عن عاجل أمرهم وآجله ، من الضحك القليل فى الدنيا والبكاء الكثير فى الآخرة .

والمعنى : إنهم وإن فرحوا وضحكوا طوال أعمارهم فى الدنيا ، فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم فى الآخرة ، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، والمنقطع الفانى قليل بالنسبة إلى الدائم الباقى .

قال صاحب المنار : وفى معنى الآية قوله - ﷺ - « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » متفق عليه ، بل رواه الجماعة إلا أبا داود من حديث أنس ، ورواه الحاكم من حديث أبى هريرة بلفظ « لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلا » .

ثم قال : وإنما كان الأمر فى الآية بمعنى الخبر ، لأنه إنذار بالجزاء لا تكليف وقد قيل فى فائدة هذا التعبير عن الخبر بالإنشاء ، إنه يدل على أنه حتم لا يحتمل الصدق والكذب كما هو شأن الخبر لذاته فى احتمالها ، لأن الأصل فى الأمر أن يكون للإيجاب وهو حتم .. »[1] .

وقوله : ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ تذييل قصد به بيان عدالته ، سبحانه ، فى معاملة عباده .

أى : أننا ما ظلمناهم بتوعدنا لهم بالضحك القليل وبالبكاء الكثير ، وإنما هذا الوعيد جزاء لهم على ما اكتسبوه من فنون المعاصى ، وما اجترحوه من محاربة دائمة لدعوة الحق .

وقوله : ﴿ جزاء ﴾ مفعول للفعل الثانى . أى : ليبكوا جزاء ، ويجوز أن يكون مصدرا حذف ناصبه . أى : يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء .

وجمع - سبحانه - فى قوله ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ بين صيغتى الماضى والمستقبل ، للدلالة على الاستمرار التجددى ماداموا فى الدنيا .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على الرسول نحو هؤلاء المخلفين الكارهين للجهاد ، فقال :

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٦٦٠ .

﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدوا .. ﴾ .

قوله : ﴿ رجعك ﴾ من الرجع بمعنى تصيير الشىء إلى المكان الذى كان فيه أولا . والفعل رجع أحياناً يستعمل لازما كقوله - تعالى - : ﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً .. ﴾ .

وفى هذه الحالة يكون مصدره الرجوع ، وأحيانا يستعمل متعديا كالآية التى معنا ، وكقوله - تعالى - : ﴿ فرجعناك إلى أمك كى تقرعينها ولا تحزن .. ﴾ وفى هذه الحالة يكون مصدره الرجع لا الرجوع .

قال الآلوسى : و « رجع » هنا متعد بمعنى رد ومصدره الرجع ، وقد يكون لازما ومصدره الرجوع ، وأوثر هنا استعمال المتعدى - وإن كان استعمال اللازم كثيرا - إشارة إلى أن ذلك السفر لما فيه من الخطر يحتاج الرجوع منه إلى تأييد إلهى ، ولذا أوثرت كلمة « إن » على « إذا »[1] .

والمعنى : فإن ردك الله - تعالى - من سفرك هذا - أيها الرسول الكريم - إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك إلى تبوك « فاستأذنوك للخروج » معك فى غزوة أخرى بعد هذه الغزوة « فقل » لهم على سبيل الإهانة والتحقير « لن تخرجوا معى أبدا » مادمت على قيد الحياة « ولن تقاتلوا معى عدوا » من الأعداء الذين أمرنى الله بقتالهم ، والسبب فى ذلك « إنكم » أيها المنافقون « رضيتم بالقعود » عن الخروج معى وفرحتم به فى « أول مرة » دعيتم فيها إلى الجهاد ، فجزاؤكم وعقابكم أن تقعدوا « مع الخالفين » أى : مع الذين تخلفوا عن الغزو لعدم قدرتهم على تكاليفه كالمرضى والنساء والصبيان . أو مع الأشرار الفاسدين الذين يتشابهون معكم فى الجبن والنفاق وسوء الأخلاق .

قال الإمام الرازى ما ملخصه ، ذكروا فى تفسير الخالف وجوها :

الأول : قال أبو عبيدة الخالفون جمع ، واحدهم خالف ، وهو من يخلف الرجل فى قومه ، ومعناه : فاقعدوا مع الخالفين من الرجال الذين يخلفون فى البيت فلا يبرحونه .

الثانى : أن الخالفين فسر بالمخالفين ، يقال : فلان خالفة أهل بيته إذا كان مخالفا لهم ، وقوم خالفون أى : كثيرو الخلاف لغيرهم .

الثالث : أن الخالف هو الفاسد . قال الأصمعى : يقال : خلف عن كل خير يخلف خلوفا إذا فسد ، وخلف اللبن إذا فسد .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ١٥٢ .

إذا عرفت هذه الوجوه الثلاثة فلاشك أن اللفظ يصلح حمله على كل واحد منها ، لأن أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات السيئة ... »[١] .

وقال - سبحانه - ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ... ﴾ ولم يقل فإن رجعك الله إليهم ، لأن جميع الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول - ﷺ - إلى تبوك ، لم يكونوا من المنافقين ، بل كان هناك من تخلف بأعذار مقبولة ، كالذين أتوا إلى الرسول - ﷺ - ليحملهم معه ، فقال لهم : « لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا « وأعينهم تفيض من الدمع حزنا » .

وسيأتى الحديث عنهم بعد قليل .

وقوله : ﴿ لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدوا ﴾ إخبار فى معنى النهى للمبالغة وجمع - سبحانه - بين الجملتين زيادة فى تبكيتهم ، وفى إهمال شأنهم ، وفى كراهة مصاحبتهم ...

وذلك ، لأنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوهم إلا خبالا ، ولو قاتلوا معهم ، لكان قتالهم خاليا من الغاية السامية التى من أجلها قاتل المؤمنون وهى إعلاء كلمة الله ، وكل قتال خلا من تلك الغاية كان مآله إلى الهزيمة ..

هذا ، وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على أسوأ صفات المنافقين ، كما اشتملت على أشد ألوان الوعيد لهم فى الدنيا والآخرة « جزاء بما كانوا يكسبون » .

قال الجمل : وفى قوله - تعالى - ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ...﴾ الآية دليل على أن الشخص إذا ظهر منه مكر وخداع وبدعة ، يجب الانقطاع عنه ، وترك مصاحبته ، لأنه - سبحانه - منع المنافقين من الخروج مع الرسول - ﷺ - إلى الجهاد ، وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات[٢] .

وبعد أن بين - سبحانه - ما يجب أن يفعله الرسول - ﷺ - معهم فى حياتهم ، أتبع ذلك ببيان ما يجب أن يفعله معهم بعد مماتهم فقال - تعالى :

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٨٢ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٥ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يبرأ من المنافقين ، وأن لا يصلى على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له ، أو يدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية فى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين .

فقد روى البخارى عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله - ﷺ - فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه، فأعطاه إياه، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله - ﷺ - ليصلى عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله - ﷺ - وقال : يا رسول الله ، تصلى عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال الرسول - ﷺ - « وإنما خيرنى الله » فقال : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق - قال : فصلى عليه رسول الله - ﷺ - فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا .. ﴾ الآية :

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفى عبد الله ابن أبى دعى رسول الله - ﷺ - للصلاة عليه ، فقام عليه « فلما وقف عليه - يريد الصلاة - تحولت حتى قمت فى صدره فقلت : يا رسول الله ، أعلى عدو الله : عبد الله بن أبى القائل يوم كذا ، كذا وكذا ، - وأخذ يعدد أيامه . قال : ورسول الله - ﷺ - يبتسم حتى إذا أكثرت عليه قال : تأخر عنى يا عمر . إنى خيرت فاخترت ، قد قيل لى : ﴿ استغفر لهم ... ﴾ الآية . لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت ، قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه . قال : فعجبت من جرأتى على رسول الله - ﷺ - والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ الآية . قال : فما صلى رسول الله - ﷺ - بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله - عز وجل »[1] .

والمعنى : « لا تصل » - أيها الرسول الكريم - « على أحد » من هؤلاء المنافقين « مات أبدا ولا تقم على قبره » أى: ولا تقف على قبره عند الدفن أو بعده بقصد الزيارة أو الدعاء له ، وذلك لأن صلاتك عليهم ، ووقوفك على قبورهم شفاعة لهم ، ورحمة بهم ، وتكريم لشأنهم . وهم ليسوا أهلا لذلك .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٨ ففيه جملة من الأحاديث فى هذا المعنى .

وقوله : ﴿ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ تعليل للنهى عن الصلاة عليهم ، والوقوف على قبورهم .

أى : نهيناك - يا محمد - عن ذلك ، لأن هؤلاء المنافقين قد عاشوا حياتهم كافرين بالله ورسوله ، ومحاربين لدعوة الحق ، وماتوا وهم خارجون عن حظيرة الإيمان .

وجمع - سبحانه - بين وصفهم بالكفر ووصفهم بالفسق زيادة فى تقبيح أمرهم ، وتحقير شأنهم ؛ فهم لم يكتفوا بالكفر وحده ، وإنما أضافوا إليه الفسق ، وهو الخروج عن كل قول طيب ، وخلق حسن ، وفعل كريم .

قال بعضهم : فإن قلت : الفسق أدنى حالا من الكفر ، فما الفائدة فى وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر ؟ قلت إن الكافر قد يكون عدلا بأن يؤدى الأمانة ، ولا يضمر لأحد سوءًا ، وقد يكون خبيثا كثير الكذب والمكر والخداع وإضمار السوء للغير ، وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ، ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة ، وصفهم الله - تعالى - بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر »[1] .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية مايأتى :

١ - تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف على قبره ،ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه ومشروعية الوقوف على قبره ، والدعاء له .

قال الإمام ابن كثير : ولما نهى الله - تعالى - عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم ، كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين ، فشرع ذلك وفى فعله الأجر الجزيل ، كما ثبت فى الصحاح وغيرها من حديث أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، من شهدها حتى تدفن فله قيراطان ، قيل : وما القيراطان ، قال : « أصغرهما مثل أحد » . وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات ، فروى أبو داود عن عثمان بن عفان قال : كان رسول الله ﷺ - إذا فرغ من الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » .

٢ - وجوب منع كل مظهر من مظاهر التكريم - فى الحياة وبعد الممات عن الذين يحاربون دعوة الحق ، ويقفون فى وجه انتشارها وظهورها :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٦ - بتصرف يسير .

أما منع تكريمهم فى حياتهم فتراه فى قوله - تعالى - فى الآية السابقة :

﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدواً ﴾ .

وأما منع تكريمهم بعد مماتهم فتراه فى هذه الآية : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ﴾ .

ولاشك أن حجب كل تكريم عن أولئك المنافقين فى العهد النبوى ، كان له أثره القوى فى انهيار دولتهم ، وافتضاح أمرهم ، وذهاب ريحهم ، وتهوين شأنهم ..

هذا ، وما فعله الرسول - ﷺ - مع عبد الله بن أبى من الصلاة عليه ، والقيام على قبره إنما كان قبل نزول هذه الآية ..

أو أنه - ﷺ - فعل ذلك تطييباً لقلب ابنه الذى كان من فضلاء الصحابة وأصدقهم إسلاما .

فقد سبق أن ذكرنا ما رواه البخارى عن ابن عمر أنه قال : لما توفى عبد الله ابن أبى جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله - ﷺ - فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه ، فأعطاه إياه ثم سأله أن يصلى عليه .. الحديث.

ثم نهى الله - تعالى - كل من يصلح للخطاب عن الاغترار بما عند هؤلاء المنافقين من مال وولد ، فقال - تعالى :

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

أى : عليك - أيها العاقل - أن لا تغتر بما عند هؤلاء المنافقين من أموال وأولاد ، وأن لا يداخل قلبك شىء من الإعجاب بما بين أيديهم من نعم ، فإن هذه النعم - التى من أعظمها الأموال والأولاد - إنما أعطاهم الله إياها ، ليعذبهم بسببها فى الدنيا عن طريق التعب فى تحصيلها ، والحزن عند فقدها وهلاكها .

وقوله : ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة ، بعد بيان عذابهم فى الدنيا ، وزهوق النفس : خروجها من الجسد بمشقة وتعب .

أى : أنهم فى الدنيا تكون النعم التى بين أيديهم ، مصدر عذاب لهم ، وأما فى الآخرة

فعذابهم أشد وأبقى ، لأن أرواحهم قد خرجت من أبدانهم وهم مصرون على الكفر والضلال .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت هؤلاء المنافقين بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة ، ومن كان مصيره كهذا المصير ، لا يستحق الإعجاب أو التكريم وإنما يستحق الاحتقار والإهمال .

وهذه الآية الكريمة ، قد سبقتها فى السورة نفسها آية أخرى شبيهة بها . وهى قوله - تعالى - : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[1] .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى سر هذا التكرار فقال : « وقد أعيد قوله ﴿ ولا تعجبك ... ﴾ ؛ لأن تجدد النزول له شأنه فى تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية به ، لاسيما إذا تراخى ما بين النزولين ، فأشبه الشىء الذى أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ، ويتخلص إليه ، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه »[2] .

ثم بين - سبحانه - موقف المنافقين وموقف المؤمنين بالنسبة للجهاد ، كما بين عاقبة كل فريق فقال - تعالى - :

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

(١) الآية رقم ٥٥ وراجع تفسيرنا لها .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٩٩ .

والمراد بالسورة فى قوله - سبحانه - ﴿ وإذا أنزلت سورة ﴾ : كل سورة ذكر الله - تعالى - فيها وجوب الإيمان به والجهاد فى سبيله .

أى : أن من الصفات الذميمة لهؤلاء المنافقين ، أنهم كلما نزلت سورة قرآنية ، تدعو فى بعض آياتها الناس إلى الإيمان بالله والجهاد فى سبيله ، ماكان منهم عند ذلك إلا الجبن والاستخذاء والتهرب من تكاليف الجهاد ...

وقوله : ﴿ استأذنك أولوا الطول منهم ... ﴾ بيان لحال هؤلاء المنافقين عند نزول هذه السورة .

والطول - بفتح الطاء - يطلق على الغنى والثروة ، مأخوذ من مادة الطول بالضم التى هى ضد القصر .

والمراد بأولى الطول : رؤساء المنافقين وأغنياؤهم والقادرون على تكاليف الجهاد .

أى : عند نزول السورة الداعية إلى الجهاد ، يجئ هؤلاء المنافقون أصحاب الغنى والثروة ، إلى الرسول - ﷺ - ليستأذنوا فى القعود وعدم الخروج ... وليقولوا له بجبن واستخذاء ﴿ ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ .

أى : اتركنا يا محمد مع القاعدين فى المدينة من العجزة والنساء والصبيان ، واذهب أنت وأصحابك إلى القتال .

وإنما خص ذوى الطول بالذكر ، تخليداً لمذمتهم واحتقارهم ؛ لأنه كان المتوقع منهم أن يتقدموا صفوف المجاهدين ، لأنهم يملكون وسائل الجهاد والبذل ، لا ليتخاذلوا ويعتذروا ، ويقولوا ما قالوا مما يدل على جبنهم والتوائهم .

وقوله : ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ زيادة فى تحقيرهم وذمهم .

والخوالف : جمع خالفة ، ويطلق على المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال لضعفها ، كما يطلق لفظ الخالفة - أيضاً - على كل من لا خير فيه .

والمعنى : رضى هؤلاء المنافقون لأنفسهم ، أن يبقوا فى المدينة مع النساء ، ومع كل من لا خير فيه من الناس ، ولا يرضى بذلك إلا من هانت كرامته ، وسقطت مروءته ، وألف الذل والصغار .

وقوله ﴿ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ بيان لما ترتب على استمرارهم فى النفاق ، وعدم رجوعهم إلى طريق الحق .

أى : أنه ترتب على رسوخهم فى النفاق ، وإصرارهم على الفسوق والعصيان أن ختم الله

على قلوبهم ، فصارت لا تفقه ما فى الإيمان والجهاد من الخير والسعادة ، وما فى النفاق والشقاق من الشقاء والهلاك .

وقوله - سبحانه - ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ استدارك لبيان حال الرسول - ﷺ - والمؤمنين ، بعد بيان حال المنافقين .

أى : إذا كان حال المنافقين كما وصفنا من جبن وتخاذل وهوان ... فإن حال المؤمنين ليس كذلك ، فإنهم قد وقفوا إلى جانب رسولهم - ﷺ - فجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله ، وأطاعوه فى السر والعلن ، وآثروا ما عند الله على كل شىء فى هذه الحياة ...

وقد بين - سبحانه - جزاءهم الكريم فقال : ﴿ أولئك لهم الخيرات ﴾ أى : أولئك المؤمنون الصادقون لهم الخيرات التى تسر النفس ، وتشرح الصدر فى الدنيا والآخرة ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بسعادة الدارين .

« أعد الله » - تعالى - لهؤلاء المؤمنين الصادقين « جنات تجرى من » تحت ثمارها وأشجارها ومساكنها « الأنهار خالدين »فى تلك الجنات خلودا أبديا ، و « ذلك » العطاء الجزيل ، هو « الفوز العظيم » الذى لا يدانيه فوز ، ولا تقاربه سعادة .

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت المنافقين لجبنهم ، وسوء نيتهم ، وتخلفهم عن كل خير ... ومدحت الرسول - ﷺ - والمؤمنين ، الذين نهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا مايجب عليهم نحو خالقهم وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمته - سبحانه .

وبعد أن بين - سبحانه - أحوال المنافقين من سكان المدينة ، أتبع ذلك بالحديث عن المنافقين من الأعراب سكان البادية فقال - تعالى :

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾ قرأ الأعرج والضحاك المعذرون مخففا ، ورواها أبو كريب عن أبى بكر عن عاصم ... وهى من

أعذر ، ومنه قد أعذر من أنذر ، أى : قد بالغ فى العذر من تقدم إليك فأنذرك ، وأما ، « المعذرون » بالتشديد - وهى قراءة الجمهور - ففيها قولان :

أحدهما : أنه يكون المحق ، فهو فى المعنى المعتذر ، لأن له عذرًا ، فيكون « المعذرون » على هذه أصله المعتذرون ، ثم أدغمت التاء فى الذال ...

وثانيهما : أن المعذر قد يكون غير محق ، وهو الذى يعتذر ولا عذر له .

والمعنى ، أنهم اعتذروا بالكذب ...

قال الجوهرى : وكان ابن عباس يقول : لعن الله المعذرين، كان الأمر عنده أن المعذر - بالتشديد - هو المظهر للعذر ، اعتلالاً من غير حقيقة له فى العذر ... »[1] .

ومن هذه الأقوال التى نقلناها عن القرطبى يتبين لنا أن من المفسرين من يرى أن المقصود من المعذرين : أصحاب الأعذار المقبولة .

وقد رجح الإمام ابن كثير هذا الرأى فقال : بين الله - تعالى - حال ذوى الأعذار فى ترك الجهاد ، وهم الذين جاءوا رسول الله - ﷺ - يعتذرون إليه ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة .

قال الضحاك عن ابن عباس : إنه كان يقرأ « وجاء المعذرون » - بالتخفيف ، ويقول : هم أهل العذر ... وهذا القول أظهر فى معنى الآية ؛ لأنه - سبحانه - قال بعد هذا : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ .

أى : لم يأتوا فيعتذروا ... »[2] .

وعلى هذا الرأى تكون الآية قد ذكرت قسمين من الأعراب : قسما جاء معتذرا إلى رسول الله - ﷺ - وقسما لم يجئ ولم يعتذر ، وهذا القسم هو الذى توعده الله بسوء المصير .

ومنهم من يرى أن المقصود بالمعذرين : أصحاب الأعذار الباطلة ، وقد سار على هذا الرأى صاحب الكشاف فقال : « المعذرون » من عذر فى الأمر ، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد فيه ، وحقيقته أنه يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له .

أو المعتذرون بإدغام التاء فى الذال ، وهم الذين يعتذرون بالباطل ، كقوله ، يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ...

وقرئ « المعذرون » بالتخفيف : وهو الذى يجتهد فى العذر ويحتشد فيه . قيل هم أسد

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٢٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨١ .

وغطفان . قالوا : إن لنا عيالا ، وإن بنا جهدا فائذن لنا فى التخلف .

وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طئ على أهالينا ومواشينا ، فقال - ﷺ - « سيغنينى الله عنكم » وعن مجاهد : نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله - تعالى - وعن قتادة : اعتذروا بالكذب ...[1] .

وعلى هذا الرأى تكون الآية الكريمة قد ذكرت قسمين - أيضاً - من الأعراب ، إلا أن أولهما قد اعتذر بأعذار غير مقبولة ، وثانيهما لم يعتذر ، بل قعد فى داره مصرا على كفره ، ولذا قال أبو عمرو بن العلاء : كلا الفريقين كان سيئا : قوم تكلفوا عذرا بالباطل وهم الذين عناهم الله - تعالى . بقوله ﴿ وجاء المعذرون ﴾ ، وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدوا جرأة على الله وهم المنافقون ، فتوعدهم الله بقوله : ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ؛ لتناسقه مع ما يفيده ظاهر الآية ، لأن الآية الكريمة ذكرت نوعين من الأعراب ، أحدهما : المعذرون .

أى أصحاب الأعذار ، وثانيهما : الذين قعدوا فى بيوتهم مكذبين لله ولرسوله ، فتوعدهم - سبحانه - بالعذاب الأليم ، ولأنه لا توجد قرينة قوية تجعلنا نرجح أن المراد بالمعذرين هنا ، أصحاب الأعذار الباطلة ، لأن التفسير اللغوى للكلمة - كما نقلنا عن القرطبى - يجعلها صالحة للأعذار المقبولة ، فكان الحمل على حسن الظن أولى ، والله ، تعالى ، بعد ذلك هو العليم بأحوال العباد ، ما ظهر منها وما بطن .

وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة : وعندما استنفر النبى ، ﷺ ، الناس إلى غزوة تبوك ، جاءه أصحاب الأعذار من الأعراب ليستأذنوه فى عدم الخروج معه ، فقبل - ﷺ - ما هو حق منها .

وقوله : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ بيان للفريق الثانى من الأعراب وهو الذى لم يجئ إلى الرسول ﷺ معتذرا .

أى : وقعد عن الخروج إلى تبوك ، وعن المجئ إلى رسول الله - ﷺ - للاعتذار ، أولئك الذين كذبوا الله ورسوله فى دعوى الإيمان ، وهم الراسخون فى النفاق والعصيان من الأعراب سكان البادية .

وقوله : ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ وعيد لهم بسوء العاقبة فى الدارين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٠ .

أى : سيصيب الذين أصروا على كفرهم ونفاقهم من هؤلاء الأعراب ، عذاب أليم فى الدنيا والآخرة، أما الذين رجعوا عن كفرهم ونفاقهم منهم، وتابوا إلى الله -تعالى- توبة صادقة ، فهؤلاء عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا .

ثم ذكر - سبحانه - الأعذار الشرعية المقبولة عنده وعند رسوله ، والتى تجعل صاحبها لا حرج عليه إذا ما قعد معها عن القتال ، فقال ، تعالى :

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات ، منها ما جاء عن زيد بن ثابت أنه قال كنت أكتب لرسول الله - ﷺ - فكنت أكتب « براءة » ، فإنى لواضع القلم على أذنى ، إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بى يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ... ﴾ الآية .

وروى العوفى عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه . فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مقرن المزنى ، فقالوا : يا رسول الله ، احملنا . فقال لهم : « والله لا أجد ما أحملكم عليه » ، فتولوا وهم يبكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملا ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله ، أنزل عذرهم فى كتابه فقال : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ ... الآية .

وقال محمد بن إسحاق - فى سياق غزوة تبوك - : ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله - ﷺ - وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ... فاستحملوا رسول الله - ﷺ ، وكانوا أهل حاجة فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون .

والضعفاء : جمع ضعيف ، وهو من ليس عنده القوة على القيام بتكاليف الجهاد ، كالشيوخ والنساء والصبيان ...

والمرضى : جمع مريض ، وهم الذين عرضت لهم أمراض حالت بينهم وبين الاشتراك فى القتال ، وهؤلاء عذرهم ينتهى بزوال أمراضهم .

والمعنى : ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ العاجزين عن القتال لعلة فى تكوينهم ، أو لشيخوخة أقعدتهم ، ﴿ ولا على المرضى ﴾ الذين حالت أمراضهم بينهم وبين الجهاد ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ﴾ وهم الفقراء القادرون على الحرب ، ولكنهم لا يجدون المال الذين ينفقونه فى مطالب الجهاد ، ولا يجدون الرواحل التى يسافرون عليها إلى أرض المعركة ، ليس على هؤلاء جميعا ﴿ حرج ﴾ أى : إثم أو ذنب بسبب عدم خروجهم مع النبى - ﷺ - إلى تبوك لقتال الكافرين ...

وقوله : ﴿ إذا انصحوا لله ورسوله ﴾ : بيان لما يجب عليهم فى حال قعودهم .

قال الجمل : ومعنى النصح - هنا - أن يقيموا فى البلد ، ويحترزوا عن إنشاء الأراجيف ، وإثارة الفتن ، ويسعوا فى إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو ، ويقوموا بمصالح بيوتهم ، ويخلصوا الإيمان والعمل لله ؛ ويتابعوا الرسول - ﷺ - ، فجملة هذه الأمور تجرى مجرى النصح لله ورسوله ، [١] .

وقوله : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله .

والمحسنون . جمع محسن ، وهو الذى يؤدى ما كلفه الله به على وجه حسن .

والسبيل : الطريق السهل الممهد الموصل إلى البغية . ومن ، زائدة لتأكيد النفى .

أى : ليس لأحد أى طريق يسلكها لمؤاخذة هؤلاء المحسنين ، بسبب تخلفهم عن الجهاد ، بعد أن نصحوا لله ولرسوله ، وبعد أن حالت الموانع الحقيقية بينهم وبين الخروج للجهاد .

قال الآلوسى : والجملة استئناف مقرر لمضمون ما سبق على أبلغ وجه : وألطف سبك ، وهو من بليغ الكلام ، لأن معناه : لا سبيل لعاتب عليهم ، أى : لا يمر بهم العاتب ، ولا يجوز فى أرضهم ، فما أبعد العتاب عنهم ، وهو جار مجرى المثل .

ويحتمل أن يكون تعليلا لنفى الحرج عنهم و ﴿ المحسنين ﴾ على عمومه . أى : ليس عليهم حرج ، لأنه ما على جنس المحسنين سبيل ، وهم من جملتهم[٢] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٨ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٥٨ .

وقال صاحب المنار : « والشرع الإلهى يجازى المحسن بأضعاف إحسانه ، ولا يؤاخذ المسىء إلا بقدر إساءته ، فإذا كان أولئك المعذورون فى القعود عن الجهاد محسنين فى سائر أعمالهم بالنصح المذكور . انقطعت طرق المؤاخذة دونهم والإحسان أعم من النصح المذكور فالجملة الكريمة تتضمن تعليل رفع الحرج عنهم مقرونا بالدليل ، فكل ناصح لله ورسوله محسن ، ولا سبيل إلى مؤاخذة المحسن وإيقاعه فى الحرج ، وهذه المبالغة فى أعلى مكانة من أساليب البلاغة[1] .

وقوله : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى ، والله تعالى - واسع المغفرة ، كثير الرحمة ، يستر على عباده المخلصين ما يصدر عنهم من تقصير تقتضيه طبيعتهم البشرية .

وقوله: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ...﴾ معطوف على ما قبله ، من عطف الخاص على العام ، اعتناء بشأنهم ، وجعلهم كأنهم لتميزهم جنس آخر ، مع أنهم مندرجون مع الذين وصفهم الله قبل ذلك « لا يجدون ما ينفقون » .

أى : لا حرج ولا إثم على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ، إذا ما تخلفوا عن الجهاد ، وكذلك لا حرج ولا إثم - أيضاً - على فقراء المؤمنين ، الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل التى يركبونها لكى يخرجوا معك إلى هذا السفر الطويل قلت لهم يا محمد « لا أجد ما أحملكم عليه » .

وفى هذا التعبير ما فيه من تطييب قلوب هؤلاء السائلين فكأنه - ﷺ - يقول لهم إن ما تطلبونه أنا أسأل عنه ، وأفتش عليه فلا أجده ، ولو وجدته لقدمته إليكم .

وقوله : ﴿ تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون ﴾ بيان للآثار التى ترتبت على عدم وجود ما يحملهم من رواحل : لكى يخرجوا مع الرسول ﷺ إلى تبوك .

أى : أن هؤلاء المؤمنين الفقراء ، عندما اعتذرت لهم بقولك : « لا أجد ما أحملكم عليه » انصرفوا من مجلسك ، وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن لأنهم لا يجدون المال الذى ينفقونه فى مطالب الجهاد ، ولا الرواحل التى يركبونها فى حال سفرهم إلى تبوك .

فالجملة الكريمة تعطى صورة صادقة مؤثرة للرغبة الصادقة فى الجهاد ، وللألم الشديد للحرمان من نعمة أدائه .

وبمثل هذه الروح ارتفعت راية الإسلام ، وعزت كلمته ، وانتشرت دعوته .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى نستطيع أن نأخذها من هاتين الآيتين مايأتى :

---

[1] تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٥٨ .

١ - أن التكاليف الإسلامية تقوم على اليسر ورفع الحرج ، ومن مظاهر ذلك : أن الجهاد . وهو ذروة سنام الإسلام ، قد أعفى الله - تعالى - منه الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون وسائله ومتطلباته .

قال الإمام القرطبى[1] : قوله تعالى : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى .. ﴾ هذه الآية أصل فى سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شىء مسقط عنه ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال . ونظير هذه الآية قوله . تعالى - : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها[2] ﴾ وقوله : ﴿ ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج[3] ﴾ .

٢ - أنه متى وجدت النية الصادقة فى فعل الخير . حصل الثواب وإن لم يكن هناك عمل ، بدليل أن المؤمنين الذين لم يخرجوا للجهاد لعذر شرعى ، بشرهم النبى ﷺ بأنهم مشاركون لمن خرج فى الأجر .

قال الإمام ابن كثير : فى الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله - ﷺ قال . « إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ، ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم قالوا : وهم بالمدينة قال نعم حبسهم العذر » .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالا ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا شاركوكم فى الأجر ، حبسهم المرض[4] » .

٣ - أن الصحابة - رضى الله عنهم - ضربوا أروع الأمثال فى الحرص على الجهاد والاستشهاد وأن أعذارهم الشرعية لم تمنع بعضهم من المشاركة فى القتال ...

فهذا عبد الله بن أم مكتوم وكان يخرج إلى غزوة أحد ويطلب أن يحمل اللواء . وهذا عمرو ابن الجموح- وكان أعرج- يخرج فى مقدمة الجيوش فيقول له الرسول- ﷺ : «إن الله قد عذرك » فيقول : « والله لأحفرن بعرجتى هذه الجنة » - أى لأتركن آثار أقدامى فيها .

ومن كان يؤتى به وهو يمشى بين الرجلين معتمدا عليهما من شدة ضعفه» ومع ذلك يقف فى صفوف المجاهدين .

وبهذه القلوب السليمة ، والعزائم القوية والنفوس النقية التى خالط الإيمان شغافها ..

---

(١) تفسير القرطبى - بتصرف يسير جـ ٨ ص ٢٢٦ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .
(٣) سورة الفتح الآية ١٧ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٢٦ .

ارتفعت كلمة الحق ، وعزت كلمة الإسلام .

وبعد أن بين - سبحانه - أحكام أصحاب الأعذار المقبولة ، أتبع ذلك ببيان أحكام الأعذار الكاذبة ، والصفات القبيحة ، فقال تعالى .

۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

فهذه الآيات الكريمة بيان لما سيكون من أمر المنافقين الذين قعدوا فى المدينة بدون عذر ، بعد أن يرجع الرسول ﷺ إليهم والمؤمنون من تبوك .

والمعنى : إذا كان الضعفاء والمرضى ومن فى حكمهم ، لا إثم ولا عقوبة عليهم بسبب تخلفهم عن الجهاد ، فإن « السبيل » أى الإثم والعقوبة « على الذين يستأذونك » فى التخلف « وهم أغنياء » أى يملكون كل وسائل الجهاد من مال وقوة وعدة .

وقوله : ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ استئناف تعليلى مسبوق لمزيد مذمتهم .

أى : استأذنوك فى القعود مع غناهم وقدرتهم على القتال ، لأنهم لخلو قلوبهم من الإيمان ، ولسقوط همتهم وجبنهم ، رضوا لأنفسهم أن يقبعوا فى المدينة مع الخالف من النساء والصبيان والعجزة .

وقوله : ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾ بيان لسوء مصيرهم .

أى : وبسبب هذا الإصرار على النفاق ، والتمادى فى الفسوق والعصيان ، ختم الله - تعالى - على قلوبهم ، فصارت لا تعلم ما يترتب على ذلك من مصائب دينية ودنيوية وأخروية .

وقوله : ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾ ، إخبار عما سيقولونه للمؤمنين عند لقائهم بهم .

أى : أن هؤلاء المنافقين المتخلفين عن الجهاد مع قدرتهم عليه ، سيعتذرون إليكم - أيها المؤمنون - إذا رجعتم إليهم من تبوك ، بأن يقولوا لكم مثلا: إن قعودنا فى المدينة وعدم خروجنا معكم كانت له مبرراته القوية . فلا تؤاخذونا .

وهذه الجملة الكريمة من الأنباء التى أنبأ الله بها نبيه - ﷺ - عن أحوال المنافقين وعما سيقولونه له وللمؤمنين بعد عودتهم إليهم ، وهذا يدل على أن هذه الآيات نزلت فى أثناء العودة ، وقبل وصول الرسول وأصحابه إلى المدينة من تبوك .

وقوله : ﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ ، إبطال لمعاذيرهم ، وتلقين من الله - تعالى - لرسوله بالرد الذى يخرس ألسنتهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - عندما يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لهم : دعوكم من هذه المعاذير الكاذبة ، ولا تتفوهوا بها أمامنا ، فإننا « لن نؤمن لكم » ولن نصدق أقوالكم ، فإن الله ، تعالى . قد كشف لنا عن حقيقتكم ووضح لنا أحوالكم ، وبين لنا ما أنتم عليه من نفاق وفسوق وعصيان ، وما دام الأمر كذلك ، فوفروا على أنفسكم هذه المعاذير الكاذبة .

وقال ، سبحانه . ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ ولم يقل قد نبأنى ، للاشعار بأن الله - تعالى - قد أمر رسوله . ﷺ . أن يبلغ المؤمنين بأحوال هؤلاء المنافقين حتى يكونوا على بينة من أمرهم .

وقوله : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ تهديد لهم على نفاقهم وكذبهم .

أى : دعوا عنكم هذه الأعذار الباطلة ، فإن الله - تعالى - مطلع على أحوالكم ، وسيعلم سركم وجهركم علما يترتب عليه الجزاء العادل لكم ، ويبلغ رسوله - ﷺ - بأخباركم ، هذا

فى الدنيا ، أما فى الآخرة ، فأنتم « ستردون » يوم القيامة « إلى عالم الغيب والشهادة » الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء « فينبئكم بما كنتم تعملون » أى : فيخبركم بما كنتم تعملونه فى الدنيا من أعمال قبيحة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقونه من عقاب .

ثم أخبر - سبحانه - رسوله - ﷺ - بأن هؤلاء المنافقين ، سيؤكدون أعذارهم الكاذبة بالأيمان الفاجرة فقال : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ... ﴾ .

أى : أنهم سيحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - إذا مارجعتم إليهم من تبوك وذلك لكى تعرضوا عنهم فلا توبخوهم على قعودهم ، ولا تعنفوهم على تخلفهم .

وقوله ﴿ فأعرضوا عنهم إنهم رجس ﴾ تعليل لوجوب الإعراض عنهم ، لا على سبيل الصفح والعفو ، بل على سبيل الإهمال والترك والاحتقار .

أى : فأعرضوا - أيها المؤمنون - عن هؤلاء المنافقين المتخلفين ، لأنهم « رجس » .

أى : قذر ونجس لسوء نواياهم ، وخبث طواياهم .

وقد جعلهم - سبحانه - نفس الرجس ، مبالغة فى نجاسة أعمالهم ، وقبح بواطنهم .

وقوله : ﴿ ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة .

أى : أنهم فى الدنيا محل الاحتقار والازدراء لنجاسة بواطنهم ، أما فى الآخرة فمستقرهم وموطنهم جهنم بسبب ما اكتسبوه من أعمال قبيحة ، وما اجترحوه من أفعال سيئة .

وقوله : ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ بدل مما قبله .

ولم يذكر - سبحانه - المحلوف به لظهوره أى : يحلفون بالله لترضوا عنهم ، ولتصفحوا عن سيئاتهم ...

وقوله : ﴿ فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ بيان لحكم الله - تعالى - فيهم ، حتى يكون المؤمنون على حذر منهم .

أى : إن هؤلاء المنافقين المتخلفين عن الجهاد يحلفون بالله لكم بأنهم ما تخلفوا إلا لعذر ، لكى تصفحوا عنهم ، أيها المؤمنون ، فإن صفحتم عنهم على سبيل الفرض فإن الله - تعالى - لا يصفح ولا يرضى عن القوم الذين فسقوا عن أمره ، وخرجوا عن طاعته .

وقال الآلوسى ، « والمراد من الآية الكريمة ، نهى المخاطبين عن الرضا عنهم ، وعن الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده ، فإن الرضا عمن لايرضى عنه الله - تعالى - مما لا يكاد يصدر عن المؤمنين ، والآية نزلت على ما روى عن ابن عباس فى جد بن قيس ،

ومعتب بن قشير ، وأصحابهما من المنافقين ، وكانوا ثمانين رجلا ، أمر النبى - ﷺ - المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة : ألا يجالسوهم ولا يكلموهم فامتثلوا »[١] .

وقال - سبحانه - ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ ولم يقل فإن الله لا يرضى عنهم ، لتسجيل الفسق عليهم ، وللإيذان بشمول هذا الحكم لكل من كان مثلهم فى الفسوق وفى الخروج عن طاعة الله ، تعالى .

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ فإن ترضوا عنهم ﴾ محذوف ، والتقدير : فإن ترضوا عنهم على سبيل الفرض ، فإن رضاكم عنهم لن ينفعهم ، لأن الله تعالى . لا يرضى عن القوم الذين خرجوا عن طاعته .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت جانباً آخر من الأحوال القبيحة للمنافقين ، وردت على معاذيرهم الكاذبة ، وأيمانهم الفاجرة بما يفضحهم ويخزيهم ، وتوعدتهم بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة .

ثم بعد الحديث الطويل عن النفاق والمنافقين ، أخذت السورة الكريمة . فى الحديث عن طوائف أخرى منها الصالح ، ومنها غير الصالح ، وقد بدأت بالحديث عن الأعراب سكان البادية ، فقال - تعالى - :

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٤ .

قال صاحب المنار : قوله ، سبحانه : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ﴾ . بيان مستأنف لحال سكان البادية من المنافقين ، لأنه مما يسأل عنه بعد ما تقدم فى منافقى الحضر من سكان المدينة وغيرها من القرى .

والأعراب : اسم جنس لبدو العرب ، واحده : أعرابى ، والأنثى أعرابية ، والجمع أعاريب ، والعرب : اسم جنس لهذا الجيل الذى ينطق بهذه اللغة ، بدوه وحضره ، واحده : عربى .. »[1] .

والمراد بالأعراب هنا : جنسهم لا كل واحد منهم ، بدليل أن الله . تعالى . قد ذم من يستحق الذم منهم ، ومدح من يستحق المدح منهم ، فالآية الكريمة من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده .

وقد بدأ ، سبحانه ، بذكر المنافقين من الأعراب قبل المؤمنين منهم ، إلحاقا لهم بمنافقى المدينة الذين تحدثت السورة عنهم قبل ذلك مباشرة حديثاً مستفيضاً ، وبهذا الترتيب الحكيم تكون السورة الكريمة قد واصلت الحديث عن منافقى الحضر والبدو .

والمعنى : « الأعراب » سكان البادية « أشد كفراً ونفاقا » من الكفار والمنافقين الذين يسكنون الحضر والقرى .

وذلك ، لأن ظروف حياتهم البدوية ، وما يصاحبها من عزلة وكروفر فى الصحراء ، وخشونة فى الحياة ... كل ذلك جعلهم أقسى قلوباً ، وأجفى قولا ، وأغلظ طبعا ، وأبعد عن سماع ما يهدى نفوسهم إلى الخير من غيرهم سكان المدن .

وقوله : ﴿ وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ معطوف على ما قبله لتعديد صفاتهم الذميمة .

قال القرطبى : قوله : « وأجدر » عطف على « أشد » ومعناه : أخلق ، وأحق ، يقال : فلان جدير بكذا ، أى : خليق به . وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع جدراء وجديرون ، وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء فقوله : هو أجدر بكذا ، أى : أقرب إليه وأحق به[2] .

والمعنى : الأعراب أشد كفرا ونفاقا من أهل الحضر الكفار والمنافقين ، وهم كذلك أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، بسبب ابتعادهم عن مجالس رسول الله . ﷺ . وعدم مشاهدتهم لما ينزل عليه . ﷺ .من شرائع وآداب وأحكام .

---

(١) تفسير المنار جـ ١١ ص ٨ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٣٣ .

وقوله: ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي: «عليم» بأحوال عباده الظاهرة والباطنة لا يخفى عليه شيء من صفاتهم وطباعهم « وحكيم » في صنعه بهم ، وفي حكمه عليهم ، وفيما يشرعه لهم من أحكام ، وفيما يجازيهم به من ثواب أو عقاب .

هذا ، وقد ذكر المفسرون هنا أمثلة متعددة لجفاء الأعراب وجهلهم ، ومن ذلك قول الإمام ابن كثير :

قال الأعمش عن ابراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صومان ، وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم « نهاوند » فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني !! فقال زيد : وما يريبك من يدي ؟ إنها الشمال !! فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال !! فقال زيد : صدق الله إذ يقول : ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .. ﴾ .

وروى الأمام أحمد عن ابن عباس عن رسول الله - ﷺ - قال : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » .

وروى الإمام مسلم عن عائشة قال : قدم ناس من الاعراب على رسول الله - ﷺ - فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ فقال - ﷺ - نعم . فقالوا : لكنا والله ما نقبل !! فقال - ﷺ - « وما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»[1] .

ثم بين - سبحانه - حال فريق آخر من منافقي الاعراب فقال : ﴿ ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ﴾ .

أي : ومن الاعراب قوم آخرون يعتبرون ما ينفقونه في سبيل الله غرامة وخسارة عليهم لأنهم لا ينفقون ما ينفقونه طمعا في ثواب، أو خوفا من عقاب وإنما ينفقونه تقية ورياء ومداراة للمسلمين ، لا مساعدة للغزاة والمجاهدين، ولا حبا في انتصار المؤمنين .

قال الجمل: وقوله: «من يتخذ ما ينفق مغرما» «من» مبتدأ، وهي موصولة أو موصوفة، و« مغرما » . مفعول ثان ، لأن « اتخذ » هنا بمعنى صير ، والمفعول الأول قوله : « ما ينفق » .

والمغرم : الخسران ، مشتق من الغرم وهو الهلاك لأنه سببه ، وقيل أصله الملازمة ، ومنه الغريم للزومه من يطالبه »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٨٣ بتصرف وتلخيص .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢١١ .

وقوله : ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ معطوف على ما قبله ، والتربص : الانتظار والترقب والدوائر : جمع دائرة . وهو ما يحيط بالإنسان من مصائب ونكبات ، كما تحيط الدائرة بالشىء الذى بداخلها .

أى : أنهم بجانب اعتبارهم ما ينفقونه غرامة وخسارة ، ينتظرون بكم - أيها المؤمنون - صروف الدهر ونوائبه التى تبدل حالكم من الخير إلى الشر ومن النصر الى الهزيمة ، ومن الصحة الى المرض والأسقام ، ومن الأمان والاطمئنان إلى القلق والاضطراب ..

وقوله : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ جملة معترضة ، جىء بها للدعاء عليهم .

أى : عليهم لا عليكم - أيها المؤمنون - تدور دائرة السوء ، التى يتبدل بها حالهم إلى الهلاك والفساد .

والسوء - بفتح السين - مصدر ساءه يسوءه سوءا ، إذا فعل به ما يكره ، والسوء - بالضم - اسم منه . وقيل المفتوح بمعنى الذم ، والمضموم بمعنى العذاب والضرر .

وإضافة الدائرة إلى السوء من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة ، كما فى قولهم : رجل صدق .

وفى هذا التعبير ما فيه من الذم لهؤلاء المنافقين ، لأنه - سبحانه - جعل السوء كأنه دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم ، وتدور بهم فلا تدع لهم مهربا أو منجاة من عذابها وضررها .

وقوله : ﴿ والله سميع عليم ﴾ تذييل قصد به تهديدهم وتحذيرهم بما ارتكسوا فيه من نفاق وكفر وشقاق .

والله تعالى - « سميع » لكل ما يتفوهون به من أقوال ، « عليم » بكل ما يظهرونه وما يبطنونه من أحوال ، وسيحاسبهم على ما صدر منهم حسابا عسيرا يوم القيامة : وينزل بهم العقاب الذى يناسب جرائمهم ..

وبعد أن ذكر - سبحانه - حال هؤلاء الأعراب المنافقين ، أتبعه ببيان حال المؤمنين الصادقين منهم فقال : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

أى : ومن الأعراب قوم آخرون من صفاتهم أنهم يؤمنون بالله إيمانا صادقا ، ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب .

وقوله : ﴿ ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ مدح لهم على إخلاصهم وسخائهم وطاعتهم ...

والقربات : جمع قربة وهى ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من أعمال الخير، والمراد

بصلوات الرسول : دعواته للمتقربين الى الله بالطاعة .

أى : ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر إيمانا حقا ، ويعتبر كل ما ينفقه فى سبيل الله وسيلة للتقرب إليه - سبحانه - وتعالى بالطاعة ، ووسيلة للحصول على دعوات الرسول - ﷺ - له بالرحمة والمغفرة ، وبحسنات الدنيا والآخرة .

ولقد كان من عادة النبى - ﷺ - أن يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، فقد ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله - ﷺ - دعا لآل أبى أوفى عندما تقدموا إليه بصدقاتهم فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » أى : ارحمهم وبارك لهم فى أموالهم ..

وقوله : ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ شهادة لهم منه سبحانه - بصدق إيمانهم ، وخلوص نياتهم ، وقبول صدقاتهم .

والضمير فى قوله ﴿ إنها ﴾ يعود على النفقة التى أنفقوها فى سبيل الله و﴿ ألا ﴾ أداة استفتاح جىء بها لتأكيد الخبر والاهتمام به . أى : ألا إن هذه النفقات التى تقربوا بها إلى الله ، مقبولة عنده - سبحانه - قبولا مؤكدا ، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من أجر جزيل ...

وقوله ﴿ سيدخلهم الله فى رحمته ﴾ وَعْدٌ لهم بإحاطة رحمته بهم . والسين للتحقيق والتأكيد .

أى : أن هؤلاء المؤمنين بالله واليوم الآخر ، والمتقربين إليه سبحانه بالطاعات ، سيغمرهم الله تعالى برحمته التى لا شقاء معها .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفى التنبيه والتحقيق المؤذنتين بثبات الأمر وتمكنه ، وكذلك قوله : ﴿ سيدخلهم ﴾ وما فى السين من تحقيق الوعد. وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان ، إذا خلصت النية من صاحبها [١] .

وقوله : « إن الله غفور رحيم » تذييل مقرر لما قبله على سبيل التعليل .

أى : إن الله تعالى - واسع المغفرة ، كثير الرحمة للمخلصين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت من يستحق الذم من الأعراب ومدحت من يستحق المدح منهم ، وبينت مصير كل فريق ليكون عبرة للمعتبرين وذكرى للمتذكرين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١٤ .

وبعد هذا التقسيم للأعراب ، انتقلت السورة للحديث عن المؤمنين الصادقين الذين وقفوا إلى جانب الرسول - ﷺ - ، وأطاعوه فى السر والعلن ، فقال تعالى :

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

فهذه الآية الكريمة قد مدحت ثلاث طوائف من المسلمين المعاصرين للعهد النبوى .

الطائفة الأولى « السابقون الأولون من المهاجرين » وهم الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة ، وهاجروا الى الحبشة ، ثم الى المدينة من أجل إعلاء كلمة الله واستمروا فى المدينة مع رسول الله - ﷺ - إلى أن تم الفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

وقيل المراد بهم : الذين صلوا إلى القبلتين ، وقيل : الذين شهدوا غزوة بدر .

والطائفة الثانية : السابقون الأولون من الأنصار ، وهم الذين بايعوا النبى - ﷺ - قبل أن يهاجر اليهم إلى المدينة بيعة العقبة الأولى والثانية .

وكانت بيعة العقبة الأولى فى السنة الحادية عشرة من البعثة ، وكان عدد المشتركين فيها سبعة أفراد .

أما بيعة العقبة الثانية فكانت فى السنة الثانية عشرة من البعثة ، وكان عدد المشتركين فيها سبعين رجلا وامرأتين .

ثم يلى هؤلاء أولئك المؤمنون من أهل المدينة الذين دخلوا فى الإسلام على يد مصعب بن عمير ، قبل وصول الرسول - ﷺ - اليها .

ثم يلى هؤلاء جميعا أولئك الذين آمنوا بالنبى - ﷺ - بعد مقدمه إلى المدينة .

والطائفة الثالثة : « الذين اتبعوهم بإحسان » أى : الذين اتبعوا السابقين فى الإسلام من المهاجرين والأنصار ، اتباعا حسنا فى أقوالهم وأعمالهم وجهادهم ونصرتهم لدعوة الحق .

قال الآلوسى ما ملخصه : وكثير من الناس ذهب إلى أن المراد بالسابقين الأولين ، جميع المهاجرين والأنصار . ومعنى كونهم سابقين : أنهم أولون بالنسبة إلى سائر المسلمين .

روى عن حميد بن زياد قال : قلت يوما لمحمد بن كعب القرظى ، ألا تخبرنى عن الصحابة فيما كان بينهم من الفتن ؟ فقال لى : إن الله - تعالى - قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة فى كتابه ، محسنهم ومسيئهم ، فقلت له : وفى أى موضع أوجب لهم الجنة ، فقال : سبحان الله !! ألم تقرأ قوله . تعالى - : ﴿ والسابقون الأولون .. ﴾ الآية فقد أوجب . سبحانه لجميع الصحابة الجنة وشرط على تابعيهم أن يقتدوا بهم فى أعمالهم الحسنة وألا يقولوا فيهم إلا حسنا لا سوءًا ..[1] .

وقوله : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ بيان لسمو منزلتهم ، وارتفاع مكانتهم .

أى : رضى الله عنهم فى إيمانهم وإخلاصهم ، فتقبل أعمالهم ، ورفع درجاتهم وتجاوز عن زلاتهم ، ورضوا عنه ، بما أسبغه عليهم من نعم جليلة ، وبما نالوه منه . سبحانه . من هداية وثواب .

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة ببيان ما هيأه لهم فى الآخرة من إكرام فقال : ﴿ وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . ذلك الفوز العظيم ﴾ .

أى : أنه - سبحانه - بجانب رضاه عنهم ورضاهم عنه فى الدنيا ، قد أعد لهم - سبحانه - فى الآخرة جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها خلودا أبديا وذلك الرضا والخلود فى الجنات من الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا تدانيه سعادة .

قال الإمام ابن كثير : أخبر الله - تعالى - فى هذه الآية « أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . فياويل من أبغضهم ، أو سبهم ، أو أبغض أو سب بعضهم ، ولاسيما سيد الصحابة بعد الرسول ، وخيرهم وأفضلهم أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبى قحافة ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ، ويبغضونهم ويسبونهم ، عياذا بالله من ذلك ، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الايمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم ؟

وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضى الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالى الله ، ويعادون من يعادى الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون[2] .

وبهذا نرى أن هذه الآية الكريمة قد مدحت السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧١ .

تبعهم بإحسان ، وذلك لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم وإيثارهم ما عند الله على هذه الدنيا وما فيها ..

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن أصناف أخرى من الناس ، منهم قوم . أجادوا النفاق ، ومرنوا عليه ، ولجوا فيه . ومنهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ومنهم قوم موقوف أمرهم إلى أن يظهر الله حكمه فيهم فقال تعالى :

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

قال القرطبى : ومعنى : « مردوا على النفاق » أقاموا عليه ولم يتوبوا منه ، أو لجوا فيه وأبوا غيره وأصل الكلمة من اللين والملاسة والتجرد، فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه رملة مرداء

أى لانبت فيها ، وغصن أمرد . أى : لا ورق له ... ويقال : مرد يمرد مرودًا ومرادة »[١] .

والمعنى : اذكروا أيها المؤمنون أنه يسكن من حول مدينتكم قوم من الأعراب منافقون ، فاحترسوا منهم ، واحترسوا - أيضا - من قوم آخرين يسكنون معكم داخل المدينة ، مردوا على النفاق ، أى : مرنوا عليه ، وأجادوا فنونه ، حتى بلغوا فيه الغاية .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد بالموصول . فى قوله « وممن حولكم » . قبائل:جهينة ، ومزينة وأشجع ، وأسلم ... وكانت منازلهم حول المدينة وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين .

واستشكل ذلك بأن النبى - ﷺ - مدح بعض هذه القبائل ودعا لبعضها فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أنه قال : « قريش ، والأنصار ، وجهينة ، ومزينة ، وأشجع وأسلم ، وغفار ، موالى الله - تعالى - ورسوله لا والى لهم غيره » .

وأجيب ذلك باعتبار الأغلب منهم[٢] .

وقوله : ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ بيان لتمردهم فى النفاق وتمهرهم فيه .

أى : أنت أيها الرسول الكريم . لا تعرف هؤلاء المنافقين . مع كمال فطنتك ، وصدق فراستك لأنك تعامل الناس بظواهرهم ، وهم قد أجادوا النفاق وحذقوه ، واجتهدوا فى الظهور بمظهر المؤمنين ، أما نحن فإننا نعلمهم لأننا لا يخفى علينا شىء من ظواهرهم أو بواطنهم ..» .

قال الإمام ابن كثير : وقوله تعالى ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ لا ينافى قوله تعالى ﴿ ولو نشاء لأريناكهم ، فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ... ﴾ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان - ﷺ - يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا ، وإن كان يراه صباحا ومساء .

وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : قلت : يارسول الله ، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة ، فقال : « لتأتينكم أجوركم ولو كنتم فى جحر ثعلب » وأصغى إلى رسول الله - ﷺ - برأسه فقال : « إن فى أصحابى منافقين » : ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين بما لا صحة له من الكلام ، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذى سمعه جبير بن مطعم .

---

(١) تفسير القرطبى بتصرف وتلخيص جـ ٨ ص ٢٤٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٠ .

ثم قال : وقد تقدم فى تفسير قوله - تعالى - ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ أنه - ﷺ - أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقا . وهذا تخصيص لا يقتضى أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم .

وروى الحافظ بن عساكر عن أبى الدرداء ، أن رجلا يقال له حرملة أتى النبى - ﷺ - فقال : الإيمان ها هنا وأشار بيده إلى لسانه ، والنفاق ها هنا وأشار بيده إلى قلبه فقال رسول الله - ﷺ - « اللهم اجعل له لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وارزقه حبى ، وحب من يحبنى ، وصير أمره إلى خير » .

فقال الرجل يارسول الله : إنه كان لى أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ فقال : - ﷺ - : « ومن أتانا استغفرنا له ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على أحد سترا »[1] .

وقال الآلوسى . واستدل بالآية على أنه لا ينبغى الإقدام على دعوى معرفة الأمور الخفية من أعمال القلب ونحوها ، فقد أخرج عبد الرازق وابن المنذر وغيرهما عن قتادة : أنه قال : ما بال أقوام يتكلفون على الناس يقولون : فلان فى الجنة وفلان فى النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدرى . لعمرى لأنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه نبى . فقد قال نوح عليه السلام « وما علمى بما كانوا يعملون » وقال شعيب عليه السلام « وما أنا عليكم بحفيظ » ، وقال الله تعالى لنبيه محمد - ﷺ - ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ .

وهذه الآيات ونحوها أقوى دليل فى الرد على من يزعم الكشف والاطلاع على المغيبات بمجرد صفاء القلب ، وتجرد النفس عن الشواغل .

ثم قال : والجملة الكريمة « لا تعلمهم نحن نعلمهم » تقرير لما سبق من مهارتهم فى النفاق ، أى : لا يقف على سرائرهم المذكورة فيهم ، إلا من لا تخفى عليه خافية ، لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر وإظهار الإخلاص[2] .

وقوله : ﴿ سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ وعيد لهم بسوء المصير فى الدنيا والآخرة .

أى : هؤلاء المنافقون الذين مردوا على النفاق ، سنعذبهم فى الدنيا مرتين ، مرة عن طريق فضحيتهم وهتك أستارهم وجعلهم يعيشون فى قلق وهم دائم ، والأخرى عن طريق ضرب

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١١ .

الملائكة لوجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم وما يتبع ذلك من عذابهم فى قبورهم إلى أن تقوم الساعة ، فيجدون العذاب الأكبر الذى عبر عنه - سبحانه - بقوله ﴿ ثم يردون الى عذاب عظيم ﴾ .

أى : ثم يعودن ويرجعون إلى خالقهم - سبحانه - يوم القيامة فيعذبهم عذابا عظيما بسبب إصرارهم على النفاق ، ورسوخهم فى المكر والخداع .

قال أبو السعود : ولعل تكرير عذابهم ، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق ، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه . ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير ، كما فى قوله تعالى ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور[١] ﴾ أى : كرة بعد أخرى[٢] .

ثم بين - سبحانه - حال طائفة أخرى من المسلمين فقال : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ ..

قال الآلوسى : قوله : وآخرون اعترفوا بذنوبهم ... بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم فى أمر الدين ، ولم يكونوا منافقين على الصحيح . وقيل هم طائفة من المنافقين إلا أنهم وفقوا للتوبة فتاب الله عليهم[٣] .

والمعنى : ويوجد معكم أيها المؤمنون قوم آخرون من صفاتهم أنهم اعترفوا بذنوبهم أى أقروا بها ولم ينكروها .

وقوله : ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ أى خلطوا عملهم الصالح وهو جهادهم فى سبيل الله قبل غزوة تبوك ، بعمل سيء وهو تخلفهم عن الخروج إلى هذه الغزوة .

وقوله : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ أى عسى الله تعالى : أن يقبل توبتهم ، ويغسل ، حوبتهم ، ويتجاوز عن خطاياهم .

وعبر - سبحانه - بعسى للإشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه ، حتى لا يتكل الشخص ، بل يكون على خوف وحذر .

وقد قالوا إن كلمة عسى متى صدرت عن الله تعالى - فهى متحققة الوقوع ، لأنها صادرة من كريم ، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحدًا فى شىء لا يعطيه إياه .

وقوله : إن الله غفور رحيم ، تعليل لرجاء قبول توبتهم ، إذ معناه ، إن الله تعالى كثير المغفرة للتائبين ، واسع الرحمة للمحسنين .

---

(١) سورة الملك الآية ٣ .
(٢) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٣٩٣ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١١ .

هذا ، وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة فى سبب نزول هذه الآية ولعل أرجح هذه الرويات ما رواه ابن جرير من أن هذه الآية نزلت فى أبى لبابة وأصحابه ، وكانوا تخلفوا عن النبى - ﷺ - فى غزوة تبوك ، فلما قفل رسول الله - ﷺ - من غزوته ، وكان قريبا من المدينة ندموا على تخلفهم عن رسول الله وقالوا : نكون فى الظلال والأطعمة والنساء ونبى الله فى الجهاد واللأواء . والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى ، ثم لانطلقها حتى يكون نبى الله هو الذى يطلقنا .

وأوثقوا أنفسهم . وبقى ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فقدم رسول الله - ﷺ - من غزوته فمر بالمسجد فأبصرهم فسأل عنهم ، فقيل له : إنه أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يانبى الله ، فصنعوا بأنفسهم ما ترى ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم .

فقال - ﷺ - : « لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله ، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ... ﴾ الآية ، فأطلقهم رسول الله - ﷺ - وعذرهم[1] .

ثم أمر الله تعالى - نبيه - ﷺ - أن يأخذ الصدقات من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ومن غيرهم ، فقال : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما أطلق رسول الله - ﷺ - أبا لبابة وأصحابه جاءوا بأموالهم إلى رسول الله - ﷺ - فقالوا له يارسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا ، فقال : « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا » .

فأنزل الله تعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة .... ﴾ الآية [2] .

وقال الإمام ابن كثير : أمر الله تعالى - رسوله أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها . وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير فى أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم .

ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون ، وإنما كان هذا خاصا بالرسول - ﷺ - ولهذا احتجوا بقوله : - تعالى - : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ..... ﴾ الآية .

وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة ، وقاتلوهم حتى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ١٠٥ طبعة دار المعارف .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ١٠٢ .

أدوا الزكاة الى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله - ﷺ - حتى قال الصديق : « والله لومنعونى عناقا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه[١] » .

والمعنى : خذ - أيها الرسول الكريم - من أموال هؤلاء المعترفين بذنوبهم ، ومن غيرهم من أصحابك « صدقة » معينة ، كالزكاة المفروضة ، أو غير معينة كصدقة التطوع .

وقوله : ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ بيان للفوائد المترتبة على هذه الصدقة .

أى : من فوائد هذه الصدقة أنها تطهر النفوس من رذائل الشح والبخل والطمع .. وتزكى القلوب من الأخلاق الذميمة ، وتنمى الأموال والحسنات قال بعضهم : قوله : « تطهرهم » قرئ مجزوما على أنه جواب للأمر . وقرئ . مرفوعا على أنه حال من ضمير المخاطب فى قوله : « خذ » أو صفة لقوله « صدقة » والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده أى : تطهرهم بها ...

وقوله : « وتزكيهم » لم يقرأ إلا بإثبات الياء ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه . أى : وأنت تزكيهم بها .

هذا على قراءة الجزم فى « تطهرهم » ، وأما على قراءة الرفع فيكون قوله « وتزكيهم بها » معطوف على قوله « تطهرهم » حالا أو صفة[٢] .

وقوله : وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم أى : وادع لهم بالرحمة والمغفرة ، وقبول التوبة ، فإن دعاءك لهم تسكن معه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، ويجعلهم فى ثقة من أن الله - تعالى - قد قبل توبتهم ، فأنت رسوله الأمين ، ونبيه الكريم .

فالمراد بالصلاة هنا : الدعاء لهم بالرحمة والمغفرة .

قال بعضهم : « وظاهر » قوله : « وصل عليهم » أنه يجب على الإمام أو نائبه إذا أخذ الزكاة أن يدعو للمتصدق . وبهذا أخذ داود وأهل الظاهر .

وأما سائر الفقهاء فقد حملوا الأمر هنا على الندب والاستحباب ، لأن الرسول - ﷺ - قال لمعاذ : « أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » ولم يأمره بالدعاء ..

أما صيغة الدعاء فلم يرد فيها تعيين إلا ما رواه الستة - غير الترمذى من قوله - ﷺ - « اللهم صل على آل أبى أوفى » - عندما أخذ منهم الزكاة - .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨٦ .
(٢) تفسير القاسمى - بتصرف وتلخيص - جـ ٨ ص ٣٢٥٢ .

ومن هنا قال الحنابلة وداود وأهل الظاهر لا مانع من أن يقول آخذ الزكاة : اللهم صلى على آل فلان .

وقال باقى الأئمة لا يجوز أن يقال : اللهم صل على آل فلان ، وإن ورد فى الحديث ، لأن الصلاة صارت مخصوصة فى لسان السلف بالانبياء - صلوات الله عليهم - ، كما أن قولنا : - عز وجل - صار مخصوصا بالله - تعالى - .

قالوا : وإنما أحدث الصلاة على غير الأنبياء مبتدعو الرافضة فى بعض الأئمة ، والتشبه بأهل البدع منهى عنه .

ولا خلاف فى أنه يجوز أن يجعل غير الأنبياء تبعا لهم فيقال : اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته .. لأن السلف استعملوا ذلك ، وأمرنا به فى التشهد ، ولأن الصلاة على التابع تعظيم للمتبوع .. »[1] .

وقوله : ﴿ والله سميع عليم ﴾ أى : سميع لا عترافهم بذنوبهم وسميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، وعليم بندمهم وتوبتهم ، وبكل شىء فى هذا الكون ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم حرضهم - سبحانه - على التوبة النصوح ، وحثهم على بذل الصدقات فقال : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ... ﴾ .

أى : ألم يعلم هؤلاء التائبون من ذنوبهم ، أن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يقبل التوبة الصادقة من عباده المخلصين ، وأنه - سبحانه - هو الذى « يأخذ الصدقات » .

أى : يتقبلها من أصحابها قبول من يأخذ شيئا ليؤدى بدله : فالتعبير بالأخذ للترغيب فى بذل الصدقات ، ودفعها للفقراء . والاستفهام للتقرير والتحضيض عل تجديد التوبة وبذل الصدقة .

وقوله : ﴿ وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ تذييل قصد به تقرير ما قبله وتأكيده .

أى : وأن الله وحده هو الذى يقبل توبة عباده المرة بعد الأخرى ، وأنه هو الواسع الرحمة بهم ، الكثير المغفرة لهم :

قال ابن كثير : قوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات .. ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحقها ، وأخبر - تعالى - أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله

---

(١) تفسير آيات الأحكام - بتصرف وتلخيص جـ ٣ ص ٤٨ .

يتقبلها بيمينه ، فيربيها لصاحبها حتى تصير الثمرة مثل أحد ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله - ﷺ - . فعن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره ، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد » وتصديق ذلك فى كتاب الله قوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾ . وقوله : ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ .

وعن عبد الله بن مسعود قال : إن الصدقة تقع فى يد الله - تعالى - قبل أن تقع فى يد السائل ، ثم قرأ هذه الآية . ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ... ﴾[1] .

ثم أمر - سبحانه - بالتزود من العمل الصالح ، وحذر من الوقوع فى العمل السىء ، فقال - تعالى - : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ .

أى : وقل -أيها الرسول الكريم - لهؤلاء التائبين وغيرهم ، قل لهم : اعملوا ما تشاءون من الأعمال ، فإن الله مطلع عليها ، وسيطلع رسوله والمؤمنون عليها كذلك .

وخص - سبحانه - رسوله والمؤمنين بالذكر ، لأنهم هم الذين يهتم المخاطبون باطلاعهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ فسيرى الله عملكم ... ﴾ تعليل لما قبله ، أو تأكيد لما يستفاد منه من الترغيب والترهيب ، والسين للتأكيد .. والمراد من رؤية الله العمل - عند جمع - الاطلاع عليه ، وعلمه علما جليا ، ونسبة ذلك للرسول - ﷺ - والمؤمنين ، باعتبار ان الله - تعالى - لا يخفى ذلك عنهم ، بل يطلعهم عليه ... »[2] .

وقوله : ﴿ وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ بيان لما سيكون عليه حالهم فى الآخرة .

أى : وسترجعون بعد موتكم إلى الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شىء ، فينبئكم بما كنتم تعملونه فى الدنيا من خير أو شر ، وسيجازيكم بما تستحقونه من ثواب أو عقاب .

ثم بين - سبحانه - حال قسم آخر من أقسام المتخلفين عن غزوة تبوك ، فقال - تعالى - : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .. ﴾ .

قال الجمل : قوله : « وآخرون مرجون ... » قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عمر وأبو بكر عن عاصم « مرجأون » بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة . وقرأ الباقون « مرجون » دون

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٦ .

تلك الهمزة .. وهما لغتان ، يقال أرجأته وأرجيته .. »[١] .

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .. ﴾ .

والمعنى : ومن المتخلفين عن الخروج معك إلى تبوك - يامحمد - قوم آخرون موقوف أمرهم إلى أن يحكم الله فيهم بحكمه العادل ، فهو - سبحانه - « إما يعذبهم » بأن يميتهم بلا توبة « وإما يتوب عليهم » أى : يقبل توبتهم .

وهذا الترديد الذى يدل عليه لفظ « إما » ، إنما هو بالنسبة للناس ، وإلا فالله - تعالى - عليم بما هو فاعله بهم .

والحكمة من إبهام أمرهم ، إثارة الهم والخوف فى قلوبهم لتصح توبتهم ؛ لأن التوبة عندما تجىء بعد ندم شديد ، وتأديب نفسى .. تكون مرجوة القبول منه - سبحانه - .

وقوله ﴿ والله عليم ﴾ أى : والله - تعالى - عليم بأحوال خلقه وبما يصلحهم فى أمورهم ، حكيم فيما يشرعه لهم من أحكام .

قال الآلوسى : والمراد بهؤلاء « المرجون لأمر الله .. » كما جاء فى الصحيحين : هلال بن أمية ، وكعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، كانوا قد تخلفوا عن رسول - ﷺ - فى غزوة تبوك ، وهموا باللحاق به فلم يتيسر لهم ذلك - فقعدوا فى المدينة كسلا وميلا إلى الدعة - ولم يكن تخلفهم عن نفاق ، فلما قدم النبى - ﷺ - وكان ما كان من أمر المتخلفين - قالوا : لا عذر لنا إلا الخطيئة ، ولم يعتذروا كما اعتذر غيرهم ، فأمر رسول الله - ﷺ - باجتنابهم .. إلى أن نزل قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار ﴾ ... ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا .. ﴾ فأمر - ﷺ - بمخالطتهم ، وكانت مدة وقفهم خمسين ليلة بقدر مدة التخلف ، إذ كانت مدة غيبته - ﷺ - عن المدينة خمسين ليلة ، فلما تمتعوا بالراحة فى تلك المدة مع تعب إخوانهم فى السفر ، عوقبوا بهجرهم ووقفهم تلك المدة .. »[٢] .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد ذكرت ثلاث طوائف من المتخلفين عن غزوة تبوك .

أما الطائفة الأولى فهى التى مردت على النفاق ، وقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق .. ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣١٦ .

(٢) تفسير الآلوسى - بتصرف - جـ ١١ ص ١٧ .

وأما الطائفة الثانية فهى التى سارعت إلى الاعتذار والاعتراف بالذنب ، فقبل الله توبتهم ، وقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ .

وأما الطائفة الثالثة فهى التى لم تجد عذرا تعتذر به ، فأوقف الله أمرهم إلى أن حكم بقبول توبتهم بعد خمسين ليلة ، وقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .. ﴾ .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها الطويل المتنوع عن النفاق والمنافقين ، بالحديث عن مسجد الضرار الذى بناه المنافقون ليكون مكانا للإضرار بالإسلام والمسلمين ، فقال - تعالى - .

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

قال الإمام ابن كثير : سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله - ﷺ - إليها ، رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر فى

الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف فى الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله - ﷺ - مهاجرا إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه وصار للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز العداوة ، وظاهر بها ، وخرج فارا إلى كفار مكة ليمالئهم على حرب المسلمين فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام « أحد » فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله - تعالى - وكانت العاقبة للمتقين .

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع فى إحداهن رسول الله - ﷺ - وأصيب فى ذلك اليوم ، فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى والسفلى وشج رأسه . وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ، فخاطبهم ، واستمالهم إلى نصره وموافقته . فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله لك عينا يا فاسق ياعدو الله ، ونالوا منه وسبوه .

وكان رسول الله - ﷺ - قد دعاه إلى الله قبل فراره - إلى مكة - وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد . فدعا عليه رسول الله - ﷺ - أن يموت بعيدا طريداً فنالته هذه الدعوة .

وذلك أنه لما فرغ الناس من « أحد » ورأى أمر الرسول - ﷺ - فى ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى - ﷺ - ، فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم ، أنه سيقدم بجيش ليقاتل به النبى - ﷺ - ويغلبه ، ويرده عما هو فيه . وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصدا له إذا قدم عليه بعد ذلك .

فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله - ﷺ - إلى تبوك ، وجاءوا فسألوه أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم ، وأهل العلة فى الليلة الشاتية !! فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على سفر ولكنا إذا رجعنا - إن شاء الله - أتيناكم فصلينا لكم فيه » .

فلما قفل راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر ، والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم . مسجد قباء . الذى أسس من أول يوم على التقوى فبعث رسول الله - ﷺ - إلى مسجد الضرار من هدمه قبل مقدمه إلى المدينة[1] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٧٨٢ .

وقوله : ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ منصوب على الذم .

أى : وأذم الذين اتخذوا مسجدا ضراراً .. أو معطوف على ما سبق من أحوال المنافقين ، والتقدير : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .

وقوله « ضراراً » مفعول لأجله أى : اتخذوا هذا المسجد لا من أجل العبادة والطاعة لله تعالى . وإنما اتخذوه من أجل الإضرار بالمؤمنين . وإيقاع الأذى بهم .

وقوله « وكفرا » معطوف على « ضراراً » ؛ وهو علة ثانية لاتخاذ هذا المسجد .

أى : اتخذوه للإضرار بالمؤمنين ، وللازدياد من الكفر الذى يضمرونه ومن الغل الذى يخفونه .

وقوله : ﴿ وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ علة ثالثة .

أى : واتخذوه أيضاً للتفريق بين جماعة المؤمنين الذين كانوا يصلون فى مسجد واحد هو مسجد قباء ، فأراد هؤلاء المنافقون من بناء مسجد الضرار إلى جوار مسجد قباء ، أن يفرقوا وحدة المؤمنين ، بأن يجعلوهم يصلون فى أماكن متفرقة . حسدا لهم على نعمة الإخاء والتآلف والاتحاد التى غرسها الإسلام فى قلوب أتباعه .

وقوله : ﴿ وإرصادا لمن حارب الله ورسوله ﴾ علة رابعة لاتخاذ هذا المسجد .

أى : واتخذوه ليكون مكانا يرقبون فيه قدوم « من حارب الله ورسوله » وهو أبو عامر الراهب ، الذى أعلن عداوته لدعوة الإسْلام « من قبل » بناء مسجد الضرار .

فقد سبق أن ذكرنا فى أسباب نزول هذه الآيات ، أن أبا عامر هذا ، كتب إلى جماعة من قومه . وهو عند هرقل . يعدهم ويمنيهم ، ويطلب منهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه فشرعوا فى بناء هذا المسجد .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد ذكرت أربعة من الأغراض الخبيثة التى حملت المنافقين على بناء هذا المسجد ، وهى : مضارة المؤمنين ، وتقوية الكفر ، وتفريق كلمة أهل الحق وجعله معقلا لالتقاء المحاربين لله ولرسوله .

وقد خيب الله تعالى مسعاهم ؛ وأبطل كيدهم ، بأن أمر نبيه - ﷺ - بهدمه وإزالته .

وقوله : ﴿ وليحلفن أن أردنا إلا الحسنى ﴾ ذم لهم على أيمانهم الفاجرة ، وأقوالهم الكاذبة .

أى : أن هؤلاء المنافقين قد بنوا مسجد الضرار لتلك المقاصد الخبيثة . ومع ذلك فهم يقسمون بأغلظ الأيمان بأنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخصلة الحسنى التى عبروا عنها قبل ذلك .

كذبا . بقولهم : « إننا بنيناه للضعفاء ، وأهل العلة فى الليلة الشاتية » .

وقوله : ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ زيادة فى مذمتهم وتحقيرهم .

أى : والله - تعالى - يعلم ويشهد أن هؤلاء المنافقين لكاذبون فى أيمانهم بأنهم ما أرادوا من بناء مسجدهم إلا الحسنى ، فانهم فى الحقيقة لم يريدوا ذلك ، وإنما أرادوا تلك الأغراض القبيحة السابقة ، وهى مضارة المؤمنين ، وتفريق كلمتهم .

ثم نهى الله - تعالى - رسوله والمؤمنين عن الصلاة فى هذا المسجد نهيا مؤكداً فقال - سبحانه - : ﴿ لا تقم فيه ، أبداً ﴾ .

أى : لا تصل . أيها الرسول الكريم . فى هذا المسجد فى أى وقت من الأوقات لأنه لم يبن لعبادة الله ، وإنما بنى للشقاق والنفاق .

قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ يعنى مسجد الضرار . لا تقم فيه للصلاة ، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام . يقال : فلان يقوم الليل أى : يصلى ، ومنه الحديث الصحيح : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقد روى أن رسول الله - ﷺ - لما نزلت هذه الآية كان لا يمر بالطريق التى فيها هذا المسجد ، وأمر بموضعه أن يتخذ كناسة تلقى فيها الجيف والأقذار ... »[1] .

وقوله : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ جملة مسوقة لمدح مسجد قباء وتشريفه .

أى : لمسجد بنى أساسه ، ووضعت قواعده على تقوى الله وإخلاص العبادة له منذ أول يوم بدئ فى بنائه . أحق أن تقوم للصلاة فيه من غيره .

قال الآلوسى ما ملخصه : واللام فى قوله « لمسجد » إما للابتداء أو للقسم ، أى : والله لمسجد ، وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ ، والجملة بعده صفته ، وقوله « أحق أن تقوم فيه » خبر المبتدأ : « وأحق » أفعل تفضيل ، والمفضل عليه كل مسجد . أو مسجد الضرار على الفرض والتقدير ، أو على زعمهم ، وقيل إنه بمعنى حقيق ، أى : ذلك المسجد بأن تصلى فيه .. »[2] .

وقوله : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ جملة مسوقة لتكريم رواد هذا المسجد ومديحهم .

أى : فى هذا المسجد رجال أتقياء الظاهر والباطن ، إذهم يحبون الطهارة من كل رجس

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٥٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٩ .

حسي ومعنوى ، ومن كان كذلك أحبه الله ورضى عنه .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يستوى من أسس بنيانه على الحق ، ومن أسس بنيانه على الباطل فقال : ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم .. ﴾ .

قال صاحب الكشاف: قرئ أَسَّسَ بنيانَه ، وأُسِسّ بنيانُه على البناء للفاعل والمفعول. والشفا : الحرف والشفير . وحرف الوادى : جانبه الذى يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول ، فيبقى واهيا ، والهار وهو المتصدع الذى أوشك على التهدم - وهار صفة لجرف ، أى جرف موصوف بأنه هائر أى متساقط .

والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه « خير أم من » أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل « شفا جرف هار » فى قلة الثبات والاستمساك . وضع شفا الجرف فى مقابلة التقوى ، لأنه جعل مجازاً عما ينافى التقوى .

فإن قلت : فما معنى قوله : « فانهار به فى نار جهنم » .

قلت : لما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل ، قيل : فانهار به فى نار جهنم ، على معنى : فطاح به الباطل فى نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذى هو للجرف ، وليتصور أن المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف من أودية جهنم . فانهار به ذلك الجرف فهوى فى قعرها ، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ، ولا أدل منه على حقيقة الباطل وكنه أمره »[1] .

وقال صاحب المنار ما ملخصه : والمراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذى هو دين الإسلام وقوته ، ودوامه ، وسعادة أهله به ، وذكره بأثره وثمرته فى عمل أهله وجماعها التقوى ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله وقرب زواله ، وخيبة صاحبه ، وسرعة انقطاع آماله .

وقد ذكر فى وصف بنيان الفريق الأول وهم المؤمنون المشبه دون المشبه به لأنه هو المقصود بالذات ؛ وذكر من وصف الفريق الثانى - وهم المنافقون - الهيئة المشبه بها دون المشبه ، لأنه ذكر قبل ذلك مقاصدهم الخبيثة من بناء مسجد الضرار . وهذا من دقائق إيجاز القرآن »[2] .

وقوله : ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ أى مضت سنة الله - تعالى - فى خلقه أنه - سبحانه - لا يهدى إلى طريق الخير ، أولئك الذين استحبوا العمى على الهدى وظلموا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٠ - بتصرف وتلخيص .

(٢) تفسير المنار جـ ١١ ص ٤٥ .

أنفسهم بوضعهم الأمور فى غير مواضعها .

ثم بين - سبحانه - الآثار التى ترتبت على هدم مسجد الضرار ، فى نفوس هؤلاء المنافقين الأشرار فقال - تعالى - : ﴿ لا يزأل بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم ﴾ .

الريبة : اسم من الريب بمعنى الشك والقلق والحيرة ، وتقطع - بفتح التاء - أصلها تتقطع فحذفت إحدى التاءين ، من التقطع بمعنى التمزق . وقرأ بعضهم . « تقطع » - بضم التاء - من التقطيع بمعنى التفريق والتمزيق .

والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات والأحوال ، والمستثنى منه محذوف ، والتقدير : لا يزال ما بناه هؤلاء المنافقون موضع ريبة وقلق فى نفوسهم فى كل وقت وحال إلا فى وقت واحد وهو وقت أن تتمزق قلوبهم بالموت والهلاك أى : أنهم لا يزالون فى قلق وحيرة ما داموا أحياء ، أما بعد موتهم فستتكشف لهم الحقائق ، ويجدون مصيرهم الأليم .

والسبب فى أن هذا البناء كان مثار ريبتهم وقلقهم حتى بعد هدمه ، أنهم بنوه بنية سيئة ، ولتلك المقاصد الأربعة الخبيثة التى بينتها الآية الأولى ... فكانوا يخشون أن يطلع الله نبيهم على مقاصدهم الذميمة ، فهذه الخشية أورثتهم القلق والريبة ، فلما أطلع الله - تعالى - نبيه على أغراضهم ، وتم هدم مسجد الضرار ، وانهار الجرف المتداعى المتساقط، استمر قلقهم وريبهم ؛ لأنهم لا يدرون بعد ذلك ماذا سيفعل المؤمنون بهم .

وهكذا شأن الماكرين فى كل زمان ومكان ، إنهم يعيشون طول حياتهم فى فزع وقلق وخوف من أن ينكشف مكرهم ، ويظهر خداعهم .

وقوله : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ تذييل قصد به تهديدهم وزجرهم .

أى : والله - تعالى - عليم بكل شىء فى هذا الكون ، وبكل ما يقوله ويفعله هؤلاء المنافقون سرا وجهرا : حكيم فى كل تصرفاته وأفعاله وفى صنعه بهم ، وسيجازيهم يوم القيام بما يستحقونه من عقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات مايأتى :

١ - وجوب بناء المساجد على تقوى من الله ورضوان ، لأنها إذا بنيت على هذا الأساس ، كانت محل القبول والثواب من الله ، أما إذا بنيت لأى مقصد يتنافى مع آداب الإسلام وأحكامه وتشريعاته ، فإنها تكون بعيدة عن رضا الله - تعالى - وقبوله .

قال بعض العلماء ، دلت الآيات على أن كل مسجد بنى على ما بنى عليه مسجد الضرار ، أنه لا حكم له ولا حركة ، ولا يصح الوقف عليه . وقد حرق الراضى بالله - الخليفة

العباسى - كثيرا من مساجد الباطنية والمشبهة والمجبرة[١] .

وقال الزمخشرى: قيل كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة ، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله ، أو بمال غير طيب ، فهو لاحق بمسجد الضرار .

وعن عطاء : لما فتح الله . تعالى . الأمصار على عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أمر المسلمين أن يبنوا المساجد ، وألا يتخذوا فى مدينة مسجدين ، يضار أحدهما صاحبه[٢] .

٢ - أن مسجد قباء هو المقصود بقوله - تعالى - : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ... ﴾ وذلك لأن سياق الآيات فى الحديث عنه ، وفى بيان أحقية الصلاة فيه ، وقد كان رسول الله - ﷺ - يزوره راكبا وماشيا ويصلى فيه ركعتين .

ولا منافاة بين كون مسجد قباء هو المقصود هنا ، وبين الأحاديث التى وردت فى أن المسجد الذى أسس من أول يوم على تقوى من الله ورضوان ، هو المسجد النبوى ، لأن كليهما قد أسس على ذلك .

قال الإمام ابن كثير : وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف منهم ابن عباس ، وعروة بن الزبير ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

وقد ورد فى الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله - ﷺ - الذى فى جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى ، وهذا صحيح .

ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، أنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله - ﷺ - بطريق الأولى والأحرى »[٣] .

٣ - أن المحافظة على الطهارة من الصفات التى يحبها الله - تعالى - فقد قال - تعالى - : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث منها : ما جاء عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت هذه الآية ، بعث رسول الله - ﷺ - إلى عويم بن مساعدة فقال له : « ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم به » ؟ .

فقال : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه . فقال - ﷺ - : « هو هذا[٤] » .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٢٦٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣١٠ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٩ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨٩ .

٤ - كذلك يؤخد من الآيات الكريمة ، استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحة ، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء ، والتنزه عن ملابسة القاذورات[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - أنواع المتخلفين عن غزوة تبوك ، أتبع ذلك بالترغيب فى الجهاد وفى بيان فضله فقال - تعالى - :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

قال الفخر الرازى : أعلم الله - تعالى - لما شرع فى شرح فضائح المنافقين وقبائحهم لسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، فلما تم ذلك الشرح والبيان وذكر أقسامهم وفرع كل قسم ما كان لائقا به ، عاد إلى بيان فضيلة الجهاد وحقيقته فقال - تعالى - : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين ... ﴾ الآية[2] .

وقال القرطبى : نزلت هذه الآية فى البيعة الثانية ، وهى بيعة العقبة الكبرى وهى التى أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله - ﷺ - عند العقبة ، فقال عبد الله بن رواحة للنبى - ﷺ - : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبى - ﷺ - : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا : فإذا فعلنا فمالنا ؟ قال :

« لكم الجنة » قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل فنزلت هذه الآية[3] .

ثم هى بعد ذلك عامة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد - ﷺ - إلى يوم القيامة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ تمثيل للثواب الذى منحه الله - تعالى - للمجاهدين فى سبيله .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩٠ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٥٠٦ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٦٧ .

فقد صور - سبحانه - جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابته - سبحانه - لهم على ذلك بالجنة ، صور كل ذلك بالبيع والشراء .

أى : أن الله - تعالى - وهو المالك لكل شىء ، قد اشترى من المجاهدين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله ، وأعطاهم فى مقابل ذلك الجنة .

قال أبو السعود : الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين فى الجهاد ... وقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه ، حيث عبّر عن قبول الله - تعالى - من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله - تعالى - وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية . ثم جعل المبيع الذى هو العمدة والمقصد فى العقد : أنفس المؤمنين وأموالهم ، والثمن الذى هو الوسيلة فى الصفقة : الجنة .

ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ؛ ليدل على أن المقصد فى العقد هو الجنة ، وما بذله المؤمنون فى مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها ، إيذانا بتعليق كمال العناية بهم وبأموالهم .

ثم إنه لم يقل « بالجنة » بل قال : « بأن لهم الجنة » مبالغة فى تقرر وصول الثمن إليهم « واختصاصه بهم » فكأنه قيل : بالجنة الثابتة لهم ، المختصة بهم[1] .

وقوله : ﴿ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ جملة مسأنفة جئ بها لبيان الوسيلة التى توصلهم إلى الجنة وهى القتال فى سبيل الله .

أى : أنهم يقاتلون فى سبيل الله ، فمنهم من يقتل أعداء الله ، ومنهم من يقتل على أيدى هؤلاء الأعداء ، وكلا الفريقين القاتل والمقتول جزاؤه الجنة .

وقرأ حمزة والكسائى « فيقتلون ويقتلون » بتقديم الفعل المبنى للمفعول على الفعل المبنى للفاعل .

وهذه القراءة فيها إشارة إلى أن حرص هؤلاء المؤمنين الصادقين على الاستشهاد أشد من حرصهم على النجاة من القتل ؛ لأن هذا الاستشهاد يوصلهم إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وإلى الحياة الباقية الدائمة ..

وقوله : ﴿ وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ تأكيد للثمن الذى وعدهم الله به .

أى : أن هذه الجنة التى هى جزاء المجاهدين ، قد جعلها - سبحانه - تفضلا منه وكرما ،

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٩١ .

حقا لهم عليه ، وأثبت لهم ذلك فى الكتب السماوية التى أنزلها على رسله .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « وعدا عليه » مصدر مؤكد لمضمون الجملة وقوله « حقا » نعت له ، وقوله « عليه » فى موضع الحال من قوله « حقا » لتقدمه عليه ، وقوله : « فى التوراة والإنجيل والقرآن » متعلق بمحذوف وقع نعتا لقوله « وعدا » أيضاً .

أى : وعدا مثبتاً فى التوراة والإنجيل كما هو مثبت فى القرآن ، فالمراد إلحاق مالا يعرف بما يعرف . إذ من المعلوم ثبوت هذا الحكم فى القرآن . ثم إن ما فى الكتابين إما أن يكون أن أمة محمد - ﷺ - اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بذلك ، أو أن من جاهد بنفسه وماله . من حقه ذلك ، وفى كلا الأمرين ثبوت موافق لما فى القرآن ... »[1] .

وقوله : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ جملة معترضة مسوقة لتأكيد مضمون ما قبلها من حقية الوعد وتقريره : والاستفهام للنفى .

أى : لا أحد أوفى بعهده من الله - تعالى - لأنه إذا كان خلف الوعد لا يكاد يصدر من كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم ، فكيف يكون الحال من جانب الخالق - عز وجل - المنزه عن كل نقص ، المتصف بكل كمال .

وقوله : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ تحريض على القتال ، وإعلام لهم بأنهم رابحون فى هذه الصفقة .

والاستبشار : الشعور بفرح البشرى ، شعورا تنبسط له أسارير الوجه .

أى : إذا كان الأمر كذلك فافرحوا ببيعكم الذى بايعتم به غاية الفرح ، وارضوا به نهاية الرضى ، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذى لا فوز أعظم منه .

قال بعض العلماء : ولا ترى ترغيبا فى الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية لأنه أبرزه فى صورة عقد عقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضا لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وجعله مسجلا فى الكتب السماوية ، وناهيك به من صك . وجعل وعده حقاً ، ولا أحد أوفى من وعده فنسيئته أقوى من نقد غيره ، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم . وهو استعارة تمثيلية ، حيث صور جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه وإثابة الله لهم على ذلك الجنة ، بالبيع والشراء وأتى بقوله : « يقاتلون » .. بيانا لمكان التسليم وهو المعركة ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ - « الجنة تحت ظلال السيوف » ، ثم أمضاه بقوله « وذلك هو الفوز العظيم »[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٩ .

(٢) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٢٧٣ .

ويروى عن الحسن البصرى أنه قرأ هذه الآية فقال : انظروا إلى كرم الله . تعالى . أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، ثم يكافئنا عليها متى بذلناها فى سبيله بالجنة .

ثم وصف الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين الصادقين بجملة من الأوصاف الكريمة ، فقال :

ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَـٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

قال الجمل ما ملخصه : ذكر الله - تعالى - فى هذه الآية تسعة أوصاف للمؤمنين ، الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق ، والوصفان السابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق ، والوصف التاسع يعم القبيلين .

وقوله : ﴿ التائبون ﴾ فيه وجوه من الأعراب منها : أنه مرفوع على المدح . فهو خبر لمبتدأ محذوف وجوباً للمبالغة فى المدح أى : المؤمنون المذكورون التائبون ، ومنها أن الخبر هنا محذوف ، أى : التائبون الموصوفون بهذه الأوصاف من أهل الجنة .... »[1] .

والمعنى : « التائبون » عن المعاصى وعن كل ما نهت عنه شريعة الله ، « العابدون » لخالقهم عبادة خالصة لوجهه ، « الحامدون » له - سبحانه - فى السراء والضراء ، وفى المنشط والمكره ، وفى العسر واليسر ، « السائحون » فى الأرض للتدبر والاعتبار وطاعة الله . والعمل على مرضاته « الراكعون الساجدون » لله - تعالى - عن طريق الصلاة التى هى عماد الدين وركنه الركين « الآمرون » غيرهم « بالمعروف » أى : بكل ما حسنه الشرع « والناهون » له « عن المنكر » الذى تأباه الشرائع والعقول السليمة ، « والحافظون لحدود الله » أى : لشرائعه وفرائضه وأحكامه وآدابه .. هؤلاء المتصفون بتلك الصفات الحميدة ، بشرهم . يا محمد . بكل ما يسعدهم ويشرح صدورهم ، فهم المؤمنون حقاً ، وهم الذين أعد الله - تعالى - لهم الأجر الجزيل ، والرزق الكريم .

(١) حاشية الجمل على الجلالين بتصريف وتلخيص جـ ٢ ص ٣٢١ .

ولم يذكر - سبحانه - المبشر به فى قوله : « وبشر المؤمنين » ، للاشارة إلى أنه أمر جليل لا يحيط به الوصف ، ولا تحده العبارة .

ولم يذكر - سبحانه - فى الآية لهذه الأوصاف متعلقاً ، فلم يقل « التائبون » من كذا ، لفهم ذلك من المقام ، لأن المقام فى مدح المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا نفوسهم لله ، تعالى . فصاروا ملتزمين طاعته فى كل أقوالهم وأعمالهم .

وعبر عن كثرة صلاتهم وخشوعهم فيها بقوله . « الراكعون الساجدون » للاشارة إلى أن الصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ، وكأن الركوع والسجود طابع مميز لهم بين الناس . وإنما عطف النهى عن المنكر على الأمر بالمعروف للإيذان بأنهما فريضة واحدة لتلازمهما فى الغالب ، أو لما بينهما من تباين إذ الأمر بالمعروف طلب فعل ، والنهى عن المنكر طلب ترك أو كف .

وكذلك جاء قوله . « والحافظون لحدود الله » بحرف العطف ومما قالوه فى تعليل ذلك . أن سر العطف هنا التنبيه على أن ما قبله مفصل للفضائل وهذا مجمل لها ، لأنه شامل لما قبله وغيره ، ومثله يؤتى به معطوفاً ، نحو زيد وعمرو وسائر قبيلتهما كرماء ، فلمغايرته لما قبله بالإجمال والتفصيل والعموم والخصوص عطف عليه [1] .

هذا ، وما ذكرناه من أن المراد بقوله : « السائحون » أى : السائرون فى الأرض للتدير والاعتبار والتفكر فى خلق الله ، والعمل على مرضاته .. هذاالذى ذكرناه رأى لبعض العلماء . ومنهم من يرى أن المراد بهم الصائمون ومنهم من يرى أن المراد بهم: المجاهدون.

قال الآلوسى : وقوله : « السائحون » أى الصائمون . فقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة أن النبى - ﷺ - سئل عن ذلك فأجاب بما ذكر ، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين . وجاء عن عائشة : « سياحة هذه الأمة الصيام » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد أن السائحين هم المهاجرون ، وليس فى أمة محمد - ﷺ - سياحة إلا الهجرة .

وعن عكرمة أنهم طلبة العمل ، لأنهم يسيحون فى الأرض لطلبه .

وقيل : هم المجاهدون فى سبيل الله ، لما أخرج الحاكم وصححه والطبرانى وغيرهما ، عن أبى أمامة أن رجلا استأذن رسول الله - ﷺ - فى السياحة فقال : إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله [2] .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٨ ص ٣٠٨٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ٣١ .

والذى نراه أقرب إلى الصواب أن المراد بالسائحين هنا : السائرون فى الأرض لمقصد شريف ، وغرض كريم . كتحصيل العلم ، والجهاد فى سبيل الله ، والتدبر فى ملكوته - سبحانه - والتفكر فى سننه فى كونه ، والاعتبار بما اشتمل عليه هذا الكون من عجائب .

ولعل مما يؤيد ذلك أن لفظ « السائحون » معناه السائرون ، لأنه مأخوذ من السيح وهو الجرى على وجه الأرض ، والذهاب فيها . وهذه المادة تشعر بالانتشار ، يقال : ساح الماء أى جرى وانتشر .

وما دام الأمر كذلك فمن الأولى حمل اللفظ على ظاهره ، مادام لم يمنع ما نع من ذلك ، وهنا لا مانع من حمل اللفظ على حقيقته وظاهره .

أما الأحاديث والآثار التى استشهد بها من قال بأن المراد بالسائحين الصائمون فقد ضعفها علماء الحديث .

قال صاحب المنار : وأقول : وروى ابن جرير من حديث أبى هريرة مرفوعاً وموقوفا حديث : « السائحون هم الصائمون » لا يصح رفعه .. [١] .

وفضلا عن كل هذا ، فإن تفسير السائحين بأنهم السائرون فى الأرض لكل مقصد شريف ، وغرض كريم .. يتناول الجهاد فى سبيل ، كما يتناول الرحلة فى طلب العلم ، وغير ذلك من وجوه الخير .

وما أكثر الآيات القرآنية التى حضت على السير فى الأرض ، وعلى التفكر فى خلق الله ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[٢] .

وقوله تعالى . ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[٣] .

قال الإمام الرازى : للسياحة أثر عظيم فى تكميل النفس لأن الإنسان يلقى الأكابر من الناس ، فيحتقر نفسه فى مقابلتهم ، وقد يصل إلى المرادات الكثيرة فينتفع بها ، وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله . تعالى . فى كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته . وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية فى الدين [٤] .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يصح للنبى - ﷺ - ولا للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين مهما بلغت درجة قرابتهم ، لأن رابطة العقيدة هى الوشيجة الأساسية فيما بينهم فقال - تعالى :

---

(١) راجع تفسير المنار جـ ١١ ص ٥٤ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١١ .
(٣) سورة الحج الآية ٤٦ .
(٤) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٥٠٩ .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بين من أول هذه السورة إلى هذا الموضوع وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه ، بين فى هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم وإن كانوا فى غاية القرب من الإنسان ، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم ، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات ، والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب[1] .

والمعنى: ما كان من شأن النبى - ﷺ - ولا من شأن أصحابه المؤمنين، أن يدعوا الله - تعالى - بأن يغفر للمشركين فى حال من الأحوال . ولو كان هؤلاء المشركون من أقرب أقربائهم « من بعد ما تبين لهم » أى : للرسول - ﷺ - ولأصحابه ، أن هؤلاء المشركين من أصحاب الجحيم ، بسبب موتهم على الكفر ، وإصرارهم عليه ، وعدم اعترافهم بدين الإسلام .

قال الآلوسي ما ملخصه : والآية على الصحيح نزلت فى أبى طالب ، فقد أخرج الشيخان

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٥١٠ .

وغيرهما عن المسيب بن حزن قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه النبى - ﷺ - وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال النبى - ﷺ - أى عم ، قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فجعل رسول الله - ﷺ - يعرضها عليه . وأبو جهل وعبد الله بن أمية يعاودانه بتلك المقالة . فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله - ﷺ - لأستغفرن لك مالم أنْهَ عن ذلك فنزلت : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين .. الآية ﴾ .

ثم قال . واستبعد بعضهم ذلك ، لأن موت أبى طالب كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، وهذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة .

وهذا الاستبعاد مستبعد ، لأنه لا بأس من أن يقال : كان النبى - ﷺ - يستغفر لأبى طالب من ذلك الوقت إلى وقت نزول هذه الآية وعليه فلا يراد من قوله « فنزلت » فى الخبر أن النزول كان عقيب القول بل يراد أن ذلك سبب النزول فحسب . فتكون الفاء للسببية لا للتعقيب [1] .

وقال القرطبى : هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حيهم وميتهم ، فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين . فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز . ، وقال كثير من العلماء. بأنه لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ما داما حيين، فأما من مات على الكفر فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى له[2] .

ثم بين - سبحانه - السبب الذى حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه ، ثم على ترك هذا الاستغفار فقال : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ ..

قال القرطبى : روى النسائى عن على بن أبى طالب قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان . فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه . فأتيت النبى - ﷺ - فذكرت له ذلك فنزلت ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ الآية .

والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم ، لأبيه ، لأن استغفاره له إنما كان بسبب وعد صدر له بذلك . فلما أصر « آزر » أبو إبراهم على كفره ، ومات مشركا بالله ،

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٣٣ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٧٣ .

تبرأ إبراهيم منه ومن عمله .

والمراد بهذا الوعد ما جاء فى القرآن من قوله له : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ﴾ [١] .

وقوله : ﴿ لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ﴾ [٢] .

وقوله : « إن إبراهيم لأواه حليم » جملة مستأنفة مسوقة لبيان الداعى الذى دعا إبراهيم إلى الاستغفار لأبيه قبل التبين .

أى : إن إبراهيم لكثير التأوه والتوجع من خشية الله ، وكثير الحلم والصفح عمن آذاه .

قال الآلوسى : قوله « إن إبراهيم لأواه حليم » أى لكثير التأوه،وأصل التأوه قوله آه ونحوه مما يقوله الحزين .. وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة . ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما عن عبد الله بن شداد . قال رجل : يارسول الله ما الأواه ؟ قال : «الخاشع المتضرع الكثير الدعاء» [٣] .

ويؤخذ من هاتين الآيتين ، أنه لا يجوز لمسلم أن يستغفر لمشرك بعد موته على الشرك مهما بلغت درجة قرابته له .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه العامة فى خلقه ، وهى تدل على سعة رحمته ، ووافر عدله فقال : ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون .. ﴾ .

أى : وما كان من شأن الله - تعالى - فى لطفه وعدله .. أن يصف قوما بالضلال عن طريق الحق « بعد إذ هداهم » إلى الإسلام ، لمجرد قول أو عمل صدر عنهم عن طريق الخطأ فى الاجتهاد .

وإنما يصفهم بذلك بعد أن يبين لهم ما يجب اتقاؤه من الأقوال والأفعال ، فلا يطيعون أمره ، ولا يستجيبون لتوجيهه - سبحانه -

قال صاحب الكشاف : يعنى - سبحانه - أن ما أمر باتقائه واجتنا به كالاستغفار للمشركين وغيرها مما نهى عنه وبين أنه محظور ، لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب . وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ، ولا ببيع الصاع بصاعين قبل التحريم .

---

(١) سورة مريم الآية ٤٧ .

(٢) سورة الممتحنة الآية ٤ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٣٥ - بتصرف وتلخيص .

وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه . وفى هذه الآية شديدة ما ينبغى أن يغفل عنها : وهى أن المهدى للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله صار داخلا فى حكم الإضلال »[١] .

وقال صاحب المنار : أخرج ابن المنذر أن عبد الله بن مسعود كان يخطب أصحابه كل عشية خميس ثم يقول : فمن استطاع منكم أن يغدو عالما أو متعلما فليفعل ، ولا يغدو لسوى ذلك ، فإن العالم والمتعلم شريكان فى الخير . أيها الناس : إنى والله لا أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم ، وقد قال - تعالى - ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون .. ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ تعليل لما قبله ، أى إن الله - تعالى - عليم بكل شىء ، ولا يخفى عليه شىء من أقوال الناس وأفعالهم ، وسيحاسبهم يوم القيامة على ذلك ، وسيجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان أنه - سبحانه - هو المالك لكل شىء ، والخالق لكل شىء ، فقال : ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - هو المالك للسموات والأرض وما بينهما ، ولاشريك له فى خلقهما ، ولا فى تدبير شئونهما ، وهو - سبحانه - الذى يحيى من يريد إحياءه ، ويميت من يريد إماتته ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ أى : وليس لكم - أيها الناس - أحد سوى الله يتولى أمركم وينصركم على أعدائكم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين عن الاستغفار للمشركين المصرين على شركهم ، كما بشرتهم بأنه - سبحانه - لا يؤاخذهم على استغفارهم لهم قبل نهيهم عن ذلك . كما أخبرتهم بأن ملك هذا الكون إنما هو لله وحده ، فعليهم أن يستجيبوا لأمره ، لكى ينالوا رحمته ورضاه .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على عباده المؤمنين ، حيث تقبل توبتهم ، وتجاوز عن زلاتهم ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٦ .
(٢) تفسير المنار جـ ٢ ص ٣١٦ .

لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه – تعالى – لما استقصى فى شرح أحوال غزوة تبوك ، وبين أحوال المتخلفين عنها ، وأطال القول فى ذلك على الترتيب الذى لخصناه فيما سبق ، عاد فى هذه الآية إلى شرح ما بقى من أحكامها ، ومن بقية تلك الأحكام أنه قد صدر عن رسول الله – ﷺ – ما يجرى مجرى ترك الأولى ، وصدر عن المؤمنين كذلك نوع زلة ، فذكر – سبحانه – أنه تفضل عليهم ، وتاب عليهم ، فى تلك الزلات ، فقال – تعالى – : ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار .. ﴾[1] .

وللعلماء أقوال فى المراد بالتوبة التى تابها الله على النبى – ﷺ – وعلى المهاجرين والأنصار : فمنهم من يرى أن المراد بها قبول توبتهم ، وغفران ذنوبهم ، والتجاوز عن زلاتهم التى حدثت منهم فى تلك الغزوة أو فى غيرها ، وإلى هذا المعنى أشار القرطبى بقوله :

قال ابن عباس : كانت التوبة على النبى – ﷺ – لأجل أنه أذن للمنافقين فى القعود ، بدليل قوله – سبحانه – قبل ذلك : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم .. ﴾ .

وكانت توبته على المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه – أى : إلى التخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك[2] .

ومنهم من يرى أن المقصود بذكر التوبة هنا التنويه بفضلها ، والحض على تجديدها ، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال : « تاب الله على النبى » كقوله : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وكقوله : « واستغفر لذنبك » . وهو بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبى والمهاجرين والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح ..[3] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٨٧ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٦ .

ومنهم من يرى أن المراد بالتوبة هنا : دوامها لا أصلها ، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله : لقد تاب الله على النبى .. » أى : أدام توبته على النبى والمهاجرين والأنصار . وهذا جواب عما يقال : من أن النبى معصوم من الذنب ، وأن المهاجرين والأنصار لم يفعلوا ذنبا فى هذه القضية ، بل اتبعوه من غير تلعثم ، قلنا : المراد بالتوبة فى حق الجميع دوامها لا أصلها .. » [1] .

ومنهم من يرى أن ذكر النبى هنا إنما هو من باب التشريف ، والمراد قبول توبة المهاجرين والأنصار فيما صدر عن بعضهم من زلات . وقد وضح هذا المعنى الإمام الآلوسى فقال : قال أصحاب المعانى : المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار ، إلا أنه جىء فى ذلك بالنبى - ﷺ - تشريفا لهم ، وتعظيما لقدرهم ، وهذا كما قالوا فى ذكره - تعالى - فى قوله : ﴿ فان لله خمسه وللرسول.. ﴾ الآية أى : عفا - سبحانه - عن زلات صدرت منهم يوم أحد ويوم حنين ... » [2] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب الآراء إلى الصواب ، لأن الآية الكريمة مسوقة لبيان فضل الله - تعالى - على رسوله وعلى المؤمنين ، حيث غفر لهم ما فرط منهم من هفوات وقعت فى هذه الغزوة وهذه الهفوات صدرت منهم بمقتضى الطبيعة البشرية ، وبمقتضى الاجتهاد فى أمور لم يبين الله - تعالى - حكمه فيها ، فهى لا تنقص من منزلة الرسول - ﷺ - ولا من منزلة أصحابه الصادقين فى إيمانهم .

والمعنى ، لقد تقبل الله - تعالى - توبة النبى - ﷺ - كما تقبل توبة أصحابه المهاجرين والأنصار ، الذين اتبعوه عن طواعية واختيار وإخلاص فى ساعة العسرة . أى فى وقت الشدة والضيق ، وهو وقت غزوة تبوك ، فالمراد بالساعة هنا مطلق الوقت .

وقد كانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة ، كما كان الجيش الذى اشترك فيها يسمى بجيش العسرة ، وذلك لأن المؤمنين خرجوا إليها فى سنة مجدبة ، وحر شديد ، وفقر فى الزاد والماء والراحلة .

قال ابن كثير : قال مجاهد وغير واحد : نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر ، فى سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر فى الزاد والماء . وقال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر - أى شدته - على ما يعلم الله من

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٢٤ - بتصرف يسير .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٣٩ .

الجهد ، أصابهم فيها تعب شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما [1] .

وقال الحسن : كان العشرة منهم يعتقبون بعيرا واحداً ، يركب الرجل منهم ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك ، وكان النفر منهم يخرجون وليس معهم إلا التمرات اليسيرة فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يشرب عليها جرعة من الماء .. ومضوا مع النبى - ﷺ - على صدقهم ويقينهم - رضى الله عنهم [2] .

وقوله : ﴿ من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ بيان لتناهى الشدة ، وبلوغها الغاية القصوى .

أى : تاب - سبحانه - على الذين اتبعوا رسوله من المهاجرين والأنصار ، من بعد أن أشرف فريق منهم على الميل عن التخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك ، لما لابسها وصاحبها من عسر وشدة وتعب .

وفى ذكر « فريق منهم » إشارة إلى أن معظم المهاجرين والأنصار ، مضوا معه - ﷺ - إلى تبوك دون أن تؤثر هذه الشدائد فى قوة إيمانهم وصدق يقينهم ، ومضاء عزيمتهم ، وشدة إخلاصهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وفى « كاد » ضمير الشأن و « قلوب » فاعل « يزيغ » والجملة فى موضع الخبر لكاد .. وهذا على قراءة « يزيع » بالياء ، وهى قراءة حمزة ، وحفص ، والأعمش . وأما على قراءة « تزيغ » بالتاء ، وهى قراءة الباقين . فيحتمل أن يكون « قلوب » اسم كاد « وتزيع » خبرها ، وفيه ضمير يعود على اسمها » [3] .

وقوله : ﴿ ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ﴾ تذييل مؤكد لقبول التوبة ولعظيم فضل الله عليهم . ولطفه بهم .

أى : ثم تاب عليهم - سبحانه - بعد أن كابدوا ما كابدوا من العسر والمشقة ومجاهدة النفس . إنه بهم رءوف رحيم .

قال بعضهم : فإن قلت : قد ذكر التوبة أولا ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار ؟

قلت : إنه - سبحانه - ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيما لشأنهم ، وليعلموا أنه - تعالى - قد قبل توبتهم ، وعفا عنهم ، ثم أتبعه بقوله - سبحانه - ﴿ إنه بهم رءوف رحيم ﴾ تأكيدا

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٢٤ .

(٣) راجع تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٤٠ .

لذلك . والرأفة عبارة عن السعى فى إزالة الضرر ، والرحمة عبارة عن السعى فى إيصال النفع ،» [1] .

وقال القرطبى: قوله «ثم تاب عليهم» قيل: توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ؛ وتلك سنة الحق - سبحانه - مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ووطنوا أنفسهم على الهلاك ، أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم .

قال الشاعر :

منك أرجو ولست أعرف ربا يرتجى منه بعض ما منك أرجو
وإذا اشتدت الشدائد فى الأر ض على الخلق فاستغاثوا وعجوا
وابتليت العباد بالخوف والجو ع ، وصروا على الذنوب ولجوا
لم يكن لى سواك ربى ملاذ فتيقنت أننى بك أنجو

وكما تقبل الله - تعالى - توبة المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا رسولهم - ﷺ - فى ساعة العسرة .. فقد تقبل توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن الاشتراك فى غزوة تبوك ، فقال - تعالى - :

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

هذه الآية الكريمة معطوفة على الآية السابقة لها . والمعنى : لقد تقبل الله - تعالى - بفضله وإحسانه توبة النبى والمهاجرين والأنصار ، وتقبل كذلك توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن هذه الغزوة كسلا وحبا للراحة ، والذين سبق أن أرجأ الله حكمه فيهم بقوله ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .. ﴾ [2] .

وقوله : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٢٥ .
(٢) راجع تفسير الآية رقم ١٠٦ من هذه السورة ص ٣٩٩ .

لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ كناية عن شدة تحيرهم ، وكثرة حزنهم ، واستسلامهم لحكم الله فيهم .

أى : حتى إذا ضاقت عليهم الأرض على سعتها ، بسبب إعراض الناس عنهم ، ومقاطعتهم لهم ، وضاقت عليهم أنفسهم ، بسبب الهم والغم الذى ملأها واعتقدوا أنهم لا ملجأ ولا مهرب لهم من حكم الله وقضائه إلا إليه .

حتى إذا كان أمرهم كذلك ، جاءهم فرج الله ، حيث قبل توبتهم ، وغفر خطأهم وعفا عنهم .

وقوله : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ أى : بعد هذا التأديب الشديد لهم ، تقبل - سبحانه - توبتهم ، ليتوبوا إليه توبة صادقة نصوحا ، لا تكاسل معها بعد ذلك عن طاعة الله وطاعة رسوله ، إن الله - تعالى - هو الكثير القبول لتوبة التائبين ، وهو الواسع الرحمة بعباده المحسنين .

هذا ، والمقصود بهؤلاء الثلاثة الذين خلفوا : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ؛ وكلهم من الأنصار .

وقد ذكرت قصتهم فى الصحيحين وفى غيرهما من كتب السنة والسيرة ، وهاك خلاصة لها :

قال الإمام ابن كثير : روى الإمام أحمد أن كعب بن مالك قال ، لم أتخلف عن رسول الله - ﷺ - فى غزة غزاها قط إلا فى تبوك .

وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله - ﷺ - فى غزوة تبوك . أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة .

وغزا رسول الله - ﷺ - تلك ا لغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز لها المؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم . فأرجع ولم أقض من جهازى شيئاً .. فأقول لنفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت .. ولم يزل ذلك شأنى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم - وليتنى فعلت - ولكن لم يقدر لى ذلك .

ولم يذكرنى رسول الله - ﷺ - حتى بلغ تبوك فقال : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : حبسه برداه والنظر فى عطفيه .

فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت . والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول الله - ﷺ - . قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله قد توجه قافلا من تبوك ، حضرنى بثى ، وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا ؟ .

وعندما عاد الرسول - ﷺ - إلى المدينة جاءه المتخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه .. وجئت إليه فقال : تعال .. ما خلفك ؟ ! ألم تكن قد اشتريت ظهرا ؟

فقلت يا رسول الله ؛ إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر . والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كاذب ترضى به عنى ، ليوشكن الله أن يسخطك على . ولئن حدثتك بصدق تغضب على فيه ، إنى لأرجو عقبى ذلك من الله - تعالى - والله ما كان لى من عذر .

قال - ﷺ - أما هذا فقد صدق . فقم حتى يقضى الله فيك . وكان هناك رجلان قد قالا مثل ما قلت هما مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

قال : ونهى رسول الله - ﷺ - كلامنا ، فاعتزلنا الناس وتغيروا لنا .. ولبثنا على ذلك خمسين ليلة .. ثم أمرنا أن نعتزل نساءنا ففعلنا .

قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتها فبينا أنا على الحال التى ذكرها الله عنا ، قد ضاقت على نفسى .. سمعت صارخا يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك .

وذهبت إلى رسول الله - ﷺ - فقال : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قال : وأنزل الله - تعالى - ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا .. ﴾ الآية .

قال الإمام ابن كثير بعد أن ساق هذا الحديث بتمامه : هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، وقد تضمن تفسير الآية بأحسن الوجوه وأبسطها »[1] .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا جانبا من فضل الله على عباده ، حيث قبل توبتهم ، وغسل حوبتهم . إنه بهم رءوف رحيم .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بأن يتقوا الله حق تقاته وأن يكونوا مع الصادقين ، وأوجب عليهم الغزو مع رسول الله - ﷺ - ووعدهم عليه بجزيل الثواب ، وتوعد المتخلفين عنه بشديد العقاب فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم

---

(١) راجع الحديث بتمامه فى تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٩٧ .

مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

والمعنى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر .. اتقوا الله حق تقاته ، بأن تفعلوا ما كلفكم به . وتتركوا ما نهاكم عنه ، « وكونوا مع الصادقين » فى دين الله نية وقولا وعملا وإخلاصا ؛ فإن الصدق ما وجد فى شىء إلا زانه ، وما وجد الكذب فى شىء إلا شانه .

قال القرطبى : حق من فهم عن الله وعقل عنه ؛ أن يلازم الصدق فى الأقوال والإخلاص فى الأعمال ، والصفاء فى الأحوال ، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى ربنا الغفار .

قال - ﷺ - « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » .

والكذب على الضد من ذلك . قال - ﷺ - « إياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار . وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

فالكذب عار ، وأهله مسلوبو الشهادة ، وقد رد - ﷺ - شهادة رجل فى كذبة كذبها .

وسئل شريك بن عبد الله فقيل له : يا أبا عبد الله ، رجل سمعته يكذب متعمدا ، أصلى خلفه ؟ قال : لا [1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٩٢٨ .

ثم أوجب - سبحانه - على المؤمنين مصاحبة رسولهم - ﷺ - فى غزواته فقال : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ... ﴾ .

والمراد بالنفى هنا النهى . أى : ليس لأهل المدينة أو لغيرهم من الأعراب سكان البادية الذين يسكنون فى ضواحى المدينة ، كقبائل مزينة وجهينة وأشجع وغفار .

ليس لهؤلاء جميعا أن يتخلفوا عن رسول الله - ﷺ - إذا ما خرج للجهاد ، كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك ، لأن هذا التخلف يتنافى مع الإيمان بالله ورسوله .

وليس لهم كذلك « أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » أى ليس لهم أن يؤثروا أنفسهم بالراحة على نفسه ، بأن يتركوه يتعرض للآلام والأخطار . دون أن يشاركوه فى ذلك ، بل من الواجب عليهم أن يكونوا من حوله فى البأساء والضراء ، والعسر واليسر ؛ والمنشط والمكره .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علما بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت - مع كرامتها وعزتها - للخوض فى شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت - أى تتساقط - فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ، ولا يقيمون لها وزنا ، وتكون أخف شىء عليهم وأهونه ، فضلا عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا نهى بليغ ، مع تقبيح لأمرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية »[٢] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله .. ﴾ يعود على مادل عليه الكلام من وجوب مصاحبته وعدم التخلف عنه .

أى : ذلك الذى كلفناهم به من وجوب مصاحبته - ﷺ - والنهى عن التخلف عنه ، سببه أنهم ﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ أى عطش ﴿ ولا نصب ﴾ أى : تعب ومشقة ﴿ ولا مخمصة ﴾ أى : مجاعة شديدة تجعل البطون خامصة ضامرة ﴿ فى سبيل الله ﴾ أى : فى جهاد أعدائه وإعلاء كلمة الحق ﴿ ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ﴾ أى : ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بأرجلهم أو بحوافر خيولهم من أجل إغاظتهم وإزعاجهم .. ﴿ ولا ينالون من عدونيلا ﴾ أى : ولا يصيبون من عدو من أعدائهم إصابة كقتل أو أسر أو غنيمة .

---

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢١ .

إنهم لا يفعلون شيئا ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ أى : إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح ، ينالون بسببه الثواب الجزيل من الله ، لأنه - سبحانه - ﴿ لا يضيع أجر المحسنين ﴾ وإنما يكافئهم على إحسانهم بالأجر العظيم .

وقوله : ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة .. ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : وكذلك لا يتصدقون بصدقة صغيرة ، كالتمرة ونحوها ، ولا كبيرة كما فعل عثمان - رضى الله عنه - فى هذه الغزوة ، فقد تصدق بالكثير .

﴿ ولا يقطعون واديا ﴾ من الوديان فى مسيرهم إلى عدوهم ، أو فى رجوعهم عنه .

لا يفعلون شيئا من ذلك أيضا ﴿ إلا كتب لهم ﴾ أى : إلا كتب لهم ثوابه فى سجل حسناتهم .

﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ أى : أمرهم بمصاحبة نبيهم فى كل غزواته ، وكلفهم بتحمل مشاق الجهاد ومتاعبه . ليجزيهم على ذلك أحسن الجزاء وأعظمه ، فأنت ترى أن الله - تعالى - قد حرض المؤمنين على الجهاد فى هاتين الآيتين ، وبين لهم أن كل ما يلاقونه فى جهادهم من متاعب له ثوابه العظيم ، وما دام الأمر كذلك فعليهم أن يصاحبوا رسولهم - ﷺ - فى جميع غزواته ، لأن التخلف عنه لا يليق بالمؤمنين الصادقين ، فضلا عن أن هذا التخلف - بدون عذر شرعى - سيؤدى إلى الخسران فى الدنيا والآخرة .

وبعد أن حرض الله - تعالى - المؤمنين على الجهاد فى سبيله ، وحذرهم من التخلف عن الخروج مع رسوله - ﷺ - أتبع ذلك بالحديث عما يجب عليهم إذا لم تكن المصلحة تقتضى النفير العام ، فقال - تعالى - :

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

قال الجمل : وسبب نزول هذه الآية أن النبى - ﷺ - لما بالغ فى الكشف عن عيوب المنافقين ، وفضحهم فى تخلفهم عن غزوة تبوك . قال المسلمون : والله لا نتخلف عن رسول

الله - ﷺ - ، ولا عن سرية بعثها ، فلما قدم - ﷺ - المدينة من تبوك ، وبعث السرايا ، أراد المسلمون أن ينفروا جميعا للغزو وأن يتركوا النبى - ﷺ - وحده فنزلت هذه الآية [1] .

والمعنى ، وما كان من شأن المؤمنين ، أن ينفروا جميعا فى كل سرية تخرج للجهاد ، ويتركوا الرسول - ﷺ - وحده بالمدينة ، وإنما يجب عليهم النفير العام إذا ما دعاهم - ﷺ - إلى ذلك .

وقوله : ﴿ فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ... ﴾ معطوف على كلام محذوف ، ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا .

أى : فحين لم يكن هناك موجب لنفير الكافة ، فهلا نفر من كل فرقة من المؤمنين طائفة للجهاد ، وتبقى طائفة أخرى منهم « ليتفقهوا فى الدين » أى : ليتعلموا أحكامه من رسولهم - ﷺ - « ولينذروا قومهم » أى : وليعلموهم ويخبروهم بما أمروا به أو نهوا عنه « إذا رجعوا إليهم » من الغزو « لعلهم يحذرون » أى : لعل هؤلاء الراجعين إليهم من الغزو يحذرون ما نهوا عنه .

أى : أن على المسلمين فى حالة عدم النفير العام ، أن يقسموا أنفسهم إلى قسمين .

قسم يبقى مع الرسول - ﷺ - ليتفقه فى دينه ، وقسم آخر يخرج للجهاد فى سبيل الله ، فإذا ما عاد المجاهدون ، فعلى الباقين مع الرسول - ﷺ - أن يبلغوا العائدين ما حفظوه عن الرسول - ﷺ - من أحكام .

وبذلك يجمع المسلمون بين المصلحتين : مصلحة الدفاع عن الدين بالحجة والبرهان ، ومصلحة الدفاع عنه بالسيف والسنان .

وعلى هذا التفسير الذى سار عليه جمهور العلماء يكون الضمير فى قوله « ليتفقهوا ولينذروا » يعود إلى الطائفة الباقية مع الرسول - ﷺ -

أما الضمير فى قوله « لعلهم يحذرون » فيعود على الطائفة التى خرجت للجهاد ثم عادت .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله « ليتفقهوا ، ولينذروا » يعود على الطائفة التى خرجت للجهاد .

وقد رجح هذا الاتجاه الإمام ابن جرير فقال : وأما قوله « ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » فإن أولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : لتتفقه الطائفة

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٢٩ - بتصرف يسير .

النافرة بما تعاين من نصر الله لأهل دينه ولأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به ، فيفقه بذلك من معاينته حقيقة علم أمر الإسلام ، وظهوره على الأديان ، من لم يكن فقهه ، « ولينذروا قومهم » فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله ، مثل الذى نزل بمن شاهدوا ، ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك ، إذا هم رجعوا إليهم من غزوهم « لعلهم يحذرون » أى : لعل قومهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك ، يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله ، حذرا من أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروا خبرهم ... » [١] .

وقد علق صاحب المنار على رأى ابن جرير هذا بقوله : وهذا تأويل متكلف ينبو عنه النظم الكريم ، فإن اعتبار طائفة السرية بما قد يحصل لها من النصر - وهو غير مضمون ولا مطرد - لا يسمى تفقها فى الدين ، وإن كان يدخل فى عموم معنى الفقه ، فإن التفقه هو التعلم الذى يكون بالتكلف والتدرج ، والمتبادر من الدين علمه ، ولا يصح هذا المعنى فى ذلك العهد إلا فى الذين يبقون مع النبى - ﷺ - فيزدادون فى كل يوم علما وفقها بنزول القرآن ... » [٢] .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية : وجوب طلب العلم ، والتفقه فى دين الله وتعليم الناس إياه .

قال القرطبى : هذه الآية أصل فى وجوب طلب العلم ؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافة والنبى - ﷺ - مقيم لا ينفر فيتركوه وحده « فلولا نفر » بعدما علموا أن النفير لا يسع جميعهم « من كل فرقة منهم طائفة » وتبقى بقيتها مع النبى - ﷺ - ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا ، فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوه وعلموه ، وفى هذا إيجاب التفقه ، فى الكتاب والسنة ، وأنه على الكفاية دون الأعيان .. » [٣] .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن الجهاد فى سبيل الله ، بدعوة المؤمنين إلى قتال أعدائهم بشدة وغلظة فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٥٧٣ - طبعة دار المعارف .
(٢) تفسير المنار جـ ١١ ص ٨٠ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٩٣ .

وقوله : ﴿ يلونكم ﴾ من الولى بمعنى القرب ، تقول جلست مما يلى فلان أى : يقاربه .

قال ابن كثير : أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا ، الأقرب فالأقرب ، إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ الرسول - ﷺ - بقتال المشركين فى جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة واليمن .. وغير ذلك من أقاليم العرب ، دخل الناس من سائر أحياء العرب فى دين الله أفواجا ، شرع فى قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الاسلام لأنهم أهل كتاب ، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس ، وجدب البلاد ، وضيق الحال ، ذلك سنة تسع من الهجرة ، ثم اشتغل فى السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم عاجلته المنية - صلوات الله وسلامه عليه - بعد حجة الوداع بأحد وثمانين يوما وسار خلفاؤه الراشدون من بعده على نهجه .

وقوله ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أى : وليجد الكفار منكم غلظة عليهم فى قتالكم ، فإن المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا بأخيه المؤمن ، غليظا على عدوه الكافر . قال - تعالى - : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ .

وفى الحديث أن رسول الله - ﷺ - قال : « أنا الضحوك القتال » يعنى : أنه ضحوك فى وجه وليه المؤمن ، قتال لهامة عدوه الكافر » [1] .

وقوله : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ تذييل قصد به حض المؤمنين على التسلح بسلاح الإيمان والتقوى حتى ينالوا نصر الله وعونه .

أى : واعلموا أن الله - تعالى - مع المتقين بنصره ومعونته ، فاحرصوا على هذه الصفة ليستمر معكم نصره - سبحانه - وعونه .

وإنما أمر الله - تعالى - المؤمنين أن يبدأوا قتالهم مع الأقرب فالأقرب من ديارهم ، لأن القتال شرع لتأمين الدعوة الإسلامية ، وقد كانت دعوة الإسلام موجهة إلى الأقرب فالأقرب ، فكان من الحكمة أن يبدأوا قتالهم مع المجاورين لهم حتى يأمنوا شرهم ، ولأنه من المعلوم أنه ليس فى طاقة المسلمين قتال جميع الكفار ، وغزو جميع البلاد فى زمان واحد ، فكان من قرب أولى ممن بعد .

ثم ختمت السورة - أيضاً - حديثها الطويل المتنوع عن المنافقين ببيان موقفهم من نزول الآيات القرآنية على الرسول - ﷺ -

---

(١) تفسير ابن كثير - بتصرف وتلخيص - جـ ٢ ص ٤٠١ .

فقال - تعالى - :

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

والمعنى : وإذا ما أنزلت سورة من سور القرآن عليك يا محمد : تساءل المنافقون عنها فى حذر وريبة « فمنهم من يقول » لأشباهه فى الكفر والنفاق على سبيل الاستهزاء والتهوين من شأن القرآن الكريم « أيكم زادته هذه إيمانا » أى : أى واحد منكم زادته هذه السورة النازلة إيمانا ؟

وهنا يجىء الرد الحاسم الذى يخرس ألسنتهم ، من جهته - تعالى - فيقول : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾ .

أى : فأما الذين آمنوا فزادهم نزول السورة القرآنية ، إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم ، ويقينا على يقينهم ، « وهم » فوق ذلك « يستبشرون » ويفرحون بنزولها لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية .

هذا شأن المؤمنين بالنسبة لنزول السورة القرآنية ، وأما المنافقون ، فقد صور القرآن حالهم بقوله ﴿ وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾ .

أى : وأما الذين فى قلوبهم شك ونفاق وارتياب ، فزادهم نزول السورة كفرا على كفرهم السابق .

وسمى - سبحانه - الكفر رجسا ، لأنه أقبح الأشياء وأسوؤها .

وقوله : ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ تذييل قصد به بيان سوء عاقبتهم فى الآخرة بعد بيان سوء أعمالهم فى الدنيا .

أى : لقد قضى هؤلاء المنافقون حياتهم فى الكفر والفسوق والعصيان ، ثم لم يتوبوا عن ذلك ولم يرجعوا عنه ، بل ماتوا على الكفر والنفاق .

وقوله : ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين .. ﴾ توبيخ لهم على قسوة قلوبهم ، وانطماس بصيرتهم ، وغفلتهم عما يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ .

أى : أبلغ الجهل والسفه وعمى البصيرة بهؤلاء ، أنهم صاروا لا يعتبرون ولا يتعظون بما حاق من فتن واختبارات وابتلاءات ، تنزل بهم فى كل عام مرة أو مرتين ؟

ومن هذه الفتن والامتحانات : كشف مكرهم عن طريق إطلاع رسول الله - ﷺ - على ما يضمرونه من سوء ، وما يقولونه من منكر ، وما يفعلونه من أفعال خبيثة ، وحلول المصائب والأمراض بهم ، ومشاهدتهم لانتصار المؤمنين وخذلان الكافرين .

قال الآلوسى : والمراد من المرة والمرتين - على ما صرح به بعضهم - مجرد التكثير ، لا بيان الوقوع على حسب العدد المذكور .

وقوله : ﴿ ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ بيان لرسوخهم فى الجهل والجحود .

أى : ثم بعد كل هذه الفتن النازلة بهم ، لا يتوبون من نفاقهم « ولا هم يذكرون » ويتعظون ، بل يصرون على مسالكهم الخبيثة ، وأعمالهم القبيحة ، مع أن من شأن الفتن والمصائب والمحن ، أنها تحمل على الاعتبار والاتعاظ ، والرجوع عن طريق الشر إلى طريق الخير .

ثم تصور السورة الكريمة تصويرا معجزا ، مشهدهم عندما تنزل السورة القرآنية على الرسول - ﷺ - وهم حاضرون فى مجلسه فتقول : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ أو آيات منها ، على الرسول- ﷺ- وهم موجودون فى مجلسه ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ فى ريبة ومكر ، وتغامزوا بعيونهم وجوارحهم فى لؤم وخسة ثم تساءلوا : ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ أى: هل يراكم من أحد من المسلمين إذا ما قمتم من هذا المجلس ، قبل أن يتلو الرسول - ﷺ - هذه السورة أو الآيات التى قد تفضحكم وتكشف عما أسررتموه فيما بينكم .

﴿ ثم انصرفوا ﴾ من مجلس الرسول - ﷺ - متسللين فى حذر حتى لا يراهم أحد من المسلمين .

وقوله : ﴿ صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ ذم لهم لإيثارهم الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية .

أى : صرف الله قلوبهم عن الهداية والرشاد ، بسبب أنهم قوم لا يفقهون مافيه خيرهم ونفعهم . وإنما يفقهون ما فيه شقاؤهم وتعاستهم .

هذا ، وإن الناظر فى هذه الآيات الكريمة بتدبر وإمعان ، ليراها قد صورت أحوال المنافقين وأخلاقهم وحركاتهم تصويرا دقيقا معجزا ، حتى إنه ليخيل إلى القارىء لهذه الآيات الكريمة أو السامع لها ، أنه يشاهد المنافقين مشاهدة حسية وهم على تلك الحالة من التحرك المريب والنظرات الخبيثة ، والخروج من مجلس النبى - ﷺ - فى حذر وريبة ..

وهذا كله مما يشهد بأن هذا القرآن إنما هو من عند الله العليم بخفايا الصدور ، وبطوايا النفوس .

ثم ختم - سبحانه سورة التوبة ، بآيتين كريمتين ، اشتملتا على أسمى النعوت ، وأكرم الصفات للرسول - ﷺ - فقال - تعالى - :

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

وجمهور المفسرين على أن الخطاب فى قوله - سبحانه - : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ للعرب : فهو كقوله : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ .

أى : لقد جاءكم - يامعشر العرب - رسول كريم « من أنفسكم » أى : جنسكم ، ومن نسبكم ، فهو عربى مثلكم ، فمن الواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ترغيب العرب فى الإيمان بالنبى - ﷺ - وفى طاعته وتأييده ، فإن شرفهم قد تم بشرفه ، وعزهم بعزه ، وفخرهم بفخره ، وهم فى الوقت نفسه قد شهدوا له فى صباه بالصدق والأمانة والعفاف وطهارة النسب ، والأخلاق الحميدة .

قال القرطبى : قوله « من أنفسكم » يقتضى مدحا لنسب النبى - ﷺ - وأنه من صميم العرب وخالصها ، وفى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قرش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » وعنه - ﷺ - أنه قال : « إنى من نكاح ولست من سفاح » [1] .

وقال الزجاج إن الخطاب فى الآية الكريمة لجميع البشر ، لعموم بعثته - ﷺ - ، ومعنى كونه - ﷺ - « من أنفسكم » أنه من جنس البشر .

ويبدو لنا أن الرأى الأول ارجح ؛ لأن الآية الكريمة ليست مسوقة لإثبات رسالته - ﷺ - وعمومها ، وإنما هى مسوقة لبيان منته وفضله - سبحانه - على العرب ، حيث أرسل خاتم أنبيائه منهم ، فمن الواجب عليهم أن يؤمنوا به ، لأنه ليس غريبا عنهم ، وإذا لم يؤمنوا به تكون الحجة عليهم ألزم ، والعقوبة لهم أعظم .

وقوله : ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ أى : شديد وشاق عليه عنتكم ومشقتكم ، لكونه بعضا منكم ؛ فهو يخاف عليكم سوء العاقبة ، والوقوع فى العذاب .

يقال : عزَّ عليه الأمر أى صعب وشق عليه ، والعنت المشقة والتعب ومنه قولهم : أكمة عنوت ، إذا كانت شاقة مهلكة ، والفعل عنت بوزن فرح .

وقوله : ﴿ حريص عليكم ﴾ أى : حريص على إيمانكم وهدايتكم وعزتكم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة .

والحرص على الشىء معناه : شدة الرغبة فى الحصول عليه وحفظه .

وقوله : « بالمؤمنين رءوف رحيم » أى : شديد الرأفة والرحمة بكم - أيها المؤمنون - والرأفة عبارة عن السعى فى إزالة الضرر ، والرحمة عبارة عن السعى فى إيصال النفع ، فهو - ﷺ - يسعى بشدة فى إيصال الخير والنفع للمؤمنين ، وفى إزالة كل مكروه عنهم .

قال بعضهم : لم يجمع الله - تعالى - لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى - ﷺ - فإنه قال « بالمؤمنين رءوف رحيم » وقال عن ذاته - سبحانه - ﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ [2] .

ثم انتقل - سبحانه - من خطاب المؤمنين إلى خطابه - ﷺ - فقال : ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو .. ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٠١ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٠٢ .

أى : فإن أعرضوا عن الإيمان بك ، وتركوا طاعتك ، فلا تبتئس ولا تيأس ، بل قل « حسبى الله » أى : هو كافينى ونصيرى « لا إله إلا هو » - سبحانه - « رب العرش العظيم » الذى لا يعلم مقدار عظمته إلا الله - عز وجل - .

ففى هاتين الآيتين الكريمتين بيان للصفات التى منحها - سبحانه - لرسوله محمد - ﷺ - ، ودعوة له - ﷺ - إلى أن يفوض أمره إلى خالقه فهو - سبحانه - كافيه وناصره .

وبعد فهذه سورة التوبة .

السورة التى احتوت على بيان الأحكام النهائية فى العلاقات الدائمة بين المجتمع الإسلامى ، والمجتمعات الأخرى .

السورة التى حرضت المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله ، وساقت لهم من وسائل الترغيب فى ذلك ، ما يجعلهم يقدمون على قتال أعدائهم بصبر وثبات واستبشار .

السورة التى أوجبت على المؤمنين أن تكون محبتهم لله ولرسوله ، ولإعلاء كلمة الحق ، فوق محبة الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال .

السورة التى ذكرت المؤمنين بنصر الله لهم فى مواطن كثيرة ، وحذرتهم من الغرور بأنفسهم . والعجب بقوتهم ، وأمرتهم بنصرة رسوله فى السراء والضراء والعسر واليسر ، والمنشط والمكره .

السورة التى أمرت المؤمنين بأن يخلصوا فى دفاعهم عن دين الله وعن حرماته وعن مقدساته . وبشرتهم بأنهم إذا فعلوا ذلك ، فسوف يغنيهم الله من فضله .

السورة التى فضحت المنافقين ، وكشفت عن أساليبهم الخبيثة ، ومسالكهم القبيحة ، وأقوالهم المنكرة ، وأفعالهم الأثيمة ، وسجلت عليهم الخزى والعار وحذرت المؤمنين من شرورهم ...

السورة التى رسمت أسس التكافل الاجتماعى بين أفراد الأمة الإسلامية ، عن طريق مشروعية الزكاة ، ووجوب أدائها لمستحقيها .

السورة التى ساقت ألوانا من فضل الله على عباده المؤمنين ، حيث تقبل سبحانه توبتهم ، وغسل حوبتهم ، وتجاوز عن خطئهم .

السورة التى صنفت المجتمع الإسلامى فى أواخر العهد النبوى تصنيفا دقيقا .

فهناك السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وهناك الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً .

وهناك المرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .

وهناك الأعراب المنافقون ، وهناك الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة .

وقد بينت السورة الكريمة ما يستحقه كل قسم من الأقسام من ثواب أو عقاب .

السورة التى أوجبت على المؤمنين أن يقيموا علاقاتهم على أساس العقيدة الدينية لا على أساس القرابة الجسدية ، فنهتهم أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى .

هذا جانب من المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ونسأل الله — تعالى — أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ؛ وأن يرزقنا الإخلاص والتوفيق فى القول والعمل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد السيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

فهرس إجمالى لتفسير سورة الأنفال

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقــدمة	٥
	تمهيد بين يدى السورة	٧
١	يسألونك عن الأنفال	٢٣
٢	إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله	٢٩
٣	الذين يقيمون الصلاة	٣١
٤	أولئك هم المؤمنون حقا	٣٢
٥	كما أخرجك ربك	٣٧
٦	يجادلونك فى الحق	٣٩
٧	وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين	٤٠
٨	ليحق الحق ويبطل الباطل	٤٢
٩	إذ تستغيثون ربكم	٤٣
١٠	وما جعله الله إلا بشرى	٤٨
١١	إذ يغشيكم النعاس	٤٨
١٢	إذ يوحى ربك إلى الملائكة	٥٢
١٣	ذلك بأنهم شاقوا الله	٥٣
١٤	ذلكم فذوقوه	٥٤
١٥	يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا	٦٠
١٦	ومن يولهم يومئذ دبره	٦١
١٧	فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم	٦٤
١٨	ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين	٦٦
١٩	إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح	٦٧
٢٠	يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله	٦٩
٢١	ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا	٧٠
٢٢	إن شر الدواب	٧٠
٢٣	ولو علم الله فيهم خيرا	٧١
٢٤	يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله	٧٢
٢٥	واتقوا فتنة	٧٥
٢٦	واذكروا إذ أنتم قليل	٧٨

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٢٧	يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله	٨٠
٢٨	واعلموا أنما أموالكم	٨٢
٢٩	يأيها الذين آمنوا إن تتقوا	٨٣
٣٠	وإذ يمكر بك الذين كفروا	٨٥
٣١	وإذا تتلى عليهم آياتنا	٨٨
٣٢	وإذ قالوا اللهم	٨٩
٣٣	وما كان الله ليعذبهم	٩١
٣٤	ومالهم ألا يعذبهم الله	٩٢
٣٥	وماكان صلاتهم عند البيت	٩٣
٣٦	إن الذين كفروا ينفقون	٩٤
٣٧	ليميز الله الخبيث من الطيب	٩٦
٣٨	قل للذين كفروا إن	٩٦
٣٩	وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة	٩٧
٤٠	وإن تولوا فاعلموا	٩٨
٤١	واعلموا أنما غنمتم	٩٩
٤٢	إذ أنتم بالعدوة الدنيا	١٠٥
٤٣	إذ يريكهم الله فى منامك	١٠٨
٤٤	وإذ يريكموهم إذ التقيتم	١١٠
٤٥	يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة	١١٢
٤٦	وأطيعوا الله ورسوله	١١٢
٤٧	ولا تكونوا كالذين خرجوا	١١٤
٤٨	وإذ زين لهم الشيطان	١١٦
٤٩	إذ يقول المنافقون	١٢٢
٥٠	ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا	١٢٤
٥١	ذلك بما قدمت أيديكم	١٢٥
٥٢	كدأب آل فرعون	١٢٧
٥٣	ذلك بأن الله لم يك مغيرا	١٣٠
٥٤	كدأب آل فرعون	١٣١
٥٥	إن شر الدواب عند الله	١٣٢
٥٦	الذين عاهدت منهم	١٣٤
٥٧	فإما تثقفنهم فى الحرب	١٣٥

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٥٨	وإما تخافن من قوم خيانة	١٣٦
٥٩	ولا يحسبن الذين كفروا	١٣٧
٦٠	وأعدوا لهم ما استطعتم	١٣٨
٦١	وإن جنحوا للسلم	١٤٤
٦٢	وإن يريدوا أن يخدعوك	١٤٧
٦٣	وألف بين قلوبهم	١٤٨
٦٤	يأيها النبى حسبك الله	١٤٩
٦٥	يأيها النبى حرض المؤمنين	١٥١
٦٦	الآن خفف الله عنكم	١٥٢
٦٧	ما كان لنبى أن يكون	١٥٤
٦٨	لولا كتاب من الله سبق	١٥٨
٦٩	فكلوا مما غنمتم	١٦٠
٧٠	يأيها النبى قل لمن	١٦١
٧١	وإن يريدوا خيانتك	١٦٢
٧٢	إن الذين آمنوا وهاجروا	١٦٥
٧٣	والذين كفروا بعضهم	١٦٨
٧٤	والذين آمنوا وهاجروا	١٦٩
٧٥	والذين آمنوا من بعد	١٦٩

فهرس إجمالى لتفسير آيات سورة التوبة

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	مقـدمة	١٧٦
	تمهيد بين يدى السورة	١٧٧
١	براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم	١٩٤
٢	فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر	١٩٧
٣	وأذان من الله ورسوله	٢٠١
٤	إلا الذين عاهدتم من المشركين	٢٠٣
٥	فإذا انسلخ الأشهر الحرم	٢٠٥
٦	وإن أحد من المشركين استجارك	٢٠٨
٧	كيف يكون للمشركين عهد	٢١٢
٨	كيف وإن يظهروا عليكم	٢١٤
٩	اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا	٢١٧
١٠	لا يرقبون فى مؤمن	٢١٧
١١	فإن تابوا وأقاموا الصلاة	٢١٨
١٣	ألا تقاتلون قومًا نكثوا	٢٢١
١٤	قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم	٢٢٣
١٥	ويذهب غيظ قلوبهم	٢٢٤
١٦	أم حسبتم أن تتركوا	٢٢٥
١٧	ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله	٢٢٦
١٨	إنما يعمر مساجد الله	٢٢٨
١٩	أجعلتم سقاية الحاج	٢٣١
٢٠	الذين آمنوا وهاجروا	٢٣٣
٢١	يبشرهم ربهم برحمة منه	٢٣٤
٢٢	خالدين فيها أبدا	٢٣٤
٢٣	يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم	٢٣٥
٢٤	قل إن كان آباؤكم	٢٣٦
٢٥	لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة	٢٣٩
٢٦	ثم أنزل الله سكينته على رسوله	٢٤٢
٢٧	ثم يتوب الله من بعد ذلك	٢٤٢

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٢٨	يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس	٢٤٤
٢٩	قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله	٢٤٩
٣٠	وقالت اليهود عزير ابن الله	٢٥٦
٣١	اتخذوا أحبارهم ورهبانهم	٢٦١
٣٢	يريدون أن يطفئوا	٢٦٣
٣٣	هو الذى أرسل رسوله	٢٦٥
٣٤	يأيها الذين آمنوا إن كثيراً	٢٦٧
٣٥	يوم يحمى عليها فى نار جهنم	٢٧٠
٣٦	إن عدة الشهور عند الله	٢٧٦
٣٧	إنما النسىء زيادة فى الكفر	٢٨١
٣٨	يأيها الذين آمنوا مالكم إذا	٢٨٦
٣٩	إلا تنفروا يعذبكم عذابا	٢٩٠
٤٠	إلا تنصروه فقد نصره الله	٢٩١
٤١	انفروا خفافا وثقالا	٢٩٥
٤٢	لو كان عرضا قريبا	٢٩٩
٤٣	عفا الله عنك لم أذنت لهم	٣٠١
٤٤	لا يستأذنك الذين يؤمنون	٣٠٤
٤٥	إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون	٣٠٥
٤٦	ولو أرادوا الخروج لأعدوا	٣٠٦
٤٧	لو خرجوا فيكم ما زادوكم	٣٠٨
٤٨	لقد ابتغوا الفتنة من قبل	٣١١
٤٩	ومنهم من يقول ائذن لى	٣١٢
٥٠	إن تصبك حسنة تسؤهم	٣١٣
٥١	قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا	٣١٤
٥٢	قل هل تربصون بنا إلا	٣١٤
٥٣	قل أنفقوا طوعا أو كرها	٣١٦
٥٤	وما منعهم أن تقبل منهم	٣١٧
٥٥	فلا تعجبك أموالهم	٣١٨
٥٦	ويحلفون بالله إنهم لمنكم	٣٢٠
٥٧	لو يجدون ملجأ أو مغارات	٣٢١
٥٨	ومنهم من يلمزك فى الصدقات	٣٢٢

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٥٩	ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله	٣٢٤
٦٠	إنما الصدقات للفقراء والمساكين	٣٢٥
٦١	ومنهم الذين يؤذون النبى	٣٣٢
٦٢	يحلفون بالله لكم ليرضوكم	٣٣٥
٦٣	ألم يعلموا أنه من يحادد الله	٣٣٧
٦٤	يحذر المنافقون أن تنزل	٣٣٨
٦٥	ولئن سألتهم ليقولن	٣٤٠
٦٦	لا تعتذروا قد كفرتم بعد	٣٤٠
٦٧	المنافقون والمنافقات	٣٤٣
٦٨	وعد الله المنافقين والمنافقات	٣٤٤
٦٩	كالذين من قبلكم كانوا	٣٤٤
٧٠	ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم	٣٤٧
٧١	والمؤمنون والمؤمنات بعضهم	٣٤٨
٧٢	وعد الله المؤمنين والمؤمنات	٣٥٠
٧٣	يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين	٣٥١
٧٤	يحلفون بالله ما قالوا	٣٥٣
٧٥	ومنهم من عاهد الله لئن	٣٥٦
٧٦	فلما آتاهم من فضله بخلوا به	٣٥٨
٧٧	فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم	٣٥٩
٧٨	ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم	٣٥٩
٧٩	الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين	٣٦١
٨٠	استغفر لهم أو لا تستغفر لهم	٣٦٣
٨١	فرح المخلفون بمقعدهم خلاف	٣٦٤
٨٢	فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا	٣٦٧
٨٣	فإن رجعك الله إلى طائفة	٣٦٨
٨٤	ولا تصل على أحد منهم مات أبدا	٣٦٩
٨٥	ولا تعجبك أموالهم وأولادهم	٣٧٢
٨٦	وإذا أنزلت سورة أن آمنوا	٣٧٣
٨٧	رضوا بأن يكونوا مع الخوالف	٣٧٤
٨٨	لكن الرسول والذين آمنوا معه	٣٧٥

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٨٩	أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها	٣٧٥
٩٠	وجاء المعذرون من الأعراب	٣٧٥
٩١	ليس على الضعفاء ولا على المرضى	٣٧٨
٩٢	ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم	٣٨٠
٩٣	إنما السبيل على الذين يستأذنونك	٣٨٢
٩٤	يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم	٣٨٣
٩٥	سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم	٣٨٤
٩٦	يحلفون لكم لترضوا عنهم	٣٨٤
٩٧	الأعراب أشد كفرا ونفاقا	٣٨٥
٩٨	ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما	٣٨٧
٩٩	ومن الأعراب من يؤمن بالله	٣٨٨
١٠٠	والسابقون الأولون من المهاجرين	٣٩٠
١٠١	وممن حولكم من الأعراب منافقون	٣٩٢
١٠٢	وآخرون اعترفوا بذنوبهم	٣٩٥
١٠٣	خذ من أموالهم صدقة	٣٩٦
١٠٤	ألم يعلموا أن الله هو يقبل	٣٩٨
١٠٥	وقل اعملوا فسيرى الله عملكم	٣٩٩
١٠٦	وآخرون مرجون لأمر الله	٣٩٩
١٠٧	والذين اتخذوا مسجدا ضرارا	٤٠١
١٠٨	لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس	٤٠٤
١٠٩	أفمن أسس بنيانه على تقوى	٤٠٥
١١٠	لايزال بنيانهم الذى بنوا	٤٠٦
١١١	إن الله اشترى من المؤمنين	٤٠٨
١١٢	التائبون العابدون الحامدون	٤١١
١١٣	ما كان للنبى والذين آمنوا	٤١٤
١١٤	وما كان استغفار إبراهيم لأبيه	٤١٥
١١٥	وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم	٤١٦
١١٦	إن الله له ملك السموات والأرض	٤١٧
١١٧	لقد تاب الله على النبى والمهاجرين	٤١٨
١١٨	وعلى الثلاثة الذين خلفوا	٤٢١

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١١٩	يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا	٤٢٣
١٢٠	ما كان لأهل المدينة ومن حولهم	٤٢٥
١٢١	ولا ينفقون نفقة صغيرة	٤٢٦
١٢٢	وما كان المؤمنون لينفروا كافة	٤٢٦
١٢٣	يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين	٤٢٨
١٢٤	وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول	٤٣٠
١٢٥	وأما الذين فى قلوبهم مرض	٤٣٠
١٢٦	أولا يرون أنهم يفتنون فى	٤٣١
١٢٧	وإذا ما أنزلت سورة نظر	٤٣١
١٢٨	لقد جاءكم رسول من أنفسكم	٤٣٢
١٢٩	فإن تولوا فقل حسبى الله	٤٣٣

﴿ تم بحمد الله ﴾

رقم الإيداع	١٠٢٣٤ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى	977-02-3917-8 ISBN

١/٩٢/١٩٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)